

# محاكمة فكر طه حسين

مراجعة كاملة لمؤلفات وكتابات طه حسين خلال  
خمسين عاماً في مواجهة ردود أكثر من أربعين عالماً

د. الأحمدي





**محاكمة  
فكر طه حسين**

---



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي مَوَاحِدَ الْخَيْدِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ  
اللَّهِ يَغْيِرُ عَلَيْهِ وَيَخْذَمُ هُزُؤًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ  
وَإِذَا نُتِلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَانَ لَرْيَاسَمَعَهَا كَآنٌ  
فِي أَذُنِهِ وَقَرَأَ  
(سورة لقمان آية ٦ ، ٧)



مدخل إلى البحث

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم رسول الله  
ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين ، ونستفتح بالذي هو خير :  
أعتقد أنه ليس من الممكن أن نفهم الفكر الإسلامى المعاصر والتحديات  
التي تواجهه وما يمر بالمجتمع الإسلامى من أحداث وأخطار وتحديات دون  
أن نفهم هذه المرحلة الأساسية من الغزو الثقافى والتغريبى ، والدور الذى قام  
به هذا الجيل الذى احتضنته المعاهد الغربية التى أنشئت خاصة فى أوروبا  
لإعداد دعاة من العرب يتولون عنها احتواء الشباب المسلم والعربى المثقف  
وإخراجه من دينه وقيمه ومفاهيمه وإدخاله فى هذه البوتقة الغربية الخطيرة  
التي يسمونها الفكر العالمى ، الفكر الحر ، الحضارة العالمية ، وقد كان الدكتور  
طه حسين فى مقدمة هذا الفريق الذى التفتت هذه القوى فى هذه المرحلة  
المبكرة قبل الحرب العالمية الأولى وفى الوقت الذى كان النفوذ الثقافى الفرنسى  
الذى تشكل منذ الحملة الفرنسية وإبان حكم محمد على وأولاده ما زال قائماً  
والذى تولته الجامعة المصرية القديمة بأساتذتها المستشرقين الذين كانوا حريصين  
على إغراء أمثال هؤلاء الذين عجزوا عن إتمام تعليمهم فى الأزهر فكانوا  
— بالاتفاق مع صحافة حزب الأمة وجريدة ( الجريدة ) وعلى رأسها لطفى  
السيد — حرباً على الأزهر والأزهريين فى منطلق جامع بين التعليم وعلى رأسه  
سعد زغلول والصحافة وفى قيادتها لطفى السيد لفتح باب التغريب واسعاً .  
وكان طه حسين من أعظم ثمار هذه المرحلة الخطيرة فكان أن عاد من أوروبا  
عام ١٩١٩ فأمضى حتى عام ١٩٧٢ أكثر من خمسين عاماً وهو يعمل فى الحقول  
الثلاثة ( الصحافة — التعليم — الثقافة ) فاتحاً تلك الأبواب الواسعة فى مجال  
الشعر والنثر والقصة والترجمة ومناهج المدارس وعلوم الجامعات ، والاتصال

بالأحزاب السياسية ، وكتابة السيرة ، وتاريخ الإسلام وتراجم الأعلام .  
وطرح عشرات القضايا والشبهات والشكوك أمام دراسات الإسلام وتاريخه .  
والقرآن وقضاياها واللغة العربية ومهمتها ، والأدب العربي وعلاقته بالأدب  
الأجنبي من منطلق خطير هو منطق التبعية الواضحة للفكر اليوناني في القديم  
والفكر الغربي في الحديث والمعاصر .

ومن خلال مدارس العلوم الاجتماعية التي يقودها اليهود في فرنسا ،  
إلى مدارس الاشتراكية والديمقراطية والفن للفن والوجودية والتثيل والرقص  
والحوار بين الإسلام والمسيحية .

هذه المرحلة التي سيطر فيها طه حسين على الأدب العربي والفكر والثقافة  
في مصر خلال أكثر من خمسين عاماً ، لا نستطيع أن ندرس واقعنا المعاصر  
اليوم ، في مجال الفكر والسياسة والاجتماع والتربية دون أن نتعرف إلى أبعاد  
الدور الذي قام به من خلال كتاباته وآثاره ومؤلفاته .

ونحن نتصور الدكتور طه حسين واقفاً أمام قفص الاتهام يواجه قوائم  
الاتهام تهمة بعد تهمة ، مستنداً على أساوبه الموسيقي الخادع ، وعلى منهجه  
الساخر الملى\* بالشك والارتياح ، وعلى طريقته القائمة على (التورية) و(المراوغة)  
وقد اعتمد في كل ما قدمه على سرقات مفضوحة من كتب المستشرقين وعلى  
دعوات كاذبة من كتب المبشرين ، وعلى آراء فجئة من كتب الشعوبية  
في سبيل إغراء ذلك الشباب المسلم الذي وقع فريسته سواء في الجامعة أم في  
الصحافة فإذا بالسهام تنهال عليه تفضح خطته وتكشف زيفه وتدحض حجته .

ها هي عشرات الاتهامات وهؤلاء هم القائمون عليها ، قضية بعد قضية  
وموقفاً بعد موقف وكتاباً بعد كتاب وقد تبدى للناس من وراء القضبان وقد  
غابت عنه الفطنة لأن الفطنة مع الحق وغاب عنه الذكاء لأن الذكاء مع الصدق  
وغاب عنه الإيمان ، وقد بدا وقد التبس به شيطان مريد يضل به الناس  
إلى حين .

وقد كان كثير من هؤلاء الذين يتهمونه اليوم تلاميذ له وسامعين ومذعنين  
في أول الأمر ، ولكن الباطل قصير الأمد ، ضيق الطريق ، مغلق الوجهة ،  
وكان لا بد أن يتكشف الأمر عن الحق الذي لا يحصى عنه .

وما أردنا بهذا العمل إلا ما طلبه منا ربنا تبارك وتعالى ودعانا إليه ديننا  
الإسلامي ووجهنا إليه نبينا محمد صلى الله عليه وسلم .

« لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم في خالفهم حتى  
تقوم الساعة » وإن الأمر الجلل والأشد خطورة هو أمر هذه الأجيال التي  
ما زالت تقرأ كتب طه حسين وأمر الأمانة التي تحملها جميعاً أمام هذه الأجيال  
لأن نقول لها كلمة الحق، ولطالما سأل الباحثون في قضية من القضايا التي أثارها  
طه حسين : هل كتب في الرد عليها كاتب ، وكان أغلب ذلك منشوراً في بطون  
الصحف والمجلات إلا قليلاً ممن جمعه أصحابه أمثال : فريد وجدي ولطفي جمعة  
والرافعي ومحمد عرفة والغمراوي ، ولكن جاء من بعد ذلك جيل جديد فيه  
رصانة وقوة وإيمان فحمل اللواء وناضل وكانت مجلة الفتح ميداناً واسماً لهذه  
المعارك ، وكانت أقلام محب الدين الخطيب بعد رشيد رضا في المنار - ومحمد  
محمد حسين وشاكر الغمراوي سيوفاً باثرة من سيوف الحق تدحر الباطل  
وفي هذه المرحلة ظهرت أسماء عديدة .

\* \* \*

ثم جاءت هذه المرحلة التي بدأت بظهور كتابنا ( طه حسين : حياته  
وفكره في ميدان الإسلام ) سنة ١٩٧٥ وهذه فترة لن نورخها اليوم ولكننا  
نشير إشارات يسيرة إلى ما ظهر فيها :

- ١ - ظهر كتاب ( طه حسين مفكراً ) للدكتور :
  - ٢ - ظهر كتاب ( المتنبي ) للأستاذ محمود محمد شاكر مجدداً وبه مقدمة وافية ؛
  - ٣ - ظهر كتاب ( مدخل إلى الأدب والتاريخ العربي ) للدكتور محمد  
نجيب البهيني .
  - ٤ - ظهر كتابات طه حسين في رأى المفكرين والأدباء للأستاذ محمد  
مهدى الأستنبولي .
- كما كتبت عشرات المقالات والفصول التي كشفت جوانب حققة من هذه  
الشخصية المثيرة .
- ولكننا نعرف أنه لا يزال علينا مسئولية كبرى في تقديم طه حسين إلى محكمة

الرأى العام لتواجهه في مختلف قضاياها ومؤلقاته قضية قضية وكتاباً وكتاباً تكشف هذه السموم وتجمع هذه الردود المتعددة وتدل على مصادرها حتى يكون فكر طه حسين والرد عليه متكاملًا ، في قدر واضح من العرض والإجابة ، وعلى من يطلب التفاصيل الواسعة فعليه بأن يعود إلى المصادر التي نشر فيها وبذلك يتحقق الهدف وهو تقديم القضايا الهامة التي حرد منها طه حسين على حقائق الإسلام والتاريخ والأدب العربي وحقيقة الأمر فيها والله الحمد والمنة على فضله في حصر هذا العمل وإنجازه :

• • •

( ٢ )

#### عمل طه حسين في ثلاث مجالات واسعة

عمل طه حسين في ثلاثة مجالات واسعة :

١ - الأدب العربي واللغة .

٢ - تاريخ الإسلام والسيرة .

٣ - الفكر الإسلامي .

وفي المجالات الثلاثة أثار سموم الاستشراق وأفسد مفاهيم الأصالة وأحيا روح الشك الفلسفي ، وهدم جميع القيم الأخلاقية والاجتماعية التي أقامها الفكر الإسلامي .

وقد أطلق لنفسه سبيل الاندفاع لتشويه وجه الفكر الإسلامي بإثارة الشبهات وإذاعة أدب المحان والفساق والجنس ، وتزييف اللغة الفصحى ، وإعلاء شأن الفكر اليوناني القديم والغربي الحديث في جوانبه المادية والوثنية والإباحية وترجم القصص الفرنسي الداعر .

وهو في كل هذا كان عميلاً للتغريب خاضعاً للغرب تابعاً للنظريات الغربية وولياً من أولياء الاستشراق ، كان أول من نقل سموم مرجليوث في الشعر الجاهلي وجولدسيهر في العقيدة والشريعة وبلاشير في تدمير المتنبي ، ودور كايم في تقزيم ابن خلدون .



وقد كان منهجه في عمله كله ، أن لا منهج : الفوضى والاستعلاء وإثارة الشكوك نحو الحقائق الأصلية والسخرية من كل القيم الأساسية وما ظنك برجل يدعى : أن الإسلام قد بقى على هامش حياة المسلمين . وما ظنك برجل يدعى : أن الدين خرج من الأرض كما خرجت الجماعة ولم ينزل من السماء ، .

وما ظنك برجل يدعو طلبته إلى أن ينقدوا « القرآن » في جرأة بوصفه كتاباً أدبياً ، ويبينون ما يأخذونه عليه .

وما رأيك في رجل أعاد الأساطير إلى السيرة النبوية بعد أن نقاها منها علماء المسلمين .

وما رأيك في رجل أولع بتعقب الزناة والفساق والفجرة كما وصفه الأستاذ المازني في كتاب حديث الأربعاء .

وما رأيك في رجل يقول : إن العصر الثاني للهجرة عصر شك وفسوق اعتماداً على وجود أمثال : ( أبو نواس و بشار ) فيه مع أن فيه عشرات من أعلام الفقه والعقيدة والعلم الإسلامى ، .

وما رأيك في رجل يدعونا أن نأخذ الحضارة الغربية خيرها وشرها وحلوها ومرها وما يحمد منها وما يعاب .

وما رأيك في رجل ينكر وجود ( عبد الله بن سبأ ) اليهودى في الفتنة التي انتهت بقتل سيدنا عثمان إرضاء للصهيونية .

وما رأيك في رجل ينكر وجود إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بالرغم من أن القرآن قد ذكرهما .

وما رأيك في رجل يعتبر الفتح الإسلامى لمصر استعماراً كاستعمار الرومان والفرس والإنجليز .

• • •

### مجموعة حقائق تقدمها سيرة طه حسين تكشف وجهته

أولاً : ازدواجية الشيء وضده في أعماقه :

يقول : إن الإنسان يستطيع أن يكون مؤمناً وكافراً في وقت واحد ، مؤمناً بضميره كافراً بعقله ، فإن الضمير يسكن إلى الشيء ويطمئن إليه فيؤمن به . أما العقل فينقد ويبدل ويفكر أو يعيد النظر من جديد فيهدم ويبنى .

هذا المفهوم أورده الدكتور طه حسين نقلاً عن كتاب اللاهوت الذين قالت لهم المسيحية : ( آمن ثم ابحث ) وليس من مفهوم الإسلام في شيء .

وقد طبق هذا المفهوم حين سئل عن قصة إبراهيم وإسماعيل وورودهما في القرآن الكريم فقالت : إنه كسمل لا يرتاب في وجودهما ولكنه كعالم لا يسلم بوجودهما .

وفي تصريح آخر قال أن هناك أربع مسائل يؤمن بها بصفته مسلماً ولا يقرها بصفته عالماً : وجود إبراهيم وإسماعيل وهجرتهما ، والقراءات السبع للقرآن ، إن للإسلام سابقة وجود في البلاد العربية ، نسب النبي إلى أشرف قريش ( في إجاباته في التحقيق مع النائب العام ) .

ثانياً : القدرة على الجمع بين ظاهر معلن وباطن ومخفف ، قال زكي مبارك : إن طه حسين اعترف أمامي في جلسة خاصة بأنه يعتقد أن أحمد شوقي هو أعظم شعراء العربية بعد المتنبي ولكنه في جميع كتاباته لا يقر هذا الرأي بل يعلن عكسه تماماً .

قال الدكتور محمد غلاب : ألا ترى أنه من الظلم حقاً أن تكون للنقاد عندنا في مصر عقيدتان مختلفتان وإيمانان متباينان ، واحد للكتابة في الصحف والثاني : للجلسات الخاصة ، وأن بواعث النقد عندنا ليست إلا أغراضاً شخصية ومآرب نفسية .

هذا التوزيع يجعل من طه حسين إنساناً مزدوج الشخصية مريضاً بما يشبه الانفصام يتعايش في شخصه عالمان منفصلان انفصال الزيت عن الماء .

ثالثاً : ظاهرة التزوير والمراوغة بين قول الشيء ووضده :

وهي ظاهرة تجددها عند كل المشككين ودعاة الإلحاد أمثال : ابن عربي والمعري وطه حسين ، وهي محاولة قول أشياء معينة واضحة قديمة لتكون ردةً للدفاع عن النفس بإزاء الآراء المسمومة والأفكار المنحرفة ، ومن هذه الكلمات المصنوعة بعناية يجد الكاتب من يدافع عنه أو به يخدع الذين يريدون أن يكشفوا زيفه فبالرغم من كل ما حمل لواءه ابن عربي من فساد في نظرية وحدة الوجود والحلول والاتحاد أو المعري في شكوكه وشبهاته وترديه في مفاهيم علم الأصنام اليوناني وطه حسين في دعاواه الباطلة فإنك تجد عند كل منهم عبارات رائعة تحاول أن تساير مفهوم الإيمان والأصالة .

• • •

( ٤ )

لقد حاولنا في هذا الكتاب تحقيق تلك الغاية التي تفوق كل الغايات وهي ما تنادي بنا به ( تبعة الأجيال ) ومسئولية أمتنا إزاء ذلك الركام الضخم الذي ما زال بين أيدي الناس مطبوعاً ومنشوراً ، كان علينا أن نواجه المسئولية إزاء ما يحمله فكر طه حسين إزاء الأجيال المتعاقبة بعد أن مضى صاحبه وفكره ما زال مطروحاً بين أيدي الشباب بكل ما فيه من تناقض وسموم وشكوك وشبهات ، لقد كان على الدكتور طه حسين أن يقف من هذا التراث موقفاً يسأل فيه من محكمة الرأي العام الإسلامي عن كل ما قدم وأن يعرف مسئولية الكلمة وأثر الكلمة في الأجيال ، كان عليه أن يعلن آراءه التي أسر إلى بعض الناس أنه تجاوزها وهي ما تزال باقية في طبعتها تثير الشكوك والريب في صدور الشباب المسلم فكان علينا أن نوضح ذلك ونكشفه .

• • •

## قرارات الاتهام المقدمة أمام محكمة الرأي العام الإسلامى

- أولاً : القول ببشرية القرآن وإنكار القراءات .
- ثانياً : التناقض بين نصوص الكتب الدينية وما وصل إليه العلم وقوله :  
إن الدين لم ينزل من السماء وإنما خرج من الأرض كما خرجت الجماعة  
نفسها :
- ثالثاً : إثارة الشبهات حول ما أسماه القرآن المكي والقرآن المدني وهى  
نظرية أعلنها اليهودى : جولد زيهير .
- رابعاً : تأييد القائلين بتحريق العرب الفاتحين لمكتبة الإسكندرية .
- خامساً : انتقاص صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ووصفهم بأنهم  
من الساسة المحترفين .
- سادساً : هدم الفصحى من ناحية الإملاء ومن ناحية النحو ومن ناحية  
هدم البلاغة العربية .
- سابعاً : الحملة على الإسلام من خلال الأزهر وإهانتة والدعوة إلى إلغائه .
- ثامناً : الترويج للفكر الوثنى اليونانى والادعاء كذباً بأن المسلمين قبلوه  
وشكلوا عليه فكرهم .
- تاسعاً : إشاعة الأسطورة فى سيرة الرسول بعد أن نقاها المفكرون  
المسلمون منها والتزيد فى هذه الإسرائيليات فى كتابه ( على هامش السيرة ) .
- عاشراً : تدمير بطولات العرب والإسلام وإعلاء بطولات اليونان والرومان .
- حادى عشر : اعتماد المصادر المشبوهة : كالأغاني ورسائل الإخوان الصفا .
- ثانى عشر : إقرار مفاهيم كنسية حول الإسلام ووصفه بأنه دين  
التراتبى الوجدانية .
- ثالث عشر : إحياء التراث الزائف : تراث الباطنية والشك الفلسفى .
- رابع عشر : معارضة مادة الإسلام دين الدولة فى الدستور المصرى .

خامس عشر: الدعوة إلى الأدب المكشوف والإباحي بإحياء شعراء الغلظة و ترجمة القصص المكشوف .

سادس عشر : الدعوة إلى الفرعونية والتركيز على إقليمية مصر .

سابع عشر : الدعوة إلى حضارة البحر الأبيض المتوسط لحساب بعض القوى الأجنبية والادعاء بأن المصريين غريبو العقل والثقافة .

ثامن عشر : دعوى فصل الأدب عن الفكر الإسلامى واللغة عن الفكر الإسلامى والأدب العربى .

تاسع عشر : الدعوة إلى فصل الدين عن المجتمع والتربية .

عشرون : انتقاص الحكومة الإسلامية الأولى وخلافة الراشدين .

واحد وعشرون : اتهام القرن الثانى الهجرى بأنه عصر شك ومجون فى كتاب حديث الأربعاء .

ثانى وعشرون : كسر قاعدة ترابط الأدب العربى والفكر الإسلامى كمقدمة لدفع الأدب العربى إلى ساحة الإباحيات والشك وغيرها باسم تحريره من التأثير الدينى .

ثالث وعشرون : الدعوة إلى اقتباس الحضارة الغربية ( حلوها ومرها وما يحمد منها وما يعاب ) فى كتابه ( مستقبل الثقافة ) .

رابع وعشرون : الولاء للفكر الفرنسى ثم الفكر الأمريكى .

خامس وعشرون : محاولة إعطاء اليهود فى الأدب العربى مكانة وهمية وغير حقيقية .

سادس وعشرون : إنكار شخصية عبد الله بن سبأ اليهودى وتبرئته مما أورده الطبرى ومؤرخو الإسلام من دور ضخم فى فتنه مقتل عثمان ( الفتنة الكبرى ) .

سابع وعشرون : إذاعة مذهب الشك الفلسفى والادعاء على ديكارت .

ثامن وعشرون : إفساد مناهج التربية والتعليم فى وزارة التعليم والجامعات

تاسع وعشرون : الادعاء بأن الشاعر العربى المتنبى ( لقيط ) هادماً بطورلته ومكانته .

ثلاثون : اتهامه الخطير لابن خلدون بالسذاجة والقصور وفساد المنهج وهو ما نقله عن أستاذه اليهودى ( دوركايم ) .

إحدى وثلاثون : إنكار وجود سيدنا إبراهيم وسيدنا إسماعيل وإنكار رحلتهم إلى الجزيرة العربية وإعادة بناء الكعبة على نفس مفاهيم الصهيونية .  
هذه أبرز الشبهات التي أوردتها كتب الدكتور طه حسين وكتابات وقد واجهتها أقلام الكتاب في عصره مواجهة حاسمة وكشفت زيف هذه الادعاءات .  
ولم يرجع الدكتور طه حسين عن رأى واحد منها ولا تزال هذه السموم باقية ومؤلفاته وكتبه متداولة ، ولقد هزم هذا الفكر الاستشراقى التبشيري هزيمة منكروه وطه حسين ما يزال على قيد الحياة ، لقد ووجه طه حسين بالرفض والمخاصمة والانتقاض في فكره ، وحرقت كتبه في بعض العواصم العربية وأرسل إليه كثير من المفكرين بما يكشف عن زيفه وجاءت مؤتمرات تكريم ابن خلدون وكتابات تكريم المتنبي لتكشف فساد رأيه فيهما وزيفه وضلاله .

\* \* \*

## الباب الأول

### الأدب العربي واللغة العربية

- الفصل الأول : منهج الدراسة الأدبية عند طه حسين .  
الفصل الثاني : الأدب العربي : تأريخه ونقده .  
الفصل الثالث : أدب المحان والجنس والإباحة (حديث الأربعاء) .  
الفصل الرابع : أخلاقية الأدب .  
الفصل الخامس : الترجمة .  
الفصل السادس : نقد الشعر .  
الفصل السابع : القصة .  
الفصل الثامن : اللغة العربية .  
الفصل التاسع : النحو .  
الفصل العاشر : الأثر الإغريقي اليوناني في الأدب العربي .  
الفصل الحادي عشر : كتابا (الشعر الجاهلي) و (الأدب الجاهلي) .

• • •





# الفصل الأول

## منهج الدراسة الأدبية عند طه حسين

يمكن تشكيل منهج الدراسة الأدبية عند طه حسين في جملة عناصر أساسية أهمها :

**أولاً :** اعتماد المنهج التجريبي على الإنسانيات ودراسة الإنسان كما يدرس النبات وترتيب الشخصيات الإنسانية فيما بينها على نحو ما يصنع علماء النبات في ترتيب الفصائل النباتية المختلفة. (على النحو الذي سلكه الناقد الفرنسي سانت بيوف)؛

**ثانياً :** لا اعتبار للفرد أساساً ؛ وإنما الفرد أثر من آثار الأمة التي نشأ فيها أو من آثار الجنس الذي نشأ فيه وأن أخلاقه وعاداته وملكانته هي نتيجة للمؤثرين الذين تخضع لها : المكان وما يتصل به من حالة الإقليم والجغرافيا ، الزمان وما يستتبع من الأحداث المختلفة سياسية أو اقتصادية ، فالكاتب أو الشاعر أثر من آثار الجنس أو البيئة والزمان وعن المؤثرات التي أحدثتها هذه العوامل يصدر الكاتب فيما كتب أو نظم (مفهوم الناقد الفرنسي تين) .

**ثالثاً :** إخضاع فنون الأدب لنظريات النشوء والارتقاء والتطور خضوع الكائن الحي ، (نظرية الناقد برونتير) .

يقول الدكتور سائى الدروبي : إن منهج الدكتور طه حسين في النقد الأدبي هو المنهج الاجتماعي : منهج مدرسة الاجتماع الفرنسية وأعلامها من أمثال : دور كيم وليفى بريل وغيرهما ودو كيم وليفى بريل لا يغنون بالأدب إلا كرامة تلمع .

وهذه الأسس التي اعتمدها طه حسين منهجاً له مدحوضه فاسدة لعدة أمور :

**الأول :** إخضاع الإنسان والعلوم الإنسانية للعلم الطبيعي .

**الثاني :** تجاهل العناصر التي يتكون منها الكيان الإنساني وقصرها على الجوانب المادية وحدها وحجب عناصر العواطف والمعنويات والروحانيات

وأثرها البالغ على تصرفات الإنسان .

الثالث : إنكار إرادة الإنسان ومسئوليته الفردية وإخضاعه لجبرية جماعية لا تعفيه من المسؤولية والالتزام الأخلاقي .

الرابع : إدخال الآداب والعلوم الإنسانية في دائرة الفلسفة المادية الخاضعة لمفهوم الطبيعة التي لا تعترف بالخالق ولا تخضع له .

الخامس : فصل الأدب عن الفكر ومنحه حرية مرفوعة للدفاع نحو تصوير الغايات الشاذة والجنسية والإباحية وإنكار أخلاقيات الأدب والحياة والارتباط بالمفهوم العام الأصيل للجامع .

السادس : فتح الطريق إلى الأهواء التي يخضع لها الكاتب والناقد والتي من شأنها أن تصدر أحكاماً جائرة وفاسدة .

ولقد رأى طه حسين أن مذهبه هذا الذي نقله من الأدب الفرنسي مع استمرار الزمن لم يعد صالحاً لعدة أسباب :

**أولها :** تغير النظريات العلمية مع الزمن .

**ثانياً :** إن التطبيق جرى في بيئة مختلفة تمام الاختلاف مع أدب له ذاتيته الخاصة التي شكلتها عقيدته وقيمه التي تختلف عن الأدب الفرنسي .

ولذلك فإنه كان دائماً يحاول الإضافة إليه والحذف منه في سبيل المواءمة مع النظريات المختلفة التي يطرحها العلم والفلسفة والتي يتكشف تغايرها واضطرابها لأنها ليست حقائق علمية بقدر ما هي فرضيات قابلة للصحة والخطأ .

هذا فضلاً عن الاختلاف العميق الواسع بين مفاهيم الأدب العربي الذي صنعه الإسلام الذي يتميز :

- ١ - بالربط بين القيم ويجعل الأدب جزء من الفكر الإسلامي .
- ٢ - يتميز بالتكافل الجامع بين قيم الروح والمادة والنفس والجسم والدنيا والآخرة .

وطه حسين في كل ما كتب لم يستطع أن يتخلص من الهوى ولم يستطع أن يقدم نقداً علمياً خالصاً ، ومواقفه من المعري والمنتبي في القديم وأحمد أمين ومصطفى الرافعي في الحديث تؤكّد ذلك .

والأخطر من هذا كله أن طه حسين لم يكن تخصصه في الأدب وإنما هو

قد درس التاريخ الروماني في باريس، ولكنه حين كلف بتدريس الأدب العربي في الجامعة تكشف أمره عن عجز كبير، لم يستره إلا السطو على مؤلفات المستشرقين ولعل أقرب الناس إليه فهماً هو تلميذه زكي مبارك الذي صحبه سنوات طويلة حين يقول:

إنى أراه قليل الصلاحية للأستاذية في الأدب العربي لأن اطلاعه على الأدب ضئيل جداً ويعرف أنى أشهد له بالبراعة في تأليف الحكايات، إن من العجيب في مصر بلد الأعاجيب أن يكون طه حسين أستاذ الأدب العربي في الجامعة المصرية وهو لم يقرأ غير فصول من كتاب الأغاني وفصول من سيرة ابن هشام. إن كلية الآداب ستؤدى حسابها أمام التاريخ يوم يقول الناس إن أستاذية الأدب العربي كانت هينة إلى هذا الحد، وطه حسين نفسه يشهد بصدق ما أقول. إن الأستاذية في الأدب العربي عبء ثقیل لا ينهض به إلا الأقليون، وهي تفرض الاطلاع الشامل على خبر ما أبدع العرب في خمسة عشر قرناً وهي تفرض البصر الثاقب بأصول الأساليب وهي تفرض الفناء المطلق في التعرف إلى فحول الكتاب والخطباء، وطه حسين ليس من كل أولئك في قليل أو كثير.

هذا رأى زكي مبارك في طه حسين وهو رأى قائم على معرفة واسعة عميقة مهما صحب إعلان هذا الرأى من تفجر الخلاف بينهما - يقول زكي مبارك في بحث آخر (١٧ مارس سنة ١٩٣٣ البلاغ -):

لقد صحبت هذا الباحث عشر سنين كانت خير ما مر بي من طيبات الحياة وعشنا معاً أياماً فيها الحلو والمر والشهد والصاب وجمعت بيننا ذكريات لا يجحدها إلا لثيم، لقد كتبت للبلاغ كلمة مسمومة عن الأغلاط الثلاثة التي وقعت في محاضراته عن شعر البحترى، وأرأى مع الأسف الموجه عائد إليه اليوم، ولقد لاحظنا أن الدكتور لم يدرس ديوان البحترى حق الدرس، هذا الكسل خطر جداً على مركز رجل كالدكتور طه حسين، فإن ديوان البحترى يقع في نحو ثمانمائة صفحة ولم يخرج القصائد التي عرض لنقدتها عن الصفحات الأولى من ذلك الديوان، هذه الطريقة السطحية في وزن أقدار الشعراء لا تليق برجل كان رئيس قسم اللغة العربية في كلية الآداب، ولو

تصفح الدكتور ديوان البحرى كله لكان له رأى فى شعره غير رأيه الذى انتهى إليه من الوقوف عند المعانى والألفاظ .

وعلى الدكتور أنه لم يقصد من تلك المحاضرات إلى الاستقصاء وإنما هى ساعة يتحدث فيها عن شاعر فىلهى سامعيه بحولات سريعة . ولقد ظلم الدكتور شعر البحرى ظالماً شديداً ومصدر هذا الظلم أنه وقف فى نقده عند الطريقة العتيقة فى النقد فأخذ يمتحن شعره بيتاً بيتاً .

وكنا نحب أن يذهب فى نقد الشعر مذهب تلميذه صاحب نظرية الصور الشعرية فإن ذلك المذهب أصلح المذاهب لوزن قصائد الشعراء وهو مذهب يعتمد على نقد الغرض لا نقد المعنى ، وأهم الجوانب فى شعر البحرى هو الوصف ؛ وقد أغفل الدكتور هذا الجانب إغفالاً تاماً ولم يشر إليه بكلمة واحدة ، ولا أدرى كيف يتحدث الباحث عن شعر البحرى ويغفل أهم ميزة من ميزات ذلك الشاعر : فليت الدكتور طه حسين يعود إلى البحرى فينصفه ولا يرب أن هذه الشهادة تكشف بوضوح عن أن هوى طه حسين هو المتحكم وليس المذهب النقدي .

وقد أوغل طه حسين فى هذا الهوى أكثر وأكثر ، ذلك أنه ما إن كتب زكى مبارك يقول : « الدكتور طه حسين يغلط خمس مرات فقط فى محاضرة واحدة ، حتى يعتمد طه حسين إلى هذه الأغلاط ، فيشكلها فى كتابه الذى نشرت فيه المحاضرة ، ويقول زكى مبارك له : كأنك لا تعبأ بأى نقد يوجه إليك فما الذى كان يمنع من تدارك هذه الأغلاط .

ويروى حادثاً آخر يؤكد هذه الوجهة الخاطئة :

حدث فى صيف عام ١٩٢٩ أن أنكرت على أن اتخذ شواهد لتطور النثر الفنى من رسائل عبد الحميد بن يحيى وقلت لى : إن عبد الحميد بن يحيى شخصية خرافية كشخصية امرئ القيس ، وكانت حججك أن عبد الحميد ابن يحيى لم يرد اسمه فى مؤلفات الجاحظ فرجعت إليك بعد أيام وأخبرت أن الجاحظ تكلم عن عبد الحميد بن يحيى مرات كثيرة فلم تجب بحرف واحد ثم ألقيت - وأنا فى باريس - محاضرة قلت فيها : (إن عبد الحميد بن

يحي أخذ أشياء من أدب اليونان وفانك أن ينص على اسم الرجل الذي أفتعلك بأنه لم يكن شخصية خرافية ) .

وهذا معمر آخر في افتراق طه حسين عن المنهج .

وبمضى زكى مبارك في كشف هذا الجانب الخطير في شخصية طه حسين :

قال :

الرجل يعيش في أبحاثه عيش الحيران ينقض اليوم ما أبرم بالأمس ، لأنه لا يصدر في أبحاثه إلا عن المصادفات ولم يتفق له أن يشغل نفسه شغلا جدياً بعمل مفيد ، وهو يحتفظ كل ما يراه في طريقه من الآراء ، ولا سببا الآراء التي تصله من بلد بعيد ويستطيع أن يجزم بأنه لا يتشيع لأى فكرة إلا وهو فيها تبع لشخصية يتوهم أنها مستورة عن الناس ، ولكنه في هذا سئ الحظ في مصر رجل يعرفه كما يعرف نفسه ، وهذا الرجل صاحب المستشرقين أكبر مما صاحب وهو يعرف من أقرانهم أكثر مما يعرف فليس بغريب أن نرى الدكتور طه مطوقاً بتهمة السرقة الأدبية في أغلب ما ينشر من آراء .

منذ سنتين حاول أن يثبت أن العرب لم يكن لهم نثر فني وأنهم لم يجدوا الإنشاء إلا حين اتصلوا بالفرس وأن أول كاتب في اللغة العربية هو ابن المقفع الفارسي الأصل ، نشر هذا الكلام في مجلة المقتطف وسرقه من المسيو مرسية فكشفت هذه السرقة في ترفق فغضب الرجل وأسرهما في نفسه ، والحق أن الدكتور طه كان يأمن عواقب هذه السرقة الأدبية لأن كلام مسيو مرسية كان قد نشر من زمان في مجلة مجهولة ينذر أن يهتم بها المصريون ، وهي المحلة الإفريقية التي تصدر بالفرنسية في مدينة الجزائر ولكن الله هداني إلى تلك المحلة فكشفت بها سرقة ذلك الأستاذ الأحمين .

ماذا حدث بعد ذلك ؟ أخذ الدكتور يتراجع ويتقهقر في انتظام بديع وقد تنبه الدكتور طه إلى أن الشعبية كان لهم دخل في تقديم الفرس على العرب ، ولو أنه شاء أن يفهم لعرف أن الشعبية لا يزالون أحياء وأن لهم بقية تعيش في القرن العشرين ، ومن بقايا الشعبية في القرن العشرين مسيو مرسية الذي يقول : بأن العرب لم يكونوا يعرفون النثر في الجاهلية ولا في صدر الإسلام وأن التفكير المنظم لم يجيئهم إلا عن طريق الفرس وأن

أول كاتب في اللغة العربية هو ابن المقفع الفارسي الأصل ، وأنت يا دكتور طه شعوبى مقلد ... ) .

نقول : وهكذا نجد أن الدكتور طه لا يثبت أساساً على رأى ، فهو في مريض معين لإرضاء قوم معينين يثبت أن الفرس هم أصحاب الفضل على العرب ، وفي موضع ثان يدعى أن اليونان هم أصحاب الفضل ، المهم أن العرب عنده مدانون ، مقهورون . ولو شاء أن يبتنى طريق الحق لعرف أولية العرب في هذه الفنون وفضلهم الذى استمدوه أساساً من القرآن الكريم .

ويقول زكى مبارك : ( إن ما ذهب إليه مرسية وتبعه طه حسين من جهل العرب للنثر الفنى حتى ظهر عبد الحميد وابن المقفع ، هو خطأ ، فليس صحيحاً أن العرب لم يكونوا يعرفون من النثر غير الخطب وأصباح الكهان والأمثال . ولقد كان العرب كلفين بروعة التعبير ولتعر فنههم فى لحن القول ) ولهذا كانت معجزة النبى صلى الله عليه وسلم من جنس ما تمزوا به وهو بلاغة المنطق وروعة التعبير وساحر البيان ، نعم كان القرآن الكريم هو المعجزة العظمى ، هو البيان هو الذى شد العرب فتظامنوا لبلاغته ، فالقرآن هو ذروة البيان العربى وقد نزل بلسان عربى مبين كما يصفه الله تعالى ) .

ولأن طه حسين لم يتشكل فى ضوء بلاغة القرآن الكريم ولم يعرف أبعادها وآثارها فى الأدب العربى والفكر الإسلامى أساساً ، وإنما عرف منهج الغرب فى نقد الأدب العربى والفكر الإسلامى ، وهو المنهج القائم على أساس الإثبات بكل الوسائل إنهما متأثران بالفكر اليونانى والفارسى ، فإنه لم يستطع أن يعرف كيف يواجه التراث الإسلامى مواجهة حقيقية أصيلة ، فقد خدع بنظرية المستشرقين التى يقول : إن الفكر الإسلامى تأثر بالأدب اليونانى القديم فلا بأس فى أن يتأثر الفكر الإسلامى فى الحديث بالفكر الغربى وهى مسألة خاطئة الأساس لأن المسلمين لم يقبلوا الفكر اليونانى والفارسى وكل ما يتصل بالباطنية والمجوسية والفلسفة الغنوصية والتصوف الفلسفى ، كل هذا رفضه الفكر الإسلامى وقاومه وحلله ودحضه وكشف زيفه .

ولقد جاءت الدراسات فى مواجهة التحدى الذى قام به طه حسين من غير تعرف على أبعاد الدعوى التى حملها بغير دليل ، لتكشف هذا الزيف

وفي مقدمتها دراسة الشيخ مصطفى عبد الرازق ومحمود الحضرى وعلى أوسع نطاق الدكتور على سائى النشار .

وللدكتور طه مقولة لم تلق قبولا وتلك هى مقولة إن الشعر ظهر قبل النثر ، وكيف يقال هذا والنثر بحجة الشعر صناعة ، وكذلك قوله : إن أول عهد العرب بالبيان هو زمن الجاحظ ، وهى مقولة من ينكر على العرب بلاغتهم وبياناتهم .

لقد انطلق الدكتور طه حسين فى مصر قبل أن يذهب إلى الغرب من نظرية الجبرية التاريخية فى رسالة عن أبى العلاء ، وبما سمعه من نلينو ، فلماذا ذهب إلى الغرب درس نظريات سانت نيف وأبوليت سكين وحول يمتز وهم قادة النقد فى المدرسة الفرنسية وإلى جوارهم مدرسة العلوم الاجتماعية وقائدها دور كام وزملاؤه ، ولا شك أن عرض نلينو لتاريخ الآداب العربية فيه كثير من الغمط والظلم وفيه تعصب وحقد على الرسول صلى الله عليه وسلم والإسلام والقرآن فقد أغفل شعراء المدينة الذين مدحوا الرسول صلى الله عليه وسلم مثل كعب بن مالك وعبد الله بن رواحة وكذلك شعر المهاجرين والنساء الشواعر المسلمات وأهمل كثرة الشعراء فى مكة والطائف .

وكل هذا يوحى بأمر واحد هو أنهم حاولوا إخضاع الأدب العربى والقرآن لمناهج الأدب الغربى وروحه الأساسية القائمة على المادية أساساً وعلى المسيحية ثانياً وعلى استعلاء الغرب المستعمر على العرب والمسلمين ، ومن هنا لا بد أن يوضع أدهم فى موضع الانتقاص .

وهذا منهج سار فيه طه حسين وزكى مبارك وغيرهم بلا استثناء مع اختلاف قليل فى هذه النظرية أو تلك ، ومن ذلك نظرية زكى مبارك بأن القرآن أثر جاهلى وأن العرب فى الجاهلية كانت لم نهضة علمية وأدبية وسياسية كان الإسلام تاجاً لها وهو ما دحضه فريد وجدى وغيره ( اقرأ المعارك الأدبية والمساجلات والمعارك الأدبية ) .

ولقد حرص الدكتور طه حسين لضعف مراجعه وعدم صبره على البحث وعجزه عن فهم النصوص ، ولظروفه الخاصة أن يعتصم بمذهب قوامه الذوق بدعوى أن الذوق أصبح فى العصر الحديث علماً وقد لى هذا المذهب انتقاداً

شديداً وكشف عن قصور بالغ في مجال الدراسة ووصفه العقاد بأنه مذهب لا صلاحية له . يقول :

( إن النقد الذي لا مقياس له غير ذوق صاحبه ولا غاية له إلا أن يخرج بك من الكتاب بأثر يدعيه ولا يقبل المحاسبة فيه إنما هو ثروة لا خير فيها وكثيراً ما ذكرتني طريقة هذه الطائفة الناقدة بخطابة جحا حين قيل له : كم عدد نجوم السماء ؟ فقال لهم : عدد شعر رأسي ، فقالوا له : هذا غير صحيح عليك البرهان ، قال : لا ، بل صحيح وعليكم أنتم البرهان ، عدوا النجوم وعدوا شعر رأسي وبينوا لي الفرق بين العددين إن كنتم صادقين ( ساعات بين الكتب ) .

ولقد حاول طه حسين بادعاء عريض أن يدعي أن ما قدمه هو المنهج العلمي وكلمة المنهج العلمي كلمة فضفاضة مضللة لأنها لا تقوم على أساس صحيح فعلى أساسها أنكر طه حسين وجود إبراهيم وإسماعيل بالرغم من ذكرهما في القرآن والتوراة .

وفي مجال دعوى العلم أنكر نزول الأديان حين قال : إنها خرجت من الأرض كما خرجت الحياة نفسها ، والحقيقة أن هذا ليس هو العلم وإنما هذه هي الفلسفة المادية التي ادعى أصحابها أنهم أقاموها على أساس العلم . بينما تغيرت المفاهيم بعد ذلك ولم تعد تطلق كلمة العلم إلا على العلم التجريبي وحده . وقد ادعى طه حسين المنهج العلمي في رسالة أبي العلاء التي أقامها على مفهوم مادي فلسفي يرى أن الإنسان أثر من آثار البيئة لا يكاد يفرق عن الحيوان والنبات في انتقاء الحول وانعدام الإرادة .

فهل يقر الفكر الإسلامي بتلك الجبرية الضالة وكيف يمكن أن يكون الإنسان وهو صاحب الإرادة الحرة التي يتصرف بها ويمتلكها ويسأل عنها أن يوضع في صف الحيوان والنبات ، الحقيقة أن هذا المذهب كان أثراً من آثار نظرية النشوء والارتقاء التي حاولت النزول بالإنسان عن مكانته الحقيقية وشبهته بالحيوان ، ثم جاءت الفلسفات المادية لتجعله غير مسئول عن شيء ، وإنما هو تابع للمجتمعات وواقع تحت رحمة القوى المحيطة به وأنه نتاج الوراثة والبيئة وهذا ما يرفضه الإسلام رفضاً تاماً ، وقد تحولت



المذاهب المادية عن ذلك من بعد وأعلنت أن العلوم الإنسانية لا يمكن أن تدرس بأسلوب العلوم التجريبية ، ومعنى هذا أن نظرية طه حسين سقطت سقوطاً ذريعاً وأن كل ما كتب في ضوءها من رسائل : فقد طبقه على :

ابن خلدون والمعري : طه حسين .

الأخلاق عند الغزالي : زكي مبارك .

عصر المأمون : أحمد فريد رفاعي .

كانت قائمة على أساس باطل زائف .

والحقيقة الأخرى أن الأستاذ صادق الرافعي قد كشف في كتابه عن الأدب العربي عن علم الرواية عند العرب وأوضح حدوده ، بحيث لا يخرج المنهج الحديث في دراسة النص عنه .

وقد حمل عليهم الرافعي حملة شعواء ، ورماهم بالقصور والتقصير وقال أنهم تنكبوا طريق العرب في الرواية والحفظ .

وأن ما قيل من أن ديكارت قد أعلنه عن منهج الشك في طريق الإيمان - وليس الشك الفلسفي الزائف - قد تبين أنه مأخوذ من رسالة ( المنقذ من الضلال ) .

للإمام الغزالي ، وأن الأستاذ محمد فريد وجدي كشف عن زيف مذهب النشوء والارتقاء قبل أن تجيء الحفريات الأخيرة التي زيفت ما خاض فيه الماديون خلال مائة عام ، وقد تأثر بمذهب النشوء والارتقاء جرجي زيدان وشبلى سمثل والزاوي والعقاد وأحمد أمين وسلامة موسى وكثيرون .

ومن ثم فقد كان واضحاً أن ما قدمه طه حسين تحت اسم العلم والمنهج العلمي ليس إلا الفلسفة المادية الوضعية ، ومفاهيم مدرسة العلوم الاجتماعية التي قام عليها أصدقاؤه اليهود ( دور كايم وليني بريل ) وأنها كانت محاولة لإخضاع الأدب العربي والفكر الإسلامي للتفسير المادي والوثني للتاريخ .

ومن ناحية أخرى فإن الدكتور طه حسين حريص على أن يقعد كل أبحاثه في مجال الأدب العربي أو الفكر الإسلامي على مجموعة من الأباطيل والأضاليل يرددونها دائماً ويلوكها حتى تثبت في أذهان تلاميذه ومستمعيه :

أولاً : أن البيان العربي مكون من ثلاثة عناصر أحدها الفارسي ( وهو

الذى يمثل البلاغة والظرف فى القول والهيئة ( والعنصر اليونانى المؤهل بالمعاني الخاصة من حيث دقتها والعلاقة بينها وبين الألفاظ ، والعنصر العريى ( أى أن البيان العربى ليس بياناً عربياً خالصاً مستمداً من القرآن ) .

ثانياً : الادعاء بأثر هلىنى واضح فى الأدب والكلام . وإن عبد القاهر الجرجانى هو تلميذ أرسطو .

ثالثاً : إن أرسطو هو المعلم الأول للمسلمين ليس فى الفلسفة وحدها ولكنه إلى جانب ذلك معلماً فى علم البيان .

وهذه الادعاءات الثلاث باطلة بطلاناً تاماً .

رابعاً : الإشادة بفضل المستشرقين على الأدب والفكر وعلى أمثاله حتى أنه ليرى أنه لم يفهم القرآن إلا من كازنوفا ، ولم يفهم الأدب إلا من نلينو .

• • •

## الفصل الثاني

### الأدب العربي . تأريخه ونقده

تولى الدكتور طه حسين تدريس الأدب العربي في كلية الآداب بالجامعة المصرية في أول إنشائها عام ١٩٢٥ وكان من قبل - في الجامعة القديمة - بعد عودته من أوروبا عام ١٩١٩ يدرس تاريخ اليونان والرومان وهي المادة التي درسها في فرنسا - ولذلك فقد كان العمل في ميدان الأدب جديداً عليه ولم تكن لديه الأدوات الحقيقية لهذه المادة . ومن هنا كانت كبواته وأخطاؤه ومناقضه ، وهذا القول وإن بدا متجهماً فلأنها هي الحقيقة التي شهد بها كثير من تلاميذه وزملائه والدارسين في مجال الأدب العربي في الجامعة ودار العلوم والأزهر ، ومن أجل أن يفرض آراءه فإنه خاصم جماعة الأساتذة الذين كانوا قد سبقوه في هذا المجال وتمكن من إخراجهم من كلية الآداب ومنهم من ذهب إلى دار العلوم أمثال أحمد ضيف ، والدكتور العناني ، ومن ثم فقد خلا له الجو ففضى يقوم برسائله الحقيقية التي كان مكلفاً بالعمل بها ، وهي تزييف مفهوم النقد الأدبي وخلق روح السطو وإفساد منهج الكتابة الأدبية وخلق روح من التحلل والإباحة في مدرجات كلية الآداب ( وهذا هو ما شهد به تلميذان من أقرب تلاميذه إليه وهما محمود شاكر ) اقرأ مقدمة كتابه ( المتنبي ) ونجيب البهيبي في عدد من كتاباته وخاصة مقدمة كتابه عن الشعر العربي في العصر العباسي ومقدمة كتابه مدخل إلى التاريخ والأدب العربيين .

ونحن حين نستعرض آراءه هنا في الأدب العربي نجد ظاهرتين واضحتين : الأولى : هي التخليط والانتقال من رأى إلى رأى آخر حسبما تفرض الأهواء والظروف كالقول بأن الأدب العربي أخذ من الأدب الفارسي مرة ومن الأدب اليوناني مرة أخرى .

الثانية : روح التبعية والاعتماد على المناهج الغربية في تأريخ الأدب ونقده ، دون النظر إلى مدى الفوارق الواضحة بين الأدبين العربي والفرنسي . فضلاً عن اعتماد الأدب الفرنسي على نظرية الجبرية التاريخية ونظرية دارون التي تعتبر الإنسان حيواناً ، أو نظرية فرويد في الجنس ، ونظرية ماركس في التفسير المادي للتاريخ .

أولاً : تبين أن الآراء التي قدمها طه حسين في تأريخ الأدب ونقده لم تكن جديدة تماماً وإنما دعا إليها قبله بسنوات طويلة الدكتور أحمد ضيف وكل ما زاده الدكتور طه حسين عليها : ذلك الأسلوب من الاندفاع والعنف ، الذي يريد به إحداث الدوى .

ثانياً : الآراء المعروضة كلها مقتبسة من المستشرقين ، ومنقولة عن أدب آخر له ظروفه وأوضاعه ، وهو الأدب الفرنسي . وهى نظريات سانت ميغ وأبيوليت تبين وجول ليمتر ، وهى نظريات تحاكم الإنسان إلى مفهوم مادي ، ولا تؤمن باستقلالية العلوم الإنسانية فهي ترى أن الإنسان خاضع للجنس ولقمة العيش ، ولا ترى له تأثيراً بأى قيم معنوية أو روحية كما أنه يصدر في تصوره الإنساني كله في عالم الأدب عن الجبرية المادية التي تخضع لها منذ أول رسالة له عن أبي العلاء فقد اعتمد المذهب المادي في تفسير حياة الرجل .

ومرجع هذا إلى دروس جويدى ونلينو وملبوى وكازانوفا وماسينون ، سواء فيما تلقاه عن بعضهم في الجامعة المصرية القديمة أم في باريس .

ثالثاً : أعطى أهمية كبرى لما أسماه تأثير الوثنية واليهودية والنصرانية على الشعر العربي ( وهو ما ركز عليه طويلاً خدمة للصهيونية العالمية ) وانتهى به إلى نتائج مضللة وهو أن للوثنية واليهودية والنصرانية تأثيراً على الشعر العربي وحاول في هذا أن يوجد فضلاً ( مصطنعاً ) لليهود على شعراء العرب .

ثالثاً : عمد إلى إصدار الحكم على العصر العباسي من قراءة كتاب كالأغاني الذي لم يكن في نظر الباحثين مرجعاً أصيلاً لدراسة العصور الإسلامية ، وإنما هو كتاب ألفه شعوبي معروف جمع فيه أخبار الحبان والشعراء العشاق وادعى في هذا الحكم على أن هذا العصر عصر فسق وفجور . اعتماداً على وجود أمثال

أى نواس وبشار والضحاك ناسيا ومتجاهلا عشرات من العلماء والحكماء وأهل الفضل .

**خامساً :** يرى فصل الأدب عن الإسلام (بوصفه حلا جامعاً للقيم) باسم حرية الأدب ودعوته إلى إطلاق الأدب والشعر والفن من قيود الفضيلة وقيم الإسلام ، فلا يكون على الكاتب أو الشاعر أو الفنان من حرج في أن يصور الرذيلة كيف يشاء ، وهو مذهب إباحي كان جزءاً من رسالته الإباحية والشعبوية عمد إلى إدخاله إلى الأدب العربي ، ومن خلاله أعلى شأن شعراء الخجون والعلمة ، وقد عمل في هذا المجال عمليين :

١ - ابتعاث الشعر الإباحي .

٢ - ترجم القصص الجنسي الغربي .

**سادساً :** نزعتة الشعبوية التي جعلته يعلى من شأن أمثال إخران الصفا والملاحدة والشعوبيين ونشر أفكارهم .

**سابعاً :** دعوته إلى فصل اللغة العربية عن الإسلام بهدف تدمير رابطتها بالقرآن الكريم وإحياء العامية وتطوير النحر . . إلخ .

**ثامناً :** دعواه بأن البيان العربي نسجت خيوطه من البلاغة العربية في المسادة واللغة ومن البلاغة الفارسية في الصورة والهيئة ومن البلاغة اليونانية في وجوب الملاءمة في أجزاء العبارة .

**تاسعاً :** دعواه إلى دراسة تاريخ الأدب كما يدرس صاحب العلم الطبيعي علم الحيوان والنبات .

ومن ثم فإن « المنهج الذي رسمه طه حسين لدراسة الأدب العربي » يقوم على :  
**أولاً :** على خليط من آراء انتقائية متباينة أراد بها إخراج الأدب العربي من أصالته فهو لم ينشئ في دراسة الأدب العربي ونقده ولا في دراسة تاريخه مذهباً عربياً أصيلاً ، وإنما كان تابعاً للمذاهب الغربية فأخذ من دور كامم منهجه في البحث التاريخي وطبقة على ابن خلدون ومن سانت بييف اتجاهه وأبرزه في حديث الأربعاء وأخذ من بلاشير رأيه في المتنبي .

**ثانياً :** أعلى من شأن الأدب اليوناني القديم والفرنسي الحديث وأذاع جوانب معينة منهما تتعلق بالأدب المكشوف والإباحية .

ثالثاً : استعمل أسلوب الشك والسخرية والتهكم والتشكيك القائم على الظن والذي لم يعتمد على سند علمي صحيح ، وجعل النظرة الذاتية غالبية على النظرة العلمية .

رابعاً : هاجم صلة الأدب بالأخلاق ، وهي صلة أساسية عميقة وجذرية في الأدب العربي وفتح باب الحرية الجنسية في الأدب العربي الحديث على نحو لم يكن متقبلاً منه فترجم القصص الفرنسية المكشوف وأشعار بودلير وأولى اهتمامه لشخصيات أبي نواس وبشار وغيرهما من شعراء المخون .

\* \* \*

### الأدب العربي وموقعه من الآداب العالمية

تناول الأدب العربي في موقعه من الآداب العالمية ، في عديد من دراسته ومحاضراته ، فلم يثبت فيها على رأى واحد ، وإنما تحول في اتجاه الريح.

كان الدكتور طه حسين يقول مرة : إن مناقب الأدب العربي ترجع إلى أصول فارسية ، ومرة يقول إنها ترجع إلى أصول يونانية ، ومرة يقول إن الأدب العربي كان قوة خطيرة بين الآداب القديمة وأنه استطاع بقوته أن يطارد أدب الفرس واليونان والرومان وقضى مرة بأن الأدب الذى يمثل المركز الأول بين الآداب القديمة هو الأدب اليونانى ثم يحىء الأدب العربى فيمثل المنزلة الثانية ، وأن الأدب العربى أقوى من الأدب الفارسى واللاتينى .

ومعنى هذا أن الدكتور طه لم يكن له رأى محدد ، وإنما كان يقول الشيء في مناسبه التى يبتغى بها إرضاء جهة ما من الجهات ، وعلى كل حال فإن الدكتور طه يرمى إلى أمرين أساسيين من كل كتاباته :

**أولاً :** يحاول أن يثبت تأثر الأدب العربى بالآداب اليونانى :

**ثانياً :** يحاول أن يعلى من شأن الأدب الفرنسى المعاصر على الأدب العربى الحديث ، ومن ذلك قوله في الهلال ( نوفمبر سنة ١٩٢٧ ) .

الأدب العربى سطحي يقنع بالظواهر ، والأدب الفرنسى عميق دائم التغلغل وفيه وضوح وتحديد لا وجود لها في الأدب العربى ، والأدب الفرنسى إذا عالج موضوعاً ألم بالتفصيلات وهو مع ذلك لا ينسى الكل والمجموع ، أما الأديب العربى فيجتزى بأخذ وردة من البستان أولون من الورد ولا يفكر في البستان .

والهدف معروف ، فهو يريد أن يرضى سادته الفرنسيين بهذا الثناء ، ويريد أن يرضى الغربيين بتقديم الأدب اليوناني على الأدب العربي ، ومحاولة القول بالتأثير اليوناني في الأدب العربي ، وهي محاولة طويلة المدى حرص عليها حين وجه أمين الخولي إلى ما كتبه عن البلاغة العربية وفن القول الوافد ، وحين كتب أحمد الشايب في كتابه الأسلوب ، وهي قضية ضخمة من قضايا طه حسين ومحاولته فرض العقل اليوناني عن العقل العربي بدعوى عريضة باطلة قوامها أن العرب تأثروا باليونان وأرسطو في القديم ، مما يدعو إلى تأثرهم في الحديث بالأدب الغربي وتبعيتهم له ويتمثل هذا في أوسع صوره في مقاله ( في العقل العربي الحديث )

يقول الدكتور زكي مبارك : لعل القراء يذكرون أن الدكتور طه أخذ يبدي ويعيد منذ سنين ليثبت أن العرب لم يكن عندهم ( نثر فني ) وأنهم لم يحددوا الإنشاء إلا حين اتصلوا بالفرس وأن أول كاتب في اللغة العربية هو ابن المقفع الفارسي الأصل ، قال الدكتور طه حسين هذا الكلام ونشره في مجلة المقتطف وكنت أعرف أنه سرقة من المسيو مرسيه فكشفت تلك السرقة في ترفق فغضب الرجل وأسرها في نفسه ، والحق أن الدكتور طه حسين كان يأمن عواقب تلك السرقة الأدبية لأن كلام المسيو مرسيه كان نشر من زمان في مجلة مجهولة ينذر أن يهتم بها المصريون ، وهي المجلة الأفريقية التي تصدر بالفرنسية في مدينة الجزائر ، ولكن الله هداني إلى تلك المجلة فكشفت سرقة ذلك الأستاذ الأمين .

أوتعرفون ما الذي وقع بعد ذلك ؟ أخذ الدكتور طه حسين يتراجع ويتقهقر في انتظام بديع حتى ظهر كتاب ابن المعتز فيكتب كلاماً ينقص فيه ما بناه في سبع سنين .

( البلاغ في ٢٨ يونيو سنة ١٩٣٥ )

وهذا الكلام يعني تناقض طه حسين وعدم ثبوته على رأي واحد وإن كان الهدف الأساسي ما زال قائماً في نفسه يتحين الفرصة .

---

(١) فصلنا الرد عليها في الفصل الأخير من هذا البحث .



والهدف الأساسى هو : إخضاع الأدب العربى والبلاغة العربية للأدب اليونانى ، وهو هدف يحرص عليه الاستشراق ويحاول تأكيده بتصوير كل ما فى الأدب العربى والفكر الإسلامى من عناصر القوة وكأنها مستمدة من الفكر اليونانى ومن ذلك دعوته إلى بعث-البلاغة العربية بحثاً يقوم على تفهم مراى القدماء وعلى الموازنة والمقارنة ببلاغة اليونان ، وذلك فى بحثه ( البيان العربى من الجاحظ إلى عبد القاهر ) الذى القاه فى مؤتمر المستشرقين فى لندن عام ١٩٣١ ونشر مترجماً فى مقدمة كتاب نقد النثر بقلم عبد الحميد العبادى .

يقول الدكتور زكى مبارك متابعاً هذه القضية :

قرر طه حسين أن البيان العربى فى أول نشأته وفى عهد الجاحظ يتبين منه ثلاثة عناصر مختلفة : وهى العنصر العربى والعنصر الفارسى والعنصر اليونانى ، وقد بلغ ذروته على يد الشيخ عبد القادر الجرجانى ، ولم يتقدم بعده بل أخذ على العكس من ذلك فى التأخر والانحطاط .

والجديد فى هذا البحث أن الدكتور طه حسين أول من نبه إلى الأثر الهلنسى فى البلاغة وإلى أثر أرسطو فيها خاصة ، وبذلك قرر أن البيان العربى كان فى جميع أطواره وثيق الصلة بالفلسفة اليونانية أولاً وبالبيان اليونانى أخيراً ولم يكن أرسطو المعلم الأول للمسلمين والعرب فى الفلسفة وحدها ولكن إلى ذلك معلمهم الأول فى علم البيان ، وبالرغم من بطلان هذه الدعوى وفسادها فإن الدكتور طه استطاع أن يوجه بعض طلبته إلى هذه الوجهة .

ألف إبراهيم سلامة بحثاً فى ( بلاغة أرسطو بين العرب واليونان ) أثبت فيه ما ذكره الدكتور طه حسين وتبع البلاغة العربية منذ الجاحظ متمسكاً أثر أرسطو موضحاً فهم العرب لكتابى الخطابة والشعر وخرج بنتائج تحقق هذه الغاية المرجوة .

\* \* \*

ويرد زكى مبارك على رأى الدكتور طه حسين فى مقدمة الأدب اليونانى على العربى فيقول أنه لا يتميز عنه إلا من الناحية القصصية ، أما الأدب العربى فإنه يأخذ المكان الأول فى الناحية الدينية ، وليس فى هذا غرابة فإن البلاغة الدينية باب مهم فى أبواب البلاغات فى الأدب القديم والحديث ، والمطلع

على الأدب العربي يراه يذخر ويفيض بأنواع البلاغة الدينية وقد شغل ملايين المسلمين شغلا موصولاً بأروع أثر من البلاغة الدينية ممثلاً في القرآن . والسنة والأدب الصوفي ، أفيسطيع باحث أن يزعم أن اليونان كان عندهم هذا الصفاء في الجوانب الروحية .

ويشير إلى أن الأدب اليوناني كان أشد تأثيراً في الآداب الأوروبية الحديثة على نحو لم يكن للأدب العربي مثله ويرجع ذلك إلى طابعه الرصين :

ويقول : سكت الأوربيون عن الأدب العربي عامدين لأنه يمثل الحضارة الإسلامية ، هي حضارة كانت أوربا تبغى هدمها منذ أزمان ولأنه من وجهة ثانية مصبوغ في أكثر موضوعاته بصبغة الجدل الرصين ، وأوربا فتنت بما جاء في الأدب اليوناني من نزق وطيش وخلاعة ومجون ، ولا يخفى على الباحث المنزه من الغرض الديني والقوي أن أول ما بلغت الناس إلى الأدب اليوناني هو ما فيه من الثورة أحياناً على التقاليد الدينية والأخلاقية والاجتماعية . يضاف إلى هذا أن نقطة أوربا الحديثة اتفق وجودها في أزمان كانت فيها الأمم العربية منحدرة إلى مهاوى الضعف والحمول فلم تستطع أن تقدم أدبها إلى العالم تقدماً حسناً بصورة ما كان له من روعة وجمال وبأقرب بعد ذلك سبب آخر له أهميته : ذلك أن العقل العربي يميل إلى الإيجاز في أكثر ضروب البيان ، فالأدب العربي في جوهريه أدب صادق من حيث دلالاته على المعاني الإنسانية ولكنه لا يصلح لجميع الناس لما فيه من الميل الغالب إلى إيجاز الإيجاز .

على أن هناك ميزاناً أدق في تقديم الأدب ، فليس الأدب الأفضل هو ما يصلح لجميع الأمم في جميع العصور ، ولكن الأدب الأفضل هو الذي يغني أهله ، كما أن المنزل الأفضل هو الذي يسع ساكنيه ، ولو نظرنا إلى الأدب العربي هذه النظرة لوجدناه أغنى أهله كل الإغناء ، والجاحظ الذي رماه طه حسين بالإسراف مظلوم أشد الظلم ، فهو لم يكن مسرفاً لأنه فيما اعتقد لم يعتمد الغرض من الآداب الأجنبية ولكنه جرى في الطريق الذي جرى فيه أسلافه وكانوا يعتقدون أن أدبهم أصدق الآداب وأغناها وأجملها وأشرفها ، لأنه شغلهم بأنفسهم ، ومحاسنهم ومعانيهم . وحديثهم عن كل ما يحجون أن يتحدثوا عنه . في جميع ضروب الحديث . فأغناهم في الجدل وألهاهم في الحزل وأمتعهم في التشريع .

وحسب الأدب العربي قوة أنه فتن أهله وفرض عليهم أن يظنوا مخطئين أن الشعر لا يوجد إلا في لغتهم وأن الحكمة لا توجد إلا عندهم ، وأن القول الفصل لا يتيسر إلا لخطابهم وحكائهم وهذا النوع من الغرور هو دليل القوة عند جميع الناس في جميع الأجيال » .

فالدكتور طه حسين ليس مردداً لأقوال المستشرقين ولكنه داعية أصيل للفكر الغربي ( قديمه اليوناني وحديثه الفرنسي ) ، وليس الفكر العربي الإسلامي في تقديره سواء في ماضيه أو حاضره إلا تابعاً للفكر اليوناني ولا بد أن يكون تابعاً للفكر الغربي . هذه هي الرسالة التي يحمل لواءها ويعتقها ، وهو من أجل هذا يدعو إلى منهج في النقد الأدبي غربي ، هو أن ينسى الباحث قوميته وكل مشخصاته وينسى دينه . وكل ما يتصل به حين يعرض للبحث في الأدب وتاريخه .

وهو يدعى أن هذا المذهب هو مذهب العلم ومذهب الغرب ولكن الدلائل كلها تدل على أنه مبطل فيما يقول ، ولكن المرمى من هذا واضح ، هو أنه حين ينسى الأديب أو الباحث قوميته ودينه فإنه لن يكون له أى قدر من كيان الالتزام أو الانتماء لا للوطن ولا للعقيدة ، وإذن فهو يمكن أن يكون علمانياً وعالمياً وداعية إلى كل ما يعارض دينه وقوميته ، وهو حينئذ لا يجد مجداً ينتسب إليه أو ديناً يلتزم به وهذا ما عبر عنه طه حسين بعد ذلك حين قال سأجتهد في درس الأدب غير حافل بتمجيد العرب ولا مكترث بنصر الإسلام غير حافل بالفض من العرب ولا مكترث بالنهي عن الإسلام .

وهكذا يكون طه حسين قد جرد الأديب العربي المسلم من كل قيمه والتزامه ، وبذلك يمكن أن يدوب سريعاً في العالمية الغربية أو الأهمية الماركسية ولنسأل هل أمكن أن يكون هناك أديب غربي ( فرنسياً أو إنجليزياً ) تجرد من لغته وأمته وقوميته ودينه على هذا النحو !

إن الهدف هو التجرد من الإسلام ، ومن اللغة العربية ، وهذا ما يسميه طه حسين بالقديم لأنه لم يستطع أن يواجهه صراحة ، فتخفى وراء هذا المصطلح .

وفيما يتصل بالتبعية للأدب الفرنسي فتلك كانت مدرسة تحاول أن تعلى

من شأن الفرنسيين ، في مواجهة مدرسة أخرى كانت تعلّم من شأن الأدب الإنجليزي ، ومن ذلك ما كتبه إبراهيم عبد القادر المازني في المصور يقول :  
ورأى في الأدب الفرنسي أنه فصيح بليغ ، ولكنه ليس عميقاً كالآداب الأخرى ، وقد استفز هذا (توفيق الحكيم) ليكتب مدافعاً عن الأدب الفرنسي وقد ظهرت توفيق الحكيم مدرسة بيروت فكتب (المكشوف) ، (آزار سنة ١٩٤٤) يقول إن الأدب الفرنسي هو دائماً الأساس الذي قامت عليه الآداب الأوروبية كلها . وأن كل قسّمات النهضة الفكرية في كل أدب من آداب أوروبا قد هبت من فرنسا ، إلخ .

ومما يذكر أن مصر شهدت صراعاً واسعاً بين الأدبين الفرنسي والإنجليزي وبين الثقافتين وبين التعليمين نتيجة لسيطرة البريطانيين على مصر .

والواقع أن طه حسين حين هاجم قيم الأدب العربي وشكك فيها إنما كان يريد أن يفسح المجال للوثنيات والأساطير اليونانية التي لم يقل هو مرة أنه يعرضها على مذهب الشك ، بل راح يزخرفها بأسلوبه ويدخلها في كتاباته حتى في كتابه (على هامش السيرة) حشاه بها ولم يدع كاتباً إباحياً في القديم أو الغرب أو اليونان إلا حدثنا عنه وترجم له ونقل لنا مفاهيم وسفاسقه (بولدر ، امخيلوس ، أبونواس) إلخ .

• عقدنا فصلاً خاصاً عن الأدب اليوناني وعلاقته بالأدب العربي .

• • •

## إخضاع الأدب العربي لمناهج النقد الغربية

حاول طه حسين إخضاع منهجى تأريخ الأدب ونقده إلى أساليب الغرب وأعلى من شأن نظريات ( تين و برونثير وسانت نيف ) التى سادت فى فرنسا فى القرن التاسع عشر وهى مذاهب كانت خاضعة للنظرية المادية التى انطلقت من نظرية دارون ، وهى فى مجموعها ترى أن الإنسان ما هو إلا أثر من آثار البيئة بمعناها الاجتماعى الراسع ولا يكاد فيها أن يفرق عن الحيوان والنبات فى انتقاء الحلول وانعدام الإرادة .

ويرى تين : أن الفضيلة والذيلة ليستا إلى حد كبير إلا نتاجاً لعملية تلقائية مثل الأحاسيس والقلوب .

وهكذا نجد أن مذهب النقد الذى أذاعه طه حسين مناقض تماماً لمفهوم الإنسان فى الفكر الإسلامى والأدب العربى من حيث إلغاء الإرادة الفردية والالتزام الأخلاقى والتعرف من الإنسان من خلال جوانبه المادية وحدها وإنكار جوانبه الروحية المعنوية وعقائده وإيمانه وقدرته على التضحية فى سبيلها .

ولقد أنزلت هذه المفاهيم الإنسان من مكانته التى قدرها له الإسلام والدين الحق ، وألغت مكانته الفردية وبطولاته ودفعته إلى حضيض يكون فيه أشبه بالحيوان الذى لا حول له ولا إرادة ومن ثم نظروا إليه على أنه شئء تافه جداً . وأنه عبد شهواته وأهوائه ، وأنه تحت رحمة القوى المحيطة به .

وهذا المذهب الذى يقوم على الجبرية الذى اعتنقه طه حسين وأقام عليه أبحاثه كلها منذ كتابه عن أبى العلاء . . .

وهو المذهب الذى ينكر على الإنسان قدرته على تغيير الواقع وتحريك التاريخ وهو الذى يحاول أن يجعله ضحية البيئة والمجتمع وبذلك يبنى عنه المسئولية الفردية التى هى عماد الدين ، وكان ذلك كله متابعة لمدرسة العلوم الاجتماعية التى أقامها دور كاييم وسيطرت على الآداب الأوروبية فى هذه الفترة

والتي تفرع منها مذهب التحليل النفسي لفرويد ومذهب التفسير المادى (الاقتصادى) لماركس . . . وكلها تلتقى عند هدف واحد هو إلغاء شخصية الإنسان وإرادته والتزامه الأخلاقى ، وقد ردد طه حسين هذه المعانى كثيراً حين قال إن الإنسان ابن بيئته وأنه خاضع للبحث والتحليل خضوع المادة لعمل الكيمياء وهى نظرية جامعة بين الحتمية التاريخية والجبر التاريخى الذى تلقاه من أساتذته اليهود فى السربون ، وقد خضعت كتاباته لهذا المذهب : وخاصة كتابه فى الأدب الجاهلى .

وقد تغيرت أفكار الغرب من بعد ، وظهر المذهب الذى يفصل بين العلوم الإنسانية والعلوم التجريبية ويقرر أن الإنسان بأهوائه ومطامحه لا يمكن أن تخضع للمذهب التجريب المادى وأن العلوم الإنسانية لا يمكن أن تخضع للحتمية التاريخية أو الجبر التاريخى .

ومع ذلك فقد نشأت أجيال فى كلية الآداب على مفاهيم طه حسين هذه التى نبها فى كتبه وما يزال كتابيه فى الأدب الجاهلى وعن أبى العلاء و هما محملين بهذه السموم منشورة مذاعة .

وقد أشار إلى هذا المعنى الدكتور محمد أحمد الغمراوى حين قال :

يوسفى أن صاحب كتاب الأدب الجاهلى ومن لف لفه يسوقون الأدب العربى على غير طريقه ويلبسونه ثوباً من غير نسجه وينسجون عليه نسجاً فرنسياً ويسوقونه فى نفس الطريق الذى ضل فيه الأدب الألمانى قرناً وبعض قرن . وما هى تلك الطريق التى يسوقون فيها الأدب العربى إلى طريق الافتتان بالأدب الفرنسى خاصة والغربى عامة ، لقد كان الدكتور طه حسين ومن معه يريدون أن يكونوا للعربية ما كان هؤلاء الألمان فيقنوها فى غير ما يضلونها عن نفسها ، فإذا أنت قرأت لهم رأيت تقليداً محتاً يعرض عليك باسم التجديد « والواقع أن الأدب العربى بأصائله وتاريخه المتصل بفجر الإسلام والمرتبط بمفاهيم القرآن ومنهجه الواسع الجامع المتكامل ، ليسوا فى حاجة إلى أن يخضع أديهم لمنهج غربي مادى انشطارى ، عرف الغرب فيما بعد أنه فاسد ومنهار .

إن مقولة طه حسين أنه يريد أن يدرس تاريخ الأدب كما يدرس صاحب العلم الطبيعى ، علم الحيوان والنبات هى مقولة باطلة فاسدة ، لأنه لم يثبت

أبدأ في أى عصر أن الأدب يخضع لمنهج العلم الطبيعي وأن الغربيين أنفسهم هم الذين قالوا إن العلوم الإنسانية لا تخضع لمنهج العلوم الطبيعية فضلاً عن أن مفهوماً إسلامياً لا يقبل هذه المقولة المبطلة .

ويقول أحد الباحثين : إن طه حسين يقصد بالمنهج العلمى : المنهج الاجتماعى ( الذى روج له اليهودى دور كايم خدمة للصهيونية ) والذى ينظر إلى الإنسان على أنه حيوان اجتماعى ، ومن هنا يقول طه حسين على دراسة البيئة والعصر ، ولا يدرس البواعث النفسية للأديب التى تحفره إلى نوع من السلوك دون نوع آخر ، وقد تبين خطأ استخدام المنهج العلمى التجريبي في مجال الدراسات الإنسانية ، فضلاً عما تبين من فساد منهج دور كايم الاجتماعى : فالإنسان ليس حيواناً اجتماعياً كما يقول أرسطو في السياسة ولا حيواناً مفكراً كما يقول أرسطو في المنطق .

• • •

ولقد كان السؤال المثار دائماً : هل طه حسين مدرس جامعى حقيقى وهل يملك الاداة الصحيحة للتربية والتعليم وقد أجاب عن هذا السؤال الأستاذ حسن البنا رحمه الله في مقال مطول نشرته ( الفتح م ٥ سنة ١٣٤٩ هـ ) حين قال :

إن المدرس ينظر إليه من جهات ثلاثة : من مواهبه الخاصة في المادة التى يدرسها ومن مادته التى يقدمها لتلاميذه وفي طريقته في التفكير وما يثبته في نفوس طلبته من أخلاقه وطوائمه . والدكتور طه حسين منهم في ذلك جميعاً فهو لا يحسن الشعر ، وإن حاول ذلك أتى بالعث المتكلف الذى يمجى الطبع ويستثقله السمع على تحط لاميته التى يقول فيها :

مالى وما للبدر أطلب رده بسل ما لأفلاك السماء ومالى إلى آخر ما قال من هذا النظم المهلهل والنسيج المتنافر واللفظ الضئيل الغاية . وهو لا يجيد أسلوب الكتابة إذا حاكته إلى النوق العربى والبلاغة اللغوية وقسته بما وضعه الأئمة من أوزان البيان ومقاييسه ، أما في حشو القول والاتساع به وإطالته بالتشديق والتهيق فالرجل في ذلك لا يشق له شغل وأعتبر في ذلك بما كان في قضية المعلمين وقصصهم التى كتب عنها في السياسة

فأعيدت القصة وذكرت القصة بضع مرات فيما لا يزيد على عشرة أسطر من أسطر الجريدة . وما هو الناقد الذي يحسن النقد الصحيح . في الشعر والنثر ، وإن أحسن التبيين والتجريح والزراية على غيره من الأدباء والكتاب وأن الذي يقرأ بيت شوقي في ميميته التي يقرط فيها كتاب الأخلاق :

يا لطيف أنت هوى الصدى من ذلك الصوت الرخيم  
فنفهم أن الشاعر يقول أن أرسطو كان ذا صوت رخيم ويورد على ذلك أنه لا هو ولا شوقي سمع هذا الصوت ، ثم لا يدرك في هذه الإشارة البليغة من عنوبة وجمال وتناسب لخرى به أن يدع الثقة لأهله وأن يعلم أن دعواه فيه كدعوى الحرب في زياد ، وبعد فليس الدكتور طه حسين متخصصاً بدراسة تاريخ العرب لم يتلقه عن أستاذ ولم يلم به في مدرسة ، وإنما علم من ذلك ما يعلق بذهنه من مطالعة كتب الأدب لا لتدرس ولكن ليراها وما نبيل الدكتور طه حسين إجازته في تاريخ اليونان أو تاريخ العرب قبل الإسلام وبعده أقوى الدعائم التي يستند إليها الكاتب إذا أراد أن يكتب في الأدب العربي فن فائته روايته ودرايته فقد فاتته أسس البحث وبراسه وسار على غير هدى .

ذلك من ناحية مواهب أستاذ الجامعة في الأدب العربي وتاريخه . أما من ناحية ما يقدمه لتلاميذه فن أفكاره ، فقد كانت باكورة ذلك كتابه ( في الشعر الجاهلي ) وقد حكم عليه عقلاء الأمة وأدباؤها بالخطأ والخطل والغثاء وكشف المحققون من الأدباء الغطاء عن مغامز ومعائب فيه برأ منها العلم وأيد ذلك حكم القضاء .

أما طريقته في التفكير وما يثبته في نفوس طلبته من طوائفه وأخلاقه فما علم الناس من ذلك إلا الشك والخيرة والانسلاخ عن العقيدة والدين وتسمية ذلك منهجاً علمياً . وقد برهن العالم الضليع مؤلف ( النقد التحليلي ) أن هذا الأسلوب ليس من المنهج العلمي في شيء .

فأى شيء بعد ذلك كله يسوغ بقاء أمثال هذا المدرس في منصب كبير كمنصبه الحالي .

وإن تعجب فعجب دفاع الأستاذ عباس العقاد عنه وزعمه أن الدكتور نابغة الدهر ونادرة العصر ، وأنه لا يمكن أحد أن يسد فراغه أو يملأ مكانه



أوبدرس الأدب كما يدرسه، وأنه قرأ كتابه فلم يجد فيه ما يمس الدين والأخلاق .  
 حنانيك يا أستاذ عباس فإن الأمر هام لا يقضى فيه بالرأى ولا يؤخذ  
 بالظن ، المسألة مسألة دليل وبرهان وحق يتبعه الجميع . إنك بقولك هذا  
 تتحدى الأمة جمعاء وتسىء إلى رجال وزارة المعارف الذين تخصصوا بدراسة  
 هذه المادة وفيهم أساتذة الدكتور وأولياء نعمته وتطعن في تقارير تلك اللجان  
 فحكمت عليه بالخطأ والتجهيل وأظهرت معايبه في عشرات المواضع وتحكم  
 على الأمة بالجلبد الأدنى حين تزعم أنه لا يستطيع أن يدرس الأدب فيها  
 إلا واحد . ولعل حكلك هذا على رجال الأدب في مصر من نوع حكلك  
 السابق على شوقي وحافظ وهما مفخرة أدب العرب وحاملا لواء الشعر العصري  
 ولو كان لك وجه من الحق فما تقوله عن رجل الأدب من كفاءة لكان الأمر  
 ولكن الذي تدعيه غير مسلم وليس من الحقيقة في شيء ، فإن كنت لا تعتد  
 إلا بنفسك وبالدكتور وتدعان الحق والدليل فلنكنا شأنكما وإن كنت تطلب  
 الحقيقة فهي ما أسلفناه بالدليل من أن الرجل منهم في مواهبه ومادته وطريقه  
 تفكره وغايته جميعاً « ولا تجادل عن الذين يجادلون أنفسهم إن الله لا يحب  
 من كان خواناً أثيماً » .

أما قولك أن الكتاب ليس فيه ما يمس الدين والأخلاق فاسمع لي أن  
 أصارحك بأنك لست من أهل الدين المتخصصين به ، ولقد أقر هؤلاء خلاف  
 رأيك فإذا لم يعجبك هذا وأبئت إلا الدليل فاذكر قصة إبراهيم وإسماعيل  
 وتكذيب المؤلف للقرآن والتوراة والإنجيل وتبوين شأن النبي صلى الله عليه  
 وسلم ونسبته إلى التحايل بالأساطير والتهمك بالأجلاء من الصحابة ورميهم  
 بالخائلة وعدم التأثير بتعاليم الدين إلا ظاهراً (كذا يزعم صاحبك) وتكذيب  
 صريح الأحاديث الصحيحة وتعطيل أحكامها والخلط في الأغراض والأنساب  
 والنتائج والأسباب ، أذكر كل ذلك وغيره مما يمس الدين والأخلاق ثم قل  
 لنا هل اقتنعت بما تذهب إليه أم لا تزال تقدم الدكتور على الحق الصريح .  
 إن الأمر واضح لا يحتاج إلى بحث أو نقاش ، فالكتاب مبتذل ، ممقوت ،  
 والمؤلف منهم في عقيدته ومادته والأدباء غيره كثير ، فاعدموا الكتاب  
 وأقصوا المؤلف عن بث بغضه على الإسلام في أبنائنا وشبابنا وأبدوا الحق  
 وأربحوا الطلبة والأمة من هذا العبء الثقيل . (م ٥ - ١٣٤٩ هـ)

### الأدب : هل يدرس لذاته أم لغیره :

حاول الدكتور طه حسين أن يثير نظرية خبيثة بادعائه أن الأدب العربى يجب أن يدرس لذاته لا أن يدرس لغیره من فقه أو شرع وأن اتصال اللغة بالقرآن والدين يجعلها مقدسة مبتدلة فى آن واحد . مقدسة لأنها لغة القرآن والدين ، ومبتدلة لأنها لا تدرس فى نفسها ولأن درسها إضافى .

ويقول الدكتور محمد أحمد الغمراوى : أنه فى هذا عظمى محيل . وأن الفريق الذى يصفه أنه يقدسها هو نفس الفريق الذى يدرسها كوسيلة للدين والتفقه فيه : وتقديسه إياها ، يصونها من الابتذال عنده ويعلم أن الذين يدرسونها ممن لا يشتغلون بالدين هى عندهم غاية لا وسيلة كجمهور الأدباء ، فليس هناك من هؤلاء أيضاً من يبتذلها إذن .

وكيف يتصور أن التوصل بشىء إلى غرض ما هو من دواعى ابتذال ذلك الشىء ، فريق يدرسها لذاتها وهو فريق المشتغلين بالأدب (وواضح أن هؤلاء لا يبتذلونها) وفريق يدرسها وسيلة إلى شىء آخر يرضاه ويكبره واتصالها بذلك الشىء الآخر يفيض عليها من الإكبار الذى يحيط به ويحول بينه وبين الابتذال كما هو مقتضى القانون النفسى : قانون الاهتمام in terest الذى غفل عنه صاحب الكتاب ، فليس هناك إذن خطر يهدد الأدب من هذه الناحية : ناحية الابتذال . أما ناحية الإكبار والتقديس كما يسميه فقد زعم أنها تحول بين اللغة وبين البحث العلمى الصحيح وتقديسها بهذا المعنى لم يقل به أحد غيره ، لأن الذين يفيضون عليها من التقديس لاتصالها بالقرآن والحديث لم يخطر لهم على بال أن يحظروا على أحد التفقه فيها عن أى طريق من طرق البحث الصحيح ، بل هم يرون مثل هذا التفقه ضرورياً لهم وفرض على فريق منهم . والإسلام نفسه يفسح للبحث الصحيح كل طريق فليس على صاحب الكتاب من حرج فى أن يسلك فى تحليل اللغة مناهج البحث العلمى أو الأدبى الصحيح ، ولكن عليه أن يحسنها قبل أن يسلكها ، أما أن يدعى أنه يحسن إياها وهو غير محسن أو أن يأتى إلى أفدس ما يقدر الناس من دين أو قرآن أو توراى فيعرض لذلك كله بالوهم والغرض ، فسيجد دائماً من يؤاخذه على ذلك فى العلم وفى الدين .

والقيود التي في القانون لم يرد بها تضيق حرية البحث . وإنما أريد بها  
صيانة الدين أن يجترأ عليه مجترئ أو يفسده على الناس مفسد ، وليس هناك  
غير صاحب الكتاب وشيعته من يظن أن كرامة الدين تنافي حرية الأدب  
أو حرية العلم ، وما نظن صاحب الكتاب يتألم للأدب والعلم ولكن لنفسه .  
وإلا فقد اعترف نفسه أن العلم ذاته قد يكون من أبغض الأشياء إذا أكره عليه  
وذلك قوله :

( من ذا الذي يستطيع أن يكلفني أن أدرس الأدب لأكون مباشراً  
بالإسلام أو هادماً للإلحاد ) .

هل إذا كانت دراسة الأدب لهدم الإلحاد تقييد للأدب فهل دراسته  
لهدم الإسلام تحرير للأدب . ليدع صاحب الكتاب نصرة الإسلام إذا شاء  
ولكن ليدع معها أيضاً نصرة الإلحاد يسلم له الأدب .

أما استناده في تمييز الأدب العربي من سلطان الدين إلى ملاءمة حاجات  
العصر العلمية والفنية ، فهو نوع من الكلام المبهم ، وفي رأيي أن حاجة العصر  
هي أشد ما تكون إلى أدب شرق نقي من أقذار وسموم الإباحة إلى أدب يكون  
عوناً للشرق عامة وللمصر خاصة على نهضة خلقية قوية تأخذ بنا من هذه النهضة  
هذه اللغة التي أنهضها الدين وعاشت بالقرآن ثلاثة عشر قرناً لا تستطيع الآن  
أن تقطع ما بينها وبين الدين والقرآن من غير أن تقتل نفسها أو يقتلها أهلها  
وتصبح مكتوباً عليها الرق والذل لكل ما لا يمت إليها بمودة أو رحم وما حاجة  
الشرق بل ما حاجة أي شعب إلى لغة يصبح أديها باباً يدخل على الشعب منه  
العدو . وكأساً يتجرع الناس بها السموم .

يقول الدكتور طه حسين :

فلنكن قاعدتنا إذن أن الأدب ليس علماً من علوم الوسائل يدرس لفهم  
القرآن والحديث فقط ، وإنما هو علم يدرس لنفسه ويقصد به قبل كل شيء  
إلى تذوق الجمال الفني فيما يؤثر من الكلام .

ونقول : لو كان يريد بهذا الكلام ظاهره لما كان بينه وبين أحد  
من رجال العربية خلاف ولكن علمنا بالنزعة التي ينزع إليها صاحب الكتاب  
فما كتب وفيما يكتب ، تجعلنا نخشى أن يكون أراد بهذا الكلام غير ظاهره ،

وأنه قد رى إلى غرض آخر هو تحرير الأدب من قيود الأخلاق فلا يكون هناك تخرج خلقى من معنى خسيس ما دام هذا المعنى يورده صاحبه في شكل فنى يتذوقه ويلدّه ، نتيجة لضعف أثر الأخلاق الفاضلة في نفسه ولكنه الأدب ينبغي ألا يستقل قط عن الأخلاق استقلالاً يجعله لا يبالى أوافق رذائلها أو خالف فضائلها فإن الله قد خلق الإنسان وحدة متأسكة لا أوصالا مفصولة ، وإذا كان الخلق الكريم والعاطفة النبيلة والدين الصحيح ضرورياً للإنسان فلن يكون لمن يهمله رقى الإنسان بد من محاربة كل ما يضعف ذلك فيه ، فنأ كان أو غير فن ، أدباً كان أو تمثيلاً أو تصويراً أو ما تشاء أن تسمى من الفنون .

وليس يخالفنا شك بعد ما قرأنا لصاحب الكتاب في حديث الأربعاء وغيره أنه ليس بالرجل الذى يهدى هذه الأمة إلى أدب خاص بها يحتفظ بجميع عناصر القوة فيها ويتخلص من جميع عناصر الضعف فإن هذا التخلف بعد ذلك الاحتفاظ هو ميدان يقدم ذلك الأدب الخاص الذى نريده لهذه الأمة وهو معراج ترقيه ، وهكذا نجد أن فى كل كتاب من كتبه غاية مبيتة لهدم قيم هذه الأمة .

• • •

## الفصل الثالث

### أدب المجان والجنس والإباحة

كان من أكبر أهداف الدكتور طه حسين إشاعة أدب المجان والجنس والإباحة وقد قصد إلى ذلك من ناحيتين .

**الأولى :** إحياء ما وجدته في الأدب القديم من فنون الجنس عند بعض الشعراء المتبوزين من أهلهم وأمتهم وما جمعه الشعبي الخاطي الأصفهاني في كتابه الأغاني .

**الثانية :** مما عمد إلى ترجمته من القصص الجنسي الفرنسي الداعر .

ومن الطبيعي أنه حين دعا إلى تحرير الأدب العربي من الارتباط بالفكر الإسلامي كان يهدف إلى دفعه في أحوال الشهوات والجنس والإباحة، وهو هدف خطير قام عليه كتابه (الشعر الجاهلي) ونظريته كلها وليس أدل على خطورته مما أشار إليه المستشرق كامفابر حين قال : « إن المحاولة الجريئة التي قام بها طه حسين ومن يشابعه في الرأي لتخليص دراسة العربية من شبك العلوم الدينية هي حركة لا يمكن تحديد أثارها على مستقبل الإسلام مهما أسرفنا في التقدير في فكرة لا نجد كلمة عنها » .

هذا هو الهدف الذي يسعى إليه التغريب : وهو فصل الأدب العربي عن مفهوم الإسلام الجامع الذي هو جزء منه لا ينفصل، وهي الدعوى التي ظل طه حسين يردددها دون أن يتبين البعض مدى خطورها، وهذا هو الهدف من عبارة « الحرية » التي كان يردددها دائماً، الحرية عنده بمفهوم الماسونية وهو من أهلها وهي الانطلاق وراء الأهواء والشهوات ، وقد عمد إلى شعر المخون فأذاع به ، كما اهتم بشعر الغلظة وحاول أن يضع لأبي نواس وبنشار صورة بطولة ليست لها في الحقيقة ، فقد كان مع المجموعة من شعراء المجان الذي عنى بهم طه حسين في كتابه (حديث الأربعاء) مجموعة من الشعبيين الإباحيين الذين هم

موضع إحتقار المجتمع وامتهان المثقفين والعلماء ، ولكن طه حسين في جراته على الله والحق والتاريخ لا يلبث أن يقول كلمته المسمومة : إن القرن الثاني للهجرة كان عصر شك ومجون وزندقة وفجور ، وأنه يتخذ كنموذج لهذا العصر : أبا نواس وواليه ومسلم بن الوليد وأمثالهم من شعراء اللهو . ويعتمد على كتاب ( الأغاني ) في كثير من الأحكام التي أصدرها من غير تخرج ولا احتياط على هذا العصر .

بل إنه ذهب إلى أبعد من هذا حيث دعا شباب كلية الآداب إلى اعتبار كتاب الأغاني مرجعاً في دراسة العصر ومصدر الرسم صورة المجتمع الإسلامي وهذا زيف بالغ الخطر ، وجرأة على الحق .

ولقد ووجهت أفكار طه حسين المسمومة هذه بالنقض ، ووقف له العلماء بالمرصاد ينتفضون آراءه الفجة ، ومن ذلك ما قاله الأستاذ محمد عرفة : في الرد على فرية اتهام القرن الثاني الهجري بأنه عصر شك واستهتار : « ليس معنى الحكم على عصر بأنه عصر شك واستهتار أنه قد وجد فيه الشك والاستهتار إذ لا يخلو من ذلك عصر من العصور ، وإنما المعنى أن الروح العامة فيه هي الشك والاستهتار . ولقد توصلت إلى حكمك العام على العصر الثاني باستقراء طائفة من الأدباء والشعراء والمترفين فرأيت فيهم الشاك والماسح فأخذت العصر بجريرة هؤلاء وحكمت على العصر بأنه عصر شك ومجون ، وأن تصفح طائفة - ووجدانها على صفة - لا تعطى منطقياً الحكم على عصرهم جميعاً بأن فيه هذه الصفة . في العصر الحسن البصري ، ومحمد بن سيرين والشعبي وعمرو ابن عبيد ومالك ابن أنس ومحمد ابن إدريس الشافعي وأبو حنيفة النعمان وأحمد ابن حنبل ، ومالك بن دينار ، وعبد الله بن المبارك وربيعة الرأي وعمر بن عبد العزيز وطائفة الفقهاء والزهاد المحدثين هم الذين يمثلون عصرهم ويعطون صورة صحيحة عنه ، أم طائفة الشعراء والمغنين مع تقدير أثر الدين في النفوس ودور هؤلاء العلماء في تخريج الأحكام . لقد كان هؤلاء الشعراء يرون أنفسهم غرباء بخلقهم في ذلك العصر وأنهم شذاذ منه وكانوا يسعون بما لديهم من قوة في دفع القالة عنهم .

العصر الثاني : عصر يقين واحتشام . لا عصر شك واستهتار . وأن السبب

في الحكم بغير هذا وعلى ما أظن أن القارئ ( للأغاني ) يحيل إليه من كثرة ما يذكر من مجون هؤلاء أنهم في جو يسيل فسقاً ، ومجوناً ، وإلحاداً . ولكن إذا تذكرنا أن صاحبه إنما غنى بتاريخ طائفة فقط من الشعراء والمغنيين ، وليس ذلك تاريخاً لسائر العصر ، حينما أنفسنا من التورط في هذا الحكم » .

ويقول الدكتور غلاب : لقد ذهب طه حسين في هذا الكتاب بجراحة غريبة إلى أن العصر العباسي كله عصر شك ومجون وزندقة وفجور واتخذ نموذجاً لهذا العصر أبا نواس ووالبة ومسلم بن الوليد وأمثالهم من شعراء اللهو والعبث . واعتمد في كتاب الأغاني على كثير من الأحكام التي أصدرها من غير تخرج ولا احتياط ، على هذا العصر » .

ويقول الدكتور زكي مبارك في كتابه النثر الفني : والدكتور طه حسين وجرجي زيدان قد أساء فهم العصر العباسي ، وأنها قد تورطتا في الخطأ حين وصفاه بأنه عصر إلحاد ومجون وقد رماه من طرف واحد حتى بأن حكمهما هذا إنما قلدا الأصبهاني الذي لم يرسم العصر العباسي إلا على لوحة خلق معدنها من الكذب والتقوية وصيغت مادتها من الضلال والبهتان .

وقال الأستاذ إسماعيل حسين ( الكوكب ١ يونيه سنة ١٩٢٦ ) أن كل ما ذكرته في حديث الأربعاء يرغب في معاداة القضية ويغري بارتكاب الرذيلة والاثم وينشر الإباحية ، فإنك لم تذكر للعرب سوى الزندقة والمروق والإلحاد والنساء والغزل المذكر ، ولقد كنت هداماً شنيعاً للعرب الذين لم يخلق الله نفسية أعز من نفوسهم وعزومة أشد من عز ماتهم الصادقة » . وأشار الدكتور عبد الحميد سعيد إلى خطورة حديث الأربعاء في حديثه في مجلس النواب المصري عام ١٩٣٣ .

• • •

## حقيقة أساسية

ليس معنى الحديث عن الزندقة والمجون في المجتمع العباسي أن المجتمع العباسي كان مجتمعاً منحلاً أسلم نفسه للإلحاد والشهوات ، فالإلحاد والزندقة إنما شاعا في طبقة محدودة من الناس . كان جمهورها من الفرس وكانت موجة المجون أكثر حدة ، ولكنها لم تكن عامة في المجتمع . بل كانت خاصة بالترفين ومن حولهم من الشعراء والمغنين ، أما عموم الشعب فإنه لم يكن يعرف زندقة ولا مجوناً بل كان مسلماً بحسن الإسلام يهتدى بأضوائه ويجرى على سنته . .

٢- ويقول أنطون كرم في كتاب ( الأدب العربي ) في آثار الباحثين : عن كتاب ( حديث الأربعة ) : إن أبرز ما عني به طه حسين هو ميله إلى جعل أبي نواس في شعر ذوه وعيبه وخمره ، ابن عصره وجعله في شعره الجدي ابن الأعصر الخواص .

ويقول : إن المؤلف اختط لنفسه أن يجمع بين الأنماط الثلاثة . التاريخي والذاتي والفني . وأن يحاول أن يجمع بين أسلوب سانت بوف وجول ميتر . وتين ، فيجرب فيها جميعاً على غير ما استيفاء للملامح ولا يتسلل إلى الدقائق فإذا به يخطئ طريق المؤرخ الحق في جلاء الشك وتحري الحق الأخير ويخطئ طريقة الذاتيين في تفكيك الذات المبدعة حتى تقتصر فيها على بعض جوانب ويستند إلى الرواية بدل أن يكتشفها في الشعر ويحيي الرواية في الشعر ولا يجعل الشعر شاهداً على الرواية فتراه متحاملاً على بشار يتنكر للالتواء في نفسه ويرد المتناقضات التي تقوم عليها الذات البشرية متجهة في منحى واحد هو منحى الشر والإثم ، ثم إنه أخطأ المنحى الفني إذ ألمع على مواطن الجمال لمعاً عاجله يتسع مداها حتى ينطبق على غير شاعر من الشعراء يقول هذا جميل ، يسر المتناول ، شديد التعقيد ، ولا يدبر القول على سبيل التخصيص فيقع



الحكم هاشياً عاماً خلواً من الدلالة . ويصدف عن التحليل الفني الخاص وبشير من بعيد إلى الألفاظ الحلوة الجرس التي تملأ السمع على استساغة ولا يجاوز تلمس الخصائص ولا يتقصى التحليل .

ونحن نرى أن طه حسين ليس ناقداً له باع في فهم النصوص . وكل ما وجهه إليه الكتاب على مدار أبحاثه يدل على قصور واضح . فهو ليس بصاحب صناعة في النقد ولا في الأدب على وجه التحقيق ولكنه مراسل من مراسل المعاهد التبشيرية العالمية لإثارة الشبهات ووضع السموم في قلب النصوص وهو في هذه البأية داعية الأدب المكشوف الذي يحاول أن يصمم القرن الثاني الهجري بأنه عصر شك ومجون اعتماداً على صورة مسمومة رسمها الأصفهاني لبعض الشعراء المساجنين المنبوذين من المجتمع الإسلامي العريق الخافل في هذه الفترة بطائفة من ألمع رجاله .

وهو في هذا ليس باحثاً متمكناً يستطيع أن يحكم عراطفه . أو يدبر أسلوب التغريب باقتدار ولكنه يكشف نفسه منذ اللحظة الأولى بأنه صاحب هوى وهو يدفع شبهاته بغير تحفظ ولا تخرج ولا احتياط فإذا ردت إليه واحدة بعد أخرى على أنها باطلة لم يسود وجهه ، ولكنه ذهب للبحث عن سموم أخرى، هكذا عاش حياته كلها، فهو قد ذهب في الشعر الجاهلي مذهباً في تزييف الحقائق، ثم حين ينتقل منها إلى حديث الأربعة، يعلن في صراحة أن شعراء المحزون يمثلون عصرهم أكثر من الشافعي وابن حنبل وأبي حنيفة ومن يصدقه في ذلك، ويعتمد على الأغاني ( وصاحبه منهم في عقيدته وخلقه . فهو من الشعوبية المارقين ) ، وقد أجمعت المصادر التي أرخت له وكتابه أنه مثل طه حسين صاحب هوى لا يوثق بروايته وأنه يصرح في كتبه بما يوجب عليه الفسق وهوى شرب الخمر ، وربما حكى ذلك عن نفسه ومن تأمل كتاب الأغاني رأى كل قبيح ومنكر . وكان في خلقه الشخصي مسرفاً أشنع الإسراف في اللذات والشهوات، وما رواه ابن شاذان في كتابه (عيون الأخبار) إن الشيخ شمس الدين الذهبي قال : رأيت شيخنا تقي الدين بن تيمية يضعفه ويتهمه في نقله ويستمول ما يأتي به ، وما ذكره تحت شيء من أوصافه : كان أبو الفرج الأصفهاني وصفاً قذراً ( راجع أيضاً خبر اتصاله بالوزير المهلبى

ص ٢٠ وما بعدها في مقدمة الأغاني ) وما قاله أبو الفرج في مقدمة كتابه  
هتد قوله : إذ ليس لكل الأغاني خبر يعرفه ، ولا في كل ما قاله خبر فائدة ،  
ولا لكل ما فيه بعض الفائدة وإنما هو رونق يروق النظر ويلهى السامع » .

وقد أنكر الباحثون على مدى التاريخ استنادهم على الأغاني إذ ليس  
لروايات الأغاني قيمة تاريخية ، ذلك لأنه لم ينتق أوثق الأخبار من مظانها ،  
ولم ينقلها عن أهل الخبرة مهما ذكر ذلك في مقدمته ، وقد زيف صورة الحياة  
العربية والمجتمع الإسلامي فكانت مصدراً مسموماً للمستشرقين ودعاة التغريب  
يدلون عليها تلاميذهم وتابعيهم ولم يهتم باحث عربي بالأغاني على النحو الذي  
اهتم به طه حسين ووجه إليه تلاميذه ومريديه ومن قبل اعتمد عليه جرجي  
زيدان في رواياته وحين كتب عن الحياة الاجتماعية في عصر الدولة العباسية  
كما اعتمد عليه الأب لامانس في كتابه تاريخ بني أمية والمستشرق فلهوون  
في كتابه المسمى ( الدولة العربية وسقوطها ) وقد جاء الاحتراس عند الباحثين  
في رفض كل ما يذكره عندما لمسوا في شخصيته ذلك الضعف من ناحية  
خلقه .

ولا ريب أن الدكتور زكي مبارك هو من أوائل من نبه في العصر الحديث  
إلى هذه الحقيقة حول الأصفهاني وكتابه الأغاني ( المقتطف م ٧٧ - يوليو  
سنة ١٩٣٠ ) وقد ضم هذا البحث لكتابه ( النثر الفني ) وكان ذلك من أسباب  
حملة طه حسين عليه لأنه حين كان يكشف زيف الأصفهاني أمام الباحثين إنما  
كان يوجه خنجراً إلى قلب طه حسين الذي كان أول من أعلن في كلية الآداب  
اعتبار كتاب الأغاني مرجعاً في دراسات الأدب بالرغم من كل ما عرف عن  
شعوبيته وزندقته وفساد وجهته ، قال زكي مبارك إن « أبو الفرج » قد طعن  
في بعض الروايات التي أوردها ، بل أريد أن أذهب إلى أبعد من ذلك فأزعم  
للدكتور طه حسين أن في الأغاني كثيراً من الأخبار الملفقة التي ربما تكون  
قد جازت على أبي الفرج فأوردها ، ويتساءل زكي مبارك هل يصلح الأغاني  
مصدراً للتاريخ ، ويجب أنه لا يصلح أن يكون المصدر الوحيد ولا أفضل  
المصادر ولا الجامع المانع .

ويدافع التغريبيون أمثال جبور عبد النور ( جامعة بيروت الأمريكية )

عن الأغاني ويتساءل : أمن الضروري إن كان المؤرخ فاسقاً أو مسرفاً شنيع الإسراف في اللذات والشهوات أن لا يكون مؤرخاً وألا يكون صادقاً فيما روى أو يقول أو يكتب !

ونقول له نعم . فهو قد شهد بفسق صاحبه وفي منهج الفكر الإسلامي أنه زنديق ولا يؤخذ منه وأن هذه النفس المتردية إلى كل هذا الفساد هل بقي فيها شيء يمكن أن يصل منه الصدق أو الحق أو الخير . لقد كانت هناك محاولة مستميتة للدفاع عن الكتاب من دوائر الاستشراق والتغريب ، تحاول أن تعطى الأغاني القوة للصمود في دائرة المراجع ، ولكن كل ذلك قد سقط ، وليس هناك اليوم من يقول إنه يصلح مصدرراً لفهم الحياة الاجتماعية في عصره ، ولا أنه كتاب أدب أو كتاب تاريخ .

\* \* \*

ولكن هل توقف طه حسين في دعوته إلى الزندقة والإباحية والجنس ! لقد ذهب إلى أبعد من ذلك فكتب حياة أبي نواس في أواخر حياته ليصلها بما كتبه عنه في أوائل الشباب ( سنة ١٩٢٦ ) وبينهما أربعة عقود . وكان ذلك في إطار حملة تغريبية واسعة لتأكيد أبي نواس ونشره بين شباب الإسلام ( حيث كتب عنه العقاد وعبد الرحمن صدقي والدكتور الزويبي وطه حسين ) ونشر ديوانه محققاً ، وإحياء أبي نواس لإحياء الدعوة إلى الخمر وإلى الجنس وإلى الإباحية تذكر بعصبة المخان : بشار ومطيع وحجاد عجرد والخليع ، كل هؤلاء وصفوا الخمر وغلوا في وصفها وقالوا عنها ما لم يسبقوا إليه ، وكان أبو نواس إلى إسرافه في الخمر والعبث شعوبياً حاقداً على الإسلام ويبطن حقه عليه محقد ظاهر على العرب فهو مقرر في التفكير لهم والسخط عليهم ، وقد اتخذ أبا نواس رمزاً للاستهتار والازدراء بكل شيء وإهدار كل قيمة .

كل هذا أذاعه طه حسين وتوسع فيه ، وقال إنه لا يخاف من أثره على الشباب وإن أذاعة هذا كله لا تفسد أخلاقهم ولا ميولهم

ونحن نتساءل : إذن فلم اهتمام طه حسين وإصراره على دراسة هذه الأشعار الخبيثة والنفس المريضة التي قالتها ، إلا أن يكون ذلك هدفاً مبيتاً

يراد به إذاعتها من جديد ووضعها في يد الشباب المسلم لتحطيم معنوياته ولتصرفه عن الطريق إلى الأصالة وإلى فهم التحديات التي تحيط بأمنه ، لقد كان ذلك خطوة في طريق هدفه المبيت إلى الأدب المنحل التي سار فيها إلى النهاية وتبعها بعد ذلك بخطوتين :

الأولى : ترجم شعر بودلير المايجن .

الثاني : ترجم القصص الهرنسي الداعر .

### ( ٣ )

كتب الأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني في كتابه قبض الريح ص ٦٣ وما بعدها ما يلي :

ولقد لفتني من الدكتور طه حسين في كتابه ( حديث الأربعاء ) وهو مما وضع وقصص تمثيلية - وهي ملخصه ، أن له ولعاً بتعقب الزناة والفساق والفجرة والزنادقة ، وقد يفكر القارئ أنه أدخل القصص التمثيلية في هذا الحساب ويقول إنها ليست له وأن كل ما له فيها أنه ساق خلاصة وجيزة لها ، وهو اعتراض مدفوع لأن الاختيار يدل على عقل المرء وبشئ جهواه كالأينكار سواء بسواء ، وأن يختار المرء ما يوافق ويرضاه ويحمله عليه اتجاه فكره حتى لا يسمعه أن يتخطاه ، ولست بمأزح حين أنبه إلى ذلك وما هو حديث الأربعاء : ماذا فيه ، فيه كلام طويل عن العصر العباسي ، وللعصر العباسي وجوه شتى وفي وسعك أن تكتب عنه من عدة وجهات ولكن الدكتور طه حسين يدع كل جانب سوى المنزل والمجون ويرون يزعم لك أنه عصر مجون ودعارة وإباحية متغلغلة إلى كل فرع من فروع الحياة فلماذا ؟ لأية علة يقضى على الجوانب الأخرى لتلك العهد ، بل قل لماذا لا يرى في غير المساجين والخليعيين صورة منه ، ولست أفترى عليه فإن القائل في الصفحة السابعة والعشرين (١) من كتابه : ادرس هذا العصر درساً جيداً ، واقرأ بنوع

(١) غير طه حسين بعد الحلقات المتعاقبة عليه ترتيب كتابه فجعل هذه الفصول في الجزء الثاني وقدم في الجزء الأول مقالات كتبها بعد ذلك بعشر سنوات .

نخاص شعر الشعراء وما كان يجري في مجامعهم من حيث تدهشك ظاهرة غريبة ، هي ظاهرة الإباحة والإسراف في حرية الفكر وكثرة الازدراء لكل قديم سواء كان هذا القديم ديناً أم خلفاً أم سياسة أم أدباً ، فقد ظهرت الزندقة وانتشرت انتشاراً فاحشاً اضطرت الخلفاء من بني العباس إلى أن يبسطوا بالشعراء والكتاب لأنهم اتهموا بهذه الزندقة وظهر ازدراء الأدب العربي القديم والاعادات العربية القديمة والسياسة العربية القديمة بل ظهر لزدراء الأمة العربية نفسها وتفصيل الأمة الفارسية عليها وكانت مجالس الشعراء والكتاب والوزراء مظهراً لهذا كله ، وليس يعني أن تكون النهضة السياسية الفارسية وحرصها على الانتقام من العرب والاستئثار دونهم بالسلطان مصدر هذا التغير ، وإنما الذي يعني أن هذا التغير قد وجد وقوى حتى ظهر في الشعر ظهوراً جعل إنكاره مستحيلاً ) .

ولم يكتف الدكتور طه حسين أن يعتمد على طائفة معينة من شعراء العباسيين وأن يرسم من سيرتهم صورة يزعمها ، صرورة العصر بل هو ينكر أن غير هؤلاء من العلماء أو الشعراء يمثل العصر العباسي وأقرأ قوله في ( صفحة ٥٠ ) من هذا الكتاب .

( فقد بيناً في ذلك الحديث أن هؤلاء الشعراء كانوا يمثلون عصرهم حقاً وكانوا أشد تمثيلاً وأصدق لحياته تصويراً من الفقهاء والمحدثين وأصحاب الكلام وأن هؤلاء العلماء على ارتفاع أقدارهم العلمية ومنازلهم الاجتماعية والسياسية وعلى أن كثيراً منهم كان ورعاً مخلصاً طيب السيرة لم يأمنوا أن يكون من بينهم من شك كما شك الشعراء ، ولها كما لها الشعراء واستمتع بلذات الحياة في عصره ، كما استمتع بها الشعراء في جهرهم ) .

وهل يقف الدكتور هنا ويقنع بهذا القدر ، كلا يا سيدي . بل يجري إلى آخر الشوط ، ويقول في الصفحة التاسعة والثلاثين من كتابه :

( خسرت الأخلاق من هذا التطور وريح الأدب ) فلم يعرف العصر عصرأكثر فيه المحون وأتقن الشعراء التصرف في فنونه وألوانه كهذا العصر ، ثم كان من كثرة المحون أو بعبارة أصح ، كان من فساد الخلق في ذلك العصر والعصور التي وليته أن ظهر فن جديد من الغزل لم يكن معروفاً

في الجاهلية ولا في صدر الإسلام ولا في أيام بني أمية ، وإنما هو أثر من آثار الحضارة العباسية هو أثر أنشأته هذه الحضارة الفارسية عندما خالطت العرب أو عندما انتقل العرب إليها فاستقر سلطانهم في بغداد ، وهذا الفن الجديد هو الغزل بالغلمان الذي سنحدثك عن خصائصه في غير هذا الفصل ) .

إذا سمعت رجلاً يقول إن الأخلاق فسدت وخسرت وأن الأدب ربيع من وراء ذلك أفلا ينهض لك العذر إذا قلت أنه ينغم عن هذا الفساد ويسرغ هذه الحسارة ، نعم بلا ريب ، وأنت تحس من كلامه الرضى والابتهاج . ومن الذى لا يشعر بذلك حين يقرأ قوله في عقب ما سقناه لك :

وإنما الذى يعنيننا الآن أن نلاحظه أن هؤلاء الناس الذين وصفنا لك ما وصلوا إليه من شك في كل شيء وعبت بكل شيء وإسراف في المحون واللهو كانوا يجتمعون ويجمعون كثيراً ، أكثر مما كان يجتمع أسلافهم ، وكانت اجتماعاتهم ناعمة غضة فيها اللهو وفيها الترف . كانوا لا يجتمعون إلا على لذة ، إلا على كأس تدار أو لثم يقترف . وكانت اللذة والإثم حديثهم إذا اجتمعوا ، يتحدثون فيها شعراً ونثراً . وكان الدين واللغة والفلسفة حديثهم أيضاً ولم تكن اجتماعاتهم تخلوا دائماً من النساء ، فقد كان الإماء الطريقات يأخذن منها بنصيب عظيم ، وكانوا يجتمعون في الحانات والأديرة وفي بيوت الأمراء والوزراء وفي بيوتهم الخاصة فيلذون ويتحدثون . . . ) .

ثم مضى يورد سير أبي نواس ومن إليه مثل الوليد بن يزيد ومطيع بن إياس وحامد عجرى والحسين بن الضحاك والبة بن الحباب وإبان ومروان بن أبي حفصة ويقول في بيان الحكمة في ذلك أنه لا يريد أن يكتفى بالقول ( بأن القرن الثاني للهجرة على كثرة ما عاش فيه من الفقهاء والزهاد وأصحاب الشك والمشفوقين بالجد إنما كان عصر شك ومحون وعصر إفتتان وإلحاد عن الأخلاق والعادات الموروثة والدين أيضاً وإنما أريد أن أشخص حياة هؤلاء الشاكين المسرفين في المحون تشخيصاً لا يجعل إلى الشك فيها سبيلاً ، ثم أريد أن أبين أن هؤلاء الشاكين المسرفين في المحون ، إن سقط عليهم نفر قليل من الفقهاء وأصحاب الزهد فقد كان الناس جميعاً على اختلاف طبقاتهم وأهوائهم ومنازعهم يحبونهم ويميلون إليهم . . وإذا كان الناس بهم معجبين وعندهم راضين ،

أقول : إذا كان الأمر على هذا النحو فليس عندى شك فى أن العصر الذى عاش فيه هؤلاء الشعراء وهؤلاء الناس الذين كانوا يعجبون بهم لم يكن عصر إيمان و يقين فى جملته ، وإنما كان عصر شك واستخفاف ، وعصر مجون واستهتار بالذات ( ١ . هـ ) ص ١٨٤ ، وحسبنا هذه المقتطفات التى تعمدا الاستكثار منها لينتفى كل شىء فى أن الدكتور يلج فى إثبات ما يذهب إليه وأن هذا رأى الذى عن له وعالج إثباته مستغفرى لذهنه وأنه يصرفه عن أصالة الفكر فى كل جانب آخر من جوانب الحياة فى ذلك العصر .

ولا يسمح لنا ما نقصد إلى تبيينه حتى لا يختلط الأمر ، ونكتفى بملاحظة واحدة هى أنه ما من عصر يمكن أن يكون له جانب واحد كما يريد أن يصور لنا العصر العباسى ، وأنه لم يخل زمن قديم أو حديث من مثل ما يصفه الدكتور طه حسين .

• • •

وننتقل إلى قصص الدكتور ولنبدأ بقوله : فأنا أعتز بأنى لا أختبر هذه القصص عفواً ، وإنما أختبر منها بنوع خاص ما من شأنه أن يهز العاطفة ويلد العقل أو يدعو إلى العناية والتفكير . فليس فى الأمر مجال للتأول والتحجج والاحالة على الاتفاق والمصادفات فإن العمد هنا معترف به ومن العسير أن نلخص هذه القصص الكثيرة فى أسطر قليلة ، هذا مطلب لا سبيل إليه ، وعلى أنها قصص متداولة ، فحسبنا أن نقول دون أن نخشى اعتراضاً أنه ما من قصة منها إلا وهى تنطوى على نوع أو أنواع ( الخيانات ) أو مما يسميه الدكتور طه حسين ( الشر والنكر ) ويقول الدكتور طه حسين أنه إنما كتبها وجمعها ونشرها لأنه يريد أن يطلع قراء اللغة العربية على نحو من أنحاء الأدب الغربى ولأنه يرغب ( أن يكون لهذه القصص وما فيها من الآراء الفلسفية والمذاهب الفنية المختلفة أثر فى نفوس الأدباء والذين يعنون منهم بالتمثيل العربى خاصاً يحملهم على أن يعنوا بهذا الفن الناشئ فى أدبنا عناية ترفع شأنه وتجعله خصباً مفيداً .

وللقارئ أن يسأل : لماذا يؤثر الدكتور طه حسين ( نحواً ) آخر من ( أنحاء ) الأدب الغربى وليس هذا كل ما فيه ولا هو خير ، لماذا عنى على وجه الخصوص بقصص الزناة والزواني ومحكابات الجهاد - كما يقول

هو بين العواطف والشعور من جهة وبين العقل من جهة أخرى ، بين العواطف والشعور الفردية من ناحية وبين القانون والأوضاع الاجتماعية من ناحية أخرى ، بين العواطف وبين الواجب وبين العقل وبين الدين ثم بين القانون وبين الدين أيضاً .

ألا يرى أن صنيعة هذا في اختبار هذه القصص كصنيعة في اختبار من كتب عنهم من العباسيين ، فكما أنه ترك أبا تمام والبحترى والشريف ومهيار والمنتبي والمعري من فحول شعراء العرب وفضلائهم ووقع على أهل المخون والخلاعة والاستهبال . كذلك لم يبتق من كنوز الأدب الغربي إلا هذه القصص الخافلة بضروب ( الآثام والمنكرات ) حتى حين يلخص قصة دانمركية لا تكون هذه القصة إلا من هذا النوع ) .

#### ( ٤ )

كذلك فقد تناول الدكتور حلمي على مرزوق في كتابه تطور النقد والتفكير الأدبي الحديث في قضية حرية الأديب ومشكلة الفن والأخلاق في كتابات طه حسين فأخذ على طه حسين تبعيته المذهب الحتمية التاريخية أو الجبر التاريخي الذي أدار عليه بحثه عن ( أبي العلاء ) مستمداً مفاهيمه من كتاب الغرب الذين يرون أن الكاتب وما يكتب نسيج من العسل الاجتماعية وأن الرذيلة والفضيلة متزوجات من مثل الزاج والسكر ، وقد أثبت المذهب الطبيعي الذي اعتنقه ( تين ) والدكتور طه حسين أن الفضيلة والرذيلة ليستا إلى حد كبير إلا نتاجاً لعملية تلقائية من الأحاسيس والقلوب ، وأن التاريخ مثل علم الحيوان قد اهتدى إلى قواعده التشريعية ، وقال أن الدكتور طه حسين غير منهجه بين كتاب أبي العلاء وبين كتاب ( الشعر الجاهلي ) وأشار إلى دعوة الدكتور طه حسين إلى حرية الأديب والصدق في الأدب ويستشهد فيها بأبي نواس وأحزابه الذين اقتحموا قيم الخلق والدين واندفعوا بصورون الغزل وغزل الغلظة والخمر ومجالس اللهو وهم جماعة المحارون وأن هذا في نظر الدكتور طه حسين مجازاة الأديب للعصر ، وهو ما أمل عليه كلمة المشهورة ( خسرت الأخلاق من هذا التطور وريح الأدب ) .



وقال إن قوله هذه المشهورة أثارت عليه الناس فأخذ عليه رفيق العظم شططه في الحكم والتقدير ورماه المازني بالانحراف الخلق الذي يسوغ الرضى بالانحلال والمنافحة دون الفساد .

ولا شك كان الدكتور طه حسين يريد أن يضع مذهبه هذا المنحرف في أسلوب علمي خادع حين دعا إلى مجازاة العصر والدوق ، وعبر عن ذلك بقوله إن الصدق الفني هو أن تكشف عن مشاعرك بلا مواربة ولا انتقاص ولا شك أن الدكتور طه حسين كان مبالغاً ومشتطاً حتى وصف أي نواس بأنه يدعو إلى الصدق ، هذه الدعوة التي لا تمثل إلا الاستخفاف بالدين والاستهتار بالفضيلة .

وبرى الدكتور حلمي مرزوق : أن حرية الأديب لا جدال في إطلاقها ولكن الخطر هو في قصرها على عاطفة دون عاطفة ، أو وجدان دون وجدان فضلاً عن عاطفة الهوى ووجدان الشك والمجون .

« وأخطأ الخطأ أن يرحى إلينا الدكتور طه حسين أن الأخلاق من مواضع الحياة الجامدة كأنها وليدة الإرادة العمياء فهي فرض مكروه وإلزام أعمى يقتضى الحرب والإنكار ، والقاعدة الأخلاقية ليست على هذا الجمود المزعوم وإنما تكن وراءها آفاق من الشعور لا حصر لها ، فهي خلاصة موقف إنساني متشابك الأطراف أو هي أبعاد تجربة لا يمتنع أن تكون تجربة فنية خالصة .

وسيطل الناس كذلك يعززون بالفن الأصيل ويتمثلون بشعر الشعراء في مختلف الشئون ومواقف التصرف والسلوك وذلك أفعال في خلق العرف وتصحيح الأخلاق .

« فالقاعدة الأخلاقية إذن ليست من قبيل المواصفات العمياء ، ولا الضوابط الجامدة وإنما شأوها شأو الفن وليدة التجربة العميقة التي يقع بها صاحبها على الصلات الحقيقية بين الأشياء وشواهد الصلة بين الفن والأخلاق شائعة معلومة ، في تواريخ الآداب والفنون ، ونراها ماثلة للعيان فيما يجري بيننا من شعراء المتنبي وأمثال شكسبير ، ( على أن طه حسين حينما يصرف الأدباء عن الأخلاق إنما يقع في العيب الذي يأخذه بهم ، فهو يشتط في نفس الحجر

على المشاعر ويقع هو فيه . وأى حجر أشد من الوقوف بالفضائل والأخلاق بعيداً عن الفن ، فلا ينبغي للأديب أن يقر بها وإلا كان أدبه ( قديماً من قوارير ) تصطلح عليه علل الكذب وأدواء التصنع . وينتقن عنه سمات العصرية أو الأدب الحديث والوجدان الديني بعد شأنه في الأدب شأن غيره من الأحاديث ومشاعره النفسية لا ينقده ناقد ويكون له في قضية الحرية نصيب . على أنه سيظل ماثلاً في الأذهان أن الحرية قد تفضى لا محالة إلى ما دعا إليه طه حسين من الخروج من الاعتراف والمواصفات وينتهي إلى التعبير الحر عن الأهواء والاندوات وتلك جهة ستثير عندنا مشكلة الفن والأخلاق .

## ٢ - مشكلة الفن والأخلاق :

يقول الدكتور حلمى مرزوق : إن دعوى الاختلاف بين الفن والدين أو الأخلاق نشأت بين أتباع نظرية الفن للفن ومرد الاختلاف إلى اعتبار الفن نوعاً من التعبير لا أزيد ولا أقل فلا عبرة بالموضوع في ذاته وإنما العبرة بمقتضيات التعبير ، فالفنان لا حجر عليه في تصوير ما يشاء من المشاعر والأحاسيس ، اتفقت مواصفات الجماعة وإعراف الناس أم خرجت عليها ، فالفن لا يخضع لغير قانون التعبير ومن ثم جاء تعريفهم للفن بأنه تعبير .

ومن هنا أيضاً نشأ التضارب وما سار عليه طه حسين فيما أسلفنا من قوله ( خسرت الأخلاق وريح الأدب ) وهو موقف يوحى به ظاهر المذهب وعنه شاع هذا الخطأ حتى أصبح تبريراً لكل تبذل مقصود ، وحجة يسوقها ( أنصاف ) الفنانين بين يدي الانحلال ، يريدون أن يصفوا عليه ثوباً من المشروعية الزائفة ، ينفقونه بها في سوق الغباء الفني ، فغاية المذاهب الحققة تخلص الأدب من القيم الدخيلة عليه ولم يكن قصاراه أن يقف من الأخلاق أو الأديان موقف التناقض ، والتدابير الذى وقفه طه حسين ، ولقد أدرك الدكتور مندور هذا الخطأ الشائع بين أتباع هذا المذهب فثار به وصادره .

يقول : وشاع اسم هذا المذهب في فرنسا وغير فرنسا وجرى من ملبسه التاريخية حتى انصرف إلى معان لم يقصد إليها من قالوا به في أول الأمر ، فن الناس من يظن أن الفن للفن ( هو الخروج على قواعد الأخلاق ، والضرب على غير هدى فيما يسمونه الأدب المكشوف وهذا فهم خاطئ ، ومن الواجب

أن نفهم من مدلول هذا المذهب فهماً تاريخياً حتى يتبين حدوده ، والحكمة التي دعت إليه ) .

وتحرير هذا المذهب أن التجربة الشعرية غاية في ذاتها وقيمها مستمدة من وجودها بعيداً عما تشتمل عليه من أفكار أو معان ، ولا أظن هذا الموقف يوحى بالهجرة بالخروج على الأخلاق وإنما هو موقف فني سلبى خالص يريد أن يقيم للأدب دولة داخل دولة الحياة ، وليس أدل على انعدام قصد الخروج من اشتقاق مصطلح بخصوصه أرادوا به جلاء اللبس وإزاحة الشبهة ، وذلك المصطلح هو ( اللاأخلاق ) ويريدون به البعد عن الأخلاق أو الذي لا شأن له بها ، وعندى أنه لا تضارب على الإطلاق بين الفن والأخلاق . طالما أن أن الفن بالغ غايته وخلصت له فنيته من عوارض الضعف والزغل التي تعرض لأنصاف الفنانين وأجدر هذه العوارض هو عجز الفنان من هؤلاء عن أن يقع على الروابط الصحيحة والعلاقات الحقيقية بين الأشياء ) .

وهكذا انكشفت أهداف الدكتور طه حسين من وراء عباراته المأكرة المموهة ، إنها ترى إلى هدم القيم الأخلاقية وإعطاء الأديب والفن حق الاندفاع وراء مفاهيم الشهوات بغير حد محدود .

ومن هنا نعرف دعوته إلى تحرير الأدب من الارتباط بالإسلام ودعوته إلى تحرير اللغة من الارتباط بالإسلام .

أما هو فيقول ( الدين ) ونحن نقول ( الإسلام ) لأننا نفهم الإسلام فهماً جامعاً ( منهج حياة ونظام مجتمع ) أما هو فيحاول أن يحيلنا على مفهوم اللاهوت المسيحي الذي انفصل عنه الأدباء ليدخلوا في الغرب تجربة الإباحة والجنس ونحن في مفهوم الإسلام نفهم الأدب وهو متصل شديد الاتصال بأصله ومصدره الفكر الإسلامي ، فلا نستطيع أن ننفصل عنه ليجرى بعيداً عن ضوابط القيم والأخلاق .

• • •

## (حديث الأربعاء)

يمثل كتاب حديث الأربعاء مجموعة مقالات نشرها (١) الدكتور طه حسين في جريدة ( السياسة ) عام ١٩٢٤ تناول فيها عدداً من الشعراء الإباحيين الغزليين أمثال « أبو نواس » و « بشار وواليه والخليع ومن إليهم » .

وقد حاول الدكتور طه حسين في جماع هذه المقالات أن يفرض فرضاً باطلاً زائفاً قوامه أن القرن الثاني للهجرة كان عصر شك واستهتار ومجون اعتماداً على وجود هؤلاء الشعراء فيه ، وأن هؤلاء الشعراء يمثلون عصرهم بأقوى وأعمق مما يمثله الفقهاء والعلماء والزهاد وقد اعتمد في ذلك على كتاب الأغاني الذي ليس مرجعاً صحيحاً يمثل العصر لأن صاحبه حدد هدفه وهو الحديث عن الأغاني ولا يجوز أن يحكم على المجتمع الإسلامي في العصر العباسي من قراءة كتاب الأغاني الذي ألفه صاحبه لأخبار المحان والشعراء .

وقد عمد طه حسين في هذا الكتاب إلى إشاعة الفاحشة إذ تتمثل فيه الرزيلة بأبشع مظاهرها - على حد تعبير الدكتور عبد الحميد سعيد - وتظهر فيه نفسية الرجل بما يشرحه بعناية خاصة وإطنا من قصص المحبون والفجور بأسلوب جذاب وبطريقة خلابة تؤثر في الناشئ المسكين وتزين له سبيل الفساد وتحجب له الانغماس في الشهوات بعد أن شوه له الدين وتعاليمه ومثله أمامه تمثيلاً لا يرغب فيه وأعطاه صورة مشوهة منفردة عن قاموا بالدعوة

---

(١) أعاد الدكتور طه ترتيب هذه المقالات فقدم في الجزء الأول في الطبعة الأخيرة مقالات أخرى نشرها عن الأدب الجاهل في جريدة الجهاد ( يناير عام ١٩٣٥ ) وما بعدها ، وأخر مقالاته الخاصة بشعراء الغزل إلى الجزء الثاني وأبقى على المقدمة التي كتبها عام ١٩٢٤ للفصول التي أخرجها إلى الجزء الثاني . وقد استهدف من ذلك إزالة بعض آثار الطبعة الأولى من النفوس ، وقد كانت هذه الفصول هي الأساس فيما وجه إليه من نقد ومعارضة لآرائه الإباحية .

إليه ولم يترك مسبة إلا نسبها إليهم فقد طعن في الخلفاء والعلماء من عطاء الأمة الإسلامية ، وشوه تاريخ الإسلام بحيث لم ينبج من مطاعنه إنسان ولم يحظى باهتمامه في عصر الدولة العباسية الزاهر إلا هؤلاء الشذاذ من أهل الخجون والفحش حيث جعلهم مرآة ذلك العصر ، أما أولئك المصلحون من أهل الفضل والرأى الذين أقاموا صروح المدنية في العالم ورفعوا أعلام الفضيلة وأقاموا معاملها في سائر الأنحاء فلم يذكرهم بخير بل خلط عليهم من المساوئ والشتائم والسباب ما أثبت التاريخ أنهم بريئون منه ، وما لا يصدق فيه إنسان حتى لو كان من أعداء الدين الألداء .

إن عظمة التاريخ الإسلامي في عصوره الزاهرة لا ينكرها إلا جاحد في قلبه غل على الإسلام ، فطه حسين آلى على أن يشكك فيما يكاد يبصره من عطاء التاريخ الإسلامي المكتوب ، وما الموضوع من أخباره الشاذة المطعون فيه فإنه يبحث عنه في كل بؤرة ويلتقطه .

هذا هو رأيه في العصور الزاهرة للإسلام التي تفخر بها كل الفخار إن هذا الكتاب - حديث الأربعاء - ليروج بالأمثلة ، أمثلة الفسق والفجور والتهتك والاستهتار ويدعو إليها ويحض عليها ، وأن ما ذكره من قصص أبي نواس وجماعته لينفر من ذلك الأدب الذي يدعى أنه يحترمه ويحميه ، فقد جاء في ذلك الكتاب من مخالفة الآداب والحض على الفجور والفسق ما يهدم الجبال الراسيات ويقوض أركان الفضيلة ويهدم صرح الأدب . ومن أمثلة ذلك قوله :

( كان أبو نواس وأصحابه على فسقهم ومجونهم يتدينون وقيمون الصلاة ، ولكنهم كانوا يعيشون في هذا كما يعيشون في غيره ، وربما قضاوا الوقت الطويل عاكفين على الفجر ( بضم الفاء ) ثم يذكرون الصلاة فيقيمونها ولعلمهم أقاموا الصلاة في مثل هذا الحال يوماً وأهمهم أحد الندماء فغلط وهو يقرأ ( قل هو الله أحد ) فاستحالت الصلاة من خشوع الله إلى استهزاء بهذا الإمام الجاهل . إلى أن قال : وإذا أردنا مثالا يختصر هذا العصر ويشخصه فهذا المثال هو أبو نواس الذي نتخذ من درسه سبيلا إلى درس العصر كله ) .

وقد عد مجاهرة أبي نواس بالمعصية ضرباً من الصدق وعدم الجهر بالمعاصي نوعاً من الكذب لأنه إخفاء للواقع .

#### مفهوم التجديد عنه طه حسين :

ويقول الدكتور محمد أحمد النمر اوى : إن طه حسين لم يجد في الأدب القديم ما يستحق أن يبعث وينشر إلا أخبار المحدثين الذين ابتلى بهم الأدب العربي كما ابتلى الأدب الفرنسي بأمثال أوسكار وايلد ، نغى أبا نواس ووالية والخليج ومن إليهم ، ممن نشر طه حسين أخبارهم في ( حديث الأربعة ) ومن الغريب أن تلك الأخبار الأجنبية والأشعار المساجنة قد عرضها صاحب الكتاب في ثوب البحث الأدبي باسم التجديد كأن البحث والتحديد في الأدب ستاران تحارب الفضيلة من ورائه ، ووسيلة للدخول إلى النفوس بما لم يكن أولاً تلك الوسيلة تداخلها عليها .

وصاحب الكتاب قد دل بكتاباته على أنه ممن يرى إخلاء الفن من قيود الفضيلة فلا يكون هنالك على الفنان حرج في أن يصور الرذيلة كيف يشاء بريشته أو قلمه ما دام يصور ما كما هي . وهو مذهب تنزه عنه من أهل كل فن عظماءهم ، وحاربه من أهل كل زعماء الإصلاح فيه : أمثال كارليل ورسكن وماثيو أرنولد .

وأن العربية وآدابها إنما قاما حول جماع المكارم ومنبع الحياة والنور : القرآن والحديث وكنا نحس دائماً أن ما في كتب ( المحاضرات ) كالأغاني والعقد التي استغل صاحبها الكتاب والأدباء جانبها المجهول ( كنا دائماً نحس أن ما فيها من التطرف بهجر القول غريب عن روح هذه اللغة بعد الإسلام حقق ألا يلحق بأدبها ، ولعلنا لو تتبعنا تاريخها من هذه الوجهة نجد روح الطهارة يغلب عليها في كل عصر يكون أهله أقرب منه إلى القرآن وروح التجديد والتأثر تغلب من كل عصر على أكثرهم مجانية للدين وأبعدهم عن القرآن وهذا شيء لا غرابة فيه في لغة مدينة للقرآن بما لها من وجود وبما كان لها من قوة وبيان وإعجاز .

#### كتاب الأغاني :

وقال الدكتور زكي مبارك إن الدكتور طه حسين وجرجي زيدان قد أساءا فهم العصر العباسي ، وأنهما زلا وتورطا في الخطأ حين وصفاه بأنه عصر الحاد ومجون ، وأنهما في حكمهما قد قلدا الأصفهاني الذي لم يرسم

للعصر العباسي إلا لوجه خلق معدنها من الكذب والتمويه ، وصبغت مبادئها من الضلال والبهتان .

وقال : إن شهوة الاطلاع كانت في نفسه لاكتشاف الجوانب السيئة في حياة الشعراء والكتاب خلقت في كتابه جواً من المحزون وقال إن الدكتور طه حسين يستقي آراءه في العصر العباسي من شيئين :

الأول : كتاب الأغاني .

الثاني : شعراء الماجنين من الشعراء .

أما شعر الأغاني فصاحبه محدثنا في المقدمة بأنه قصد في كتابه اللوم والتسليفة قبل أن يقصد العلم والتاريخ . أما شعر الماجنين وحياتهم فلا ينهضان دليلاً على فساد عقيدة العصر العباسي وأخلاقه .

والدكتور طه حسين يناقض نفسه حين يقول : وكان هؤلاء الزنادقة يعلمون سخط الكثرة المطلقة من الناس على زندقتهم وإن كانت الكثرة تجهل حقيقة هذه الزندقة ) .

#### عصر الفقهاء لا عصر المجان :

وقال الشيخ محمد عرفة : لقد توصلت إلى حكك العام على العصر الثاني باستقراء حال طائفة من الأدباء والشعراء والمترفين فرأيت فيهم الشاك والمجان فأخذت العصر بجريرة هؤلاء وحكمت بأن العصر : عصر شك ومجون وأن تصبح طائفة ووجدانها على صفة لا يعطى منطقياً الحكم على عصرهم جميعاً بأن فيه تلك الصفة ، ولو كان ذلك الاستقراء القليل منتجاً لذلك الحكم العام لخرجنا بحكمين متناقضين على ذلك العصر وعلى غيره من العصور . فإننا إذا تتبعنا سيرة الفقهاء والمحدثين والزهاد في هذا العصر وجدناهم على مرتبة عظيمة من اليقين والورع والاحتشام ففهم الحسن البصري وعمرو بن عبد ومحمد بن إدريس الشافعي ومالك بن أنس وأبو حنيفة النعمان ومالك بن دينار وعبد الله ابن المبارك وربيعة الرأي ورابعة العدوية وابن سيرين والشعبي .

وما فهم إلا من ملك نفسه ، وكان أنفع الناس للناس ، وسيرتهم في العلم والزهد والتقوى يعرفها من عني بدرس حياتهم ، فطائفة الفقهاء والمحدثين

مؤمنون متحشمون وطائفة الشعراء والأدباء فيهم شك واستهتار فإذا أردنا أن نحكم على العصر فسيبيلنا أن نتعرف أطيافه الفقهاء والزهاد والمحدثين وهم يمثلون عصرهم ويعطون صورة صحيحة عنه ، أم طائفة الشعراء ، إن القارئ للأغاني يخيل إليه من كثرة ما يذكره من مجون هؤلاء أنهم في جو يسيل فسقاً ومجوناً وإلحاداً ، ولكن لو نذكر أن صاحبه إنما عني بتاريخ طائفة فقط : هم الشعراء والمغنون وليس ذلك تاريخاً لسائر العصر لحى نفسه من التورط في الحكم وأن هناك عوامل خاصة جعلت كثيراً من الشعراء المهتمين ماجنين ، ونقرأ فيما تقرأ أن هؤلاء الشعراء كانوا يرون أنفسهم غرباء يتخلفهم عن ذلك العصر وأنهم شذاذ فيه وكانوا يسعون بما لديهم من قوة لمحو القالة عنهم .

#### مذهب فاسد :

وقد واجه العلامة المؤرخ رفيق العظم هذا الاتجاه الذي ابتدعه طه حسين وكشف عن زيفه وأبان أن مثل كتاب الأغاني لا يصلح كمرجع من مراجع التاريخ وأن ما ينسب إلى الرشيد والمأمون من الاستمتاع واللذائذ أو المتاع يجب أن يختلط في تقديره ، وعنده ( أن الحقائق التاريخية لاسياً في تاريخ الإسلام تشبه الدر بين أشواك تحتاج لمن يريد استخراجها من تلك الأشواك ، إلى أناة وروية ونظر في وجوه السلامة من أذى الشوك . ويرى أن كتب القصاصيين ( التي اعتمد عليها طه حسين في كتابه حديث الأربعاء ) قد حفلت بأخبار كاذبة نسبها شيع العباسيين إلى خلفاء بني أمية وأخبار نسبها شيعة آل علي إلى خلفاء بني العباس ، وهي من أحط ما ينسب إلى خلفاء أو ملوك كانوا في مثل مرتبتهم من العزة والمنعة وبسطة الحياة والملك وكان من المحال أن يكونوا من انحطاط الأخلاق والسيرة إلى المنزلة التي أنزلهم إليها الرضاعون ويدوم لهم طويلاً ذلك الملك العريض والشهرة الذائعة في التاريخ .

وعنده ( أننا لو سلمنا بكل ما جاء في تلك الكتب والأقاصيص واعتبرناها أخباراً صحيحة ليس فيها شائبة من شوائب الكذب والاختلاق والتلفيق لكان لنا أقبح مثال من أمثلة العصور الإسلامية الأولى التي نعتبرها من مفاخر تاريخنا الغابر المجيد .



وأشار رفيق العظم إلى ظاهرة القصص والقصص الذى استشرى في المجتمعات الإسلامية والتي كانت تشغل الناس في العصور المختلفة وكيف أن واضعها وضعوها لأغراض وبواعث تجارية أو سياسية أو دينية ، أما الأغراض التجارية فهي الكسب والانتفاع ، إذ من المعلوم أنه لم يكن في القرون الأولى للإسلام من وسائل التسلية وأماكن اللهو العامة ما يقضى فيه العامة أوقات الفراغ . ومن هنا أخذ الأذكىاء في وضع قصص تحكى في المجتمعات فيلهوا بها العامة فكان فيها المختصر المبعثر في ثنايا الكتب ومنها المطول المجمع في كتب على حدة ، ولما استنطاب الناس أمثال هذه القصص والأخبار وأصبحت ضرورة من ضرورات الحياة تنافس الرواة والقصاصون في تدوين الأخبار ووضعها تارة مجموعة وتارة متفرقة في كتب الأدب كأخبار العشاق والشعراء والبخلاء والكرماء وغير ذلك ، فكان منها الغث والسمين ، ومنها المتفق والقريب من العمة ، وقد غالى بعض الإخباريين في إيراد أخبار المجنون والبهتك والانغماس في الشهوات مغالاة تكاد تشهد على نفسها بالغلو والتلفيق لما فيها من العبث بالأخلاق والتجرد من معنى الأدب الذى أخذ به الشعراء والأدباء المنسوبة إليهم بسبب كبير يتنافى ما ينسب إليهم من إطراح رداء الحشمة والمروءة ) .

هذا هو الحصاد الضخم الزائف الذى اعتمد عليه أمثال طه حسين وغيره في محاولة رسم صورة للعصر الأموى ووصفه بأنه عصر الشك والمجون وهو في تقدير رفيق العظم إنما هو تلفيق قصص يراد بها به أحد أمرين : إما تشويه سمعة بعض الخلفاء العباسيين كالرشيد والمأمون ، وإما سد نهيمات العامة إلى أمثال هذه القصص المخزية والروايات الملفقة .

وهكذا نجد أن طه حسين تميز بدعوته إلى أمرين :

#### الشك والإباحية :

وأنه يعتمد في ذلك على مصادر تافهة لا قيمة علمية لها أساساً في إذاعة مذهبه وترويجه لدعوته التغريبية الضالة .

\* \* \*

## الفصل الرابع

### أخلاقية الأدب

هذه قضية من أكبر القضايا : قضية مفهوم طه حسين للأدب في ضوء مفهوم الإسلام ، فإلى أى حد يمكن للأديب أن يكون حراً وإلى أى حد يصل (الصدق الفني) ، وهل نحن كمعرب ومسلمين يمكن أن نقبل بالنظرية الإباحية الغربية التي روح لها طه حسين وتوفيق الحكيم وغيرهما ، وهي نظرية إطلاق الكلمة دون أن تكون لها ضوابط من الأخلاق الإسلامية ، وفي هذا المجال نعود فتتحدث عن مفهومه في الفكر الإسلامي في الرابطة بين وبين روافده وفي مقدماتها الأدب حيث لا يمكن أن ينفصل الأدب بنفسه ويستعمل على الضوابط والقيم التي رسمها الإسلام وفي مقدماتها أخلاقية الأدب والتزامه بالأداء في حدود الوجهة الصحيحة ، مدافعاً عن الخير والحق والجمال والفضيلة ، ومعلماً الأخلاق عن الجمال ، ومن أجل أن لنبيع طه حسين نظريته في إباحية الأدب اختار لها ما يسمى (الصدق الفني) وهو تعبير زائف يراد به أن يكتب الشاعر والأديب والفنان الصورة الواقعية بما فيها من إباحيات وسموم وزيف وما هكذا رسالة الأدب في مفهوم الإسلام ٥

ومن أجل دعوة طه حسين إلى (إباحية الأدب) في مواجهة (أخلاق الأدب) فهو يدعو إلى عدة معاني مضللة وزائفة كالواقعية وكحرية الرأي .

(وأنه يرى هذه الحرية كحرية «أبو نواس» فيقول إن أبا نواس وأضرابه لم يبلغوا ما بلغوه في النفوس إلا باقتحام هذه العقبة وفكرة تلك العقود ، وهو يرى أن حياة الدين كانت تجذب العرب إلى الوراء بينما تدفعهم الحضارة المسادية إلى الأمام .

ويرى أن هؤلاء الشعراء هم أول من استجاب لدواعي التطور والنزول على حكم هذه الحضارة والاستمتاع بملاذمها ما يرضى الدين وما لا يرضى الدين وصدقوا الناس فيها القول فراغوا بشعرهم وكثر طلابه والمعجبون به

وهذا ما أُملي عليه قولته المشهورة :

« خسرت الأخلاق في هذا التطور وريح الأدب » .

ولا ريب أن مفهوم طه حسين هذا مفهوم ضال ومبطل وزائف ، ودخيل على الفكر الإسلامى والأدب العربى ، وقد أخذ عليه كثيرون شططه فى الحكم والتقدير ، فعلى حد قول السيد رفيق العظم ورماه الأستاذ المازنى بالانحراف الخلقى الذى يسوغ له الرضى بالانحلال والمنافحة .

وقال الدكتور حلمى على رزق : أى شطط ومغايرة أنكى من قوله : « فلم يكن أبو نواس يدعو إلى ( الصدق ) لأن الدعوة إليه ترضى الدين أو ترضى الفضيلة ، وإنما كان يدعو إليه لأن الدعوة إليه ترضى الذوق وترضى الجمال الفنى ، والاستطراد هنا إلى الدين والفضيلة من اللغو والإطناب ، ولا ينبغى إلا عن الاستخفاف بالدين والاستهتار بأمر الفضيلة ، وهكذا أصبح الدين والعرف والأخلاق على يديه قيوداً يقامى الأدب باختراقها والجرأة عليها ) .

ويقول الدكتور حلمى على رزق : إن حرية الأدب لا جدال فى إطلاقها ولكن الخطأ فى قصرها على عاطفة دون عاطفة أو وجدان دون وجدان ، فضلاً عن عاطفة الهوى ووجدان الشك والمجون ، وأخطأ الخطأ أن يوحى إلينا طه حسين أن الأخلاق من مواضع الحياة الجامدة كأنها وليده الإرادة العمياء التى نادى بها شوبنهاور فهى فرض مكروه أو إلزام أعمى يقتضى الحرب والإنكار . ولا ريب أن القاعدة الأخلاقية ليست من قبيل الموصفات العمياء ولا الضوابط الجامدة ، وإنما شأوها شأو الفن ، وليدة التجربة العميقة التى يقع بها صاحبها على الصلات الحقيقية بين الأشياء ، وشواهد الصلة بين الفن والأخلاق شائعة معلومة فى توارىخ الأدب والفنون ونراها ماثلة للعيان فيما يجرى بيننا من شعر المتنبي وأمثال شكسبير ، على أن طه حسين عندما يصرف الأدباء عن الأخلاق ، إنما يقع فى العيب الذى يأخذهم به فهو يسقط فى نقي الحجر عن الشاعر ويقع هو فيه وأى حجر أشد من الوقوف بالفضائل والأخلاق موقفاً بعيداً عن الفن فلا ينبغى للأديب أن يقر بها وإلا كان أدبه ( قديماً من قوارير ) تصطبغ عليه علل الكذب وأدواء التصنع ، وينتفى عنه

ميمات العصرية والأدب الحديث ولا ريب أن الوجدان الديني يعد شأنه في الأدب شأن غيره من الأحاسيس ومشاعر النفس، لا ينبغي ناقد ولا يكون له في قضية الحرية نصيب ، على أنه سيظل ماثلاً في الأذهان أن الحرية قد تنفضى لا محالة إلى ما دعا إليه طه حسين من الخروج عن الأعراف والمواضعات وينتهي إلى التعبير عن الأهواء والندوات .

ولا ريب أن مشكلة الفن والأخلاق من أعرض المشاكل الأدبية فهي تقتضى النظر في ماهية الفن والأخلاق فضلاً عن النظر في طبيعة النشاط الفنى والجمالى ، وصلته بطبيعة النشاط الأخلاقى ومكان النشاطين من ملكات النفس ، ولا ينكر ما تتقاضاه كل مشكلة من الجهد منفردة فضلاً عنها مجتمع بعضها إلى بعض عن اختلاف الرأى فيها ، وخلاصة القول أن دعوى الاختلاف بين الفن والدين والأخلاق نشأت من اتباع نظرية ( الفن للفن ) ومرد الاختلاف إلى اعتبار الفن نوعاً من التعبير لا أزيد ولا أقل ، فلا عبرة بالموضوع ذاته وإنما العبرة بمقتضيات التعبير فالفنان لا حجر عليه في تصوير ما يشاء من المشاعر والأحاسيس اتفقت مواضعات الجماعة وأعراف الناس أم خرجت عليها ، فالفن لا يخضع لغير قانون التعبير ، ومن هنا نشأ التضارب وسار عليه الدكتور طه حسين فيما أسلفنا من القول ( خسرت الأخلاق وربح الأدب ) .

وهو موقف يوحى به ظاهر المذهب وقد شاع هذا الخطأ حتى أصبح تبريراً لكل تبدل مقصود وحجة يسوقها أنصاف الفنانين بين يدى الانحلال ، يريدون أن يصفوا عليه ثوباً من المشروعية الزائفة ينفقونه بها في سوء الغياء الفنى ، فغاية المذهب الحققة تخلص الأدب من القيم الدخيلة عليه ولم تكن قصاراه أن يقف من الأخلاق والأديان موقف التناقض ، والتدابير ، الذى وقفه طه حسين .

## ( ٢ )

ويعرض الدكتور محمد أحمد الغمراوى لقصة إطلاق الأدب عرضاً تاريخياً يكشف خلفية الدعوة التى حملها دعاة التغريب وفى مقدمتهم طه حسين فيقول :

لأنهم نفر تثقفوا ثقافة غربية من غير أن يكون لأكثرهم من الثقافة الإسلامية نصيب مذكور ، والعلم الذى ظهر فى الغرب هو فى الإسلام جزء من الدين ، والذين جاءوا بعد محمد عبده ضلوا سبيل الدعوة وصدقوا الغرب فى ظنه الذى ظن بالإسلام من أنه كان سبب تأخر الشرق ولم يطبقوا أن يهاجموا الإسلام مواجهة بدعوة الناس صراحة إلى نبذه . وعمدوا إلى مهاجمته مداورة بدعوة الناس إلى قبول كل ما عليه الغرب . إن كانوا يريدون أن يكون لهم للغربيين من قوة وحياة ، وزعموا للناس أن المدنية الغربية كل لا يتجزأ ، فلما أن تؤخذ كلها أو تترك كلها ، ولما أن تؤخذ باجتماعياتها وأدبياتها وعلمياتها ولما لا يؤخذ منها شيء ، ونجحت حركة الالتفاف الذى يقوم بها دعاة الغرب ضد الإسلام فى نفوس من أصغى إليهم من الناس حين ألبسواهم إلى أن يميزوا أنفسهم ذلك التمييز بين القوة والحياة .

والمسألة بين القديم والجديد كما يسمونها ليست مسألة اختبار بين أدب وأدب ، وطريقة وطريقة ، ولكنها مسألة اختبار بين دين ودين ، فالذين يسمون أنفسهم أنصار التجديد يؤمنون بالغرب كله ويريدون أن يحلوا الناس على دينهم هذا ولو خالف الإسلام فى أكثره ، والذين يسميهم هؤلاء : أنصار القديم يؤمنون بالإسلام كله ، وبالقرآن كله ، ويأبون أن يؤمنوا ببعض ويكفروا ببعض ، وأن يدينوا للغرب مؤمنين به من دون الله .

ثم إن أنصار الجديد يضيقون ذرعاً بالقيود الأخلاقية التى قيد الدين بها الناس فيما يعملون أو يقولون ، ويريدون أن يتحللوا منها فزعموا للناس أن هذه الأخلاق وقيودها إن هى إلا عرف وتقاليد ، وأن التقيد بالعرف والتقاليد فى الفن والأدب يعوق الفن ويحول دون ترقى الأدب ، فيجب إذن إطلاق الفن وتحرير الأدب من تلك القيود ، وأنصار الجديد يدعون إلى الفن العارى والأدب المكشوف ويدعون للفنان والأديب حرية فى القول والفعل لم يأذن بها الله لإنسان وأنصار قديم الإسلام يدفعونهم عن هذا ويجدون حرية الفنان والأديب بما حد الله به حرمة كل إنسان من قيود الدين والأخلاق .

ومضى أنصار الجديد فى سبيل توهين السد الإسلامى الذى يجدونه قائماً فى وجوههم أينما تلفتوا فزعموا للناس من طرف خفى أن القرآن من صنع

عبرى لا من صنع الله وأنه آية فنية إنسانية لا معجزة إلهية وإذن فينبغى أن يخضع لما يخضع له كل عمل إنسانى من النقد والفحص والبحث العلمى فيما يزعمون ويهب لدرء هذا الإفك العظيم كل كرم من رجال الأدب ويقاتلونهم على إعجاز القرآن وحرمة وتقديسه ويدعونهم إلى خطوة إنصاف ليس من إنصاف بعده . إما أن يتركوا القرآن وشأنه لا يتعرضون له بشيء إن كانوا لا يؤمنون به ، وإما أن يذكره ويدرسوه إذا قدروا على دراسته ، ولكن بنفس روح الاحترام والاحتياط والإجلال الذى يدرس به العلماء الشمس والنجم والبحر وما عليها من الظواهر الكونية الثابتة .

ويتحدث الدكتور محمد أحمد الغمراوى عن الفن فيقول إن للإسلام مقياس يعرف به الخير من الشر فى الفنون وهو كميّار معرفة الحق والباطل فى العلوم ثم يضى فيقول : إن أصحابنا المحددين يعرفون من كلمة الدين كأنما تسمعهم من اسمه النار ، إن المسألة فى الدين ليست مثلها فى الأدب الذى يكتبون كلاماً لا يرجع فيه إلى أصل لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وهو القرآن ، ونحن مأمورون أن نرد كل ما يختلف فيه إلى الله والرسول . إن المسلم الذى يفقه دينه ويفقه الحياة أينما نظر لا يجد مفراً من أن يصل هذه الحياة ، أدبها وفنّها وعلمها بالدين كما أنزل الله ، أى كما يتبين من القرآن ومن عمل الرسول ، إن الإسلام دين يشمل الحياة بجزأها وبمحيطها من جميع أطرافها ، ومن أخص خصائصه أن يكون الإنسان فى خلجات نفسه مع الله ، والمظهر العام للإسلام هو طبعاً اتباع ما شرع الله للإنسان فى الحياة من نظم وأحكام . كيف يجوز فى غزيرة أو عقل أو علم أن يجمع الإنسان بين الحياة الإسلامية والحياة الفنية والأدبية والعلمية إن لم يكن بين الفن والأدب والعلم وبين الإسلام تمام التطابق والاتفاق ، والتطابق التام بين العلم والإسلام ثابت لا شك فيه ، فليس من الثابت فى العلم شيء ينقض شيئاً من الإسلام ، وليس فى الإسلام أصل ينقض حقيقة ثابتة فى العلم ، إن الفطرة كلها منشأها واحد هو الله سبحانه وتعالى ، والعلم والدين كلاهما قد اجتماعاً على استحالة التناقض فى الفطرة ، فإذا كانت هذه الفنون من روح الفطرة كما يزعم أهلها وجب ألا تخالف أو تناقض دين الفطرة : دين الإسلام فى شيء ، فإذا خالفه

في أصوله ودعت صراحة أو ضمناً إلى رزيلة من أمهات الرزايل التي جاء بها الدين لإيجابها على الإنسان حتى يبلغ ما قدر له من الرقي في النفس والروح ، إذا خالفت الفنون الدين في شيء من هذا أو في شيء غير هذا ، فهي بالضرورة التي تخالف بها الدين فنون باطلة ، فنون جانبية للحق ودابرت الخبر وأخطأت الفطرة التي فطر الله عليها الناس والخلق ، والتي تريد الفنون أن تكون منها في الصميم ، فإذا كان من شأن بعض ما يعمل أو يكتب باسم الفن أو الأدب أن يتجاوز في تأثيره ما سبق على القيم الأخلاقية فيحول بين الإنسان وبين ربه ويدخل عليه الشك في دينه بأي صورة من الصور ، ولأي حد من الحدود ، كان ذلك البعض المعمول أو المكتوب باسم الفن أو باسم الأدب زوراً أو إفكاً في الفن والأدب والفطرة والدين على السواء . فنحن حين ندعو إلى وجوب نزول الأدب والفن على حكم الدين وروحه ونحريمهما التطابق العام بينهما وبينه لسنا نتعنت ولا نتجنى ولا نتحكم في الأدب والفن بما لا ينبغي التحكم به فيهما . إننا نوجد معياراً للحق والصواب والخير في الفن والأدب ونيسر للفن والأدب طريق التثبت في انطباقهما على الفطرة التي فطر الله الناس عليها ، ونحقق لهما بذلك اتحادهما مع الفطرة في الصميم ، ونحن بذلك الذي ندعو إليه . ونقوم بواجبه نحقق بين الفن والأدب وبين الدين تلك الوحدة المتحققة في الدين والعلم .

فالمسألة في الأدب ليست مسألة لفظ ومعنى ، ولكنها في صميمها مسألة روح ، فريق يريد أن يجعل روح الأدب روحاً شموانياً بحيث يتمتع صاحبه بما حرم الله وما أحل ، لا يفرق بين معروف ومنكر ، ثم يصف ما لقي في ذلك من لذة وألم أو غيرهما من ألوان الشعور ، ويخرج ذلك للناس على أنه هو الأدب ، وفريق يريد أن يحيا الحياة الفاضلة في حدودها الواسعة التي حددها الله بمظاهرها المختلفة في الفطرة كما طهرها الله لا كما دنسها ويريد أن يدنسها الإنسان .

ويتحدث الدكتور محمد أحمد الغمراوي عن الأدب الأخلاقي والأدب غير الأخلاقي فيقول : المقياس الذي انتهينا إليه في الفن والأدب ليس من البعيد عن الفن والأدب بل هو من روح الفن والأدب في المنهج ، أليس

روح الفن والأدب : الجمال ، أليس الجمال الفنى روح الجمال الإنسانى  
أليس روح الجمال النفسى أخباته وأخلاده وإسلامه لله، من هذا الأخبات  
والأخلاد والانقياد لله تأتى الفضيلة والسلامة والسعادة فى الحياة ومن محبة الله  
سبحانه يشيع فى النفس الهدى ويشع منها النور كيف يمكن إذن أن يكون  
للأدب المكشوف نصيب من روح الجمال الإنسانى يستهوى النفس التى فيها  
بقية من الفضيلة والخير ، هذا الأدب المكشوف يصدم أول ما يصدم مقر  
الفضيلة فى النفس ، ويرثى أول ما يرثى حاسة الجمال النفسى فى الإنسان  
وهو فى صميمه أدب غير جميل ، يلده ويسمع به من مسخه نفسه فصارت  
تعاف الطيب وتستمرئ الخبيث .

• • •



## الفصل الخامس

### الترجمة

محاول طه حسين أن يثبت أن الأدب العربي في حاجة إلى مترجمات من الآداب العالمية وفي مقدمتها اللغة الفرنسية والأدب الفرنسي ، وهو يذهب إلى أن يقتحم هذه الغاية فتقدم أسوأ ما في الأدب الفرنسي من نتاج حيث اختار في جميع مترجماته الأدب الفرنسي المكشوف .

وهو كى يدارى وجهته يدعو إلى النقل من الآداب العالمية كلها ، لا الأدب الفرنسي وحده ويبدأ هذه المحاولة بأن ينشئ مقارنة بين الأدبين العربي والفرنسي فيعلن أن الأدب العربي قد أخذ من الأدب اليوناني القديم فلا بأس عليه من أن يأخذ من الأدب الغربي الحديث . ثم يذهب خطوة أخرى فيجرى مقارنة بين الأدب العربي والأدب الفرنسي فيشيد بالأدب الفرنسي والتبعية واضحة في الغاية وفي الوسيلة أيضاً .

« تسألني عن الفرق بين الأدب الفرنسي والأدب العربي ، فأني في ذلك لا أختلف من المستشرقين الذين بحثوا هذا الموضوع وهو في الواقع فرق بين ما بين العقل السامى والعقل الآرى ، فالأدب العربي سطحي يقنع بالظواهر والأدب الفرنسي عميق دائم التغلغل . . وفي الأدب الفرنسي وضوح وتحديد لا وجود لهما في الأدب العربي . . إلخ .

وهو في هذا يردد ما قاله أكبر أعداء الإسلام والعرب (رينان) وهو ينطلق من هذه المحاولة المبجلة إلى الدعوة إلى نقل الأدب الفرنسي ، ولما كان لكل أدب أمة مميزاته وخصائصه المندمثة من حياة هذه الأمة وعقيدتها وأخلاقيها فلأن هذه المقارنة باطلة أساساً ، كذلك فإن طه حسين حين ينقل فلإنما ينقل أسوأ ما في هذه الآداب ، ينقل ذلك اللون المكشوف الداعر الذى لا حاجة للأدب العربي به ، والذي لا يستطيع أن يعطى إلا الفساد والتحلل ، وهو

فى كل ما نقل من الأدب اليونانى والأدب الفرنسى جرى هذا المجرى .  
وذهب إلى أبعد من ذلك حين حاول أن يهدم قاعدة أساسية وهى أن الأدب  
لا ينقل دائماً كما تنقل العلوم ، وأن لكل أمة آدابها المستمدة من قيمها  
وعقيدتها وتقاليدها .

ولكن يذهب إلى الدعوة لغير ذلك فيتحدث عن أن الأدب الفرنسى  
لم يقف هذا الموقف ، ونحن نعرف أنه أخذ من الآداب الأوروبية المشتركة  
معه فى الدين والأخلاق والقيم ، ولكنه لم ينقل من آداب غير مشتركة معه  
فى هذه الأصول ، ونحن بالنسبة للأدب الفرنسى نختلف ديناً وأخلاقاً وقيماً  
فلا يحق لنا أن ننقل أو نفتتح باب الاقتباس فى هذا المجال : مجال الأدب  
ونستطيع أن نفعل ذلك فى مجال العلوم فهو وحده الميدان الذى تتواصل فيه  
الأمم .

ويهدف طه حسين من دعوته تلك إلى هدف حثيث ، وهو أن يدخل  
مناهج الأدب الأجنبى فى اللغة العربية لتغلب ثقافتنا العربية الإسلامية  
وتتأزجها نفوس المسلمين والعرب وتؤدي خدماتها للنهوض الأجنبى فى حمل  
الفكر والثقافة .

وفى هذا يقول الدكتور محمد أحمد الغمراوى :

يوسفنا أنه ومن لف لفه يسوقون الأدب العربى فى غير طريقه ، وبأسونه  
ثوباً من غير نسجه ، كان الدكتور طه ومن معه يريدون أن يسوقوا الأدب  
إلى الافتتان بالأدب الفرنسى خاصة ، والغربى عامة حتى يفضل طريقه .  
أى صلة بين المنقول من الأدب الفرنسى : وبين روح هذه الأمة ، ويذهب  
طه حسين إلى الترجمة فلا يقدم إلا الشهوات والسموم ، هذا فى مجال القصص ،  
ولا يكتفى بهذا ، بل يذهب إلى مجال ترجمة الشعر الفرنسى ، ويختار شعر  
أشد شعراء فرنسا إباحتاً ونذالة : شعر بودلير ، ويقدم هذا الشعر بأسلوب  
عجيب حيث يقول :

أنا أقف بك الآن عند هذه المقطوعة القصيرة من شعر بودلير التى سماها  
(خلوة إلى النفس) والتى تحدث فيها إلى أمه .

وكما قدم أبا نواس فى حياته المضطربة المليئة بالإثم والفاحشة ، فهو يقدم

لك بودلير تحت اسم الحرية والفن ، ويتحدث عن ديوانه ( أزهار الفن )  
الذى وقف من أجله الشاعر أمام القضاء .

ويقول لقد أثارت حياة بودلير مسألة من أدق المسائل التى سيظل الخلاف قائماً فيها أبداً بين الفرد والجماعة ، هذه المسألة هى مسألة الحرية والفن .  
ويتساءل : هل للفن أن يستمتع بحريته الكاملة بالقياس إلى الأخلاق  
والسياسة والدين وما إليها من النظم الاجتماعية .  
ويتساءل مرة أخرى : هل يستطيع الفن أن يتخذ الشر موضوعاً ونستخلص  
منه صوراً فنية جميلة . .

هذه هى السموم التى أدخلها الدكتور طه حسين إلى الأدب العربى عن  
طريق الترجمة ، تلك هى عمله على أن يعرض تلك الصور التى سماها ( الصور  
البشعة التى يحسها الشم واللمس أو البصر فى الأجسام المهلكة المستهلكة ) ، هذا  
هو ما يرغب طه حسين إدخاله إلى الأدب العربى عن طريق الترجمة .  
أمام آثاره فى هذا من القضايا فقد واجهناه بالرد الحاسم فى الأبواب الأخرى .

## ( ٢ )

وقد حرص طه حسين من خلال برنامج التفرغ الواسع أن يقدم فى  
جريدة السياسة يوم الأربعاء شعراء المهجورين ، وأن يقدم يوم الإثنين القصص  
الفرنسى المكشوف .

وقد كان هدف ذلك تقديم شحنة ضخمة من الإباحيات من التراث القديم  
ومن الأدب الحديث ، وقال مستر ( جب ) : إن القصص الذى ترجم لم يترجم  
ترجمة سليمة ولم يراع فى اختياره حالة مصر الاجتماعية ولا حالة الثقافة العامة  
ولا الذوق الأدبى للبلاد كما ندد بالترجمات التى نقلت من اللغة الفرنسية ووصفها  
بأنها استهدفت الإثارة دون المنفعة ، وأنها عملت على نقل الصور المكشوفة .  
وقد لقيت هذه القصص نقداً عنيفاً من عدد من النقاد فى مقدمتهم الأستاذ  
إبراهيم عبد القادر المازنى . الذى يقول :

نخذ إليك مثلاً تلك القصص الفرنسية التى لخصها طه حسين من آن لآن  
يلهى بها كثيراً من النشء ويضل بها كثيراً . هل ترى بينها وبين روح  
هذه الأمة صلة أو بينها وبين روح هذه اللغة صلة ، وإذا لم يكن فهل فيها

شيء يخلو من عناصر الفضيلة والطهارة الروحية في هذه الأمة ويعينها على سبيل العزة الذي تريد . ما نظن أحداً دخل تلك القصص وخرج منها وهو أقرب إلى الفضيلة والعفاف منه قبل بدئها وهذا أهون ما يمكن أن يقال عنها ولو كنا ضاربين مثلاً لضربنا مثلاً : ( الزنينة الحمراء ) التي ألفها - أنا قول فرانس كان فيها من المعاني ما كنا نظن أن أستاذاً يستحي أن ينقله للناس أو أن مجلة مثل ( الهلال ) تنشره عليهم ولكننا نأني أن تشير بأكثر من هذا . وصاحب الكتاب - أي طه حسين - قد دل على أنه يمين يرى إطلاق الفن من قيود الفضيلة فلا يكون هناك على الفنان جرح في أن يصور الرزيلة كيف يشاء بريشته أو بمناقشه أو بقلمه ما دام يصورها كما هي ، وهو مذهب شاع حديثاً في أوروبا وأعان على انتشاره أن يجد عوناً من الجانب الحيواني في الإنسان وأنه وسيلة قوية لنيل الشهرة وجمع المال ، وفيما يتصل بأثر طه حسين في الترجمة ما قام بترجمته من بودلير الشاعر الفرنسي والمعروف أن بودلير شاعر منحرف الذات والذوق وأن هناك عشرات من الشعراء ذوي الفن العالي والذوق الرفيع يمكن الترجمة لهم ، وفي إحدى هذه القطع يقول طه حسين ناقلاً عن بودلير : ( كذلك نفسك التي يحرقها برق اللذة الملتهب تبدو سريعة جريئة نحو السهوات الواسعة المشرقة ) .

ويقول الأستاذ المازني : ( اقرأ قصصه التي ترجمها : هل كان همه نقل الفصاحة الإفرنجية إلى قراء اللغة العربية أو نقل الصور الفاضلة في ثيابها المصونة ، إنما كان همه مدح الخيانة والاعتذار للخنونة وتصوير الخلاعة والمخون في صور جذابة ليقتضى بهذه الترجمة حق الإباحية لا حق اللغة ولا حق الفضيلة ، وكان طه حسين يقول : إنه ممن خلق الله لهم عقولاً تجد في الشك لذة وفي القلق والاضطراب رضاء ) .

ولقد أعلن طه حسين أكثر من مرة رغبته في ترجمة الفلسفات الأوروبية كما كان حريصاً على ترجمة شكسبير ، وقد أصدرت اللجنة الثقافية في الجامعة العربية مجموعة من الكتب عن إدسون ، وول ديورانت وغيرهما تبين منها أبعاد الخطة لإذاعة مفاهيم صهيونية ترمي إلى تدمير القيم الإسلامية والعربية وكانت الجامعة العربية في هذا وكأنها تنسق مع اليونسكو وفرانكلين وغيرها مما يلود بولاء الدكتور طه حسين ويجري في مصر تحت مظله ونفوذه .

## الفصل السادس

### نقد الشعر

هناك إجماع بنصوص صريحة من العقاد وزكي مبارك ومحمود محمد شاكر الذي كتب فصلاً مطولاً في هذا في مقدمة كتابه ( المتنبي ) أن طه حسين قليل الخبرة في فهم الشعر ونقده . وتجمع نصوص أخرى على أنه في كل معاركه التي دخلها عن الشعر كان موقفه ذاتياً وكان يصدر عن هواه الشخصي ولم يكن يملك من الأدوات ما يمكنه من حسن النظر ولا يملك من التماسك الشخصي ما يمكنه من سداد الرأي .

وموقفه من ناجي وعلى محمود طه واضح تماماً في هذا الصدد . فحين أحس بأن خصومه السياسيين أثنوا عليهم حمل هو عليهما حملة عنيفة وكذلك كان موقفه من محمود أبو الوفا . وكان العقاد والماساني قد أثريا على ناجي وعلى محمود طه وكان الرافعي قد أثني على ( محمود أبو الوفا ) وكان لابد للدكتور طه أن يعارضهما لحزازات قديمة أو خلافات سياسية .

وقد علق على هذا الأستاذ سيد قطب بمقالات نشرت في مجلة الأسبوع ( يوليو عام ١٩٣٤ ) وقال طه حسين في الرد عليه : ( إنه لم يوفق إلى الصواب حين ظن في أنني أثأثر فيما أكتب بمنافسة أو ضغينة أو حقد . فאלله يشهد أنني أبعد الناس عن هذه المؤثرات وأتأهم عن هذه الخصال ) .

وكان سيد قطب قال في مقالة : إن طه خبيث على ما به من طيبة . وقد أجاب طه حسين : والكاتب الأديب يخطيء كل الخطأ ويتبرع بالإساءة إلى حين يظن أنني خبيث رغم ما أظهر من الطيبة فلست أدري أطيّب أنا أم خبيث ولكن الذي أعرفه ولا أحب للكاتب أن ينكره على هوأني لا أحب الخبيث ولا أتخذ سبيلاً فيما أكتب . وقال سيد قطب : إنه لم يقل : ( إنك خبيث على رغم ما تظهر من الطيبة ولكني قلت : إن طه خبيث على ما به من طيبة ) . وما أردت أن أقول : ( إنك خبيث ) ولكنك تتظاهر بالطيبة

قَادَانِي الشخصية وحدها تمنعني كما قلت من أن أقول هذا وإنما أردت أن أقول : إن بك خبيثاً كما أن بك طيبة وما أظنني أَرْضِي لك يا دكتور أن تكون رجلاً طيباً فقط ليس بك شيء من الخبث يحمي هذه الطيبة فأنت تعلم من هو الرجل الطيب فقط وما أظنك تَرْضاه لنفسك ولو كنته ما أفلحت في حياتك وما رقيت منبر كلية الآداب ، ولا رقيت منبر النقد ، وما كنت الدكتور طه حسين ولكان مكانك اليوم في واد آخر غير ما أنت فيه ، أنك خبيث يا دكتور رغم ما بك من طيبة .

أما أن الدكتور طيب أو خبيث ، فهنا موضع لفكاهة جميلة ، فأنا أزعج أن الدكتور خبيث وأن به مع ذلك طيبة وأن هذين العنصرين يتلاقسان في نفسه ، فاما الطيبة فلا أرن أن أسوق الأدلة عليها لأن الدكتور لا ينكرها . وإنما هو يريد أن ينكر الخبث أو أن يتجاهل هذا الخبث ، إذن فدونك البرهان يا دكتور على أنك خبيث ، ولن أبعد بك ولا بالقرءاء في شيء مضى ولن أتناول إلا مقال الأخير الذي ورد به هذا الكلام ففيه جوانب مملأها الخبث وإن كان ظهور هذا الخبث في مواضع تلك حيث لا ينبغي ظهوره هو الطيبة التي أرميك بها ، فأنت تحدثت عن الرسالة وعن الزيات وعن موقفهما معك وعن توفيق الحكيم وأنت قد نغزرت الرسالة وصاحب الرسالة نغزرت بعضها ظاهر وبعضها خفي ، فقد جاء في كلامك : فكتبت في ( جريدة ) الوادي كلمة عتاب يظهر أنها أغضبت صديق الزيات فهو يرد علي في العدد الأخير من الرسالة بكلمة قصيرة جداً ولكنها ثقيلة جداً ، أظن أنه لا يستطيع حملها ، وإن كان قوياً شديداً البأس وأظن أنه لو فكر فيها وتدبر معانيها لأشفق من كتابتها ولكنه أديب فتنة السجع وخلية الإيجاز ، ثم يعود للحكاية السجع والإيجاز مرة أخرى فيقول : ( إن مودة الأصدقاء يجب أن تكون أعلى من بصعة وأنفس من إيجاز ) ، ثم يردد حكاية السجع وحكاية الإيجاز مرة أخرى :

ألا تلمح خبيثاً يا دكتور في هذه الحكاية وفي ترديدها ؟

ألا تحس خبيثاً في تصوير الزيات بأن بصعة واحدة وإيجازاً واحداً يجعلانه يضحى بالأصدقاء ويمودة الأصدقاء وكيف يكون الخبث إذن يا دكتورنا

الطيب ؟ ثم حكاية الدكتور أبي شادي وإهدائه بعض دواوينه إليك بمجرد أن تنهي إليه أنك ستتناوله بالنقد وكتاب شكره ( سلفاً ) على ما سكتبه ( مستقبلاً ) : ألا ترى في ذلك كله خيلاً أو لباقة إن شئت أن تسميها أصدقت يا دكتور . أأنت قد أحسست بالتوريط في صنع أبي شادي وتقربه إليك وشكره لك . . .

على أي يا دكتور : أنت خيبت ورزقي على الله ، وليس هذا الخيب عيباً فيك تبرأ منه ، بل ربما كان أحد العناصر الممتازة التي رفعتك إلى مركزك الذي تدبواؤه الآن بين المصريين .

أضف إلى هذا أن الزيات كانت له من قبل كتب مترجمة وكتب مؤلفة وأبحاث في الرسالة وغير الرسالة ونحن جميعاً وأنت معنا تعلم أن الزيات لم يصطنع السجع والإيجاز في أسلوبه منذ اليوم فقط ولكنه اصطنع لنفسه أسلوباً مضى عليه قدماً ، فما بال نقدك للسجع والإيجاز لم يجعل يحاطرك من قبل كما جال الآن ، وما بال حكاية السجع وحكاية الإيجاز لم ينطق بها لسانك كما نطق اليوم ، وهل نقدك اليوم بعد هذا الأمد كله ببعثه الإخلاص للنقد الخالص أم هي أشياء قوامها بين الأدباء الشيوخ أو الذين يسمونهم الشيوخ ( ١ ) .

وتأسيساً على هذا نقول : إن الدكتور طه بعد وفاة شوقي أعلن بأن إمارة الشعر انتقلت إلى العراق ( حيث الرصافي والرهاوي ) ولم يلبث إلا قليلاً حين انتقل من حزب الأحرار الدستوريين إلى حزب الوفد ، حيث يوجد العقاد كاتبهم الأول فإذا به ينتهز أول مناسبة ليعلن أن إمارة الشعر هي من حق العقاد ولم يلبث بعد قليل أن أهداها مطران .

يقول الدكتور زكي مبارك :

أشعت أن إمارة الشعر بعد شوقي قد إنتقلت إلى العراق ، أخطأت يا سيدي الدكتور ، أن الشعر لمصر حتى آخر الزمان ، أنت نفسك حاولت أن تكفر عن ذنبك فخلعت إمارة الشعر على الأستاذ العقاد وهو أديب فاضل بدليل أنك أهديت أحد كتبك إليه ، ولكنه شاعر صغير بالقياس إلى العبقرية المصرية .

ويحسن أن ننقل هنا نص مباحة طه حسين بلإمارة الشعر للعقاد من خطابه  
في تكريم العقاد (الجهاد ٢٩ إبريل عام ١٩٣٤) :

( ضعوا لواء الشعر في يد العقاد وقولوا للأدباء والشعراء : أسرعوا  
واستظفروا بهذا اللواء فقد رفعه لكم صاحبه ) .

وكتب الأستاذ مصطفى صادق الرافعي يقول :

لأنني حين قرأت كلام الدكتور طه لم أبحث بين ألفاظه عن يقين المتكلم  
واقناعه وحججه وأدله ، بل بحثت فيه عن سخرية طه بالعقاد والشعراء جميعاً  
في أسلوب كأسلوب تلك المرأة العربية في قصتها المعروفة حين قالت لرجال  
قومها في أبيات مشهورة :

وإن أنتموا لم تغضبوا بعد هذه فكرونا نساء لا تغيب عن الكحل  
غير أن طه في سخريته كالذي يقول : فإن لم تثبتوا أن فيكم من استطاع  
أن يخلف شوقي فاصغروا واصغروا حتى يكون العقاد هو أميركم .

ثم قال : بقي أن نتساءل لماذا لم تأت الشهادة يوم كان الدكتور عميداً  
لكلية الآداب وكان يومئذ حراً لا يستزله الإكراه ، ولماذا جاءت الشهادة  
وهو يحترف الصحافة ؟ ترى لو كان العقاد من الحزب الوطني أو من الأحرار  
الدستوريين . أو اتحادياً أو شعبياً أفتكون قوله طه حسين يومئذ وهي في  
انسلاخه الثاني وانقلابه وفدياً - أفتكون إلا رداً سياسياً على العقاد وشعره  
ونفرة سياسية من هذا الشعر وعقاده . ( الأسبوع مجلد عام ١٩٣٤ ) .

غير أن العجيب في الأمر مما يذكر بقصة سيد قطب ( الخبث والطيبة )  
ما كتبه طه حسين في جريدة الجمهورية من بعد :

( أحب أن أؤكد أنني لم أبايع العقاد بلإمارة الشعر وما كان لي أن أبايعه لأنني  
لم أكن شاعراً وإنما قلت : مخلصاً غير محاب ولا متأثراً بالسياسة ولا مستعد  
للرجوع فيما قلت : إن الشعراء يستطيعون أن يرفعوا لواء الشعر إلى العقاد  
بعد أن مات حافظ وشوقي فهو يستطيع أن يحمل هذا اللواء مرفوعاً منشوراً  
وأن تحتفظ لمصر بمكانتها من الشعر الحديث ) .

أما موقف طه حسين من العقاد بعد موته فأعجب . فقد أعلن أنه لا يفهم  
العقريات !



( ٣ )

وقد حمل طه حسين على شعراء النظم وقسى في محاسبتهم ، ولكنه لم يلبث أن شجع كتاب الشعر الحر ودافع عنهم وقال : إن عمود الشعر ليس وحياً قد نزل من السماء .

وهو في هذا يجرى مع غايته وهواه ودعوته في إدخال كل العناصر الأجنبية التي من شأنها أن تقضى على الأصالة ، وموقفه من الشعر الحر أشبه بموقفه من اللغة ومن النحو .

فهو يدعو إلى فتح الأبواب أمام كل جديد دون احتياط ويحمل هذه الفكرة من خلال دعوته إلى ( الثقافة البيضاء المتوسطة ) على النحو الذي أشار إليه عام ١٩٥٧ في مجلة الآداب في حديثه عن الشعر الحر رابطاً ذلك بالأدب اليوناني والثقافة الرومانية ومن خلال مفهومه المنحرف من ترجمة كل شيء دون تحفظ ومن ذلك وصفه حركة الترجمة التي تقوم في لبنان بأنها خعصة وهكذا وضعنا طه حسين في لعبة الثقافات الأجنبية على اختلافها لإفساد قيمنا ومقوماتنا .

• • •



## الفصل السابع

### القصة

كان ظه حسين من دعاة كتابة القصة في الأدب العربي الحديث حتى أنه قال : بأن الأدب العربي الحديث رهن بظهور القصة . فإن لم تظهر فلا أدب ولا أدباء ، وكان ظه حسين قد كتب في عام ١٩٣٢ أنه قابل مسر هاملتون جب المستشرق البريطاني وقد تناول حديثهما الأدب العربي ، وأن جب قال له : إنه ما زال ينتظر القصة المصرية الجديدة ليكتب عنها ويسجل بها نمو الأدب القصصي وتقدمه . وقد رد عليه الدكتور زكي مبارك فقال : إن هذا الحرص له نتائج مشؤمة أيسرها أن يغلب على أدبنا صيغة الانفعال ، الانفعال عدو الفطرة وهو شر مستطير على الآداب والفنون والقصة في جميع الآداب موقوفة على المرأة . وهي لا توجد في أدبنا لأننا لا نعرف المرأة في حياتنا .

من الذي ينتظر ظهور القصة ؟ الجواب : حاضر . ينتظر القصة أحد رجلين : مستشرق يريد أن يزن الآداب العربية بميزان الآداب الغربية ، وشرقي مفتون بالتقليد يريد أن يسار الأجانب في كل شيء ، ومن عجيب الأمران نجد القصصين عندنا في الطبقة الدنيا من أدباء اللغة العربية وللقارئ أن بعدهم واحداً واحداً ، هم جميعاً عالة على الآداب الأجنبية ، يستوحونها بلا فهم ولا تبصر وينقلون منها نقلاً سقيفاً مشوهاً يجرح الأذواق والنفوس . وهو في كتابه القصة يصل إلى نفس الهدف الذي قصد إليه من إحياء الشعر القديم أو ترخلة القصص الفرنسية المكشوفة ، ففي قصته أحلام وشهر زاد أشيع المؤلف — كما يقول زكي مبارك — حاجته العنيفة إلى لذة الشك طليقاً من كل قيد ، فليس في القصة صورة واحدة تثبت على حال ، أو تعبر عن معنى مستقر يسوق إلى غيره ، فتراه يفترض وجود عالم وهمي تنحل فيه المشاكل بالسحر ، ويتدخل السحر في الحرب والسلام ، وقد بلغ

حظه من هذا الفهم أنه وسع دائرة التنفيس عن كوامن نفسه فجعل لمحاوارة عن شهربار وشهر زاد بطانة من قصته عفرينية أخرى تتمشى معها كما يتمشى الظل ، وابتكر لذلك حكايته الملققة عن الملك طهمان ملك الجن وابنته فتنة ، ترى هل لم يجد الدكتور في وسعه لتثقيف المصريين ولإنهاضهم وحل مشاكلهم خيراً من أن يبيعهم هذه الأحلام وهذا السحر الرخيص في مملكة العناريت ( طهمان ) .

وفي قصة ( الحب الضائع ) التي حاول فيها أن يصور المجتمع الفرنسي ، يقول زكي مبارك : يقول الفرنسيون حين يترجم هذا الكتاب إلى لغتهم : هذه بضاعتنا ردت إلينا لأن طه حسين يقتبس ولا يعوزه أن يضني ثوب الابتكار على الاقتباس .

ويجري الحديث بعبارات على لسان فتاة تؤرخ حياتها من مساء إلى مساء ( الآتية مادلين ) وهو كتاب كتب بطريقة يغلب عليها الرمز والإيماء وإن كان غاية في الصراحة والوضوح عند من يساير المؤلف في أشواطه الطوال .

ويرى زكي مبارك - وهو العليم بصاحبه - أن قصة ( الحب الضائع ) ترى إلى تجسيم العقد النفسية ، ويشير زكي مبارك إلى إيماءات في القصة تدل على أشياء لا يريد طه حسين أن يكشف عنها وذيول للقصة ومقاصد يستطيع أن يدركها القارئ في أناة وهدوء .

ويشير إلى أن مادلين في مذكراتها لم تستكشف الحقائق ، ويعود الخطأ إلى طه حسين ، لأنه المنشئ الأول لهذه المذكرات ، ويقول : إنه أضاع فرصة النص على أن مادلين ضلت سواء السبيل وهي تشرح ما تعرضت له من علل وأسباب ، والرأي أن يترك طه حسين أهواء النساء لأحد بنات حواء ، ومن خطأه أيضاً أنه أجرى قصة دعاء الكروان على لسان امرأة ، كما أجرى قصة ( الحب الضائع ) ، ويقول كاتب آخر إن قصة الحب الضائع . تعالج فكرة الصراع بين الحب والواجب وهي فكرة فرنسية عولجت معالجة فرنسية بلغة عربية هي لغة طه حسين ، فالحديث فيها غير بين ، والقصص كلها بلا أحداث .

وهكذا نرى أن هناك ظاهرتين واضحتين : في أدب طه حسين هما الشك والجنس ، ونقل صور الحياة الغربية ومشاكلها إلى الأدب العربي لغير ما سبب واضح غير أنه يريد أن يشوه الأدب العربي بالصورة والمضامين الغربية عنه .

( ٢ )

ولعل خبر ما كتب عن طه حسين والقصة هو ما كتبه الأستاذ فتحي غانم (آخر ساعة - يوليو سنة ١٩٥٤ ) حين قال إن الدكتور طه حسين لا يعرف كيف يكتب القصة القصيرة ، وأن هذه حقيقة يجب إعلانها وتوضيحها لأن لطه حسين تاريخاً قوياً عميقاً في كل من عالم الأدب في مختلف صورته وألوانه . ولو ظل كتاب القصة القصيرة متأثرين بأسلوب الدكتور طه حسين وبطريقته في كتابة القصة - كما كتبها - ( في المذهبين في الأرض ) مثلاً لتأخر ذوقنا الأدبي ووعينا الفني .

إنه يقول : « لا أضخم قصة فأخضعها لما ينبغي أن تخضع له القصة من أصول الفن كما رسمها كبار النقاد ، ولو كنت أضخم قصة لما التزمت إخضاعها لهذه الأصول ، لأنني لا أؤمن بها ولا أذعن لها ولا أعرف ما بدا للنقاد منها يكونوا أن يرسوا إلى القواعد والقوانين مهما تكن ، ولا أتقبل من القارئ مهما ترتفع منزلته أن يدخل بيدي وبين ما أحب أن أسوقه من حديث ، وإنما هو يخطر لي فأمليه ثم أذيعه فمن شاء أن يقرأ فليقرأ ، ومن ضاق بقراءته فليصرف عنه » .

في هذا الكلام غرور صريح وغرور قبيح وهو فوق ذلك فوضى وضباع فطه حسين حر في أن يقول في مقدمته ما يشاء ، وحر في أن يكتب قصصاً لا صلة لها بمقدمته إذا أراد ، ولكنه ليس حرّاً في أن يتعدى حدود الأدب أعني الفن - وليس حرّاً في أن يتجاهل النقاد وليس حرّاً في ألا يحترم عقول القراء ، إلا إذا أراد أن يقول : أنا ، أنا طه حسين أي كلام أقوله أو أنشره سيقروه الناس في إعجاب وذهول وتصديق ، أي كتاب أو مقال عليه اسمي سيقبل عليه القراء في إيمان أعشى وتسليم شائن ، وطه حسين حين يقطع روايته للقصة ليقول مثل هذا الكلام .

إن طه حسين مسئول بمثل هذه القصص عن نكبة مصر في كتابة القصة

وهو مسئول بلغته عن بعد قصصنا عن الواقع الحى . والأسلوب الذى يتخذه طه حسين فى كتابة القصة نقص أدنى لأن الكمال الأدنى يستلزم أن تكون اللغة ملائمة للحياة وهو نقص خلقى لأنه كذب ، كذلك للكاتب على نفسه وعلى معاصريه حقوق . وهو يحكم ظروفه لا يستطيع أن يكون قصاصاً ، فهو ناقد ممتاز فى زمانه وصاحب نظريات فى التعليم ولكن ليس قصصياً ، وكان من المحتمل أن يكون طه حسين شاعراً ولكنه لم يفلح أيضاً فى إبداع الشعر .

فى أثناء هذه العشرين عاماً مضى طه حسين يحطم كناقذ كل محاولة لكتابة القصة فى مصر . وقد استقر فى قرارة نفسه أنه عاجز عن كتابتها وانتقل طه حسين إلى مدرس تخفيف اللغة العربية يصحح أخطاء الكتاب وينباهى بقدرته على لغة قحطان وسيبويه . إن طه حسين الذى عجز عن فن الشعر وفن القصة بدأ يظهر على حقيقته ويعود إلى أزهريته وقد أحس بفشله فى معالجة الفنون التى تصور البيئة المصرية والحياة . إن طه حسين قد انزوى فى حظيرة اللغة العربية وبدأ يئس منهم الذين لا يجيدونها بالكسل ، ونسى معركته مع الرافعى ، وأصبح طه حسين غولاً متربعا على عمادة الأدب وفرضت كنيته على دور النشر تطبعها وعلى وزارة المعارف تشتريها وعلى التلاميذ المساكين يقرؤونها .

ويمضى فتحى غانم فيتحدث عن طه حسين : فيقول .

هل طه حسين ملحد أم مؤمن ، هل هو يؤدى فرائض الدين فيصلى ويصوم ، هل صاحب ( على هامش السيرة ) لا يقرب الخمر ولا يأق من الأفعال ما حرم الله على عبادة الأتقياء الصالحين ، هل طه حسين ديمقراطى أم محافظ أرسنقراطى ، هل هو شيوعى يميل إلى اليسار أم من أتباع الرأسماليين يميل معهم إلى اليمين ، أسئلة وأسئلة حاول الكثيرون الإجابة عنها فاختلّفوا وتضاربوا ولم يصلوا أو لن يصلوا إلى رأى واحد ينتهون إليه ، وقام رجال الأزهر ونواب الأمة وشيوخها وقعدوا وعلى رأسهم سعد زغلول يتنادون بإلحاد طه حسين وكفره ومروقه على تعاليم الدين الحنيف لأنه درس فى الجامعة كتابه ( فى الشعر الجاهلى ) متشككاً فى بعض آيات القرآن الكريم وقام رجال الأزهر وشيوخها مهللين مكبرين لكتب طه حسين التى تعتقد بالإيمان والتدين ،

وكان طه حسين ربيباً لعبد الحالق ثروت وعلى يكن رئيس حزب الأحرار صديقاً لهم يكتب في جريدتهم ( السياسة ) ويعيش في كنف أصحاب البيوتات والأيدى القوية الاستقرائية ويهاجم الحزب الوفدى على شعبيته في ذلك الوقت ويصرح بأنه يحقته مقتاً شديداً ويزدرية ازدراءاً لا حد له . وأنه يخف سياسى منكر . ثم أصبح طه حسين أحد أعوان الوفد الذى يحقته ويزدرية وخطب في آلاف المتعلمين الإلزاميين يصف لهم محاسن الوفد وحكمه ورئيسه وأعوانه ومنذ أعوام استمع آلاف الطلبة في الجامعة إلى طه حسين وهو يقول : نصر الله وجه فؤاد العظيم ، واليوم يقرؤون له مقالات يمدح الثورة التي قضت على الأحرار الدستوريين والوفديين وطردت ابن فؤاد العظيم ، ومنذ سنوات صودرت كتب طه حسين وقيل إنه صديق للشيوعيين وبعده سنوات طالب طه حسين بنشر الأدب الأمريكى في الشرق العربى ، عشرات وعشرات من الأمثلة تدلنا على الذبذبة والحيرة التي عاناها طه حسين وعائنها نحن أيضاً وهو لا يستقر على حال واحد في الدين والسياسة ، شيء واحد قد سكن إليه طه حسين وشعار واحد اتخذته لنفسه ولم يجد عنه أبداً ، هذا الشعار هو الأدب ، فهو يسمح لنفسه أن يتلون في أشياء كثيرة ، وأن يفرط في أشياء كثيرة وأن يساوم في أشياء كثيرة ، ولا يسمح لنفسه أن يتاون أو يساوم أو يفرط في الأدب .

وما نكاد نحمد الله على أننا وجدنا شيئاً واحداً ثابتاً قد سكن إليه طه حسين وأنى أن يتلون أو يفرط أو يساوم فيه حتى نفاجأ مفاجأة مذهلة حين نسمعه يقول : إن الأدب فوضى ، نعم إنه يراه فوضى ولا شعور وشيطاناً غير عاقل يلهم بما يشاء من يشاء .

أنا حريص كل الحرص على أن أكون من أصحاب الفوضى في الأدب لأننى لا أستطيع أن أتصور الأدب على غير هذا النحو .

( لا يستطيع الأدب أن يخضع لنظام أو يدعز لسلطان إلا سلطان هذا الشيطان الذى يلهمه ويوحى إليه ويدفعه إلى الإنتاج ) .

هذا هو أدب طه حسين : فوضى لا شعور ، شيطان شغف بالفن لا بالحياة ، وليس لهذه الكلمات إلا معنى واحداً لا يحيد عنه . هذا المعنى تعبر لنا عنه

كلمات مثل الأنانية والغرور وحب النفس والخوف من الثورة والتجديد إلا بالمقدار الذى يتيح لطله حسين حربته الشخصية فى أن يكون فوضوياً أنانياً مغروراً .

إن طه حسين كان يحارب من أجل نفسه ونفسه فقط فإذا هبط عليه الرضاء السامى رضى وإذا رفع عنه الرضاء السامى غضب ، إنه شخص مخلص لنفسه أشد الإخلاص ، يحب صوته ويترنم به ، يحب أسلوبه ويشيد به ، يحب ذوقه المصنى الخالص ، يحب اللغة الفرنسية وآدابها ويتغنى بحمل اللاتينية واليونانية ويجب أن يتيح للناس جميعاً فوضى شاملة مثل الفوضى التى ينعم بها ويريدهم جميعاً أن يتمتعوا باللغة الفرنسية كما يتمتع بها وأن يقدروا عظمة اللاتينية واليونانية كما يقدر عظمها ، لقد كان رقيقاً حسن الطباع غليظ الحس فأصبح لطيفاً مهذباً له بيت فرنسى رقيق نصف مهذب ، لا سياسة تهمة ولا مشاكل اجتماعية تؤرقه . حتى الدين فقد حول قداسه إلى شاعرية جميلة ، فالدين عند رجل الأزهر والرافعى أيضاً كان تشنجاً وهوساً يركب الرموس وجز الأبدان ، أما الدين عند طه حسين فهو دين خاص : شعر ونغم ، وإيقاع داخل راقص وطرب اهتزت له عمام الأزهر ولحن الشيوخ والفقهاء .

وعلى هذا المنوال تستطيع تفسير حياة طه حسين : رضى الأحرار المستورين عن ذوقه وأدبه فيرضى هو عنهم ويسخطون فيسخط أيضاً .

يرضى الوفد يون فيرضى ويسخطون فيسخط ، وترضى السراى فيرضى وتسخط فيسخط ، بتهمة رجال الدين فى ذوقه وأدبه فيسخط ثم يرضون عن كتيبه الدينية فيرضى .

إن طه حسين يحتمى وراء لغته ، وهى لغة بين بين ، وهى ليست لغة قديمة كل القدم وليست جديدة كل الجدة ويلاحظ عليها أنها لا تقطع فى شىء أبداً ، بل هى مرنة تصلح للـف والمداورة ، ولا تصف شيئاً بأنه أبيض ولا أسود ، بل تصفه بأنه أقرب ما يكون إلى السواد أو أقرب ما يكون إلى البياض ، وهذه الطريقة فى التعبير هى مرآة صادقة لحياة طه حسين التى هى دائماً بين بين .



وكذلك الأمر في قصة (المعذبون في الأرض) فهو يقول في مقدمتها :  
أنا لا أضع قصة فأخضعها لأصول الفن ولو كنت أضع قصة لما التزمت  
إخضاعها لهذه الأصول لأنني لا أؤمن بها ولا أذعن لها ولا أعرف بأن  
للتقاد مهما يكونوا أن يرسموا إلى القواعد والقوانين . . . إلخ ) .

ويقول محمد عبد المنعم مراد (المصري) ١٩٥٣/١/٣٠ :

إنه يضع نفسه فوق النقد ، لا يحب أن يسمعه ولا يعترف به ولا يريد  
أن يقيم له وزناً ، ولماذا ؟ لأنه يريد أن يكون حراً فيما يكتب ويذيع على  
الناس ، وكيف إذن بنى طه حسين مجده الأدبي ؟ ألم يكن ذلك على حساب  
غيره من الأدباء القدماء والمحدثين على السواء ، تخيل إلى أن الذي ألقا  
طه حسين إلى هذه الثورة المفاجئة على النقاد والقراء هو إحساسه في ذلك  
الموضع من كتابه . إنه تعرض للنقد فأراد أن يقطع الطريق على هؤلاء  
النقاد الفضوليين . ولا أعرف في التاريخ كاتباً مهتماً ببلغ عبقريته يستطيع  
أن يقول للنقاد : قف من أنت ، ولن يستطيع طه حسين بهذا الكلام الذي  
سأقه أن يمنع قارئاً أو ناقداً من أن يبدي إعجابه بما كتب أو يخطئه عليه .

• • •



## الفصل الثامن

### اللغة العربية

ظل الدكتور طه حسين طوال حياته يدعى أنه نصير الفصحى ، وأنه عدو العاميات وطالما ردد هذا في مقالاته وفي نقده لكتب الكتاب وقصص القصاصيين . ولكن عدداً من الأحداث الواضحة ، والمؤتمرات الكبرى ، والمواقف المشهورة كشفت عن خبيثته ، وأعلنت سربرته ، فإذا به داعية من دعاة الشعرية وعدو من أعداء الفصحى ، وكما دعا إلى قطع الصلة بين الأدب العربي والفكر الإسلامى حتى يتحرر الأدب العربي من ضوابط الأخلاق والقيم وينطلق وراء أهواء الجنس والإباحة ، فقد كان طه حسين حريصاً على أن يقطع الصلة بين اللغة العربية والإسلام حتى يمكن أن تتطور وتحرر من رباطها بالقرآن . فتجربى في مجارى العاميات وتنحرف في طريقه الكتابة ، ولذلك فهو يصمت ضمناً بليغاً لإزاء المؤامرة التي حاكها عبد العزيز فهمى حين دعا إلى كتابة العربية بحروف لاتينية ، وذهب إلى آخر الشوط في الدعوة إلى التحرر من قيود النحو ، وسلط تابعه ( إبراهيم مصطفى ) ليحمل لواء هذه الدعوة المسمومة .

وهو في أكثر من موضع يؤكد هذه الوجهة ، يقول في كتاب ( مستقبل الثقافة ) :

( اللغة ملك لنا ولا حق لرجال الدين أن يفرضوا وصايتهم عليها ) .  
( اللغة العربية وما يضئ عليها رجال الدين من قداسة باعتبارها لغة دين ، لغة وطنية ملك لنا تتصرف منها ولا حق لرجال الدين أن يفرضوا وصايتهم عليها ) .

وفي كتاب ( الأدب الجاهلى ) ص ٥٧ يقول :

( اللغة العربية مقدسة ومبتدلة ، مقدسة لأنها لغة القرآن والدين وبالتالي لا يمكن إخضاعها للبحث العلمي الصحيح الذى يستدعى الإنكار والتكذيب والتقد والشك ومبتدلة لأنها تدرس لنفسها وبالتالي لا تستطيع إخضاعها للبحث العلمى الصحيح ) .

وفى مؤتمر دمشق للمجامع العربية كانت هذه الدعوة واضحة عام ١٩٥٦ وفى الدورة الثالثة عشرة لمجمع اللغة العربية عام ١٩٤٧ حرص طه حسين أن يلقى كلمة معلناً فيها عن ضرورة إصلاح النحو وتجديده وتيسيره على شباب المسلمين .

وفى محيط العمل فى وزارة المعارف مستشاراً فنياً ، ومديراً للثقافة ، ثم وزيراً كان الهدف واضحاً أمامه فى انتزاع الدراسات العربية من حضارة الدين والقرآن والقضاء على تمييز دار العلوم فى مجال اللغة العربية ومكانة الأزهر فى هذا الميدان .

• • •

#### أولاً : فصل الدين عن الأدب :

الدعوة إلى فصل اللغة عن الدين تكمل الهدف التغريبي الذى حمل لواءه طه حسين من فصل الدين عن الأدب باسم حرية الأدب ، فكان معناه هو فتح الطريق أمام الأدب الإباحى ( حديث الأربعاء والشعر الجاهلى ) . يقول الدكتور محمد أحمد الغمراوى :

( ذلك أن ما ذكره طه حسين من أن الأدب العربى لا يدرس لذاته وإنما يدرس لغيره من فقه أو شرع مغالطة ، فإنه إذا كان الأمر كذلك فى أول نهضة اللغة فسا هو كذلك الآن . وقد كان الناس لذلك العهد فى حاجة إلى باعث قوى يحفزهم إلى ضبط هذه اللغة ومخبرها واستنباط علومها . والصبر على ما فى ذلك من مشقة وجهد ، فكان ذلك الباعث القوى هو الرغبة الشديدة فى المحافظة على الدين وعلى ينبوع أحكامه أن يستغلق على الناس ، فلما فرغ المسلمون من ذلك وأمنوا على دينهم تعددت الوجهات فى دراسة الأدب واللغة . فكان علماء الدين يدرسونها كوسيلة وعلماء الأدب واللغة يدرسونها كغاية .

أما قوله : إن اتصال اللغة بالقرآن والدين يجعلها مقدسة ومبتذلة في آن فالواقع أن من يدرس اللغة اثنان لا ثالث لها : فريق يدرسها لذاتها وهو فريق جمهور المشتغلين بالأدب وواضح أن هؤلاء لا يبتذلونها . وفريق يدرسها وسيلة إلى شيء آخر يرضاه واتصالها بذلك الشيء الآخر يقتضي عليها من الإكثار الذي يحيط بها ويحول بينها وبين الابتذال . فليس هناك خطر يهدد الأدب ومن هذه الناحية : ناحية الابتذال ، أن الذين يفيضون عليها التقديس لاتصالها بالقرآن والحديث لم يخطر لهم على بال أن يحظروا على أحد التفقه فيها عن أى طريق من طرق البحث الصحيح ، بل هم يرون مثل هذا التفقه ضرورياً لهم وفرضاً على فريق منهم لأنه يعين على ما هم فيه . وليس هناك غير الدكتور طه حسين وشيعته من يظن أن كرامة الدين تنافي حرية الأدب أو حرية العلم .

ويقول طه حسين : ( من الذي يستطيع أن يكلفني أن أدرس الأدب لأكون مبشراً بالإسلام أو هادماً للإلحاد ) .

فإذا كانت دراسة الأدب لهدم الإلحاد تصعباً للأدب فهل دراسته لهدم الإسلام تحوّل للأدب ؟ فليترك طه حسين نصرة الإسلام إن شاء ولكن ليترك معها أيضاً نصرة الإلحاد يسلم له الأدب .

أما استناده في تحرير الأدب العربي من سلطان الدين إلى ملاءمة حاجات العصر العلمية والفنية فهو نوع من ذلك الكلام المهم الذي يفهم الناس منه شيئاً ويريد به صاحبه شيئاً آخر ، ولو أخبرنا ما هي تلك الحاجات العلمية والفنية التي يحول دون قضائها اتصال اللغة بالدين . إن حاجة العصر هي أشد ما يكون إلى أدب شرقى نقي ، من أقدار الرذيلة ومن سمو الإباحة ، هذه اللغة التي أنهضها الدين وعاشت بالقرآن ثلاثة عشر قرناً لا تستطيع الآن أن تقطع ما بينها وبين الدين والقرآن من غير أن تقتل نفسها أو تقتل أهلها ويصبح مضروباً عليها الرق والذل .

ويقول طه حسين : ( فلتكن قاعدتنا إذن أن الأدب ليس علماً من علوم الوسائل يدرس لفهم القرآن والحديث فقط وإنما هو علم يدرس لنفسه ويقصد به قبل كل شيء إلى تذوق الجمال الفنى فيما يؤثر من الكلام ) .

ويقول الدكتور محمد أحمد الغمراوي : لو كان يريد من هذا الكلام ظاهره لما كان بينه وبين أحد من رجال العربية خلاف ولكن علمنا بالنزعة التي ينزع إليها فيما كتب وفيما يكتب يجعلنا نخشى أن يكون أراد بهذا الكلام غير ظاهره فلا يكون هناك تخرج خلق من معنى خسيس ، ما دام هذا المعنى يورده صاحبه في شكل في يتذوقه ويلذه من ضعف أثر الأخلاق الفاضلة في نفسه . ولكن الأدب ينبغي ألا يستقل قط عن الأخلاق استقلالاً يجعله لا يبالي أوافق رذائلها أم أخالف فضائلها فإن الله قد خلق الإنسان وحدة متأسكة لا أوصالاً مفصولة .

( ٢ )

#### ثانياً : فصل الدين عن اللغة :

يقول طه حسين في كتاب ( مستقبل الثقافة ) :  
( فالذين يزعمون لنا أننا نتعلم العربية ونعلمها لأنها لغة الدين فحسب ثم يرتبون على ذلك ما يرتبون من النتائج العلمية والعملية إنما يخدعون الناس ، وليس ينبغي أن تقوم حياة الأمم على الخداع فإن اللغة العربية ليست ملكاً لرجال الدين يؤمنون وحدهم بها ويقومون وحدهم من دونها ويتصرفون وحدهم فيها ، ولكنها ملك للذين يتكلمونها جميعاً من الأمم والأجيال وكل فرد من هؤلاء الناس حر في أن يتصرف في هذه اللغة تصرف المالك ، فما استوفى الشروط التي تتيح له هذا التصرف ، وإذا فن السخف أن يظن أن تعليم الأزهر وقف على الأزهر الشريف والأزهريين وعلى المدارس والمعاهد التي يتصل بينها وبين الأزهر والأزهريين أسباب طوال أو قصار . هذا سخف لأن الأزهر لا يستطيع أن يفرض نفسه على الذين يتكلمون اللغة العربية جميعاً وفيهم المسلم وغير المسلم ) .

ويقول الدكتور محمد أحمد حسين : كان الشعوبيون يروجون للهجات السوقية المحلية التي يسمونها العامية بمختلف الأساليب وكان أعداء العروبة يتحايلون في انتزاع الدراسات العربية من حضارة الدين والقرآن حين قال قائلهم هذا الكلام ، والغرض الذي يرمى إليه صاحب هذا الكلام هو قطع الصلات التي تربط الدراسات العربية بالدراسات الإسلامية هو أن

ينزع عن العربية قداستها وبحرمها من حماية الدين وحضارته ليكشفها أمام أعدائها ويعينهم على الإجهاد عليها بعد أن يفردوا من كل نصير أو معين ولم يستطع صاحب هذا الكلام وشيعته أن يتخذوا مجمع اللغة العربية ومكاتب جامعة الدول العربية ومؤتمراتها ميداناً لنشاطهم ، فدعا أحدهم في المؤتمر الأول لمجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٤٧ إلى تأليف معاجم محلية لا يثبت فيها إلا ما بقي من لهجات العرب حياً في عمامة كل إقليم ، ودعا الآخر إلى إعادة النظر في ترويب النحو وتدوينه من جديد وكان ذلك كله كلاماً في كلام فإذا بنا الآن أمام هذه المشاريع جميعاً منفذة في كتب القوصى وشركاه المشهورة ، بكتب ( شرشر ) أو جلجلا . وفي كتب النحو التي يتولى إبراهيم مصطفى توجيهها ولم يشهم عن عزمهم ما قرره مؤتمر مجمع اللغة العربية الأول في دمشق من أن مشاريعهم تحتاج إلى مزيد من الدرس والمراجعة والتحجيص . بل لقد استصدر قسم اللغة العربية في إحدى كليات الآداب منذ سنوات بإنشاء شعبة سماها ( شعبة الدراسات العربية الحديثة ) أدخلت الدراسة فيها من النحو والصرف والبلاغة ومن الشعر العربي ونصوص الفصحى ومن الأدب العربي والتاريخ الإسلامي ومن القرآن والحديث ، وجعل مكان ذلك كله :

١ - دراسات لغوية حديثة .

٢ - التطور اللغوي العربي في العصر الحديث .

٣ - اللهجات العربية الحديثة .

٤ - الأدب الشعبي .

٥ - المذاهب الكبرى في الآداب الأوربية .

٦ - مدرسة العصر .

٧ - تطور الفكر الإسلامي في العصر الحديث .

وكان أعداء الإسلام من عمال الاستعباد والتبشير وممارسة الصهيونية الهدامة يشيعون بجحود علماء الشريعة الإسلامية أو من يسمونهم خطأ ( رجال الدين الإسلامي ) وينددون بتخلف الأزهر عن ركب الحياة بزعمهم ، فإذا بنا نفاجاً بأحد أعضاء لجنة التربية الدينية بوزارة التربية والتعليم يقترح لإنشاء شعبة للدراسات الإسلامية في كليات الآداب لتخريج مدرسي الدين

الإسلامى المرن الذى يستطيع أن يساير الزمن . هذه بعض أمثلة تصور الأسلوب الجديد الذى يعتمد على ( الغزو من الداخل ) الذى لم يعد أصحابه يكتفون بالدعاية واجتذاب الأنصار والاستكثار منهم عن طريق الإقناع والإغراء أو الإرهاب. إنهم يعتمدون فى أسلوبهم الجديد على أفراد عصابتهم الذين يجحوا فى التسلل إلى مراكز القيادة ، فأصبح فى استطاعتهم أن يجعلوا أوهامهم التى لم ينجحوا فى إقناع الناس بها حقيقة واقعة بقرار أو بحجة قلم .

٢- إن كتب القراءة الجديدة المتداولة فى الإقليم المصرى التى وضعتها لجنة تعمل بتوجيه عبد العزيز القوصى وسعيد العريان تعتمد على أسلوب جديد لا يمكن أن نصفه بأنه عربى مهما اجتهد أصحابه فى تبريره بما يزعمونه من أن كلماته التى تبدو من عامية مصر يمكن أن تجد سنداً من معاجم اللغة تصلها بإحدى لهجات العرب ، هذه الكتب لا تتجنب الفصيح الذى أجمع عليه العرب والمسلمون لغرابته أو ثقله ولكنها تعتمد إهماله لأنها تريد أن تهمل وأن تجعل استعمال لهجة الأسواق فى الكتب المدرسية أمراً واقعاً ومقررأ ، وهم يعلمون حق العلم أن هذه الكلمات الملتقطة من أسواق مصر وطرقاتها ، مهما جاءوا بأشجار الأنساب تثبت عرويتها - ليست عامة فى بلاد العرب جميعاً ، فهى مجهولة فى بعضها وهى مستعملة بمعنى آخر فى بعض آخر ، لأن الفصحى التى تجمع العرب بل المسلمين اليوم هى فصيحى قریش خاصة التى نزل بها القرآن والتى دون بها الحديث والفقه والأدب وكل ما أثمرته الحضارة العربية من علوم وفنون وهى أفصح لهجات العرب وأسلمها دون نزاع . فرضتها صلاحيتها ونشرتها قبل أن ينزل بها القرآن ، فكان العرب على اختلاف قبائلهم يكتبون شعرهم بها ، ولا يستعملون لهجات قبائلهم إلا فى ضرب من ضروب الأدب المحلى المسف ، الذى يقرب مما يسميه البعض اليوم ( الأدب الشعبي ) وهو ( الرجز ) فهذه الكتب الجديدة التى يراد بها تقرير لغة جديدة للتدوين وإحقاق باطل فشل أصحابه فى إقناع الناس به رغم ما بذلوا له من دعاية طوال نصف قرن أو يزيد ، تريد فى ضحى القومية العربية أن ترد إلى الجاهلية . الكلمات السوقية الملتقطة من أسواق مصر وطرقاتها والتى يصير القوصى والعريان وشركائهما على استعمالها



لها ما يقابلها من الفصيح المستعمل المأنوس وأنهم يعدلون في أكثر الأحيان عن الفصيح السمج الجميل إلى السوفى السمج الثقيل .

( العسكرى حلق عليه ، حطت اللحم في الحلة ، مبسوط ، شاف زبطه ، استغرب . زعلان ، ابن الحلال ، بصى ، حطها في القفص ، زاحنى في البحر . المخذة تترحلق ) .

فقابل هذه الكلمات من الفصيح مشهور خفيف شائع ، وهو على الترتيب : ( الشرطى ، اعترضه أو وقف في وجهه ، وضعت اللحم في القدر ، مسرور . رأى ، ضوضاء ، عجب ، غضبان ، ابن الكرام ، نظر . وضعها في القفص ، يتحليون ، الوسادة ، دفعنى في البحر ، تنزلق ) .

فهل يرى القارئ مبرراً لإهمال هذه الكلمات الفصحى التى هى قدر مشترك بين سائر العرب وأصحاب الثقافات العربية من المسلمين ، أليست هذه الكتب هى التنفيذ العملى لاقتراح أحمد عبد السلام مندوب حكومة تونس الذى دعا فيه أن يؤلف في كل قطر معجماً صغيراً لا يتضمن إلا الألفاظ الفصيحة التى بقيت مستعملة بمعناها الأصلية في لغة ذلك القطر ، وأن يوصى معلمو الأحداث والعامة الاقتصار عليها قدر المستطاع .

إنى أعجب لما تحويه هذه الكتب وكتب المطالعة في عمومها من تفاهات غفلة تبدد أعمار التلاميذ في سخافات لا تفيد أسلوباً ولا ثقافة ولا خلقاً ، فهى لا ترتفع في معظم محتوياتها عن تسجيل الواقع المسف المنأى للدين والخلق ، المهذب في كثير من الأحيان .

٤ - زعم طه حسين في تقريره الذى قدم إلى وزير المعارف سنة ١٩٣٥ فألقاه في سلة المهملات وطلب إليه ألا يعيد الحديث فيه حين حاول أن يفتاحه فيه مرة من المرات . قال : إن الناس مجمعون على أن تعلم اللغة العربية وآدابها في حاجة شديدة إلى الإصلاح ورد نفور الطلبة من الدراسات العربية إلى أن اللغة العربية وما يتصل بها من العلوم والفنون ما زال قديماً في جوهره بأدق معاني الكلمة ، فالنحو والصرف والأدب تعلم الآن كما كانت تعلم منذ ألف سنة ولست أزعج أن الأمر يقتضى إحداث ثورة عنيفة على القديم وتغيير العلوم اللغوية والأدبية فجأة وفي شئ يشبه الطفرة ، وإنما أزعج

أن قد جاء الوقت الذى يجب أن نؤمن بأن العلوم اللسانية كغيرها من العلوم يجب أن تتطور وتنمو وتلائم عقول المعلمين والمتعلمين وبيئاتهم وحاجاتهم، ومتى آمنا بذلك فإن التطور سيأتى وسيحقق شيئاً فشيئاً ولكن لا بد أن نهيئ له الطريق .

ولم يمحض على هذا التقرير سوى سنتين حتى صدر كتاب فى النحو نسقه إبراهيم مصطفى على ما تخيله طه حسين فى تقريره ذلك وقدم له طه حسين نفسه واقترح له اسماً ضخماً عريضاً فيه كثير من التبجح والادعاء ، فسماه ( إحياء النحو ) والمقول بأن إحياء النحو هو الحلقة الثانية من سلسلة تيسير النحو وهو الصورة التنفيذية للمذكرة طه حسين .

ومذكرة طه حسين صريحة فى أن الخطوة الأولى ليست إلا تمهيداً لما يجيء بعد من التطور الذى سيأتى وسيحقق شيئاً فشيئاً . فهى صريحة فى الكشف عن نية صاحبها وعن أسلوبه فى استدراج الناس والبدء بالهين الذى لا يفاجئهم ليتدرج منه إلى الخطير ولأنه لا يسقيهم السم الزعاف القاتل لساعته لأن يلفت النظر ويثير الشكوك ، ولكنه يسقيهم سمّاً بطيئاً يصل إلى غرضه دون أن يكشف عن الجريمة . فليعرف الناس إذن أن تيسير النحو ليس هو منتهى ما يريدون ولكنه أول طريق طويل يدفعون الناس فيه إلى قرار صحيح .

٦ - ومن ناحية أخرى فإن هدف طه حسين هو استبعاد الأزهر عن القيام بوظيفة تعليم الدين ، لأن مناهجه لا تحقق للدارسين فيه عمق الثقافة وحرية الفكر ، وثانيتها هو الطبيعة المصرية التى تبرز فى الإشارة إلى مهمة مصر القيادية ، فى حل مشكلات الحياة المعاصرة ومسيرة التطور الاجتماعى وهو تطور غربى بالبداية .

وهكذا تبين خطوات المؤامرة التى خاضها طه حسين بحوراً من الدم فى سبيل تدمير لغة القرآن ضمن مخطط واسع يرمى إلى تبديل قواعد اللغة العربية وتغيير رسمها وإملائها ونحوها على ما قام به جماعة من المستشرقين منذ وقت طويل، ووكل أمره إلى سلامة موسى وطه حسين فى مصر وأنيس فريحة فى الجامعة الأمريكية فى بيروت، وقد قام به طه حسين فى الجامعة، ثم قام به فى

جامعة الدول العربية وفي مجمع اللغة بدراسة اللهجات السريكية وآدابها والدفاع عنها من فرق منبر جامعة الدول العربية ، حيث ألقى أنيس فريخة دراساته المسمومة في دراسة اللهجات والدعوة إلى العامة .

ومضى أعداء اللغة العربية مجتمعون وينفضون هنا وهناك ويسيطرون على مناهج المدارس والجامعات لتحقيق أهدافهم .

#### ٧ - قطع الصلة بأدبنا القديم :

إن إهمال أدبنا القديم وتوجيه أكثر العناية إلى الأدب الحديث بل التافه منه في الأعم الأغلب وتجنب ما كان منه على منوال القديم جزالة وروعة وفخامة أسلوب واحتفالاً بالمعاني الكبار خلق بأن يعين على تدعيم ما يدبره بعض المفسدين فيسلكون إليه مختلف المسالك ويعالجونه بشئ الأساليب حين يسعون إلى فصل حياتنا الراهنة والمستقبلية عن مصادرها القديمة حتى يتفرق خاعتنا ويتشعب شملنا . وحتى لا تكون أخلاقنا امتداداً لخلق أبائنا ولا تكون أذواقنا امتداداً لأذواقهم ولا تكون لغتنا وأساليبنا امتداداً لأغبيهم وأساليبهم ، وحتى لا تكون مذهبنا في الفن والأدب امتداداً لفنونهم وآدابهم بل لا يكون إسلامنا امتداداً لإسلامهم ، فإذا نجحت في أن تجعل المجتمع الجديد مقطوع الصلة بماضينا في الدين وفي اللغة وفي العادات وفي الذوق الفني وفي المزاج وفي التقنين الخلقى . فأى جامعة يمكن أن تجمعنا عند ذلك وأى طابع يمكن أن يميزنا عن غيرنا من سائر خلق الله ، ويجعل لنا الحق في أن نقول : إننا قوم ، إننا عرب ، ما أيسر أن نكون عند ذلك تبعاً لسادة الشرق والغرب وذيلاً لكائن من كان ممن يريد أن يستلحقنا كما كان السادة يستلحقون العبيد في عصور الرق .

وهكذا نصل مع الدكتور طه حسين وشيعته ومؤامراتهم التي فرضوها على الجامعة والتعلم العام إلى مجموعة من الحقائق :

**أولاً :** قطع الصلات التي تربط الدراسات العربية بالدراسات الإسلامية .

**ثانياً :** أن ينزع عن العربية قداستها ويحررها من حماية الدين وحضارته

ليكشفها أمام أعدائها ويعينهم على الإجهاز عليها بعد أن يفردوها من كل نصير أو معين .

**الثالث :** تأليف معاجم محلية ، وإذ بنا أمام هذه المشاريع جميعاً منفذة في كتب القوصى وشركاه المشهورة بكتب شرشر أو جلاجلا وفي كتب النحر الجديد التي يتولى إبراهيم مصطفى توجيهها .

**رابعاً :** خطف دراسات الإسلام من الأزهر ونقلها إلى كلية الآداب لتدرس بأسلوب العلمانية والمادية التي سيطر على دراساتها تحت اسم مسابقة الزمن .

**خامساً :** كتب القراءة الجديدة لا تثبت النصح الذي أجمع عليه العرب والمسلمون بدعوى غرابته وثقله ، لأنها تعتمد إهماله وتجعل استعمال لهجة الأسواق في الكتب المدرسية أمراً واقعاً وفوراً ( م ٣٠ مجلة الأزهر نوفمبر عام ١٩٥٨ ، ديسمبر عام ١٩٥٨ ) .

• • •

## محاولة لتيسير الكتابة

نشر طه حسين فصلاً في جريدة الجمهورية عام ١٩٥٦ تبشر بأسلوب جديد في كتابه ( اللغة بدعوى تيسيرها ) . استهدف منها أن ينقل التشكيل إلى حروف الكتابة نفسها : حاول أن يكتب منها الكلمات بطريقة نطقها على هذا النحو :

وقت مضى : وقت مضى .

هذا الاسم - هاذا الاسم .

على الدولة - علا الدولة .

يريد بذلك أن تكتب الكلمة كما تلفظ رغبة منه في تسهيل الكتابة العربية على أبنائها وغير أبنائها . وقد أيدته في ذلك دعاة الشعبية في العالم العربي وأعداء اللغة العربية : ميخائيل نعيمة، وأنيس المقدسى، وأنيس فريحة، ورفيع خوري في كلمات نشرت في مجلة العلوم اللبنانية .

وقد كانت تلك إحدى البدع التي كان حريصاً على أن يواجه الناس بها من حين إلى حين ، بهدف خلقى هو إثارة شبهات جديدة وهدف ظاهر هو أن يتحدث الناس عنه .

وقد علق الأستاذ عباس محمود العقاد على هذه البدعة فقال :

قرأت اليوم كلاماً عن الإصلاح الذى قيل : إنه سيحل المشكلات جميعاً في كتابه ( اللغة العربية ) ، لأنه يعلم الناس أن يكتبوا الحروف كما ينطقونها في جميع اللغات . وكل ما قرأته حتى الآن يزيد مشكلات الكتابة ويوقع الابس والاختلاط حيث لم يكن من قبل لبس ولا اختلاط . هل تنوى

من اليوم أن تقول : ( رمى رمياً ورجاً رجياً وصفاً بصفياً ،  
إلى آخر هذه الألفات أو هذه الياءات ) .

إن كنا ننرى ذلك فقد انحلت المشكلة وتساوت الألف والياء نكتبها ألفاً أو نكتبها ياء كما نشاء ، ولكننا لا ننرى ذلك ولا نستطيع إذا نوينا أنه لأنه يجر إلى الخلط الذريع بين أبواب الفعل وأبواب المشتقات ، وكلها مرتبط بأساس تكوين اللغة العربية لأنها لغة اشتقاق تقوم على أبواب الفعل الثلاثي التي لا وجود لها في جميع اللغات الهندية الجرمانية ، وهي اللغات التي تكتب بالحروف اللاتينية ويدعوننا إلى التشبه بها من ينسون الفارق الأصيل بين لغة الاشتقاق ولغة النحت والتركيب ، ومضى كان إلغاء الفوارق بين أبواب الفعل الثلاثي ضرباً من المستحيل ، فالحفظ بين ألفها وبائها يزيد المشكلات ، ولا ييسر صعوبة واحدة من الصعوبات التي تيسرها القواعد المتبعة لأصغر التلاميذ ، كل ألف رابعة فما فوقها تكتب ياء لأنها ياء المضارع أو المصدر ، كما نفهم من النطق البسيط للأفعال والمصادر ، فنحن نقول : اكتبني يكتني ، واستوى يستوى ، واهتدى بهتدى ، واعتلى يعتلى ولا يوجد لسان عربي يصعب عليه أن يجرى على هذه القاعدة في تصريف الأفعال ، ونحن نقول كذلك : تعالى تعالياً وترامى ترامياً وتداعى تداعياً ولا يصعب على أحد يأتي بالمصدر بداهة وارتجالاً على هذا القياس وهكذا نرى أن القاعدة تزيل اللبس وتحفظ للأفعال والمشتقات أبوابها وأوزانها ولا توقعنا في الخلط بين كل ألف وكل ياء .

ومن تسليبات الإصلاح الذي يستطيعه عندنا من لا يستطيع أن يفك الخط قول بعضهم : إننا يجب أن نكتب كما نتعلم ليفهم عنا جميع القراء ما نقول :

وعلى هذه القاعدة يقول ابن القاهرة : ( بقه ) ، ويقول السورى : ( تمه ) ، ويقول الصعیدی : ( خشمه ) إذا تكلموا عن الفم فكيف تكتب ألفهم في كتاب يقرأه القاهريون والسوريون وأبناء الصعيد .

وعلى هذه القاعدة يقول السورى : ( اجره ) ، ويقول : ( رجله ) ، ويقول السوداني : ( كداعه ) فكيف نكتبها في كلام يقرؤه هؤلاء ، ونريد أن نعرف كيف يكتب الشمس والسماء والثورة والثرارة .

وينبغي أن نكتبها كما تنطق أشمس ، وسماء ، وتثورة ، وتثورة ،  
فبزول الأشكال بحمد الله لأننا لا ننطق الألف واللام في هذه الكلمات .  
كما تنطقها في كلمات القمر ، والبلد ، والجمل ، والبرتقال .

إننا إذا فهمنا الفرق بين لغة الاشتقاق ولغة النحت بطل الجدال العقيم  
في أقوال ( المصلحين ) المتعجلين . فالحركة جزء في بنية الكلمة في لغة  
الاشتقاق لأنها قد تغير معنى الكلمة من النقيض إلى نقيضه ، ويضاف إلى  
هذا الفارق أن المشتقات والمصادر تختلف في أبواب الفعل الثلاثي . كما  
تختلف فتح فتحة ، وكرم كرم ، وبلغ بلوغاً ، ولا تتغير هذه الأوزان  
جميعاً بتغيير حروف الكتابة ولا يمكن أن تتغير بتغير الأوزان .

( الأخبار ١٨ يونية سنة ١٩٥٦ ) .

• • •





## الفصل التاسع

### النحو

هناك دعوة طه حسن الخطيرة إلى ما أطلق عليه تطوير النحو وهو هدف خبيث يرمى إلى صرف الناس عن دراسة كتب النحو القديم والبلاغة القديمة بدعوى أن القواعد القديمة معقدة ، فإذا ذهب كل من هؤلاء المتأمرين مذهبه في استنباط قوانين جديدة وتسمية المسميات بأسماء مبتكرة ، فقدت الاصطلاحات قيمتها .

يقول الدكتور محمد محمد حسين : والنحو العربي - ولا أقول : النحو القديم - ما عيبه وهل هو حقاً كما يزعمون معقد صعب ؟ وهل ثبت فشله كما يزعمون في تنشئة جيل عربي يقيم عريته ويحسن تذوقها ، نحونا وبلاغتنا لا عيب فيها ، ومن الممكن تبسيطهما واختصار المطولات المولفة منهما في حدود القواعد والأقسام التي التزمها القدماء أنفسهم . فالواقع أن إجماع الناس في كل أمصار العرب - بل المسلمين - على قواعد موحدة دون أن تحملهم على ذلك قوة القاهرة أو تلزمهم سلطة منفذة ، هذا الإجماع على قوانين موحدة في النحو والصرف والبلاغة بعد أن كانت مدارسها متعددة هو وحده الدليل الحى الذى لا ينقض على صلاحية هذه القواعد ، وعلى أن هذه الدعوات التي توصف بدعوى التبشير والإصلاح ، هي دعوات مفتعلة يروجها هدامون وينساق وراءها مغفلون ، ولكي ندرك خطر هذه الدعوات ونفهم حقيقة مغزاها لابد لنا أن نقرنها إلى أمثالها ، فننظر إليها في ظل ما نسمعه من الدعوة إلى تطوير : عاداتنا ، تقاليدنا ، أدبنا شعره ونثره ، أغانيها ، زينا ، تطوير قيمنا ومثلنا الأخلاقية والاجتماعية ، تطوير شريعتنا ، تطوير إسلامنا نفسه ، من أجال النظر في هذا كله وقرن

بعضه إلى بعض عرف أن أصل هذه الفروع واحد وأن روح الدعوة فيها  
جميعاً واحدة وأن أصحابها لا ينفكون إلا بقطع دابر كل ما ربطنا بإسلامنا  
وعروبنا وشريعتنا من وشائج وصلات عند ذلك نفقد طابعنا الذي يميزنا  
بوصفتنا جماعة أو قرماً أو أمة . وإذا فقدنا طابعنا فقدنا كيانتنا ، وفقدنا  
القدرة على التكتل والتجمع وأصبح من اليسير على الشرق والغرب أو كائنا  
من كان من خلق الله أن يلحقنا به ويجعلنا تابعين له ندور في فلكه ونسبح  
بحمده من دون الله .

ولو كان القصد هو التيسير حقاً لقنعوا بصنيع لجنة ( حفى ناصف  
ودباب وطموم ومحمود عمر وسلطان محمد ) في كتاب ( قواعد اللغة  
العربية ) لتلاميذ المدارس الثانوية ، فقد نجحت هذه اللجنة في حصر قواعد  
النحو والصرف والبلاغة في كتاب صغير لا يتجاوز مائة وأربعين صفحة  
خال من التعقيد . وقد كان صنيع الجارم بعد ذلك حسناً حين يسر هذه القواعد  
ومهد لها بالأمثلة الكثيرة ، وأعان على إقرارها بالتمرينات المتعددة وكان  
ذلك في حدود القواعد التي أثبتت ألف سنة صلاحيتها والتي استطاع العرب  
بفضلها وحدها ولا شيء سواها أن يخرجوا في القرن الأخير هذا الجيش  
الضخم من الشعراء والأدباء والنقاد الذين بلغ بعضهم مستوى أندادهم القدماء  
في أزكى عصور الشعر والأدب العربي وذلك من بعد أن أدرك الضعف  
العربية حتى كاد يذنبها من القبر ، وكيف وجد البارودي وشوقي ، وكيف  
نشأ محمد عبده وطبقته من الكتاب ، وكيف وجد الرافعي والمنفلوطي ،  
كيف استقامت ألسنتهم وصحت أساليبهم وذلك بعد الركافة التي كانت  
تمثل في كاتب كالجبرتي يعتبر من أحسن كتاب عصره ، هل أتقن هؤلاء  
العربية عن طريق آخر غير قواعد النحو والصرف والبلاغة التي يزعم  
الزعمون أنها مقيدة وغير صالحة ، فأيهما تصدق ، هل تصدق واقعاً قائماً  
ماثلاً راسخاً قديماً أثبتته ألف سنة وأعادت إثباته وتأكيده تجربة القرن الأخير ،  
أم تصدق مزاعم لم تر من آثارها منذ ظهرت إلا الشرو وإلا التدهور والانحطاط  
في مستوى تدريس العربية . إن انحطاط مستوى الجيل الحاضر في اللغة العربية  
أمر واقع ولكن سببه ليس هو صعوبة القواعد ( القديمة ) بل إن سببه هو

زعم الزاعمين أنها معتقدة لأنه قد صرف الناس عن إتقانها إلى التنقل بين  
تجارب فجة غير ناضجة وأعان على إقرار ما يتوهم التلاميذ والمدرسون من  
صعوبتها ، بل اختلق هذا الوهم نفسه بعد أن لم يكن والدليل على ذلك أن  
الجيل السابق وهو جيل لا يزال كثير من أفراده أحياء — أحسن إتقاناً  
للعربية رغم أنه قد نشأ في ظل الاستعباد الإنجليزي وبرأجه ، وحب الداعين  
بهذه الدعوة هز الا وفشلا ما اقترحوه على المدارس الإعدادية من قواعد  
بيئة الضعف والفساد والخرال .

• • •

يقول الدكتور محمد محمد حسين :

إن أصحاب النحو الجديد أو ما يسمونه ( تيسير النحو ) شعبة من تلك ...  
الفرقة الموكلة بهدم تراثنا وقطع كل صلة تربطنا به ، فهم لا يهدمون لأن  
الهدم هو وسيلتهم إلى البناء من جديد كما يزعمون ، ولكنهم يهدمون في حقيقة  
الأمر لأن الهدم هو هدفهم وغايتهم وهم بهذا الهدم يهدون الأرض ويسوونها  
لبناء جديد ولكنه للأجنبي لا لنا ويمحون كل ما في صحفنا لتصبح صحفاً  
بيضاء يسطرون منها أو يسطر فيها الذين يسخرونها لما يعملون من بعد  
ما يشاءون .

زعم أصحاب القواعد الجديدة أن قواعد النحو التي صنعها اثنا عشر قرناً  
مخيفة ومعقدة وزعم لهم صاحبهم أنه سيلخص لهم هذه القواعد في كلمات  
مقسمة الكلام إلى مسند ومسند إليه وتكلمة وسمى كلامه هذا تيسيراً ،  
والوصف الصحيح له أنه ( تعقيد ) لأن الاصطلاحات المتداولة ولا أقول :  
القديم أدنى إلى عقل الناشئ وتصوره ، ومن ذا الذي لا يخطئ في فهم  
كلمة فعل وفاعل . إن الأمي الجاهل والساذج الذي لاحظ له من الثقافة  
النحوية يستعمل هذه الكلمات ببدلولاتها النحوية في حديثه اليوم المألوف ،  
الخفير والشرطي يسأل عن الفاعل : ويقول : قبض على الفاعل . ويقول :  
الفاعل معلوم أو الفاعل مجهول ويسأل ما الخبر ؟

هذه المصطلحات التي استبدلوا بها المسند والمسند إليه فسموا الفاعل  
ونائب الفاعل ، والمبتدأ مسنداً إليه وسموا الفعل والخبر مسنداً . إن ما أطلقوه  
من أسماء لما توهموه من أقسام لا تصح اصطلاحاً حتى يجمع عليها الناس .

أصحاب التيسير يضعون أمامهم التقسيم الغربي في نحو بعض اللغات  
الأوروبية وفات هؤلاء أن اللغات الأوروبية التي نقلوا عنها هذا التقسيم ،  
كالإنجليزية لا تحتاج لعلم يقابل علم النحو عندنا لأنها غير معربة ، أما المعرب

من لغاتهم مثل الألمانية ، ومثل الفعل في الفرنسية فهو لا يزال يحتاج في ضبطه إلى قواعد تفرق قواعد النحو العربي في أقسامها وفروعها .

٤ - بقي أن نسأل أصحاب التيسير كيف يصنع الناس بكتب التفسير والحديث والفقه وشروح دواوين الشعر التي تمتلئ صفحاتها باصطلاحات النحو المتداولة والتي حكموا عليها بالإعدام . وبقي أن نسألهم : هل استشرت العرب جميعاً فيما صنعتهم . بل وهل استشرت المسلمين الذين لا يستغنى فقهاؤهم عن هذه اللغة التي لا تستعمل غير اصطلاحات النحو الذي يريدون أن يلحقوه بكل ما يرون إعدامه . والقضاء عليه من قديم ، أم أنهم لا يعرفون أن هذه اللغة ليست ملكاً لطله حسين وإبراهيم مصطفى والقوصي ومن شابههم ممن يخافهم أو يرجوهم أو يصله شيطانهم بل هي ليست ملكاً للمصريين وحدهم ، بل هي ليست ملكاً للعرب وحدهم ولا للمسلمين وحدهم من أهل هذا الجيل ، إنما هي أمانة يتحم علينا أن نحفظها للأجيال من بعدنا كما تلقيناها عن قبلنا .

أقول هذا وأنا أعلم أنهم يقولون :

كلما حدثناكم في شيء أقبحتم فيه الإسلام وقلمتم : القرآن القرآن ، لا حجة لكم إلا هذا ولا تكأه لكم سواه ونحن نقول : نعم .

القرآن والإسلام في تقديركم شيء هين يسير وهو في تقديرنا كبير خطير ، ونحن لا نبالي شيئاً تزينونه وتزخرفونه إذا أبعدنا عن القرآن والإسلام ، فلو كان القرآن والإسلام عندكم لوناً من الألوان واحداً من اعتبارات كتار ، فهو عندنا كل شيء ، به نحيا وعليه نموت ، وذلك بأن الحياة عندكم نعيم وزخرف ومتاع ثم لا شيء بعد ذلك إلا الفناء ، فلا قيمة عندكم لشيء لا يتحول إلى لذة أو شهوة أو أرقام .

أما نحن فالحياة عندنا معبر للآخرة وطريق إليها ، لذلك كان الأدب عندكم لهواً ومتاعاً وخرافات وأوهاماً ، لذة للشذاذ الفارغين ، وكان عندنا أسمى من ذلك وظيفة وأعز مكاناً ، ومع ذلك كله فالقرآن والإسلام هو سبيلنا إلى العزة في الدنيا التي تطالبها ولا ترون سواها ، لأن الذي يفقداهما يفقد الضمير ومراقبة النفس ومحاسبتها على الصغير والكبير ، ويفقد الدافع

القرى الصادق إلى العمل المثمر النافع ، ويفقد الحصانة والمناعة التي تجعله يتناسك ولا ينهار أمام الشهوات والمغريات .

( أصحاب التيسير ) كانوا يضعون أمام أعينهم التقسيم الغربي في نحو بعض اللغات الأدبية : وقد اتخذ أصحاب التفسير كلمة ( تكمله ) وهي الترجمة الحرفية لكلمة Complement على اصطلاح البلاغيين المشهور وهو فضلة . وفات هؤلاء أن اللغات الأوروبية التي نقلوا عنها هذا التقسيم كالإنجليزية لا تحتاج لعلم يقابل علم النحو عندنا لأنها غير معربة ، أما العرب من لغاتهم مثل الألمانية ومثل العقل في الفرنسية فهو لا يزال يحتاج في ضبطه إلى قواعد تفرق قواعد النحو العربي في أقسامها وفروعها .

\* \* \*

وقد زعم طه حسين في تقريره عن التيسير :

أن الناس مجمعون على أن تعلم اللغة العربية وآدابها في حاجة شديدة إلى الإصلاح إلخ . ( مستقبل الثقافة ) ، ولم يمض سوى سنتين حتى صدر كتاب في النحو نسقه إبراهيم مصطفى على ما تخيله طه حسين في تقريره وقدم له طه حسين نفسه .

والخطة واضحة تكشف عن نيته صاحبها وعن أسلوبه في استدراج الناس ، ولم يتوقف طه حسين عند هذا الحد بل ذهب يحاضر فيه في أماكن متعددة ، ففي سنة ١٩٤٧ في الدورة الثالثة عشر لجمع اللغة حرص طه حسين أن يلقي كلمة معلناً فيها وجهة نظره من ضرورة إصلاح النحو وتجديده ، واعتمد على كتاب ابن حزم ( الرد على النحاة ) وقد أورد ما جرى منذ قبل عندما عقد بهي الدين بركات سنة ١٩٣٠ لجنة لبحث ما يكتنف تعليم اللغة العربية من صعاب ، وكان طه حسين أحد أعضائها لاقتراح قواعد جديدة ، على أن لا يمس أصل من أصول اللغة وقد انتهت اللجنة إلى طائفة من المقترحات التي تخلص النحو من فلسفته وتقدمه إلى النش في صورة سهلة ميسرة ، وهونت من أمر الأعراب وهو عقدة العقد ، بدأ النحو الذي اقترحه أشبه ما يكون بأجرومية بعض اللغات الحية كالفرنسية والإنجليزية ، وظلت

الاقتراحات مطوية حتى عرضت على مجمع اللغة العربية ليدلى فيها برأيه ووقف عليها مؤتمر الدورة الحادية عشرة ثماني جلسات ، ودافع عنها طه حسين في صدق وإيمان وأراد أن يسلك بها مسلك التنفيذ . وبقي الموضوع في طي النسيان عشر سنوات أخرى .

وفي عام ١٩٥٥ ألقى الدكتور طه حسين بدار الجمعية المصرية للاقتصاد السياسي والإحصاء محاضرة عنوانها مشكلة الإعراب ، ودعا إلى تيسير الكتابة وتيسير النحو معاً وقال إن علم النحو من أحب العلوم العربية إلى نفسه لأنه يجد لذة في قراءة الكتب النحوية المعقدة ، على ما فيها من فلسفة وتعقيد ، مثلاً يجد عند قراءة شعر جرير أو بشار ( ولكن إذا كان النحو مستحيلاً إلى الإحصائيين وإلى الذين يفرغون لمثل هذه الدراسات فمن الحق كل الحق أن يفرض على الشباب في القرن العشرين ، أقول من الحق ومن الخطأ أن نأخذ عقول الشباب يتعلم هذا النحو والخضوع لمشكلاته وعسره والتواءه ، لأن ذلك لا يلائم الحياة الحديثة ولا التفكير الحديث ، ولا بد من تيسير النحو تيسيراً يتيح للشباب أن يتعلم العربية في يسر ومن غير عنف ( ، وأشار إلى مشروع مجمع اللغة الذي يبنى بهذا الغرض وهو قائم في وزارة المعارف منذ أعوام وفي وزارة التربية والتعليم ينتظر من يوقظه ) .

وهكذا لم يتوقف طه حسين عن دعوته هذه وبث سمومه يوماً واحداً .

ولكن محاضرة الدكتور طه حسين عن الإعراب لم تمر بدون تعليق فقد واجه العلماء الحاضرون من أساتذة دار العلوم والأزهر زيفه ودلالة جهله . وقد ختم محاضرته بالعبارات الآتية :

( لقد تطورت اللغة الإنجليزية وتطورت قواعدها وتطورت الفرنسية وتطورت قواعدها وتطورت اليونانية وتطورت قواعدها ، أما اللغة العربية فقد بقيت حيث كانت ولم تتطور ولم تتطور قواعدها ) .

وقد جابهه الأستاذ عبد الرحيم فودة الذي كان حاضراً فقال :

يا دكتور هل يدرس الإنجيل في إنجلترا وفرنسا واليونان بلغته الأولى : إن الإنجيل يدرس في إنجلترا بالإنجليزية ، وفي فرنسا بالفرنسية وفي اليونان باليونانية ، أما لغته الأصلية فهي العبرية ( أو السريانية ) .

ما رأيك في أن هذا النحو وهذا الإعراب بل إن العلوم العربية كلها أسوار وضعها النحاة لحماية لغة القرآن الأولى ، وأن تطوير هذا النحو وتطوير الإعراب ، وتطوير اللغة يباعد بين المسلمين وبين لغة القرآن الأصلية الأولى . إن الشعوب الإسلامية التي تدين بالإسلام ولا تعرف النحو والإعراب واللغة قد انقرضت فيها اللغة العربية لأنها جهلت هذا النحو وهذا الإعراب ، وأن اللغة العربية لم تبق إلا في مصر لأن فيها الأزهر ، وفيها هذا النحو وهذا الإعراب وأن أستاذ علماء النحو هو سيديوه وهو فارسي ، وقد انقرضت اللغة العربية من فارس لأنها هجرت نحو سيديوه .

كذلك فقد أشار الدكتور عمر فروح إلى أن الدعوة إلى تيسير النحو العربي والدعوة إلى اللهجات والدعوة إلى اللاتينية هي دعوات تبشيرية استعمارية مردها إلى رجل معروف هو ماسينيون المستشرق الفرنسي ، هذا الرجل هو أستاذ طه حسين والذي تقول مؤلفة كتاب معك أنه كان لا يشرق ولا يغرب إلا ويهبط ليلتي بطله حسين وبينهما خطط وأحاديث .

• • •



## دراسة الإسلام

ومما دعا إليه طه حسين في مستقبل الثقافة وعمل على تنفيذه بعد ذلك في مناصبه مستشاراً لوزارة المعارف ومديراً للثقافة ووزيراً للتعليم ، إنشاء معهد للدراسات الإسلامية يلحق بكلية الآداب : وهو يرى ( أن كلية الآداب متصلة بالحياة العلمية الأوروبية ، وهي تعرف جهود المستشرقين في الدراسات الإسلامية . ومن الحق عليها أن تأخذ نصيبها من هذه الدراسات لتلائم بين جهود مصر التي ترى لنفسها زعامة البلاد الإسلامية وبين جهود الأمم الأوروبية ) .

وأن المعلم الذي ينبغي أن يعاد النظر في تكوينه وإعداده ، كل هذا يتطلب من المصريين تعمقاً في دراسة دينهم وتبين موقعه من مختلف المذاهب والاتجاهات التي يجيء بها التطور الاجتماعي ، ومن ذلك دراسة سيكولوجية الدين والتاريخ الديني والفكرى للبشرية قبل الإسلام والنظم الدينية والأخلاق المقارنة . ومعنى هذا كله تدمير الإسلام في نفسية « المعلم » الذي ستخرجه كلية الآداب لأنه سيدرس علوم الإلحاد ومفاهيم النظريات المادية الغربية على أنها حقائق وتتداخل في هذا الاتجاه خطة تطوير اللغة مع تطوير التعليم نفسه ، وهو يحى عن طريق المناهج التعليمية ما دعا إليه كل من سبقوه من خصوص اللغة العربية حيث بدأت الدعوة إلى العامة ( ويلكوس وليمور ) ثم تلقفها لطفى السيد وسلامة موسى ثم جاء عبد العزيز فهمي ليدعو إلى الحروف اللاتينية ، ثم جاء طه حسين ليدعو إلى إبطال النحو وقواعد الإعراب ومن ذلك قوله ( في الأرض أمم متدنية ولكنها تقبل في غير مشقة ولا جهد أن يكون لها لغتها الطبيعية المألوفة التي تفكر بها وتصطنعها لتأدية أغراضها ولها في الوقت نفسه لغتها الدينية الخالصة التي تقرأ بها كتبها المقدسة وتؤدي بها صلواتها ، فاللاتينية مثلاً هي اللغة الدينية لغريق من النصارى واليونانية هي اللغة الدينية

لفريق آخر . والقبطية هي اللغة الدينية لفريق ثالث ، والسريانية هي اللغة الدينية لفريق رابع .

( وهو في هذا يردد ما قاله القاضي ( ويهور ) من كتابه ( عامية مصر ) طبعة لندن عام ١٩٠١ ) وبين المسلمين أنفسهم أم لا تتكلم العربية ولا تفهمها ولا تتخذها أداة للفهم والتفاهم ولغتها الدينية هي اللغة العربية ومن المحقق أنها ليست أقل إيماناً بالإسلام وإكباراً له وزيادة عنه وحرصاً عليه . . ) .

هذا الأسلوب الخبيث الماكر يرى إلى ماذا ؟

يرى إلى أن تكون للغرب لغتان : لغة تكتب بها وتقرأ ولغة للعبادة وقراءة القرآن وهذا أسوأ ما دعا إليه داع من دعاة التغريب .

وهو يدعو إلى هذا تحت مصطلحات كريمة مثل قوله : تقديس لغة القرآن والتطور ، ومجازاة العصر في اللغة والنحو والبلاغة .

وفي هذا يقول الدكتور محمد محمد حسين . :

( إن تقديس لغة القرآن والتزام أصولها وقواعدها وأساليبها لم تكن في يوم من الأيام داعياً إلى تحجر اللغة ، وجمود مذاهب الفن فيها ووقوفها عند حد تعجز معه عن مسايرة الحياة كما يشيع الهدامون ، ويخدعون به الأغرار ، وصغار العقول ، وصغار الهمم ، فليس التطور نفسه هو المحذور ، ولكن المحذور هو أن يخرج هذا التطور عن الأساليب المقررة المرسومة .

( كذلك اللغة وضع اللغويون والنحاة والبلاغيون لها حدوداً طابقت بها مذهب الفنان وكلام العرب ، وتركوا للناس من بعد أن يستحدثوا ما شاءوا من أساليب وأن يتصرفوا فيما أرادوا من أغراض وأن يجددوا ما أحبوا فيما يشتهون ومما يتفق مع عبقرياتهم ولكن كل هذا لا ينبغي أن يخرج عن الحدود المرسومة فإذا نعت ناعت من بعد بأن إعراب أو آخر الكلمات لا داعي له ، وبأن عربية القرون الأولى لغة ميتة لا وجود لها في الحياة فسوف يجد هذا الناعت لصوته صدى في عقول هذا الجيل . حيث لا تدرس لغة القرآن ولا البلاغة ولا النحو ولا الصرف ولا الأدب السابق على الحملة الفرنسية ، هذا الهدف الذي يحاول أن يربط حاضرتنا ومستقبلنا الأدبي بالغرب في الوقت

الذى يقرن فيه تراثنا الأدبي الحلى العريق بالآداب السامية المينة : آداب السريانية والعبرية إذ تجعلها جميعها شعبة واحدة ، هي شعبة الدراسات العربية والشرقية القديمة وفي نفس الوقت الذى أنشئت فيه هذه الدراسة كان ( أنيس فريجه ) المدرس بالجامعة الأمريكية في بيروت يلقي محاضرات في الدعوة إلى دراسة اللهجات السريانية وآدابها والدفاع عنها من فوق منبر جامعة الدول العربية في القاهرة ، وكان مجمع اللغة العربية مشغولاً بدراسة هذه اللهجات وهكذا بدا دعاة العامة لابسين ثوب الشعبية والدفاع عن لغة الشعب وهكذا ارتبط طه حسين بدعاة العامة القدامى بعد أن تخفى طويلاً وراء ستار كاذب ، سبيتا ، فولارز ، باول ، فيلوت ، الذين قادوا هذه الدعوة في مصر سنة ١٨٨٠ فظهر صداها في صحيفة المقتطف التبشيرية أولاً سنة ١٨٨٢ ثم انتقل إلى بقية الدمار ، ومن ناحية أخرى ارتبط طه حسين برائد التغريب الأول ( دنلوب ) في مجال هدم المناهج الإسلامية الغربية والدعوة إلى الأدب الشعبي التى دعا إليها وماسبيرو وبوريان :

ويقول : ويستطيع العالم أن يشير إلى التجارب الدينية منظوراً إليها في ضوء الظواهر السيكلوجية لا يمكن تمييزها من أوهام الحس .

ويقول : ( إنه ليس للدين أن يتوقع أو يعتقد أن ستؤخذ قضايا مسلمة على أساس أنها جاءت من طريق الوحي وأن وراءها سلطة التقاليد القديمة . أما العالم فإنه يرى في روح البحث الحر جوهر الحياة .

هذا هو المعنى الذى يرى إليه طه حسين من دراسة سيكلوجية الدين في كلية الآداب وهي معانى واضحة الدلالة على الإلحاد وإنكار الوحي والنبوة جميعاً فالعلم البشرى - كما يقول الدكتور محمد محمد حسين : لا يصلح لأن يكون فيصلاً إلا في شئون المادة المحسوسة التى يجرى عليها تجاربه بل في بعض شئون هذه المادة مما يتيسر له الكشف عنه . أما ما وراء المادة من الغيب الذى لا يحصىه إلا الله ، فالعلم عاجز عن إبداء رأى فيه وكل ما يقال في التشكيك فيما جاء به الدين ليس إلا ظنوناً لا تتجاوز مرتبة ( الغروض العلمية ) بل كذباً بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله هذا فضلاً عن المواد الغارقة التى سرف تطفئ على علوم اللغة العربية

الأصيلة خاصة وأن هذه الشيعة الجديدة تسقط من حسابها كل العارم العربية : نحوها وصرفها وبلاغتها وأصولها العلمية شعراً ونثراً . كأن ذلك كله ليس له وجود وليس له آثار ، وليست لنا به حاجة منذ القرن التاسع عشر ، ومعنى هذا أن هذا المخطط الذى عمل طه حسين على تنفيذه بعد أن وضع كتاب ( مستقبل الثقافة ) ووكل إليه تنفيذه مستشاراً ومراقباً للثقافة . ثم وزيراً للتعليم . هو حرب على العربية ومعمل هدم يعمل فيها . إن التطور على كل حال ينبغي أن يكون بالقدر الذى لا يقطع صلتنا بالماضى وبالقدر الذى لا يخشى معه أن يتطور إلى قطع صلة الأجيال المقبلة بالجيل الماضى أيضاً لا تحب أن يتحول قرآننا وحديث نبينا صلى الله عليه وسلم وفقه فقهاءنا إلى طلسم لا يقرؤه إلا طلبة من الكهان يحتكرون تفسير الإسلام .

\* \* \*

ولا ريب أن الهدف من إنشاء شعبة الدراسات الإسلامية فى كلية الآداب يرمى إلى أمرين :

**الأول :** استبعاد الأزهر من القيام بوظيفة تعليم الدين لأن مناهجه لا تحقق للدارسين فيه ( عمق الثقافة وحرية الفكر ) . وقد وضعت المخطط منذ وقت بعيد لضعاف الأزهر لأنه كان يصبغ التعليم بالصيغة الإسلامية فى مصر ، بل فى البلاد الإسلامية عامة والعربية خاصة وذلك بمحاصرته وعزله عن الحياة وسد أبواب الرزق أمام خريجيه .

**والثانى :** هو الصبغة المصرية التى تبرز فى الإشارة إلى مهمة مصر القيادية فى حل مشكلات الحياة المعاصرة ومسيرة التطور الاجتماعى وهو تطور غرنى بالبداية ، كما يبرز فى إمداد الدارس بما يقوى فيه الاعتزاز بفقهاء الإسلام وعلمائه من المصريين خاصة مما يوجد لونا من الشعبوية الإسلامية تشبه الشعبوية السياسية .

وما أورده طه حسين مما سماه فى مشروع ( سيكولوجية الدين ) فهو شديد الشبه بكلام القس الأمريكى ( ميلر بروز ) فى دعاواه الهدامة التى

طالب فيها بوضع ( تجربة الدين ) و ( تجربة النبوة ) والمعجزات والصلاة والحياة الأخرى موضع البحث واصطناعها لقواعد علم النفس الحديث وغير في ما ينطوى عليه ( سيكولوجية الدين ) من مفاهيم أولها وأبرزها : أن الدين ظاهرة نفسية ليس لها وجود خارجي حقيقي ، لأن المعروف أن هذه ( السيكولوجيا ) ترد كل التصرفات إلى مصدر مجهول في أعماق النفس الإنسانية يسمونه ( العقل الباطن ) ، يقول المستر ميلر بروز صاحب الاقتراح الأصيل : إن تجربة النبوة يمكن أن تلاحظ وتدرس بنفس الطريقة وإلى نفس الدرجة التي يمكن بها ملاحظة التأثيرات البوقية والوجدانية ودراستها .

• • •



## الفصل العاشر

### الأثر الإغريقي واليوناني في الأدب العربي

منذ أن عاد الدكتور طه حسين من باريس وقد وكل إلى نفسه بعث الأساطير اليونانية والشعر التمثيلي اليوناني وتدرسه في الجامعة المصرية القديمة . وتأليف الكتب عنه وإذاعة تلك الدعوى العريضة بأنه عقلية مصر عقلية يونانية وأن الإسلام لم يغير تلك العقلية بالرغم من أن طه حسين يعرف أن مصر ظلت ثلاثة عشر قرناً وهي مؤمنة بالعقيدة الإسلامية ، وكان من أخطر الخطوات التي اتخذها أن قرر كتابه ( قادة الفكر ) على التعليم الثانوي وهو الكتاب الذي يقرر أن العالم كله ليس له قيادة فكرية إلا سقراط ، وأرسطو وأفلاطون وكانت خطوته الخطيرة في الجامعة هي فرض تدريس اللغتين اليونانية واللاتينية على طلبة كلية الآداب وكان من مخطئه تلك الأحاديث التي أذاعها بالادعاء بالباطل أن الأدب العربي قد تأثر بالأدب اليوناني وأن الفكر الإسلامي قد تأثر بالفكر الإغريقي . وقد كانت الفكرة المسمومة التي دعا إليها طه حسين في هذه الوجهة هي أن الفكر الإسلامي قد تأثر بالفكر اليوناني في ماضيه ، ولما كانت النهضة الحديثة في أوروبا هي في معظم أمرها أثر من آثار اليونان فإن النهضة الحديثة في مصر والمشرق يجب أن تخضع للفكر الغربي الحديث تبعاً لخضوعها للفكر اليوناني القديم .

وهذه مغالطة مكشوفة فإن الفكر الإسلامي لم يقبل الأثر الهليني وقد رفضه منذ اللحظة الأولى ، وقد تبين مدى تضليل الدعوى التي حملها طه حسين بأن الفكر الإسلامي كان مدينياً في عصره الأول لليونان وتلك دعوى باطلة عريضة كشفها كثير من الباحثين وفي مقدمتهم الشيخ مصطفى عبد الرازق والدكتور علي سامي النشار وما تزال مدرسة الأثر اليوناني الذي أنشأها طه حسين وغناها لطفي السيد وإبراهيم بيومي مذكور قائمة تنفت سمها .

لخص طه حسين موقفه كله من الفكر الهليني اليوناني الإغريقي في كتابه

( مستقبل الثقافة ) على نحو واضح : هو أن عقلية مصر عقلية يونانية وأنه لا بد من أن تعود مصر إلى أحضان فلسفة اليونان ، ومن هنا كانت دعوته الملحة إلى أن يكون المثل الأعلى يونانياً وأن يكون قادة الفكر الإنساني هم هوميروس وسقراط وأفلاطون وأرسطو طاليس ، وتلك غاية أساسية في قضية التغريب التي تولاهما والتي عاش لها طوال حياته وتولاهما بالبحث والمعاودة مرة ومرة . ودعواه العريضة التي كذبتها وقائع التاريخ وأبحاث العلماء المنصفين . هي أن الثقافة اليونانية هي مصدر الثقافات الإنسانية وأن الناس في الشرق والغرب مدينون لثقافة اليونان .

وقد حرص طه حسين على إثبات هذه النظرية الباطلة في الكتاب المقرر في المطالعة على المدارس الثانوية . كما عقد فصلاً خاصاً بهذه القضية عنوانه : ( بين الشرق والغرب ) أراد بهذا الفصل أن يجعل القيمة العقلية من حظ الغرب وأن يجعل البوارق الخيالية من حظ الشرق وانتهى إلى النص بأن الغرب وطن الفلاسفة وأن الشرق وطن الأنبياء ومن دعاواه الباطلة قوله : إن العقل الشرقي أهرم أمام العقل اليوناني مرات في التاريخ القديم وأنه ألقى السلاح في التاريخ الحديث .

ومن ذلك إهمال الخطابة عن الغرب والاهتمام بالخطابة عند اليونان في مقرر الأدب العربي على الثانوية عام ١٩٣٩ حيث أدخل عدداً وافراً من خطباء يونان القديم واستيعاب الأدلة الوافية من كلامهم لا في أصله اليوناني بل في ترجمته إلى العربية عن الفرنسية ، وهدفه إبعاد النفس المسلمة عن بلاغة اللغة العربية وسمو أدبها . ولا يستطيع الدكتور طه وهو يكتب ( على هامش السيرة ) أن ينسى اليونان والأوديسة ، فيعرض لآلهة اليونان ويرينا أبولو ، والمريخ وأرتميس وأثينا . وقد اجتمعوا لينظروا عما عساهم يفعلون . فلم يلبثوا أن أجمعوا أمرهم على أن يرحلوا عن الديار التي سادوا فيها زمناً . ويتحدث في كتاب ( على هامش السيرة ) عن الوثنية اليونانية وكيف زالت وحلت محلها اليهودية والنصرانية ويتحدث في خمسة فصول أخرى عن بلاد الروم والأحباش واثنين .

ويذهب الدكتور طه في مقدمة كتاب ( نقد النثر لقدماء ) إلى أن قواعد



البلاغة العربية إنما أسست على ما وضع أرسطو ونقله العرب من اليونانية وتابعه على ذلك عبد العزيز البشري ( الهلال - يناير عام ١٩٣٦ ) : مع أن أى نظرة سريعة للفكر الإسلامى الأصيل تكشف زيف ما عرضه التغريبيون فى المثل السائر لابن الأثير أشهر كتب البلاغة ما يأتى :

( فإن قلت : إن هؤلاء وقفوا على ما ذكره علماء اليونان وتعلموا منه قلت لك فى الجواب : إن هذا شيء لم يكن . . إلى أن قال : وهذا باطل بى أنا فإنى لم أعلم شيئاً مما ذكره حكماء اليونان ولا عرفته ، ومع هذا فانظر إلى كلامى . . إلى أن قال : ولقد فاضى بعض المتفلسفين فى هذا وانساق الكلام إلى شيء ذكره لأبى على بن سينا فى الخطابة والشعر وذكر ضرباً من ضروب الشعر اليونانى يسمى ( اللاغوزيا ) وقام فأحضر كتاب ( الشفاء ) لابن على بن سينا فوقف على ما ذكره ، فلما وفقت عليه استجملته فإنه طول فيه وعرض كأنه يخطب بعض اليونان وكل الذى ذكره لا يستفيد منه صاحب الكلام شيئاً ) .

( ع . ط ) الرسالة - ٤ ديسمبر سنة ١٩٣٩ .

( ٢ )

وقد واجه الدكتور زكى مبارك مقولة طه حسين فى كتاب ( مستقبل الثقافة ) فقال : إلى الدكتور طه . قلت : إن عقلية مصر عقلية يونانية وصرحت بأن الإسلام لم يغير تلك العقلية . إن طه حسين يعلم أن مصر ظلت ثلاثة عشر قرناً وهى مؤمنة بالعقيدة الإسلامية والأمة التى تقضى ثلاثة عشر قرناً فى ظل دين واحد لا تستطيع أن تفر من سيطرة هذا الدين . كيف جاز عندك يا دكتور أن تتوهم أن الإسلام لم يغير العقلية المصرية بتغيير أو تبديل ، أنا لا أنكر أن تكون مصر ورثت ما ورثت من علوم اليونان ولكنى أنكر أن تكون مصر عاشت بعقلية واحدة منذ آلاف السنين إلى اليوم ، هل تصدق حقاً يا دكتور أن المصريين أحسوا العقلية اليونانية بعد الإسلام إحساساً واضحاً صريحاً . أنا لا أنكر قيمة التراث الذى خلفه اليونان ولكنى أرتاب فى أنه وصل إلى ألاف العقلية المصرية ، وأنت تعرف من نفسك ما أعرفه من نفسى ، أنت تعرف أننا لم نفقه الفلسفة اليونانية إلا بعد أن

ارتضنا رياضة عنيفة جداً ما وعيت أنك فقهت فلسفة اليونان وأنت طالب في الأزهر ، فأنا أقول : إنني لم أفقه تلك الفلسفة حتى الفقه . إلا بعد أن تلقيتها على أساتذة أوروبيين في الجامعة المصرية . وما أظنك تنهجن بقلة الذكاء ، والعلوم التي لا تهضم إلا بعد جهد ومشقة لا تغبر عقليات الشعوب وإن غبرت عقليات الأفراد ، أنت تعرف فيما تعرف أن الفقه الإسلامي نفسه كان يتغير بالانتقال من أرض إلى أرض فكان للشافعي مذهب في مصر ومذهب في العراق ومعنى ذلك أن العقليات تتغير من وقت إلى وقت باختلاف ظروف الزمان وظروف المكان .

والموجة الإسلامية التي طغت على مصر فتقلتها من لغة إلى لغة ، ومن دين إلى دين ، والتي قصت بأن تنفرد مصر بحراسة العروبة والإسلام بعد سقوط بغداد . هذه الموجة الغاثية لا يمكن أن يقال : إنها لم تنقل مصر من العقلية اليونانية إلى العقلية الإسلامية ، ولكن ما هي تلك العقلية الإسلامية ؟ هي لون آخر غير العقلية اليونانية بلا جدال ، أقول هذا وأنا أشعر بأنني لم أزعجك تماماً عن موقفك ولكني موقن بأنني عرضت صدرك لشبهات ستوجب عليك الخلد حين تتكلم في هذا الموضوع مرة ثانية ، وأنت تعرف ما أعني .

### ( ٣ )

وبعرض الدكتور زكي مبارك لكتاب ( قادة الفكر ) التي قررته وزارة المعارف على الطلبة المصريين زمناً طويلاً لتعلم هؤلاء أن قيادة البشرية لم تكن من نصيب الغزالي وابن تيمية والشافعي ومالك وأبي حنيفة ، ولكنها كانت من شأن أرسطو وأفلاطون . يقول :

تلخص آراء الباحثين في طوائف من قادة الفكر الذين سيطروا على العالم القديم والعالم الحديث ، والدكتور يعرف بأنه ملخص ( قدرته على تلخيص ما يقرأ من جيد التصانيف ) وهو يعترف اعتراف العلماء فلا يدعي أنه أجهد فكره في غير التلخيص ، وأنه يفتزع الآراء بقوة توهمك أنه المفتزع الأول وأن كتابه سيكون المصدر لمن يتحدثون عن هومروس أو سقراط أو أفلاطون . وقد وثق الدكتور طه عن نقل عنهم ، فلم يجادلهم في رأي من

من الآراء والحق أن للدكتور طه عذراً في هذه المسامرة فقد قرأ كتباً ترى هذا الرأي ولو أنه تربث لعرف أن هناك كتباً أجدر من تلك بالتلخيص وقد سابر الدكتور طه الباحثين الأوربيين في القول : بأن الثقافة اليونانية هي مصدر الثقافة الإنسانية وأن الناس في الشرق والغرب وفي جميع الأجيال مدنيون لثقافة اليونان . والحق أن الدكتور طه لو تربث لعرف أن هناك كتباً أجدر من تلك الكتب بالتلخيص وهي الكتب التي ترى أن المعارف اليونانية منقولة من المعارف المصرية وأن فلاسفة اليونان القدماء لم يكونوا إلا تلاميذ لفلاسفة مصر القدماء .

واستاذية مصر الفرعونية لليونان الوثنية ليست أسطورة وإنما هي حقيقة ويقول : أفي الحق أن العقل الإنساني لم ينضج إلا في القرن الرابع قبل المسيح ، العقل الإنساني نضج قبل الوثنية اليونانية بأزمان وأزمان . وكان مصدر نضجه في مصر التي سبقت اليونان بأجيال وأجيال ، والتاريخ القديم يؤيده التاريخ الحديث ، لم يستطع اليونان بعد ظهور الإسلام أن تكون أمة تسيطر في الشرق أو الغرب .

ثم يقول : إن السبب في الإيجاز والأطناب في دراسة هذه الشخصيات يعود إلى الكتب التي بين يديه وهو يؤلف كتابه وأهمها كتاب (ليون رومان) في تاريخ الفكر اليوناني .

لقد قرر أن الإسكندر غرس الفكر اليوناني في الهند ، مع أن الإسكندر لم يلم بالهند إلا إلمامة الطيف ، فسا عساه يقول : لو تذكر أن الفكر العربي تغلغل في أرجاء الهند وما زال يتغلغل بفضل المذاهب الإسلامية . ويعود الدكتور زكي مبارك بالذاكرة إلى نوفمبر عام ١٩١٩ حين وقف طه حسين أول مرة يتحدث في الجامعة عن الفلسفة اليونانية وقال : إنه عزم على إحياء التراث اليوناني لأنه يؤمن إيماناً جازماً بأن مرجع الفكر في الشرق والغرب إلى القدماء من مفكري اليونان وأعلن زكي مبارك أنه لا يجوز أن يرجع الفكر كله إلى مفكري اليونان وحتى عام ١٩٤٣ وما بعده وما زال طه حسين على إصراره على القول : بأن مرجع الفكر في الشرق والغرب إلى القدماء من مفكري اليونان وحرصه على إثبات هذا القول في الكتاب المقرر للمطالعة في المدارس الثانوية .

ومن ذلك قوله : إن الغرب وطن الفلاسفة وإن الشرق وطن الأنبياء  
ما حظه في أن يقرر أن العقل الشرق انهزم أمام العقل اليوناني ، وما الغرض  
من الإصرار على أن العقل الشرق يذهب في فهم الطبيعة وتفسيرها مذهباً  
دينياً فائقاً ، بدليل أنه خضع للكهان في عصوره الأولى وخضع للديانات  
السمائية في عصوره الراقية ، وقال : لابد من نقض هذه الآراء قبل أن يفتن  
بها التلاميذ لأنها صادرة من رجل ممتاز من الوجهة الأدبية أو لأنها مسجلة  
في كتاب رقمه على اسم وزارة المعارف العمومية .

ومن أخطاء الدكتور طه في تصوير الحياة العقلية :

١ - أنه يتوهم أن أخذ اليونانيين من الشرقيين نظام النقد ونظام المقاييس  
ليس إلا عملية مادية .

٢ - من أخطائه أنه يهون من فزون الحساب والهندسة فيجعلها فزواً  
عملية لا عقلية .

٣ - من أخطائه أن يقول : بأن سيادة النظام الملكي في الحكومات  
الشرقية دليل على أنها لم تنضج من الوجهة السياسية .

وحجة الدكتور طه على قوة الغرب أنه وطن الفلاسفة وحجته على  
ضعف الشرق أنه وطن الأنبياء ، فما قيمة هذا الكلام إذا أقيمت له  
الموازن ؟ الفلاسفة لم تكن لهم فاعلية بدليل أنهم عاشوا في عزلة عن المجتمع  
ولم يفكروا في إقامة حكومة تحقق آمالهم في شرف الوجود ، ولم يكن للفلاسفة  
أى فاعلية بدليل أنهم عاشوا في عزلة عن المجتمع وسقراط أبو الفلاسفة  
لم يسلم عقله من الخضوع لمعبد أبولون وكان حاله عند الحكم عليه غاية في  
سوء المصير فقد ظهر أنه لم يستطع خلق عصبية تحميه من العقل ولم يكن  
تلاميذه وحواريوه إلا أنصاراً لا يجيدون إلا البكاء . أما الرسول فرجل  
مجاهد يرى من واجبه أن يستقتل في هداية المجتمع وأن يرحب بالموت  
في سبيل الجهاد وقد نجح الأنبياء المرسلون في هداية الشرق والغرب ، فلهم  
الفضل في إقامة الدعائم للحياة الإنسانية ، ثلاثة من الأنبياء سيطروا بالفكر  
والروح والعقل على أقطار الشرق والغرب أضعاف ما سيطر سقراط ،  
وأفلاطون وأرسطو . رفض محمد أن يقبل فكرة أن الشمس انكسفت لموت

ابنه إبراهيم وكانت هذه ذات أثر في إيمان الناس به ، فأعلن أن الشمس والقمر آيتان من آيات الله وأنهما لا يتأثران بمؤثر ولو كان من الأنبياء ، ولكن محمداً لا يبالي بالأثر السريع بينما هو لا بد أن يصدع بكلمة الحق ولو تعرضت نبوته للضياع .

ومن هنا فقد كان محمد هو القائد الأول للفكر الإنساني لا سقراط . أراد الدكتور أن بغض من العقلية الشرقية بحجة أنها خضعت للكهان ، والأنبياء ( وهذا كلام موجود في كتاب قررته وزارة المعارف ) والظاهر أن الدكتور طه يتوهم أن الكهانة ظاهرة شرقية لا غربية وذلك توهم طريف لأن الدكتور طه نفسه يشهد بأن سقراط قد استلهم الكهان مع أنه في زعم الدكتور طه أول محرر للعقل الإنساني من أغلال الأضاليل . الكهانة لم تعد مهنة مقدسة إلا في عهد الوثنية اليونانية فقد كانت لها معابد ولعابدها سدة وأمناء ، أما كهان الشرق فكان مركزهم في المجتمع أخف وأيسر ، لأن الشرق سبق الغرب إلى استيحاء العقل وهل يستطيع مكابر أن ينكر فضل الشرق في السبق إلى رفع القواعد من الحضارة الإنسانية .

أما الكلام على تفرد الشرق بالأنبياء ، فإن النبوات في الشرق دانت الإنسان بديون براها الحاضر ويذكرها التاريخ ( فالأنبياء الثلاثة : موسى وعيسى ومحمد ) من أروقة عربية ملأوا الدنيا في أزمان لم تعرف سوى الذي أثاروا من صيال الآراء . إن الصراع بين الإسلام والنصرانية هو أول وثبة حرة لإيقاظ العقلية الإنسانية ، وكانت دعوة لوثر دعوة جريئة إلى تحرير المسيحية من العبودية الرهبانية فما مصدر تلك الدعوة التي حررت عقول الإنجليز وعقول الألمان ؟ أن مصدرها مصدر إسلامي فإن لوثر أثر في الأخلاق الأوروبية تأثيراً لا يقاس عليه تأثير سقراط وأفلاطون الشرق لن يتخلى عن السيطرة الروحية وإن عجز عن السيطرة الحربية .

وقد ذهب الدكتور طه إلى أن الثقافة اليونانية هي مصدر الثقافات الإنسانية . وأن الناس في الشرق والغرب في جميع الأجيال مدينون لثقافة اليونان .

• • •

أما الدكتور طه حسين في كتاب ( نظام الأثينيين ) فإنه يدافع عن أرسطو وعن نظريته في عبودية البشر وتجنيد الرق ، فقد حاول في كتابه هذا أن يبرئ نظرية أرسطو بكل ما أوتي من قوة من تجنيد الرق والدعوة إليه وأن يثبت أن الأمم المحدثه باستعمارها للشعوب المستضعفة تقدم أفتح صور الرق الذي كان مأثوفاً في العصور الأولى ، وأنه لا فرق بين هذه الأمم وبين أهل تلك العصور ، ويقول الدكتور محمد غلاب :

( لو أننا أردنا أن نستقضي الأمر لوجدنا أن نظرة أرسطوطاليس ما زالت قائمة واقعة برغم ما كان من رقي المدنية من الاعتراف بكرامة الإنسان ، فكل ما وصلنا إليه بعد عشرين قرناً إنما هو إزالة الرق الشخصي إن كنا قد توصلنا إلى ذلك ، أما الرق الاجتماعي فما زال قائماً موجوداً والاستعمار أوضح مثال له وأقوى دليل عليه ولستأ نريد أن نعرض لاستعباد الطبقات بعضها بعضاً وإن كان هذا الاستعباد صورة من صور الرق ) .

يقول طه حسين : ولكن من قرأ أرسطوطاليس عرف أنه من أعداء الرق ومن الذين أعدوا لإزالته والقضاء عليه ، على أن أرسطو لم يدع إلى الرق وإنما اعترف به وبأنه مشروع ولو فعل غير ذلك لهدم قواعده العلمية . انظر كيف يعترف الدكتور طه بصريح العبارة بأن الرق بأنواعه ومنها الاستعمار مهين لكرامة الإنسان ، ولكنه يخالف رأى نفسه في كتابه فلسفة ابن خلدون الاجتماعية الذي يرثي فيه للفرنسيين من أجل أنهم يهانون الأمرين في سبيل بسط حضارتهم على المراكشيين المتوحشين الذين رفضوا قبول هذه الحضارة ويعترف بأن الرق كان أصلاً من أصول الاجتماع الأرسطي

لا ريب أن في تبرئتك أرسطو أيها الدكتور من الدعوة إلى الرق بهذا الإلحاح شعور من ناحيتك بأن الدعوة إليه أمر مخجل سيتوارى منه في المستقبل تلاميذك ومحبوك حين ينسب إليك أنك دعوت إلى الرق وزينت الأسلوب القاسي الذي تسلكه فرنسا إزاء المراكشيين المظلومين .

وهكذا نجد طه حسين يبرر مذهب أرسطو في العبودية في تلك العبارات المأكرة التي تحمل التقوية والتضليل .

٢ - ويقول الأستاذ عبد المتعال الصعيدي ( البلاغ الأسبوعي - يومية عام ١٩٣٠ ) :

الأستاذ طه حسين في كتاب ( نظام الاثنييين ) لأرسطو الذي نقله من الفرنسية إلى العربية لا يتورع من الطعن ويرى العرب بالجهل لسياسة أرسطو ، وما كان من ضرر عليهم من جهلها وقد سن لهم الإسلام سياسة عادلة رحيمة ليست كسياسة أرسطو الذي يقوم على أساس التمييز بين بني الإنسان إذ يرى أن هناك أناساً خلقوا ليكونوا أحراراً وآخرين خلقوا ليكونوا عبيداً . وأن من حق الأولين استخدام الآخرين ، فأين هذا من قوله تعالى : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى . . . » .

ومن قول عمر : بما استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ويشاء الله أن يكون هناك علماء من أولئك العرب الذين يبغض الآن قدرهم نصروا في كتبهم التي يهجرها شيئاً فشيئاً أولئك الباحثون المفتونون بغيرها من الكتب الأوروبية على أن تلك الفلسفة التي نقلت إلى اللغة العربية ليست هي الفلسفة اليونانية الأصيلة ، وإنما هي فلسفة لعبت فيها النصرانية وعبثت بها حتى شوهتها وبعدت بها عن أصلها اليوناني ، فلم يكن إذن هناك غفلة من العرب عن حقيقة تلك الفلسفة حتى كشف أمرها ، بل كان هناك عدم ثقة عام بتلك الفلسفة وصل في الحد الأقصى منه إلى الحكم بكفرها والاجتهاد في صرف الناس عنها .

#### ( ٥ )

وهو من يرى أن دراسة تاريخ اليونان من شأنها أن تحقق هدفه في وضع التبعة على المسلمين وفكر الإسلام ، اتجه إلى إلزام طلاب كلية الآداب به ، فهما كان للحضارة اليونانية والرومانية من التأثير الظاهر في البلاد الإسلامية فإن هذا الأثر سرعان ما انطوى وزال بعد الإسلام بقليل وقام ما أسماه المؤرخون الانقطاع التاريخي . وقد واجه علماء المسلمين الفكر اليوناني المترجم والمسمى علم الأصنام مواجهة حاسمة وكشفوا عن زيفه . كشف عنه الشافعي

وأحمد بن حنبل والغزالي وابن تيمية الذي ألف في منطق اليونان كتاباً دحض فيه هذا المنطق وكشف عن منطق القرآن .

ولكنها تعلق من الدكتور طه ليفرض تاريخ اليونان المائج بالسموم والشبهات والإباحيات والقصص المكشوف الداعر ، والفساد الصارخ الذي أراد أن يدخله على المجتمع الإسلامي .

وإذا كانت الجامعات في فرنسا تدرس اللغتين اليونانية واللاتينية فليس معنى هذا بالضرورة أن تدرسه الجامعات في مصر والعالم الإسلامي ، لقد عني الفرنسيون والإنجليز بهاتين اللغتين لارتباط أدبهما بهذا الأدب . أما الأدب العربي فليس له هذا الموقف ، لقد نشأت الفرنسية عن اللاتينية ، ثم غزت اللاتينية اللغة الإنجليزية ، أما العربية فإن اليونانية واللاتينية لم تغزها كما غزت اللغات الأوروبية .

#### ( ٦ )

هذه المدرسة التي أنشأها طه حسين في التبعية للفكر اليوناني والأدب اليوناني والتي انشاق وراءه فيها صقر خفاجي ومندور ولويس وعوض وغلاب معناها تحسين الجاهلية القديمة وإحياء الأساطير تحت عبارات براقة منها الزعم بأن اليونان لها فضل على الحضارة الإسلامية وهو زعم باطل كاذب ، ولكنها تمويهات يراد بها خداع شبابنا المسلم وإذا كان الشعر الغربي لا يفهم إلا بدراسة اليونان فإن الأدب العربي لا يخضع مطلقاً لهذه الأضوالة ، بل إن طه حسين يذهب إلى إنكار فضل الحضارات القديمة ومعارفها على اليونان والعقل اليوناني ، حيث يثبتها الأوروبيون أنفسهم . وقد أشار إليها غير واحد منهم ومنهم سانت هيلر في مقدمة ترجمة الإلياذة حيث يثبت في وضوح تتلمذ اليونان على المصريين القدماء ولكن الدكتور طه يبرهنهم من هذه التبعية ثم يفرضهم على الإسلام نفسه في صلف عجيب وتضليل بالغ .

بل إن الدارسين للأدب اليوناني أحصوا عليه أخطاء في هذا الأدب نفسه تدل على أنه لا يعرف كيف يترجم ، وقد أشار الدكتور غلاب ( السياسة الأسبوعية - يونية عام ١٩٣٠ ) إلى أنه ادعى أن أفروديت كانت ذات



قوة وصيحة وفلك ويطش ونحن لا نعرف أن أحداً وصلت به الجرأة في قلب الحقائق وتغيير الحوادث هذا الذي بلغه الدكتور طه، فكل الناس يعلمون أن أفروديت كانت إلهة خيلة رشيقة خليعة مفعودة القوة تمثل الخور . وقد تبين أن الدكتور طه إما أنه يجهل الأدب اليوناني جهلاً تاماً وهذا ما لا نظنه وإما أنه بعيد عن النزاهة في النقد والإخلاص في العلم بعداً تاماً وهذا ما أعتقده ولا أتردد في التصريح به .

إن هناك ناحية ضعف في أخلاق الدكتور طه لا ينبغي السكوت عليها وهي غروره بنفسه إلى حد اعتقاده أنه يستطيع مهاجمة الناس جميعاً ، بل هدمهم وإبادتهم دون أن يقدر أحد على أن يهاجمه أو ينال منه ، هذه العقيدة نفدت إلى بعض الرموس المستنيرة فأمن كثير من الخاصة بأن الدكتور طه أقوى من أن يهاجم وأمن من أن يحطم فأصبحوا يهابونه وأصبحوا يعتقدون أنه أعلم من أظلت الزرقاء وأقلت الغبراء ) .

وقد أطلع الدكتور طه بترجمة الأساطير اليونانية الصارخة جنساً وجريمة ليقدّم صورة من ذلك الركام الوثني في صورة براقة ( كتابه صحف مختارة من الشعر التمثيلي عند اليونان ) وغيره ، ومن ذلك إشاعة الوثنية اليونانية حيث يتحدث في هذه القصص عن عبادة اليونان والرومان للآلهتين ( برسيفونه وديمتر ) عبادة منظمة خفية وقال : إن أصولها ومراسيمها اعتبرت أسراراً مقدسة لا يعرفها الناس إلا إذا لقنوها تلقيناً ودرسوها درساً خفياً مستوراً على الذين احتكروا علمها وتعاليمها من القسس والكهان وانضم إلى هاتين الآلهتين في هذا المعبد إله ثالث هر ديونوزوس إله الخمر والكرم .

راجع : قصة برسيفونه ( الوادي - مجلد عام ١٩٣٤ ) .

وقد بلغ من قدرة طه حسين على المبالغة في الإعجاب بحضارة اليونان أن يقول في التعريف بكتاب الأخلاق لأرسطو الذي ترجمه لطفى السيد : أنه لو أن الحضارة الحاضرة أزيلت وأريد تأسيس حضارة جديدة لكانت فلسفة أرسطو أساساً لهذه الحضارة الجديدة ، وأن أوروبا الحديثة تعيش الآن وتستعيش غداً على فلسفة أرسطو ، والواقع الذي تثبته جميع الأبحاث العلمية أن الغرب تخلص من فلسفة أرسطو منذ بدء النهضة وأن فرنسيس بيكون ومن

بعده روجر بكون وغيرهم . أنهم تخلصوا من فلسفة أرسطو وأنهم نقدوها وهدموا بنفس الأسلحة التي هدمها بها المفكرون المسلمون ، وأنهم استبدلوا بها المنهج التجريبي الإسلامي الذي أخرجهم من جمود الفلسفة الأرسطية ، وأن الجريمة المعروفة أنهم حين أخذوا من المسلمين المنهج التجريبي لبناء الحضارة الحديثة أهدهم منهج أرسطو ليجمدهم ويمنعهم من التقدم وهذا ما فعله جلارزا ولطفي السيد وطه حسين في مؤامرة التغريب التي بدأتها الجامعة المصرية القديمة .

كذلك فقد امتدت مدرسة الحلينية إلى البيان والبلاغة ، وجرى كلام كثير عن أثر اليونان في متكلمى المعتزلة ، وفي البلاغة ، وفي كتابات عبد القاهر الجرجاني الذين يعدونه على رأس المدرسة اليونانية في البيان العربي وقد قام الشيخ أمين الخولي بدور واضح في هذا الاتجاه ، فقد كتب بحثه عن البلاغة وأثر الفلسفة فيها ، وتحدث كثيرون عن أرسطو معلم العرب الأول ، وقالوا : إنه معلمهم في الفلسفة كما هو معلمهم في البيان . - ولكن هذه المدرسة هزمت شر هزيمة عندما تولى الشيخ مصطفى عبد الرازق تدريس الفلسفة وكشف عن زيف هذا الاتجاه وأشار إلى أن الفلسفة الإسلامية تبدأ بالإمام الشافعي وكتابه ( علم أصول الفقه ) وأن ما غير ذلك فهو منسوب إلى المدرسة المشائية اليونانية ، وأن هؤلاء الفلاسفة هم المشاءون العرب وكان على رأس هذه المدرسة ( ابن سينا والفارابي ) . قاد هذا التيار محمد عبد الهادي أبو زيدة ، على سائى النشار ، محمد محمود الحضيرى ، وغيرهم وفي كتاباتهم تفاصيل كثيرة عن زيف وجهة طه حسين .

\* \* \*

وفي كتاب ( رحلة الربيع ) التي قصد فيها طه حسين إلى أصنام اليونان تهاويل وعبارات فيها مبالغة حادة في وصف تلك الأطلال اليونانية التي يدعى أنها صدرت للعالم الفكر السياسى المعاصر والديمقراطية وبيالغ أشد مبالغة حين يقول : إنها ( أى أثينا ) هي التي رسمت للأجيال وللإنسانية طريقها الذي سلكته وستسلكه مدى الحياة ) . ومن أين يملك طه حسين هذا التنبؤ وهو يعلم أن الإسلام جاء فحيا كل هذه الترهات والأساطير والأوهام وأن الديمقراطية التي يشيد بها تلفظ البرم أنفاسها .

## الفصل الحادي عشر

### كتابا (الشعر الجاهلي) و (الأدب الجاهلي)

- ١ - في الأدب الجاهلي .
- ٢ - نظرية ديكرات ومنهج الشك .
- ٣ - الشبهات المثارة حول كتاب في الأدب الجاهلي .

\* \* \*



## في الأدب الجاهلي

كتاب ( في الأدب الجاهلي ) للدكتور طه حسين هو الكتاب الموجود الآن في أيدي الباحثين وطلبة كليات الآداب في بعض الجامعات في الوطن العربي ، وبعضهم يعتبره دعامة أساسية لأنه قدم المنهج الغربي في دراسة الأدب ونقده ، وهو الوليد الذي أسفرت عنه مصادرة كتاب ( في الشعر الجاهلي ) للدكتور طه بعد تلك المعركة الشهيرة التي أثارت مشاعر المسلمين والعرب في كل مكان ومن جراء العبارات الجريئة المناهية للقيم والعرف والمفاهيم في الإسلام في الإشارة إلى القرآن الكريم وإلى النبي صلى الله عليه وسلم والتي أرغمت الدكتور وحواريه أن يحذفوها من الكتاب ويعيدوا طبعه تحت اسم جديد مع بعض الإضافات .

ومعنى هذا أن روح الكتاب الحقيقي العاصف الكاره الخافد على الإسلام بقي كما هو ، وبقيت تلك النظريات المسمومة التي عمد إلى إذاعتها قائمة بل أن البعض الآن من التغريبيين والشعوبيين والماركسيين يرون أنها دعامة أساسية لإقامة منهج البحث الأدبي وقد كانوا يفخرون دائماً في كتاباتهم بهذا العمل بالإضافة إلى كتاب على عبد الرازق ( الإسلام وأصول الحكم ) .

وقد حذف الدكتور طه من كتابه ما حذف من غير أن يذكر أسباب الحذف حيث جرت سنة العلماء إذا نشروا بحثاً ألا يغيروا منه من غير أن يسيروا إلى الأسباب التي دعت إلى هذا التغيير ، خصوصاً إذا كان التغيير رجوعاً في الظاهر عن رأى كان الباحث قد ارتآه وأذاعه باسم العلم وقد أشار إلى هذا المعنى الدكتور الغمراوي الذي قال : الواقع أن المحذوف هو ما أثار ثائرة المسلمين على صاحب الكتاب فكانت عملية تنقية الكتاب

بالهدف مما لم يبق على تخليصه من كل ما يجافى الدين وإن خلصته فيما يظهر من كل ما يؤخذ عليه القانون . أما المثبت في ثنايا الكتاب فقد بقي فيه طابع التهم والشك ولعل القارئ يريد أن يعرف بعض ما رفع وإن كان نخشنا منصباً في هذه الحلقة على الكتاب الباقي في أيدي الناس :

رفع من الكتاب ما يتصل بتشكيكه في وجود إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، وما يتصل بالسخرية من الرسول صلى الله عليه وسلم في عبارته : ( فلأمر ما اقتنع الناس بأن النبي يجب أن يكون من صفوة بني هاشم ) ، وهى عبارة وصفها المحقق في النباية بأنها تمثل سوء الأدب في حق النبي وعبارة ( ولأمر ما شعروا بالحاجة . . إلى إثبات أن القرآن كتاب عربى مطابق في ألفاظه للغة العرب ) وإن استبقى عبارة ( وفي القرآن سورة تسمى سورة الجن أنبأت أن الجن استمعوا للنبي ) وهو أسلوب مقصود منه استخفاف خفي بكتاب يجعل للجن سورة تحدث فيها عنهم بكذا وكذا بما لا عهد للناس به وما لا يمكن إثباته إلا عن طريق القرآن وفيها عدا هذا فكتاب ( في الأدب الجاهل ) هو نفس النص القديم بروحه وطابعه وهدفه الذي وجه إليه النقد من أعلام الفكر الإسلامى في عصره : الخضر حسين . فريد وجدى ، مصطفى صادق الرافعى ، لطفي جمعة ، محمد الخضرى في دراسات متصلة فضلا عن مقالات عديدة للكثيرين غيرهم .

هدف الكتاب يتمثل في عدة أهداف :

**أولاً :** محاولة تأكيد نظرية مسمومة كتبها المستشرق اليهودى مارجليوث ملخصها أن الشعر الجاهلى موضوع جله إن لم يكن كله بعد الإسلام والهدف هو تحطيم الدعائم التى يقوم عليها تفسير الألفاظ العربية الموجودة في القرآن والتي نزل بها القرآن لأن العرب يعرفون معناها الوارد في ديوانهم القديم والشعر كان ديوان العرب .

**ثانياً :** هدم النظرية الإسلامية الجامعة التى تجعل الأدب العربى قطاعاً من الفكر الإسلامى مرتبطاً به لا يتفصل عنه ويلتزم بقيمه الأخلاقية ومفاهيمه العقائدية .

**ثالثاً :** إذاعة نظرية مسمومة بتقسيم العرب إلى عاربة ومستعربة :

رابعاً : دعوى أن المسلمين قصروا على الفكر السابق للإسلام .

خامساً : محاولة الادعاء بأنه اعتمد على نظرية الشك التي أذاعها ديكارت مع أن نظرية ديكارت تختلف ولقد كانت نظرية ( الشك الفلسفي ) هي عماد عمل طه حسين حياته وفكره كله في زعمه .

سادساً : الدعوة إلى تحلى الأديب عن العاطفة الدينية والقومية ودراسة الأدب كما يدرس العلم الطبيعي وعلم الحيوان والنبات .

والنظرية في مجموعها مسروقة سرقة كاملة من المستشرق اليهودي مارجليوث نشرها في المحلة الملكية الآسيوية ( الإنجليزية ) عدد يوليو عام ١٩٢٥ وهو بحث في ٢٢ صفحة بعنوان ( نشأة الشعر العربي ) يشك في صحة الشعر الجاهلي ويرى أن الشعر الجاهلي الذي نعرفه إنما هو في الحقيقة شعر إسلامي وضعه الرواة المسلمون في الإسلام ونسبوه إلى أهل الجاهلية .

كان موقف مارجليوث ومن قبله نولدكه هو موقف الاشتباه والشك والترجيح . أما موقف طه حسين فهو موقف الحسم بأن هذا الشعر وضع بعد الإسلام مع تجاهل العلوم المعروفة التي تكشف عن الفروق الواضحة بين شعر الجاهلية وشعر عصر الإسلام وهي معارف يلم بها كل من له اتصال بهذا الباب ، هذه الفروق العميقة التي تميز الشعر الجاهلي عن الشعر الأموي والعباسي رغم مسافة مائة سنة يعرفها الباحثون .

إن في الشعر الجاهلي كما يقول محمود محمد شاكر شيئاً مبايناً مباينة سافرة لما في الشعر العباسي كله ، ففي الشعر الجاهلي ترجيع خفي غامض كأنه حفيف نسيم تسمع حسه وهو يتخلل أعواد نبات عقيم متكاثف ، وترجيح الشعر الجاهلي وذننته فيها مباينة ظاهرة لما يوجد في الشعر الأموي والعباسي ، فضلاً عن حفظه لعادات وتقاليد العرب قبل الإسلام ، وهذا هو ما انكشف لشباب كلية الآداب عندما بدأ طه حسين يلقي هذه المحاضرات وكان ( شاكر ) قد قرأ مقالة مارجليوث في المحلة الآسيوية قبل أن يدخل كلية الآداب وقد سرى ذلك في الأساتذة والمستشرقين ، وإلى الطلاب ، فقد أعلن ذلك لهم الأستاذ شاكر وقال : إن ما يليق طه حسين ما هو

إلا ( حاشية على متن مارجليوث ) وأن طه حسين تعتمد ألا يذكر مارجليوث خلال العام كله ولا بكلمة واحدة فحق أن يصغه شاكر بزعامه السطو هذه الخليفة التي عممها طه حسين في الجامعة كلها والتي شابت الأدب العربي فترة طويلة بفضل عميد الأدب .

وكان محمود محمد الحضيرى من زملاء شاكر وقد كان له دوره في الكشف عن زيف ما ادعاه طه حسين من اعتياده على نظرية ديكرارت فكان أن ترجم ( مقال في المنهج ) لديكرارت وطبعه لدى السيد محب الدين الخطيب ليثبت أن ما يقوله طه حسين ليس هو منهج ديكرارت في الحقيقة وإنما هي تهويمات مضللة مما سنفصله في فصل خاص عن مذهب ديكرارت ونظرية الشك الفلسفى ، وكان أن جبه شاكر الدكتور طه حسين عميد الأدب العربي بأنه من الضروري قراءة الشعر الجاهلى ( والأموى والعباسى ) قراءة مستوعبة ليستبين الفرق بين الشعر الجاهلى والإسلامى قبل الحديث عن صحة نسبة هذا الشعر إلى الجاهلية أو التماس الشبه لتقرير أنه باطل النسبة وأنه موضوع فى الإسلام من خلال روايات فى الكتب هى فى ذاتها محتاجة إلى النظر والتفسير .

والحقيقة الواضحة فى هذا الأمر هى ( المزمرة على القرآن ) دون الإشارة إلى ذلك والعمل على هدم القاعدة الأساسية التى يرجع إليها المفسرون برد كلمات القرآن الكريم إلى لغة العرب . وقول الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهذا أخطر مغزى لهدف طه حسين .

ولقد أصبح الشعر الجاهلى بعد الإسلام — كما يقول باحث كبير — بمثابة الوثيقة التى لا تكشف جوانب حياة العرب قبل الإسلام فحسب ، بل تعطى كذلك صورة صادقة للغتهم وأساليب تعبيرهم وطريق تصورهم بها . لقد رجعوا فى القرآن إلى الشعر الجاهلى ليفهموا معانى الكلمات فاعتبر الشعر الجاهلى مصدراً لفهم القرآن ولذلك كانت محاولة طه حسين ( التى ما تزال قائمة ومستمرة فى كتابه الأدب الجاهلى الذى ما زال يطبع وما زالت كليات الآداب فى كثير من البلاد العربية وأساتذتهم العلمانيون يعتبرونه أساساً لنظرية النقد والبحث فى الأدب ) التى بثها خلال خمسين عاماً اليوم خطيرة وجد خطيرة لهدم اللغة التى نزل بها القرآن فأصبحت دراستها موضوع اهتمام



المسلمين وبذلك أصبح الشعر الجاهلي الذي يمثلها في عصر نقائها الأول عنصراً ثقافياً هاماً في الحياة الإسلامية . ولقد كان إعجاز القرآن ومجيبته على مستوى من البيان تنقطع دونه أطباع المقلدين وانقياده بأساليب خاصة في التعبير سبباً في أن لا يتخذ نموذجاً للاحتذاء بل مثالا للاستدلال والاستشهاد ، فلم يبق أمام الشعراء والنقاد واللغويين ما يمكن أن يتخذوا منه ذلك النموذج اللغوي البلاغي الذي لا يمكن احتداؤه إلا في الشعر الجاهلي وبذلك سيطرت مقاييسه اللغوية والبلاغية وتقاليد الأدبية على الإنتاج الأدبي في العصور التالية إلى اليوم وفي الشعر والنثر على السواء .

حاول طه حسين بكتابه ( في الأدب الجاهلي ) أن يفصل الأدب العربي عن الفكر الإسلامي ، وأن يحل الأديب من العاطفة الدينية والقومية وأن يفرض عليه منهج النظرية المادية في القول : بأنه يدرس الأدب كما يدرس العلم الطبيعي وعلم الحيوان والنبات . وتلك النظرية تعتبر الإنسان حيواناً وتدرسه على أنه لا يملك جوانب روحية أو معنوية وهذه نظرية فاسدة من أساسها لأن الأدب إذا خلا من عاطفتي الدين والقومية فقد كل معانيه ومميزاته وتصبح الأمة التي يوجد فيها هذا النوع مقفرة من الأدب الصحيح كل الأقفار .

ويقول الدكتور محمد أحمد الغمراوي : إن صاحب الكتاب ومن لف لفه يسوقون الأدب العربي في طريق غير طريقه ويلبسونه ثوباً من غير نسيجه وينسجون عليه نسجاً فرنسياً ويسوقونه في نفس الطريق الذي ضل فيه الأدب الألماني حتى رده إلى الطريق الصحيح هالماً وهاجيدون ولسنج

وما تلك الطريق التي يسوقون الأدب العربي فيها إلا طريق الافتتان بالأدب الفرنسي خاصة والغربي عامة حين لا صلة بين ذلك كله وبين روح الأدب العربي ، خاصة أن التقليد إن جاز في العلم من غير قيد لا ينبغي أن يؤخذ منه في الأدب إلا بمقدار ، لأن أدب الأمة من روحها ، فالتقليد فيه إخضاع لروح الأمة وإضعاف لشخصها . أما العلم فإنه ميدان العقل ومتاعه وهو لا وطن ولا قومية له ، وليس الأدب كذلك فبينما أنت لا تجد في العلم علماً إنجليزياً أو فرنسياً ولكن علماً واحداً إذا بك تجد الأدب متعدد

بتعدد الأمم . لكل أمة أديها كما لكل أمة لغتها . وتجد أدب كل أمة مطبوعاً بطابعها طبعاً لا خفاء فيه . إن التجديد في الأدب كالتجديد في العلم لا يمكن أن يقوم إلا على أساس تعاون الحاضر والماضي .

وفي الرد على نقطة ( نسيان القومية والدين كشرط أساسي من شروط البحث العلمي ) يقول الدكتور الغمراوي : إن الإنسان يستطيع أن يراعي الدقة العلمية في البحث وهو متذكر لدينه كل التذكر ومعتقد صحته كل الاعتقاد غير مجوز على قرآنه خطأ ولا على توراته ، بل إن التدين الصحيح يزيد الباحث الخلق إن أمكن حرصاً على الحق واستمسكاً به إذا وصل إليه . إن الباحث المتدين لا خوف عليه مطلقاً أن يخفي الحق أو يدلس في البحث محابة لدينه إذ ليس الحق يخاف على دينه ولكنه الباطل فالتدين الصحيح والعلم الصحيح ممكن اجتماعهما إذن كما أن العاطفة العلمية القوية والعاطفة الدينية القوية لا يتعارضان بل يتضافران في خدمة العلم .

هذا وإن فصل الأدب العربي عن الفكر الإسلامي إنما يدفعه إلى طريق التحرر من القيم والأخلاقيات ليخضع في طريق الإباحية والانحراف وهو ما فعله بدراسة أبو نواس وبشار وترجمة القصص الفرنسي المكشوف .

هذا بالنسبة لهذه النقطة ، أما النقاط الباقية فمرعونا بها البحث القادم بإذن الله .

### نظرية ديكارت ومنهج الشك الفلسفي

إن ( منهج الشك الفلسفي ) هو الأطروحة الكبرى للدكتور طه حسين في حياته كلها ، وهو الهدية المسمومة التي حملها إياه المستشرقون الصهيونيون ، والمبشرون الذين تلقفوه في معهد الدراسات الشرقية ، الذي كانوا يصوغون فيه أتباعهم إلى البلاد العربية .

ونحن إذا أردنا أن ندرس حياة طه حسين . فإن ( مفتاح حياته ) هو هذه الحكمة التي علموه إياها . ثم تركوه يناطح الفكر الإسلامي . وهي : ( أسلوب الشك هو مصدر الشهرة وإحداث الدوى ) . وقد كان طه حسين يتطلع إلى هذا الهدف منذ مطالع شبابه . لظروف حياته وعاهته .

ومن ثم فقد استهل بها حياته في الجامعة ، حين وكل إليه تدريس الأدب العربي ، وذلك بالشك في الشعر الجاهلي ، ومتابعة المستشرقين ، في القول : بأنه منحول .

لقد ادعى طه حسين أنه يستخدم ( منهج ديكارت ) ليغايظ الأزهريين ، حين قال لهم : إنهم لا يعرفون هذا المنهج .

وقد تصدى له الأستاذ محمد أحمد الغمراوي خريج كبر دج ، وقال له : إن ما قدمه ليس هو منهج ديكارت ، بل أن الأستاذ الخضيرى ترجم كتاب ديكارت ( مقال عن المنهج ) . ليؤكد أن ما قدمه طه حسين . ليس هو منهج ديكارت .

وقد طبعت هذا الكتاب المطبعة السلفية لصاحبها محب الدين الخطيب رحمه الله عام ١٩٣٠ . ليبين فساد اقتباس طه حسين .

ولقد أضطهد عميد الأدب . الأستاذ الخضيرى وطرده من الجامعة وتابعه ومنعه أن يدخل هيئة التدريس في كلية الآداب وحرّمها عليه . حين أطلقها لكل ناعق — على حد تعبير الدكتور نجيب البهيتي .

وقد تبين من بعد أن ديكارت قرأ ترجمة كتاب ( المنقذ من الضلال ) للإمام الغزالي ، وأشار على نسخته الخاصة الموجودة في مكتبته المهداة إلى السريون على الهامش أمام عبارة الغزالي عن ( اتخاذ الشك طريقاً إلى اليقين ) . ولكن طه حسين استعمل هذه النظرية لشيء آخر ، لإنكار كل قطعي وحقيقي ويقيني ، ولقطع الطريق على القيم الجامعة المكتملة ، ولفصل الأدب عن الفكر ، ولأن يترك الباحث المسلم ، دينه وقوميته ، عندما يبحث في أى أمر من الأمور ، وهذا غاية في الخطأ والتعوي به وفساد الرأي .

وقد عالج هذه القضية الأستاذ الغمراوي في كتابه ( النقد التحليلي للأدب الجاهلي ) فقال :

١ - إنه تنزع عما سماه القاعدة الأساسية لمذهب ديكارت ، لينطلق به إلى الانسلاخ من كل قديم في هذه اللغة التي هو أستاذ لأدائها . ولينتخذه ذريعة يرمي وراءها هذه اللغة وما اتصل بها ، حتى إذا قيل له : لم فعلت ما فعلت . وهل يفعل هذا عاقل ؟ قال : فعله قبلي ديكارت .

٢ - لقد خلط الدكتور طه بين الشك وبين المخرج من الشك . فجعل الشك القاعدة الأساسية للمنهج الذي ابتغى ديكارت أن يتخلص به من الشك ، والذي أدى به في بعض ميادين البحث إلى نتائج عظيمة .

٣ - ليس صحيحاً ما ذكره الدكتور من أن القاعدة الأساسية للمنهج الشك عند ديكارت ، أن يتجرد الباحث من كل شيء كان يعلمه من قبل ، وأن يستقبل موضوع بحثه خالي الذهن مما قيل فيه خلواً تاماً ، وهذا قطعاً ليس من قواعد منهج ديكارت .

٤ - الواقع أن كلا من ديكارت وبسكال ، مسروق إلى ما عرف باسمه من قواعد النظر ، سبقهما الغزالي على الأقل وقد سبقهما قبل ذلك بقرون - كما تشهد بذلك كتبه - مثل كتاب ( محك النظر ) و ( معيار العلم ) :

والغرب معذور حين ينسب بعض تلك القواعد إلى ديكارت ، وبعضها إلى باسكال ، فهما أول من أظهراه عليها ، ولكن ما عذر الدكتور طه حسين حين ينسب إلى ديكارت منهجاً سبقه إليه الغزالي ، لأن الدكتور كان يجهل مذهب الغزالي في النظر ، أم لأن الغرب نسب وهو للغرب تابع .

٥ - ليس هذا الذي زعمه طه حسين ، من وجوب تجرد الباحث من كل شيء كان يعلمه عن موضوع بحثه من قبل ، مما قال ديكارت ، فإن الذي قاله ديكارت هو : إنه يجب علينا ألا نقول عن شيء : إنه حق ، إلا إذا قام البرهان على أنه كذلك .

وشتان بين هذا المعنى ، وبين المعنى الذي زعم الدكتور من وجوب التجرد من كل ما قيل في موضوع البحث من قبل ، إذ من الجائز أن يكون ما قيل قد قام البرهان على صحته .

ثم يدهي أن تلك القاعدة من معناها أن يتولى كل إنسان إثبات كل شيء لنفسه بنفسه ، كما تقتضيه القاعدة الأساسية التي زعم الدكتور ، لأن ذلك يخفف لا ينتج عنه إلا التأخر والخطأ والفوضى .

هذا التصور ، يشهد على صاحب الأدب الجاهلي ، بما لا يمكن أن يسمى إلا جهلاً بديكارت واقتراء عليه ، كما أنه افترى على علماء العربية المتقدمين .

٦ - على أن فلسفة ديكارت ، قد يكون لها الفضل في الحكم بين طه حسين وبين بقية علماء الأدب العربي ، وفي الشعر الجاهلي وغير الشعر الجاهلي ، ذلك لأن من قواعدها أو حقائقها التي وصل إليها ديكارت نفسه : ( أن ما وجد في الدين واضحاً جلياً ، فهو حق يجب أن يسلم به تسليماً ) .

والدكتور طه لا ينكر أن القرون قد مرت على العالم العربي ، وأن الأجيال قد تابعت فيه ، والشعر الجاهلي قائم في الأذهان واضحاً جلياً ، منسوباً إلى هؤلاء الشعراء الجاهلين ، فالشعر والشعراء والنسبة حق إذن ، يحكم بذلك القدماء وأنصار القدماء ، ولو كان كل باحث حديث يهمل نتائج أبحاث غيره ويستقبل بحثه خلواً من كل ما قيل ، فيما يتعلق به المعنى الذي يقول صاحب الكتاب : إن ديكارت يعنيه ، لوقف العلم عن التقدم ، بل لما كان هناك علم منظم محدود .

تصور أن كل باحث في علم الطبيعة أو الكيمياء مثلاً - شك في كل ما عده من العلماء ، شك كما شك الدكتور ، في أمانة القادرين ، وفي مقدرة الأمانة . وشك طبعاً في النتائج التي وصلوا إليها . وأنه أخذ بمنهج ديكارت ذلك ، وطفق يعيد تلك الأبحاث من جديد !

قل لي : هل يتسع عمره لهذه الأبحاث كلها أو أغلبها ، وهي قد استنفذت أعمار الأجيال من قبله . أم هل يستطيع كل متشكك أن يعيد الصعب من أبحاث من عده من العلماء .

إن التفرغ لفرع ما ، من علم ، يكسب المتفرغ مقدرة خاصة . في ذلك الفرع ، غير المقدرة الخاصة التي يكتسبها شخص آخر تفرغ لفرع آخر في نفس العلم ، فهل من الممكن أن تنشأ تلك المقدرات الخاصة في كل بحث شكاكاً حين يريد ؟ ! أم هل من الممكن أن تجتمع كلها لإنسان واحد . طبيعياً كان أم كسباً أو بآم لغوياً ؟ !

من أجل ذلك كان منهج ديكارت كما فهمه وطبقه ( طه حسين ) . منهجاً غير علمي ، يفرق بين المجهود العلمي ، ويدخل القوضى في العلم . ويؤدي في النهاية إلى زوال جهد العلماء طالما يتناوله الجهلاء بالتحريف ، ولكن العلم لا يأخذ برأى طه حسين . والعلماء في علومهم وأبحاثهم - يأخذون بغيره .

ولم تكن عظمة ديكارت راجعة إلى أنه شك ، ولكن إلى أنه تطلب غزواً من الشك ، واهتدى إلى طريقة في البحث خرج بها إلى بحوثة اليقين . ثم ترجع إلى أنه حقق تلك الطريقة ، فأثمرت في الرياضة ولم تثمر معه في الفلسفة والطبيعة إلا قليلاً مما يأخذ به العلم اليوم .

ولقد عقد صاحب الكتاب - ( في الأدب الجاهلي ) - فضلاً عن منهج ديكارت ، وعجز لامر ما عن أن يبينه فيه ، وذكر في ذلك الفصل شيئاً سماه ( القاعدة الأساسية لمنهج ديكارت ) ، ليتندرغ به إلى الانسلاخ من كل قديم ، فضلاً عن أن ( طريقة ديكارت ، وليس منهج ديكارت ) . كان مما أخرجه في الشباب ، صدرى لذلك الشك الذي استحوذ عليه في الشعر ، ومن ثم فشكه شك الفتى الغرير ، لا العالم الخبير . ومن الظلم أن يحتج به ، أو أن نشدد في محاسبة صاحبه .

ولكن الدكتور طه ، خلط بين الشك وبين المخرج من الشك ، فجعل الشك القاعدة الأساسية للمنهج الذى ابتنى ديكارت أن يتخلص به من الشك ، والذى أداه فى بعض ميادين البحث إلى نتائج عظيمة . وفى بعض الميادين الأخرى إلى نتائج بعيدة عن العظمة ، لأنها بعيدة عن ظن الصحة .

وبالجملة فقد أكد الدكتور محمد أحمد الغمراوى - وما ترجمه الأستاذ الخضيرى من كتابات ديكارت ( مقال عن المنهج ) - فساد ما عرضه طه حسين من قوله : إن القاعدة الأساسية هي أن يتجرد الباحث من كل شيء كان يعلمه من قبل ، وأن يستقبل موضوع بحثه خالى الذهن مما قيل فيه خلوأ تاماً ، إنما قال ديكارت : ألا يقبل قط شيئاً على أنه حق من غير أن يكون على بينة من أنه كذلك ، أى أن يتجنب العجلة والهوى . وفارق بين المعنيين .

ونحن نسأل هل استطاع طه حسين فى بحثه هذا ، أو أى بحث آخر ، أن يتجرد من كل شيء كان يعلمه من قبل ، حين تحدث عن الشعر الجاهلى أو على هامش السيرة أو مستقبل الثقافة ؟ بالعكس ، لقد فرض طه حسين فروضاً تغريبية وشعوبية ، وضعها أمامه ثم بحث فى النصوص ، حتى وجد منها ما حسب أنه يؤكد فكرته ، فتمققها وتجاهل حقائق غيرها تدحضها . ومزق بعض النصوص ، فأخذ منها ما يؤيد فرضه وترك الباقي .

وإن طه حسين كان فى كل عمله يقوم على العجلة والهوى . وأنه كان حريصاً على إثارة الشكوك والشبهات حول جميع النصوص والوقائع التى صادفته فى جميع كتبه ، ذلك لأنه سار فى هذا على منهج التلمودية الذى عرفته كتابات فرويد ودور كايم ، وهى أن يسأل ويثير الشك ، ثم يترك من يتحدث إليه فى حيرة ، فلا يهديه إلى شيء من اليقين ، لأن الهدف هو خلق هذا الجو من ( الشك ) ، الذى كان مصدر الفكر التغريبى كله . وقاعدة العمل التى قام به الاستشراق والتبشير فى العالم الإسلامى .

وقد أشار الأستاذ محمد طاهر نور ، رئيس النيابة الذى حقق مع الدكتور طه حسين ، إلى هذا العمل الخطير فقال : إن الخطأ حيث يبدأ بافتراض يتخيله ، ثم ينتهى بأن يرتب عليه قواعد كتابها حقائق ثابتة ، كما

فعل في أمر الاختلاف بين لغة حبر ولغة عدنان ، وفي مسألة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، وهجرتهما إلى مكة وبناء الكعبة ، فقد بدأ بقوله :  
( للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، وللقرآن أن يحدثنا عنهما أيضاً ، ولكن ورود هذين الاسمين في التوراة والقرآن لا يكفي لإثبات وجردهما التاريخي ، فضلاً عن إثبات هذه القصة ) ، إلى هنا أظهر ( الشك ) بعدم قيام الدليل التاريخي في نظره ، كما تتطلبه الطرق الحديثة ، ثم انتهى بأن قرر في كثير من الصراحة :

( أمر هذه القصة إذن واضح ، فهي حديثة العهد ، ظهرت قبيل الإسلام ، واستغلها الإسلام لسبب ديني ) ، فما هو الدليل الذي انتقل به من الشك إلى اليقين ؟ هل دليله هو قوله : ( نحن مضطرون إلى أن نرى في هذه القصة نوعاً من الحيلة في إثبات الصلة بين اليهود والعرب من جهة ، وبين الإسلام واليهودية والقرآن والتوراة من جهة أخرى ، وإن أقدم عصر يمكن أن يكون قد نشأت فيه هذه الفكرة إنما هو هذا العصر الذي أخذ اليهود يستوطنون فيه شمالي البلاد العربية ؟

المؤلف يرى ، أن ظهور الإسلام قد اقتضى أن يثبت الصلة بينه وبين ديانة اليهود والنصارى ، وأن القرابة المادية بين العرب واليهود ، لازمة لإثبات الصلة بين الإسلام واليهودية ، فاستغلها لهذا الغرض فهل له أن يبين السبب في عدم اهتمامه أيضاً بمثل هذه الحيلة لترقيق الصلة بين الإسلام والنصرانية .

إن الأستاذ ( أي طه حسين ) ، ليعجز حقاً عن تقديم هذا البيان ، وكل ما استند إليه من الأدلة قوله : ( ليس يبعد أن يكون ) ، أو ( فما الذي يمنع ) ، أو ( ونحن نعتقد ) ، أو ( وإذن فنستطيع أن نقول ) .

فالأستاذ المؤلف في محته ، إذا رأى إنكار شيء يقول : لا دليل عليه من الأدلة التي تتطلبها الطرق الحديثة للبحث ، وإذا رأى تقرير أمر لا يدل عليه بغير الأدلة التي أحصيناها له . وكفى بقوله حجة ! !

وسئل عن أصل هذه المسألة - أي تلفيق القصة - وهل هي من استنتاجه ؟ أو نقلها ؟ فقال : هذا فرض فرضته ، أنا دون أن أطلع عليه في



كتاب آخر . وقد أخبرت بعد أن ظهر الكتاب ، أن شيئاً من هذا الفرض يوجد في بعض كتب المبشرين ا . ه .

وهكذا نجد أن البحث كما أثبتته النيابة العامة هو (إشاعة الشك) . وإقامته على الفروض ، ثم لا يلبث أن يعتبر هذه الفروض حقائق تبني عليها أكاذيب أخرى . ويقول الأستاذ محمود محمد شاكر : ( إن اتكاء طه حسين على ديكارت إتكاء فيه كثير من المغالطة ، بل فيه إرادة التهويل بذكر ديكارت الفيلسوف مع أن الدكتور في محاضراته ليس من منهج ديكارت في شيء . وقد صارحته بهذا في حينه . وقلت له : إن ما يقوله عن المنهج وعن الشك غامض ، وأنه مخالف لما يقوله ديكارت ، وإن تطبيق منهجه هذا قائم على التسليم تسليماً لم يداخله الشك روايات في الكتب هي في ذاتها مخوفة بالشك ، فانتهرني الدكتور طه وأسكتني . )

وقال الدكتور نجيب البهيتي : لم يعرض ديكارت التاريخ على منهجه ، فأنى طه حسين إلا أن يعرض الشعر الجاهلي والتاريخ على ما دعى له بمنهج ديكارت ، فنزل بالهدف من الشك الغزالي إلى دون ما نزل إليه ديكارت ، ونأخذه بمنهج الغزالي ، وكان اصطناع الغزالي الشك طريقاً فكرياً يهدف إلى الانتهاء منه إلى الإيمان بالله ، وقد اتخذ ديكارت شك الغزالي في بيئته التي كانت لا تزال تعيش على الأساطير ، وتندأوى ببقايا رفات القديسين ، وتستسلم للتثليث باسم التوحيد .

ونتهى من كل هذا ، إلى أن ( منهج الشك ) ، الذي حمله طه حسين ، ليس هو منهج الغزالي الذي اصطنع منهج الشك البصير ، ولا منهج ديكارت ، الذي قصد به الخروج من دائرة الأساطير ، وإنما هو منهج زائف يراد به إثارة الشبهات في وجه كل حقيقة علمية دينية يقينية ، وإثارة كل عوامل القلق والاضطراب في نفوس الشباب المسلم ، لينكر قيمه الأساسية .

ومن هنا فقد كان كل كتاب التغريب وما زالوا ، يعلنون إعجابهم بمذهب الشك الذي قدمه طه حسين لأنه أفسد العقول والقلوب ، وقضى على اليقين والإيمان في قلوب رنخوة ، في فترة لم يكن فيها غذاء روحي وثقافي كاف لمقاومة الشبهات والشكوك المثارة ، أما اليوم فإن الأمر يختلف تماماً والحمد لله .

### الشبهات المشارية حول كتاب في الشعر الجاهلي

أثار كتاب ( في الشعر الجاهلي ) عند صدوره سنة ١٩٢٦ ضجة كبرى ، وكانت نقطة الخطر فيه : أنه ألقى على طلبة كلية الآداب على هيئة محاضرات ، والجامعة يومئذ حديثة العهد .

وقد تبين منذ اليوم الأول : أن نظرية انتحال الشعر الجاهلي ( مسروقة ) من مستشرق يهودى كتبها قبل ذلك ، هو ( مرجليوث ) الذى قصد إلى إثارة الشك حول هذا المصدر ، الذى اعتمد عليه المفسرون فى شرح معانى كلمات القرآن الكريم ، باعتبار أن الشعر يجعل العرب كما قال ابن عباس رضى الله عنه .

وقد نشر فى الرد على كتاب ( فى الشعر الجاهلي ) عدد من المؤلفات :

- ١ - تحت راية القرآن : مصطفى صادق الرافعى .
- الشهاب الراصد : محمد لطفي جمعة .
- ٣ - نقض كتاب فى الشعر الجاهلي : محمد الخضر حسين .
- ٤ - نقض كتاب فى الشعر الجاهلي : محمد فريد وجدى .
- ٥ - محاضرات فى بيان الأخطاء العلمية والتاريخية فى كتاب الشعر الجاهلي : محمد الخضرى .

- ٦ - النقد التحليلي لكتاب فى الأدب الجاهلي : محمد أحمد الغراوى .
- ٧ - مقدمة فى كتاب الرافعى : كتابة التاريخ لا تكون بالافتراض ولا بالتحكم : شكيب أرسلان .

### تقرير علماء الأزهر :

وقد وضعت اللجنة التى شكلت من كبار علماء الإسلام لدراسة كتاب ( فى الشعر الجاهلي ) تقريراً جاء فيه :

أنها وجدت شيئاً كثيراً مما يناقض الدين الإسلامى ، ويمسه مساً مختلف الدرجات فى أصوله وفروعه :

- ١ - أضاع على المسلمين الوحدة والعاطفة الدينية وكل ما يتصل بهما .
- ٢ - أضاع عليهم الإيمان بترائر القرآن وقراءاته وأنها وحى من الله .
- ٣ - أضاع عليهم كرامة السلف من أئمة الدين واللغة وعرفان فضلهم .
- ٤ - أضاع عليهم الثقة بسيرة النبي صلى الله عليه وسلم فى كل ما كتب فيها .

- ٥ - أضاع عليهم الاعتقاد بصدق القرآن وتنزيهه عن الكذب .
- ٦ - أضاع عليهم الوحدة الإسلامية التى أوجدها الدين والقرآن والنبي صلى الله عليه وسلم بين الأنصار والمهاجرين .

- ٧ - أضاع عليهم تنزيه القرآن وقداسته عن مواطن التهم والاستخفاف
- ٨ - أضاع عليهم ما وجب من حرمة الصحابة والتابعين .
- ٩ - أضاع عليهم تنزيه النبي صلى الله عليه وسلم وأسرته عن مواطن التهم والاستخفاف .

- ١٠ - أضاع عليهم صدق القرآن والنبي صلى الله عليه وسلم فيما أخبر به عن ملة إبراهيم وصحف إسماعيل .

- ١١ - أضاع عليهم الأدب العام مع الله ورسوله صلى الله عليه وسلم وكرام خلفه .

وقد سجلت اللجنة فى تقرير آخر أن كتاب فى الأدب الجاهل لم يبرأ من هذه الشبهات .

والذين يتصورون أن طه حسين ألف كتابه عن الشعر الجاهل ، ليناقش ( الشعر المنحول ) هم مع الأسف قصار النظر .

فالواقع أن طه حسين أراد أن يبيث مجموعة من الآراء المنحرفة الإلحادية ، ويطرح نظرية الشك الفلسفى ، ويهدم عدداً من القيم والدعائم فى الفكر الإسلامى والأدب العربى ، فلا علاقة فى الحقيقة بين البحث وبين اللهجات العربية ، ولكنه محاولة للهجوم على القرآن الكريم والتشكيك فيه ، والقول ببشرية القرآن ، وأنه من قول محمد صلى الله عليه وسلم .

لذلك فإنه حين كشف أمره أسرع فاستبدله بكتاب في الأدب الجاهلي، وهو المطبوع الآن والمنشور . لم يغير شيئاً من جوهر الغاية والهدف، وإنما رفع بعض الكلمات والجمل الجارحة، ليس هذا فقط . بل لقد مضى طه حسين يعلم تلاميذه في كلية الآداب نقد القرآن ، والقول بأن بعض آياته ضعيف وقوى ، (على النحو الذي سنبينه) .

كما أنه واصل عمله بالحديث عن إنكار القراءات السبع الموحى بها . وقد أصر طه حسين على متابعة هدفه إلى آخر أيام حياته في كل ما كتب وإن ظهر أنه مختلف أو متعارض معه ، كل ما هنالك أنه غير الأسلوب للخداع والتقويه .

بل أن كتاب على هامش السيرة جرى في نفس المنطلق . حين حسب بعض البسطاء أنه عودة إلى الإسلام أو تمجيد للرسول صلى الله عليه وسلم ، ويبدو أثر مفاهيم الشعر الجاهلي في كتابه (الشيخان) وكتابه: (مرآة الإسلام) و (الفتن الكبرى) .

سأل وكيل النيابة الذي حقق مع طه حسين بعد أن أثبت عليه أنه :  
**أولاً :** كذب القرآن الكريم ، في أخباره عن إبراهيم وإسماعيل .  
**ثانياً :** أنه أنكر القراءات السبع المجمع عليها ، فزعم أنها ليست منزلة من الله تعالى :

**ثالثاً :** أنه طعن في نسب النبي صلى الله عليه وسلم .  
**رابعاً :** أنه أنكر أن للإسلام أولية في بلاد العرب وأنكر أنه دين إبراهيم .  
سأله المحقق :

هل قرأت هذا في مصادر قبل ذلك ، فقال طه حسين :  
هذا فرض فرضته دون أن أطلع عليه في كتاب آخر . وقد أخبرت بعد أن ظهر الكتاب ، أن شيئاً من هذا الفرض يوجد في كتب المبشرين .  
وهذه ليست الحقيقة ، فإن طه حسين كان يعلم أمرين :  
**أولاً :** أن مرجليوث نشر بحثه في المجلة الآسيوية ، عام ١٩٢٤ وأن الشعر الجاهلي صدر عام ١٩٢٦ .

ثانياً : أن هناك كتاب ( مقالة في الإسلام ) - لـ جرجيس صال المبشر الإنجليزى - عربيه عن الإنجليزيه هاشم العربى وطبع عام ١٨٩١ فى مصر ، ولا بد أن المبشرين الذين ألهموا طه حسين مواد البحث قد هدوه إلى هذا البحث الذى اعتمد عليه ، فى إنكار حديث القرآن والتوراة عن إبراهيم عليه السلام . وإحقاقاً للحق نقول : إن الشيخ عبد المتعال الصعبدى - رحمه الله - هو أول من كشف ( سطو ) طه حسين على الكتاب الثانى ، كما كان الأستاذ محمود شاكر ، هو أول من كشف ( سطو ) طه حسين على الكتاب الأول . فقد وفق الشيخ عبد المتعال الصعبدى رحمه الله فى العثور على هذا الكتاب ، الذى يرى مؤلفه ما رأى الدكتور طه حسين فى قصة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، وينسبه لنفسه على أنه ابتكار من ابتكاراته ورأى من آرائه الجديدة ، فلماذا استحل الدكتور طه هذه السرقة البقاء ؟

غير أن هناك خلافاً بين دعوى المبشر الإنجليزى وعميد الأدب العربى .

يقول الدكتور طه حسين :

( أمر هذه القصة ( قصة إبراهيم وإسماعيل ) إذن واضح ، فهى حديثة العهد ، ظهرت قبل الإسلام واستغلها الإسلام لسبب دينى وسياسى ، وإذن فيستطيع التاريخ الأدبى واللغوى ألا يحفل بها ، عندما يريد أن يتعرف على أصل اللغة العربية الفصحى ؟ ) .

ويقول المترجم هاشم العربى فى كتابه ( مقالة فى الإسلام ) : ( وحقيقة الأمر فى قصة إسماعيل أنها دسيسة لفقهاء قدماء اليهود العرب تزلزلاً إليهم وتذرعاً بهم إلى دفع الروم عن بيت المقدس أو تأسيس مملكة جديدة لهم فى بلاد العرب بلجوؤن إليها .

وصاحب الذيل يجعل التوراة هى الأصل ويعرض عليها القرآن ، فإن خالفها طعن فيه ( أى فى القرآن ) .

أما الدكتور طه حسين فيكذب بالتوراة والقرآن جميعاً . ويؤمن صاحب الذيل بوجود إبراهيم وإسماعيل ، ويكذب أبوة إسماعيل للعرب ، فيأتى المقلد فيكذب بوجود إبراهيم وإسماعيل ، فضلاً عن أبوتهم للعرب ، وكان صاحب الذيل فطناً محترساً ، وكان حاكبه قليل الفطنة فاصطدم بالنقض الآتى :

( أن التوراة قد انتشرت في البلاد قبل نزوح اليهود إلى يثرب وما حولها في جزيرة العرب ، وكان فيها ذكر إبراهيم وإسماعيل ، فلم يكن ذلك من صنع اليهود الذين كانوا بين ظهرائي العرب ، حيلة منهم للتقرب إليهم . ولو كان يهود يثرب هم الذين اخترعوا ذلك حيلة فما هو السر في أن كان ذكر إبراهيم وإسماعيل في جميع نسخ التوراة ) .

إن صاحب الذيل هو صاحب الفكرة الأصلية وقد كان أظن لهذه الاعتراضات التي وقع فيها طه حسين فصدق صاحبه الذيل بوجود إبراهيم وإسماعيل ، وكذب بأبوتهما للعرب فقط .

لقد سرق الدكتور طه حسين بحثه من كتاب مخيف ، ولم يفهمه على وجهه ، ونقله من كتاب المسيحي المبشر ، على أنه ابتكار من ابتكاراته ورأى من آرائه الجديدة .

ومعنى هذا كله أن طه حسين سرق من يهودى ومن مسيحي وأثار الشبهات حول القرآن والإسلام ، وأنه شكك في التنزيل أساس دينه ، بينما دافع هؤلاء عن أديانهم .

#### ما حذفه من كتاب الشعر الجاهلي :

لقد بقي كتاب الشعر الجاهلي في منهجه وهدفه وتخطيطه كما هو ، تحت العنوان الجديد ( في الأدب الجاهلي ) وكل ما حذف منه بعض عبارات أزيلت قبل إعادة طبع الكتاب مرة أخرى بالاسم الجديد ، وهي العبارات الجارحة التي أشار إليها تقرير العلماء :

**أولاً :** تكذيبه للتوراة والقرآن الكريم في وجود إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام .

**ثانياً :** ما أشار إليه من أن في القرآن سورة تسمى سورة الجن ، أنبأت أن الجن استمعوا للنبي صلى الله عليه وسلم وقد أوردتها بلغة التشكيك .

**ثالثاً :** عبارته السخيفة عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله : ( ولأمر ما اقتنع الناس بأن النبي صلى الله عليه وسلم يجب أن يكون من صفوة بني هاشم :

**رابعاً :** عبارته المريرة عن القرآن : ( ولأمر ما شعروا بالحاجة إلى إثبات

أن القرآن كتاب عربي مطابق في ألفاظه للغة العرب ، وهي أساس مؤامرة هدم الشعر الجاهلي ، أو هي في أن القرآن من عند الله تبارك وتعالى .

خامساً : قضية الصلة بين اليهود والعرب ، التي نقلها من ( جرجس صال ) على النحو الذي أشرنا إليه ، وقد خدم جرجس صال كتابه وهاجم القرآن ، بينما هاجم طه حسين كتابه ودينه وخدم التبشير والاستشراق .

اسم واحد في كتابين :

وقد أشار السيد عبد الرزاق الحسني إلى الفارق بين الشعر الجاهلي والأدب الجاهلي فقال : إن كان قد طوى من الطبعة الجديدة بعض الخزي الذي كان في الطبعة القديمة ، كزعمه أن ما ورد في القرآن وفي التوراة عن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، إنما هو أسطورة ؟ ؟ غير مستند في هذا الزعم إلى دليل علمي ، فإن الطبعة الجديدة من العداء للإسلام والعرب ، ومن السفسطة المستورة والمكشوفة شيئاً كثيراً ، لقد أحاطه بشيء من الإخفاء ولكن الخطوط العريضة والكفر الصريح بقي معروضا وبشكل واضح .

انتقاد القرآن الكريم :

لم يتوقف الدكتور طه حسين بعد الضجة بشأن كتابه ومضى في طريقه فقد أرسى الدكتور طه حسين في كلية الآداب منبر نقد القرآن الكريم على قاعدة ما رسمه في كتابه ( في الأدب الجاهلي ) .

ونشرت مجلة ( الحديث ) التي تصدر في حلب نموذجاً من أربع محاضرات ألقاها على طلبة كلية الآداب جاء فيها :

أولاً : التشكيك في القرآن :

١ - ( ونحن نستطيع أن نظفر بشيء واحد يؤيد ما أشرنا إليه هو : أن الكتاب شيء غير القرآن ، كان موجوداً قبل إنزال القرآن ، والقرآن صورة عربية منه ، وقد أخذ صوراً من قبل كالتوراة والإنجيل ) .

وهذا نص آخر ، فيه إنكار ( عالمية الإسلام ) وإصرار على ( بشرية

القرآن ) ( وإذن فالقرآن دين محلي لا إنساني عالمي ، قيمته وخطره في هذه المحلية وحدها . قال صاحبه متأثراً بحياته التي عاشها وعاش فيها . ولذلك بعد تعبيراً صادقاً عن هذه الحياة ، أما أنه يمثل غير الحياة العربية أو يرسم هدفًا عامًا للإنسان ، فليس ذلك بحق ، إنه دين بشري وليس حياً إلهياً والقرآن مؤلف ، ومؤلفه نبيه محمد ، ويمثل تأليفه بأنه يمثل حياة العرب المحدودة في شبه الجزيرة في اتجاهات حياتها المختلفة السياسية والاقتصادية والدينية ) .

ثانياً : نقد القرآن كأنه كتاب بشري :

في مجلس النواب :

وقد أشار الدكتور عبد الحميد سعيد - رحمه الله - في خطاب أمام مجلس النواب المصري ( مارس ١٩٣٢ ) إلى أن طه حسين كان يكلف بعض طلبته أن ينقدوا بعض آيات من القرآن الكريم بعينها لهم ، ويطلب منهم إثبات هذا النقد في كراسات يملأونها عليه ، فكانوا يثبتون أن هذه الآية ليست من البلاغة بمكان ، وأن تلك الآية على جانب من الركاسة وأن الآية الأخرى مفككة ، لا تزدي المعنى المقصود منها ، وأنه كان يريد أن يجرن طلبته على النقد .

دليل دامغ ونص خطير :

وقدم الدكتور عبد الحميد سعيد كراسة لأحد طلبته طه حسين أثبت فيها ما كان يلقيه عليهم . . يقول في محاضرة في كلية الآداب بقصر الزعفران ( ١٩٢٧ - ١٩٢٨ ) أي بعد ضجة الشعر الجاهلي : وصلنا في المحاضرة الماضية إلى موضوع اختلاف الأساليب في القرآن ، وقررنا أنه ليس على نسق واحد ، واليوم نوضح هذه الفكرة ؛

لا شك أن الباحث الناقد والمفكر الحر الذي لا يفرق في نقده بين القرآن وبين أي كتاب أدبي آخر ، حيث يلاحظ أن في القرآن أسلوبين متعارضين لا يربط الأول بالثاني صلة ولا علاقة ، مما يدفعنا إلى الاعتقاد بأن هذا الكتاب قد خضع لظروف مختلفة وتأثير بيئات متباينة ، فنلا نرى القسم المكى فيه يمتاز بكل ميزات الأوساط المنحطة ، كما نشاهد أن القسم المدني واليثرني تلوح عليه أمارات الثقافة والاستنارة . فأنتم إذا دققتم النظر وجدتم القسم



المكى بنفرد بالعنف والقسوة والحدة والغضب ، والسباب والوعيد والتهديد ، ويمتاز كذلك بتقطع الفكرة واقتضاب المعاني وقصر الآيات ، والخارج التام من التشريع والقوانين ، كما يكثُر فيه القسم بالشمس والقمر والنجوم والفجر والصبحي والعصر والليل والنهار والتين والزيتون ، إلى آخر ما هو جدير بالبيئات الجاهلية الساذجة التي تشبه بيئة مكة تأخرًا وانحطاطًا .

( أما القسم المدنى فهو هادئ لين وديع مسالم ، يقابل السوء بالحسن ، ويناقش الخصوم بالحجة الهادئة ، والبرهان الساكن الرزين ، كما أن هذا القسم بنفرد بالتشريعات الإسلامية ، كالمواثيق والوصايا والزواج والطلاق والبيع وسائر المعاملات ، ولا شك أن هذا أثر من آثار التوراة والبيئة اليهودية . التي ثقفت المهاجرين إلى يثرب ثقافة واضحة ، يشهد بها هذا التغيير الفجائي ، الذى ظهر فى أسلوب القرآن ) .

( ليس القرآن إلا كتاباً ككل الكتب الخاضعة للنقد ، فيجب أن يجرى عليه ما يجرى عليها ، والعلم يحتم عليكم أن تصرفوا النظر نهائياً عن قداسته التي تتصورونها ، وأن تعتبروه كتاباً عادياً فتقولوا فيه كلمتكم . ويجب أن يختص كل واحد منكم بنقد شيء من هذا الكتاب ويبين ما يأخذه عليه ) .

( هناك موضوع آخر أريد أن أنبهكم إليه وهو مسألة هذه الحروف الغريبة غير المفهومة ، التي تبتدىء بها بعض السور أمثال : ألم ، الر . طس . كيعص : حم ، عسق ، الخ ، فهذه كلمات ربما قصد منها التعمية أو التهويل وإظهار القرآن في مظهر عميق مخيف ، أو هي رموز وضعت لتمييز بين المصاحف المختلفة التي كانت موضوعة عند العرب ) .

( منقول بالنص عن محضر الجلسة الرابع والعشرين لمجلس النواب المصري ٢٨ مارس سنة ١٩٣٢ ( ص ٣٤٦ ) وما بعدها ) .

ونحن نقدم هذه النصوص دون تعليق عليها ، إلا من ناحية ذلك التوافق بين إنكار إبراهيم وإسماعيل في هذا الوقت المبكر ، وهو ما أذاعته كتابات اليهود من بعد خدمة للصهيونية ، وإشارته إلى أن صلة النبي صلى الله عليه وسلم باليهود قد أدخلت على عبارات القرآن الكريم بعد الهجرة إلى المدينة ليونة ورقة . وفي هذا ما فيه من الولاء لليهودى . مضافاً إلى قصة عبد الله بن سبأ

في كتاب ( الفتنة الكبرى ) ، ولكن القضية الكبرى هي : قول طه حسين ببشرية القرآن ، على النحو الذي يجري فيه النقد الأدبي ، للكتب التي كتبها أقلام الرهبان والأخبار . .

#### ( ٤ )

كتب الأستاذ محي الدين صبحي ( الحوادث اللبنانية ) مجلد عام ١٩٧٧ طرح الدكتور طه حسين قصة ( الشعر الجاهلي ) طرحاً أقل ما يقال فيه اليوم أنه كان وقحاً فجاً تعمد فيه الاستفزاز تعمداً . ذلك أن قصة الشك في الشعر الجاهلي ليست جديدة ولا مبتكرة . وليست من وضع المستشرقين ولا من اكتشافات الدكتور طه حسين . بل لقد تنبه إليها العرب في حينها ونبذوا أنواع التزييف بين ( كل الرواه ) وكل المولدين فاستبعدوا روايات الرواة المشكوك بصدقهم من أمثال حماد الراوية وخلف الأحمر .

فإن كانت مشكلة الشك في صحة بعض الشعر الجاهلي ما يعرفه القدماء ونعرفه عند المحدثين ، فإذا فعل طه حسين بها حتى جعلها تستنفر البيئة الثقافية ضده في مصر والبلاد العربية .

قام الدكتور طه حسين بخطوة غير علمية حين عمم الشك ليشمل التراث كله وهو في هذا يشبه أي مراهق ممن يطالعوننا في هذه الأيام على صفحات المجلات ويطلقون الأحكام الجزاف مثل الشعر العربي التقليدي أو التراث العربي المسروق من اليونان ، هذه الأحكام نمر بها غير عابئين ولا يتعدى رد فعلنا عليها إخماء استخفاف وضيق بالهذر والمأذنين لأننا أصبحنا شديدي الوثوق بشخصيتنا ، وكذلك حال القوم قبل نصف قرن من الزمان . وعلى الصعيد الفكري والأدبي نجد أبحاث مرجليوث التي تراوح بين الشك في أصالة

---

(١) تبين بعد أن أصدر طه حسين عندما تولى مديراً لدار الكاتيب المصري اليهودية كتاب ( العقيدة والشريعة ) لليهودي (جولد تزيهر ) ، بعد ترجمته عام ١٩٤٧ ، أن هذه الآراء موجودة به ، وكنا نفتقر إلى معرفة مصدرها ، فقد عودنا طه حسين على السطو على المستشرقين دون إسناد أو إشارة لأصل ما اقتبس .

الآثار العربي والطقن فيه والزراية عليه ، فجاء طه حسين بضم شتات تلك التحاملات في كتاب يدعيه لنفسه .

ولما كان الجميع على علم باجتهاادات المستشرقين تعد امتداداً لطله حسين منسللاً أو خائناً أو متواطئاً .

إن القصة اللغوية — الأدبية قصة سياسية منذ فجر التاريخ إلى اليوم وبالتالى فهي قصة عاطفية انفعالية عند الحديث بالعموميات ، ولن نجد مشككاً في تراث أمة إلا وهو يستهدف صميم شخصيتها ولب كيائها .

وقد فعل الدكتور طه حسين هذا كله وزاد وأربى فلما حوكم اعتبره الفكر الكبير إلى ضميره الفكر الحر والبحث العلمى وهو منهما براء لأن حياته التى امتدت نصف قرن بعد ذلك تخلو من أى من هذه المواقف . وفي الواقع فإن تجربته الفكرية الأولى ( في الشعر الجاهلى ) تكاد أن تلخص حياته كلها فتجربته الأولى اتسمت بسنوات ثلاث :

١ — التهوين من أمر التراث مع التهويل في التأثيرات الأجنبية عليه .

٢ — الإغارة على آراء الأولين والآخرين مع ادعاء جهودهم .

٣ — التوصل إلى أحكام نقيمة مغلوطة لا تثبت للبحث العلمى الرصين .

ومن يقرأ في الأدب الجاهلى وبعده حديث الأربعاء ثم مستقبل الثقافة في مصر يدرك مدى التزام طه حسين بالتهوين من أمر التراث والتهويل بتأثير اليونان عليه قديماً ، ثم التطلع حديثاً إلى ربط مصر بأوروبا وبالثقافة المتوسطة توصلنا إلى سلخها من العرب إذا لم يجاورها في الدوران بالفن الغربى .

( ٥ )

كتب الأستاذ محمود محمد شاكر : عن حقيقة الشعر الجاهلى يقول :

المستشرقون لم يقولوا بأن الشعر الجاهلى موضوع كله أو أكثره ولا أن الكثرة المطلقة مما نسب شعر أجاهلياً ، ليست من الجاهلية في شيء ، فهي إسلامية تمثل حياة المسلمين وميولهم وأهواءهم أكثر مما تمثل حياة الجاهلية وأن ما بقى عندنا من الشعر الجاهلى الصحيح قليل جداً لا يمثل شعراً ولا يدل على شيء ، لم يقل المستشرقون هذا . بل قاله مستشرق واحد لا غير هو مرجليوث

وأن كثيراً منهم قد رفض هذه القصة ورد عليها ونقضها ، وكان أمد أمدهم (اربرى) في كتابه المعلقات السبع ، وقال أن السفسطة وأخشي أن أقول الغش في بعض الأدلة التي ساقها مرجايرث لا تليق البتة .

٢ - أما ابن سلام - سنة ٢٣٢ هـ صاحب كتاب فحول الشعراء فهو من هذه القصة بمعزل . .

فإن لفظة الشعر الجاهلي من يطلق لا يراد به إلا الشعر العربي الذي كان قبل الإسلام بنحو مائة وخمسين سنة . وشعراء هذه الفترة مدونون بأسمائهم وقد ألف الناس أن يجعلوا أولهم أو من أولهم امرؤ القيس الكندي .

ولكن كان في عهد ابن سلام كتب فيها شعر عربي آخر منسوب إلى أمم بائدة من العرب ، هم عاد وثمود وحمير وتبع . بل إلى أبينا آدم عليه السلام فأشار في مقدمة كتابه إلى هذا الشعر فقال :

( وفي الشعر مصنوع موضوع لا خبر فيه ولا حجة في عربيته ) وذمه ذماً شديداً قال لمن حمل إلى الناس هذا الشعر : أفلا يرجع إلى نفسه فيقول من حمل هذا الشعر وأرادته منذ آلاف السنين والله تعالى يقول ( وأنه أهلك عاداً الأولى وثمود فما أبق ) فهذا قطع ببطلانه لا شك فيه ، وذلك لتطاول الزمن وهلاك هذه الأمم من العرب البائدة عاد وثمود . .

ثم ذكر العرب المستعربة أنباء إسماعيل عليه السلام فقال : إن العرب ليست التي تقف عند أبيهم عدنان وابن عدنان وابن إسماعيل آلاف السنين وأن معد بن عدنان كان بإزاء موسى بن عمران عليه السلام . ومع ذلك فنحن لا نخذ لمولاء العرب الأوائل من معد بن عدنان شعراً فكيف بعاد وثمود وهذه حجة أخرى مرتبطة بالزمن وفصائله

ثم استدل بدليل آخر مرتبط بتطاول الزمن ثم باللغة فقال : إنه قد بقيت بقايا قليلة في أقاصي الدين ، كان عندهم بقية من لسان حمير وهم عرب ولسانهم عربي أيضاً وزمانهم أقرب عهداً من زمان عاد وثمود ، ذاكر قول أبي عمرو بن العلاء ( ٧٠ - ١٥٤ هـ ) في ذلك وهو ما لسان حمير وأقاصي

الدين اليوم بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا فكيف بما على عهد عاد وثمود ، هذه الحجة الأخيرة. هي التي ضللت من شك في الشعر الجاهلي لأنه وضعها في غير موضعها وحرفها إلى الشعر الجاهلي في اليمن قبل الإسلام بمائة وخمسين سنة . وقد ختم ابن سلام كلامه في هذه القصة وبين ما عناه من الشعر فقال بلفظ واضح لا ليس فيه :

( لم يكن لأوائل العرب من الشعر إلا الأبيات يقولها الرجل في حاجته وإنما قصدت القصائد و طول الشعر على عهد عن المطلب وهاشم بن عبد مناف ( يعني قبل الإسلام بنحو مائة وخمسين سنة) فهذا يدل على إسقاط شعر عاد وثمود وحمير وتبع . هذا تحديد واضح وقطع ببطلان الشعر المنسوب إلى هذه الأمم التي ذكرها والتي لا يدخل شعرها تحت اسم الشعر الجاهلي هذا قطع بالبطلان لا شك في الشعر الجاهلي الذي يضم الشعر العدناني والقحطاني اليمنى بقيت قصة أخرى تعرض لها ابن سلام في كتابه عن فحول شعراء الجاهلية والإسلام واستخدمت استخداماً سيئاً جداً . و خلاصة القضية بلفظ ابن سلام لا بلفظي أنا ولا بلفظ من خلطوا بين القضيتين :

قال ابن سلام :

( وكان قوم قلت وقائهم وأشعارهم فأرادوا أن يلحقوا بمن له الوقائع والأشعار فقالوا على ألسنة شعرائهم ثم كان الرواة بعد ، فزادوا في الأشعار التي تليت وليس يشكل على أهل العلم زيادة الرواة ولا ما وضعوا ، ولما وضع المولدون ، إنما عضل بهم ( أي صعب عليهم ) أن يقول الرجل من أهل البادية من ولد الشعراء أو الرجل من ولدهم فيشكل عليه بعض الأشكال) فهذا كما ترى ليس شكاً في الشعر الجاهلي بل هو الدليل القاطع الحاسم على أن العلماء بالشعر قبل ابن سلام وبعده قد محصوا لنا هذا الشعر ووثقوه وأدوه إلينا على أسلم وجه .

أما قصة الزيادة في شعر شاعر أو نسبه شعر إليه ليس من شعره ، فهذه قضية معروفة في جميع آداب الأمم. فهذا شكسبير مثلاً تعرضت لبعض أعماله

لننقد وقيل إنه لم يكتبها هو ، بل كتبها فلان ، فهل يمكن بعد ذلك أن نشكك في شعر شكبير كله ونطرحه كله ، حتى بعد أن يثبت على وجه القطع صحة ذلك الشك .

وفي زماننا هذا جمع شعر الدكتور ناجي ، ثم تبين لبعض الباحثين أن في ديوانه قصائد ليست له فهل يجوز لي أنا بصفتي معاصراً له أن أشك في شعر ناجي كله وأقول أنه مصنوع كله وأضم إليه شعر على محمود طه ومحمود حسن إسماعيل ثم أرتفع بهذا الشك إلى شوقي وحافظ والبارودي : هذه أساليب عجبية تأتي في زمن عجيب !

ابن سلام يا سيدي لا يشكك في شعر هو أحد حفاظه وعلمائه ثم يؤلف في هذا الشعر وشعرائه كتاباً قائماً برأسه هو كتاب ( طبقات فحول الشعراء ) فلماذا نزيغ الحقائق .

## (٦)

### عاربة ومستعربة

من أبرز شبهات كتاب ( الشعر الجاهلي ) أكذوبة تقسيم العرب إلى عاربة ومستعربة : هذه نظرية روجتها كتابات المستشرقين والتبشير وحفلت بها الكتب المدرسية وهي تشير إلى أن العرب العاربة هم القحطانيون ( وهم أصل العرب ) ظهوروا في اليمن وانتشروا فيها واستقرت هجراتهم على حافة الهلال الخصيب عقب حادث سيل العرم وقبله ومنهم المناذرة في الحيرة وكذلك في نجد والغساسنة في الشام .

والمستعربة : وهم الفدائيون أو المصريون وأخصهم نسل إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام الذين سكنوا الحجاز ومنهم ظهرت قبيلة قريش التي تنتمي إلى مضر وعدنان . الهدف هو القول بأن عشيرة محمد صلى الله عليه وسلم الذي نزل عليه القرآن بلسانه تعد كسائر العدنانيين من غير العرب وقد دخلوا على العرب العاربة .

الواقع أن كثيراً من المؤرخين القدامى من شكك في هذا الكلام وفيهم من خالفه ونقضه ، وكانت هناك آراء أخرى اختلفت في العاربة والمستعربة

فذهب ابن إسحق والطبري إلى أن العاربة هي ثمود وعاد وطسم وجديس والمستعربة بنو قحطان وبنو إسماعيل .

ويقول الدينوري مؤلف الأخبار الطوال إن ولد أرم بن سام بن نوح هم الذين اختصوا باللسان العربي عند تعليل الألسنة وأولاد إرم عاد وجديس وطسم وثمود وصحار وجاسم وبار نزل الأول اليمن والثاني النجاة والثالث عمان والبحرين والرابع الحجاز إلى الشام والخامس من الطائف إلى جبل طي والآخر قرب الحرم والأخير ما وراء الرمل وبذلك تتساوى بلاد نجد والبحرين وبادية الشام والحجاز واليمن وأقصى الجزيرة في عروبته لانتشار أولاد إرم فيها .

ويقول الدينوري أن فالغ هو جد إبراهيم وإسماعيل وأن عدنان وقحطان أخوان . وجاء في لسان العرب : كل من سكن بلاد العرب وجزيرتها ونطق بلسان أهلها فهم عرب بمنهم ومعدهم ، بل نجد أبلغ من ذلك في الدلالة على رجحان العدنانية فابن خلدون يقول : إنه لم يكن في بني قحطان من زمن نوح إلى عابر من تكلم العربية .

ويقول أبو عمر بن العلاء : ما لسان حمير وأقصى اليمن لساننا ولا عربيتهم عربيتنا .

قال ابن حزم في كتاب الأحكام ، إن الذي وقفنا عليه وعلمناه يقيناً أن السريانية والعبرانية والعربية ( التي هي لغة مصر لا لغة حمير لغة واحدة تبدلت تبدل مساكن أهلها ، ويلخص العلامة الكرمي إلى أن النتيجة أن اللغة العربية هي لغة عدنان وكلمة عربي إنما أطلقت على قوم — هم قوم عدنان — ثم نسبت أرض الجزيرة كلها إليهم ، فكيف يقال عن هؤلاء الأصول أو الأصلاء إنهم دخلاء (١) .

ويقول فيليب حتي : أن لغة الشمال هي لغة القرآن إلى اللغة العربية المعروفة ، أما أهل الجنوب فكانت لهم لغة سامية قديمة لغة سبأ وحمير وهي تمت إلى اللغة الحبشية بصلة

( المجلة العربية محرم ١٣٩٨ )

(١) هذا النص عن سعيد الكرمي مجلة المجمع العلمي العرب .





## الباب الثاني

### تاريخ الإسلام والسيـرة

الفصل الأول : القرآن الكريم .

الفصل الثاني : السيرة :

١ - هامش السيرة .

٢ - الشيخان ، مرآة الإسلام ، الوعد الحق .

الفصل الثالث : تاريخ الإسلام :

١ - الفتنة الكبرى .

٢ - علي ونبوه .

الفصل الرابع : الإسلام .

الفصل الخامس : التراجم :

١ - الأيـام .

٢ - الشيخان .

٣ - المتنبي .

٤ - ابن خلدون .

الفصل السادس : الفكر الصهيوني ( اليهود والأدب العربي ) .



## الفصل الأول

### القرآن الكريم

إن موقف الدكتور طه حسين من القرآن الكريم موقف مقنع ، وذلك لخطورة التصريح بما يعمل على إذاعته وبثه في الخفاء لتلاميذه في كلية الآداب وما يعرفه المتصلون به وما توحى به الخطوات التي اتبعها على مدى حياته الفكرية جميعاً من محاولات لإشاعة الشبهات حول التفرقة بين كلمتي الكتاب والقرآن في نصوص القرآن ودعاواه حول النحو والبلاغة موقفه الواضح الصريح في إنكار وجود إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بالرغم من ورودهما صريحاً في القرآن بدعوى أنه يقبلها وجدانياً ويعارضها عقلياً وهي دعوى باطلة توحى بالثنائية المعزقة للكيان الإنساني بين مؤمن وغير مؤمن في وقت واحد ، ولقد كشف طه حسين عن هويته في نص صريح سجله في كتابه ( في الصيف ) حين تحدث عن ( نقد الكتب المقدسة ) وقال : « إذا كان من حق الناس جميعاً أن يقرءوا الكتب الدينية ويدرسوها ويتذوقوا جمالها الفني فلم لا يكون من حقهم أن يعلنوا نتائج هذا التذوق والدرس والفهم ما دام هذا الإعلان لا يمس مكانة هذه الكتب المقدسة من حيث أنها كتب مقدسة فلا يعرض منها ولا يضعها موضع الاستهزاء والسخرية والنقد وبعبارة أوضح لم لا يكون من حق الناس أن يعلنوا آراءهم في هذه الكتب من حيث هي موضع للبحث الفني والعلمي بقطع النظر عن مكانتها الدينية » .

ومعنى هذا عند طه حسين أن الكتب الدينية كتب بشرية فهي معرضة للنقد ، وهو حين يقبل هذا الرأي الذي يقول به الغربيون في التوراة ، والإنجيل ليطبقه على القرآن الكريم يغفل عن الفوارق العميقة بين كتب تأكد أصحابها من علماء اللاهوت إلى أنها من كتابات الأحيار والرهبان وبين القرآن الكريم الذي هو النص الموثق المنزل بالوحي الذي لم يدخل عليه أى إضافة أو حذف والذي لا يأتيه البساطل من بين يديه ولا من خلفه تنزِيل

من حكيم حميد ، ولكن طه حسين يود أن يتخذ مجموعة من الشباب المسلم الغر الذي وكل إليه تعليمه في كلية الآداب ولم تكن له خلفية إسلامية في فهم هذه الحقيقة ولذلك فهو قد فتح هذا الباب واسعاً لهذا الغرض على النحو الذي كشف عنه الدكتور عبد الحميد سعيد في مجلس النواب المصري عام ١٩٣٢ حيث قدم كراسة لأحد الطلبة في كلية الآداب وفيها يطلب إليهم طه حسين ( نقد القرآن ) والكشف عن الآيات الضعيفة فيه والآيات القوية ويدعوهم إلى الجرأة على القرآن لأنه كتاب أدبي ومن ذلك قوله : إن في القرآن أسلوبين مختلفين : أحدهما جاف وهو مستمد من البيئة التي نزل فيها القرآن أول ما نزل في مكة ، ففي هذا الأسلوب تهديد ووعيد وزجر ، وأسلوب آخر عندما هاجر النبي ( صلى الله عليه وسلم ) إلى المدينة واتصل ببيئة اليهود وهو أسلوب فيه شيء كثير من الليونة والانطلاق .

كذلك فقد أثار شبهة الحروف الواردة في أوائل سور القرآن ووصفها بأنها معميات . وقد تبين من بعد عندما كلف الدكتور طه حسين عام ١٩٤٣ بعض الأساتذة بترجمة كتاب المستشرق اليهودي جولد زيهر ( العقيدة والشريعة في الإسلام ) وأصدره حين كان مشرفاً على دار الكاتب المصري ( هراى اليهودية ) . إن هذه الأفكار موجودة فيه وأنه أخذها قبل هذا الوقت الباكر ليسمى بها أفكار طلبته ، وهذا ما كان يقصد إليه طه حسين من دعوته إلى نقد الكتب المقدسة ، والفكرة يهودية الأصل فلحساب من يعلن طه حسين عام ١٩٢٦ أن وجود إبراهيم وإسماعيل ليس صحيحاً من الناحية التاريخية ، ويدعو إلى نقد القرآن على مفاهيم يهودي متعصب هو جولد زيهر ، ويكون كتاب ( الشعر الجاهلي ) من كتابات يهودي متعصب آخر هو ( مرجليوث ) حتى أطلق عليه ( حاشية طه حسين على متن مرجليوث )

ولنوصل ما قاله الدكتور عبد الحميد سعيد ، فقد جاء بالصحف ١٧/٣/١٩٣٢ ومحاضر جلسة مجلس النواب في اليوم السابق قوله :

( إنه بحث الطلبة على أن ينظروا في القرآن كأى كتاب عادى يجرى عليه من النقد العلمى ما يجرى عليها وأن يغضوا النظر عند البحث فيه عن قدسيته ، وقال : إن فواتح السور علامات مميزة لمصاحف الصحابة ،

وقال : إن للقرآن أسلوبين مختلفين كل الاختلاف : أحدهما ( جاف ) وهو مستمد من البيئة التي نزل فيها القرآن أول ما نزل في مكة ، في هذا الأسلوب تهديد ووعيد وزجر ، فلما هاجر النبي إلى المدينة تغير الأسلوب بحكم البيئة أيضاً وأصبح ذلك الأسلوب ليناً .  
ومن عبارات طه حسين قوله : إن قرآن مكة مالىء النصارى ، وقرآن المدينة مالىء اليهود .

ومن عجب أن يكتب طه حسين في بعض ذكرياته : أنه تعلم فهم القرآن من مستشرق متعصب في باريس هو ( كازنوف ) وأنه لم يكن يفهم القرآن قبل ذلك ، بالرغم من السنوات التي قضاها في الأزهر .

ولا ريب أن رأى هذا المستشرق وغيره في القرآن معروف ، فهو عندهم من عند محمد ، لا من عند الله ، وأنه مكى مدنى ، عرف محمد فيه النصارى في مكة وعرف منه اليهود في المدينة .

إن مفهوم كازنوفاً هو الذى قدمه طه حسين لطلابه في الجامعة عن القرآن وهل يمكن أن يكون رأى مستشرق مسيحي متعصب خاضع لفكر غربي له جذور وثنية وهلينية وغيرها أن يفهم القرآن فهمه الأصيل وأن يصل إلى مفاهيمه الصحيحة على النحو الذى يذكره طه حسين .

إنه لمن المؤسف والمخزى والمثير للسخرية أن يترك طه حسين الأزهر دون أن يفهم القرآن ، ثم يأتى باريس ليتعلم ذلك من رجل مستشرق ، ثم يجد في هذه المفاهيم ما يرضى نفسه وما يشعره بأنها المفهوم الحقيقى للقرآن بينما ضاق صدره بمفاهيم القرآن الحقيقية في كتب المسلمين الأصيلة التي واجهته أول حياته في الأزهر ، فأعرض عنها ، مهما كان ورقها أصفرأ وكان عرضها قديماً ، إنه لمن المؤسف حقاً أن يقال : إن طه حسين قد تلقى فهم القرآن على مستشرق غربي .

يقول : لم أكد أجلس إلى كازنوف حتى استيقنت أن هذا الرجل كان أقدر على فهم القرآن وأمهر في فهمه وتفسيره من هؤلاء الذين يحتكرون علم القرآن ويرون أنهم خزنته وسدنته وأصحاب الحق في تأويله .

ومن هنا فنحن نقرر أن الدكتور طه حسين عاش حياته كلها بفهم

الإسلام فهماً غربياً كنسياً ، وأنه قد اقتنع منذ ارتضع لبان المفاهيم المسيحية الغربية بهذا المفهوم الذى يصر عليه ، وهو أن الإسلام سيحات روحية وتوحيات وجدانية وراء تراثيل موسيقى الكنائس ، ويؤمن بأن الإسلام انتهى فى عهد الخلفاء الراشدين ، وأن الحكومة الإسلامية لم توجد ، وأن الخلافة الإسلامية ازوت ، وهذه هى المفاهيم التى قدمها فى كتبه ( الفتنة الكبرى ، الشيخان ، ... إلخ ) على نحو ما سيأتى عرضه فى تضاعيف هذا البحث .

إن مفهوم الإسلام عنه مشوب بالتمسح ، وقد كان مؤهلاً ليكون داعية الإسلام على هذا النحو من الذين ساندوه لولا حماقته فى كتاب ( الشعر الجاهلى ) غيره ، فقد نزعته منه روح الإسلام الأصيلة عمداً وشكل على أساس روح أخرى لها طابع المسيحية من ناحية والوثنية الإغريقية من ناحية أخرى . ونحن نعرف أن اليونان والمسيحيين والأوربيين يؤمنون بالله ولكنه إيمان يختلف عن التوحيد الإسلامى الذى يجعل من التوحيد الخالص حجر الأساس ويجعل من الإسلام منهج حياة ونظام مجتمع وليس مفهوماً لاهوتياً خالصاً مقتصرأ على العلاقة بين الإنسان والخالق جل شأنه . بل يمتد ليشمل أيضاً العلاقة بين الناس وبعضهم ولذلك فإن أسلوب طه حسين فى كتاباته الإسلامية قد اكتسب روح التراثيل الكنسية وليس روح البيان الإسلامى .

ومن يقرأ كتاب ( معك ) للسيدة سوزان يرى أن طه حسين دخل عشرات الكنائس وسمع مئات التراثيل ولكنه لم يدخل مسجداً واحداً .

## ( ٢ )

لقد كان الغربيون يعلمون أن القرآن هو مصدر الرسالة الإسلامية وأن عودة المسلمين إلى الإسلام من جديد تبدأ من منطلق فهم القرآن على وجهه الصحيح دعوة إلى بناء المجتمع الإسلامى على أساس أن الإسلام منهج حياة ونظام مجتمع ، ولذلك فقد كان عليهم أن يربوا أتباعهم الذين سيثرونهم فى البلاد العربية والإسلامية على مفاهيم خطيرة أولها الاستهانة بالقرآن والنظر إليه على أنه كتاب أدب أو كتاب تراث ويدعون قومهم إلى الجرأة عليه

بالنقد والنظر ووصف آياته بالعنف أو القوة ، على النحو الذى تعلمه  
طه حسين من كازنوف في مدرسة الكوليج دى فرانس في قوله في جريدة  
السياسة ( ٢٧ مارس عام ١٩٢٦ ) :

( كان كازنوف مسيحياً شديداً الإيمان بمسيحيته يذهب فيها إلى حد  
النصوص ولكنه كان إذا دخل غرفة الدرس في الكوليج دى فرانس نسي  
من المسيحية واليهودية والإسلامية كل شيء إلا أن لها نصراً يجب أن تخضع  
للبحث اللغوي كما تخضع المادة للعلماء يتناولونها في معاملهم بما يشاءون  
من ألوان البحث والامتحان ) .

وهذا الكلام فيه زيف كثير ، فإن كازنوف كان يتناول الإسلام  
وأقدس قدس الإسلام وهو القرآن ، وهو خصم له . أما دعاوى المنهج  
العلمي فإننا نعرف هذه المناهج العلمية التي صك بها أذاننا طه حسين سنوات .  
إنها ليست من العلم في شيء ، وإنما هي مناهج الفلسفة المادية التي صنعها  
اليهود وفرضوها على الدراسات الإسلامية وجعلوها سلاحاً لتكوين أتباعهم  
الذين يفرجهم معهد الدراسات التبشيرية الذين أطلقوا عليه :  
( كولييج دى فرانس ) .

ومعنى هذا إن الهدف هو الحيلولة بين المسلمين وبين العودة إلى هذا  
الأساس المتيقن وأن على طه حسين أن يدمر هذا الأساس المتيقن إن استطاع  
وهو عندما كان يتحدث عن القديم ويسخر به إنما كان يقصد القرآن  
والسنة وعلى مراحل متعددة : مرحلة الشعر الجاهلي ، وإنكار مصدر  
الدين الرباني ، ومرحلة هامش السيرة ومرحلة الفتنة الكبرى ومرحلة  
كتاب الشيخان .

#### أولاً : بشرية القرآن :

إن الواضح من مواقع كثيرة في كتابات طه حسين المنقادة ببشرية  
القرآن وإنكار بعض آياته وأن إنكاره لإبراهيم وإسماعيل عليهما السلام إنكار  
لآيات صريحة في القرآن الكريم : « وإذا قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمناً

واجنبني وبني أن نعبد الأصنام . رب إنهم أضللت كثيراً من الناس فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم . ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكروا .

(سورة إبراهيم ٣٤ - ٣٧)

لقد أنكر طه حسين هجرة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام إلى الحجاز واعتبرها أسطورة أولاً، ثم - على حد تعبيره - حيلة اختلقها قريش لأسباب سياسية واقتصادية وصدقها القرآن ليجتال على اليهود بتآلف قلوبهم ولينسب العرب إلى أصل واحد، ويرى أن قريش كانت تبحث عن أصل تاريخي قديم فليس ما يمنعها من أن يتصل هذه الأسطورة التي تفيد أن الكعبة من تأسيس إسماعيل وإبراهيم عليهما السلام .

٢ - يعتقد طه حسين أن القرآن يمثل العصر الجاهلي جنباً إلى جنب مع التاريخ والأساطير وأن القرآن أصدق مرآة للحياة الجاهلية .

٣ - لإرجاع كلمة القرآن إلى مفهومهما في اللغة السريانية بمعنى الجهر وذلك اعتقاداً منه بأن القرآن من كتب التراتيل والدعاء الديني .

٤ - يرى أن القراءات السبعة ناتجة عن اختلاف لهجات القبائل ، مع أنه من الثابت ومن المتفق عليه في أصول الإسلام . إن القراءات السبعة منقولة بالتواتر عن النبي صلى الله عليه وسلم وطريقها الوحي .

٥ - التشكيك في الحروف التي تفتح بها السور والقول : بأنها إشارات موسيقية أو رموز صوتية يقصد بها ذكر النغمة قبل تلاوة السورة .

٦ - يؤمن طه حسين بأن المسلمين ربطوا بين الإسلام من جهة وبين دين إبراهيم عليه السلام من جهة ثانية كى يثبتوا أولية الإسلام في الحجاز وكى يوجدوا جذوراً له في المنطقة .

٧ - يزعم طه حسين بأن الرسول صلى الله عليه وسلم حرص على الهجاء وأثاب شعراء المسلمين عليه .

٨ - شكك طه حسين في كل ما يتصل بالقرآن ومن ذلك أنه لم ينف ما زعمه المستشرق كليمان هوار من زعمه بأن شعر أمية بن الصلت من مصادر



القرآن ويقول : من ذا الذى يستطيع أن ينكر أن كثيراً من القصص القرآنى كان معروفاً بعضه عند اليهود وبعضه عند النصارى وبعضه عند العرب أنفسهم وكان من اليسير أن يعرفه غير النبي ثم أن النبي وأمة متعاصران ، فلم يكون النبي هو الذى أخذ من أمة ألا يكون أمة هو الذى أخذ من النبي . وهذا أسلوب من تثبيت الشبهة وإدخالها إلى الأذهان والقلوب .

(٣)

#### إنكار عالمية الإسلام

عرض الدكتور محمد البهى فى كتابه ( الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى ) إلى فكرة طه حسين عن بشرية القرآن كما أوردها فى كتاب ( فى الشعر الجاهلى ) وكما أعادها فى كتاب ( فى الأدب الجاهلى ) وهى محاولة مأكرة فى الطعن على القرآن طعناً غير مباشر ويكشف أسلوبه الخبيث فى نسف إلمية القرآن دون أن يتلبس بالفكر الصريح ، على حد تعبير ( غازى التوبة ) ، يقول الدكتور البهى : تعرض فكرة بشرية القرآن فى إحدى صورتين :

**الأولى :** أنه انطباع فى نفس محمد صلى الله عليه وسلم نشأ عن تأثره ببنيته التى عاش فيها ، بمكانها وزمانها ومظاهر حياتها المادية والروحية والاجتماعية .

**الثانية :** أنه تعبير عن الحياة التى عاش فيها محمد صلى الله عليه وسلم بما فيها المكان ، الزمان وجوانب الحياة الاقتصادية والسياسية والدينية والاجتماعية .

والفكرة التى يرددها طه حسين مأخوذة من المستشرق جب فى كتابه ( المذهب المحمدى ) وهى قوله : إن القرآن هو من عمل إنسان هو محمد عاش حياة خاصة وهى حياة المكئين ، وطه حسين فى كتابه ( الشعر الجاهلى ) يقول : ( إذا رجعنا إلى القرآن نجده قد صور العرب وحياتهم بما يجعلهم أمة سياسية ، تنشأ أن تكون قوة ثالثة بين الفرس والروم ، كما كانت أمة

وسطاً بين البحر المتوسط والمحيط الهندي وبذلك تكون مدخلا للتجارة العابرة. وهو أى القرآن يصف اتصالهم الاقتصادى، بغيرهم من الأمم في السورة المعروضة : « لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف » . ثم يقول : أرأيت أن التماس الحياة العربية الجاهلية في القرآن أنفع وأجدى من التماسها في هذا الشعر العقيم الذى يسمونه الشعر الجاهلى ، أرأيت أن هذا النحو من البحث يغير كل التغيير ما تعودنا أن نعرف من أمر الجاهلين . ومعنى هذا القول كما يريد أن يفهم المؤلف قارءه : إن القرآن انطباع للحياة القائمة في وقت صاحبه وهو النبي ، وهو يمثل لذلك بيئة خاصة ، في عقيدتها ولغتها وعاداتها .

ويقول طه حسين في توضيح هذا المعنى :

( وليس من اليسير ، بل ليس من الممكن أن نصدق أن القرآن كان جديداً كله على العرب ، فلو كان كذلك لما فهموه ولما وعوه ولا آمن به بعضهم ولا ناهضه وجادل فيه بعضهم الآخر ) .

( وفي القرآن رد على الوثنيين فيما كانوا يعتقدون من وثنية، وفيه رد على اليهود وفيه رد على النصارى ، إنما يرد على فرق من العرب كانت تمثلهم في البلاد العربية نفسها، ولولا ذلك لما كانت له قيمة ولا خطر ) .

( وإذن القرآن بعبارة أخرى دين محلي لا إنساني عالمي ، قيمه وخطره في هذه المحلية وحدها ، قال به صاحبه متأثراً بحياته التي عاشها وعاش فيها ولذلك يعبر تعبيراً صادقاً عن هذه الحياة . أما أنه يمثل غير الحياة العربية أو يرسم هدفها عاماً للإنسانية فليس ذلك بحق ) .

( إنه دين بشري وليس وحياً إلهياً ، قاله صاحبه لقرم معينين ولذلك تجاوبوا معه أو قاموا ضده ، ولو أن صاحبه قاله في جماعة أخرى ( لما حفل به أحد ) ، لأن ما يقوله فيه لا يتصل عندئذ بحياة الجماعة الأخرى في قليل أو كثير ) .

فالقرآن مؤلف ومؤلفه محمد ، ويمتاز تأليفه بأنه يمثل حياة العرب المحدودة في شبه جزيرة العرب في اتجاهات حياتها المختلفة : السياسية ، والاقتصادية والدينية ومنهج دراسة الحياة الجاهلية للعرب قبل الإسلام

دراسة علمية . كما يذور عند صاحب كتاب ( الشعر الجاهلي ) بين أمرين لا ثالث لهما : بين ما يسمى بالشعر الجاهلي ، وبين القرآن كلاهما للإنسان وكلاهما يتحدث عن الحياة العربية الجاهلية ولكنه استبعد الشعر الجاهلي واختار القرآن لهذه الدراسة لأنه صادق في كونه ( انطباعاً ) دقيقاً - لهذه الحياة .

القرآن إذن عند طه حسين مصنوع مؤلف وهو مرآة لأفق خاص من الحياة في شبه الجزيرة العربية في مكة بوجه خاص .

وبالموازاة بين ( المذهب الحمدي لب ) والشعر الجاهلي لطلح حسين نجد أن كليهما يرى :

١ - أن الحياة الجاهلية قبل الإسلام كانت حياة حضارية ، كانت حياة حافلة بالكياسة السياسية والنشاط الاقتصادي والنهضة الدينية .

٢ - أن محمداً - أو الإسلام أو القرآن - استغل المقدسات في مكة وفي مقدمتها البيت الحرام أول بيت وضع للناس بمكة والذي قام على عمارته إبراهيم والد إسماعيل . وظاهرة استغلال هذه المقدسات كما يرى كتاب ( المذهب الحمدي ) : هي في أن ثورة محمد ، والإسلام أخذت طابع الدين دون الطابع الاجتماعي . أما كتاب ( الشعر الجاهلي ) فيرى هذه الظاهرة في أن محمداً أو الإسلام اضطر إلى قبول قصة إسماعيل وتعليمه العربية اضطراراً مع أنها خرافة أثبتت الحقائق العلمية عدم وقوعها ! اضطر إلى ذلك حتى لا يفقد سلاح ( المقدسات الدينية ) القائمة في مكة وحول مكة في صراعه مع خصومه ( المكيين ) ! إذا المكيون أنفسهم كانوا على استعداد نفسى لقبول هذه القصة ، رغبة في الوحدة والتكتل ، ليكونوا قوة ثالثة في مواجهة قوى الفرس والروم .

٣ - كذلك فإن ( القرآن ) لم يكن جديداً كل الجدة على العرب فما فيه من عقائد كانت تعرفها مكة ويعرفها العرب في شبه الجزيرة .

ولكن صاحب كتاب ( المذهب الحمدي ) يرى أن آية معرفتهم لذلك هي عدم معارضة المكيين له فما ذكر من عقائد - حتى عقيدة الوحدانية - وارجع معارضتهم إياه إلى المنافسة السياسية والحشية من انهيار اقتصادهم

بينما يرى صاحب كتاب ( الشعر الجاهلي ) أن آية ذلك هي قبول من قبل منهم ومعارضة من عارض من بينهم ، فلو لم يكن القرآن مألوفاً لديهم لما عارض من عارض ولا قبل من قبل ولا حفل به أحد ولا كان له أى خطر !

٤- وإن دعوة الإسلام دعوة محلية في جماعة خاصة وفي حياة خاصة ، ولذا فالقرآن أو الإسلام انطباع واضح لهذه الجماعة الخاصة ، في حياتهم الخاصة ، ويمكن أن يتبع آثار هذه الجماعة الخاصة في حياتها الخاصة ، في حياة محمد في جميع أدواره ، وهذا ما يصوره صاحب كتاب ( المذهب المحمدي ) ولهذا السبب يعتبر القرآن تعبيراً صادقاً عن هذه الجماعة الخاصة في حياتها الخاصة حتى عن أمانيتها كما يصوره صاحب كتاب ( الشعر الجاهلي ) وإذن فالقرآن محدود القيمة ، محدود المكان ، محدود الزمان .

ومنطق هذا كله : أن القرآن ليس وحياً لرسالة ، إذ لو كان وحياً من عند الله لكان للناس جميعاً ، في كل مكان وفي كل جيل ، ولو كان وحياً أيضاً لرسم خطة جديدة لهداية الناس في عقيدتهم ولم يكن حاكياً لما كان عليه بعض أفراد الجماعة الإنسانية ، ثم إن العرب أنفسهم قبل - الناس الآخرين - لم يكونوا على جهل ولم يكونوا على ضلال حتى يحتاجوا لرسالة جديدة تدعوا إلى الهداية .

والفرق بعد ذلك بين الكتابين في عرض فكرة ( بشرية القرآن ) هو : أن أحد الكتاب في وصفه للقرآن وفي وصفه لصلة القرآن بالعرب يقول :

- فيه آى القرآن ما أخذ من الوثنية العربية .

- وفيه ما أخذ من المسيحية الغربية .

- وفيه ما أخذ من اليهودية العربية .

وهذا الكتاب هو كتاب ( المذهب المحمدي ) .

ويهم الاستشراق أن يردد دائماً أن القرآن أخذ من المسيحية أو اليهودية بدلا من أن يذكر أنه رد على المسيحية أو اليهودية بينا الكتاب الثانى : ( الشعر الجاهلي ) في تحديد هذه الصلة يذكر أن القرآن :

— فيه رد على الوثنية العربية .

— فيه رد على المسيحية الغربية .

— فيه رد على اليهودية العربية .

وذلك كى يؤهم القارئ المسلم أن القرآن لم يلتق مع المسيحية القائمة ومع اليهودية الموجودة إذ ذلك ، طالما حدد الكتابان القرآن بالبيئة العربية فما وراء ذلك من اختلاف لا يحدث فرقاً أصلاً بينهما ، لأن التعبير بأنه (أخذ) من المسيحية واليهودية قصد التمهيد إلى الحكم بأن القرآن لم يكن كله جديداً على العرب ، وهذا عين ما قصده التعبير بأنه (رد) وبيئة الكتابين هى التى أوحى إلى كل منهما بالاختلاف فى التعبير على نحو ما رأينا .

ولم يكن القصد من الموازنة بين الكتابين فى عرض بشرية القرآن إلى بيان أن أحدهما أخذ من الثانى ، بل كان القصد أولاً بالذات ، إلى توضيح : أن كتاب (الشعر الجاهلى) فى العالم العربى يحكى رأى المستشرقين فى هذا الجانب ، ذلك رأى الذى تنوعت أساليبهم فى عرضه ، والذى يعد مع ذلك هدفاً سياسياً فى بحوثهم منذ أن نشأ الاستشراق ومنذ أن اتجه الاستشراق فى مبدأ أمره إلى تمكين الاستعمار الغربى فى البلاد الإسلامية عن طريق إضعاف قيمة الإسلام كدين ورسالة من رسالات السماء .

( ٤ )

#### مؤامرة (ترجمة القرآن)

دعا طه حسين إلى ترجمة القرآن بهدف الغاية الخفية وهى تمزيق الأمم الإسلامية وتوسيع مسافة التباعد بينها . وقد تصدى له الدكتور محمد سعاد جلال (الجمهورية فى ١٩ أغسطس عام ١٩٥٥) قال : أن ذلك هدف الاستعمار الذى لا يطمئن على أنه قد ازدردت الأمم الإسلامية ازدراداً كاملاً إلا بعد تخليصها من الشوكة التى تقف فى حلقه وتمنع عنه عملية الابتلاع الكامل وهو صوت القرآن العربى المجلجل فى صدور المسلمين أياً كانوا ، وأياً كانت لغاتهم ، وأن عربية القرآن هذه تحمل قداسة القرآن ومهابة القرآن ومعجزة

القرآن في خلق الأنفس ودعم الإيمان ، فإذا نزعنا القرآن من لغته الإلهية فقد نزعناه من هذا كله ونزعنا الأمم الإسلامية من هذا كله أيضاً .

هل صحيح ما يقال : من إنه ليس كتاب دینی معجز إلا هذا القرآن وأنه معجز بلغته العربية ، وأن هناك أصحاب أديان على الأرض ليس في لغتهم المحاز ، وإن سلخ القرآن من عربيته وتجريده من نظم إعجازه من أعمال المساواة المقصودة بين الكتب جميعاً ؟

هل علماء الفرس والترک كانوا من الغباء والجهالة وفقدان الغيرة على صوالجهم بحيث تركوا السعي إلى ترجمة القرآن وهم يعلمون أنه مشروع وعمل مفيد ، أم أن صدودهم عن الترجمة مع توافر الداعي لها وظهور بعض المنفعة بها كان لاعتقادهم ومهمتهم . إن ترجمة القرآن ونقله من لغته الربانية ونظمه الإلهي عمل لا يجيزه الشرع ولا تتحقق به المصلحة ، وإن محاولة ذلك مما لا يقدم عليه مسلم ، هل كان أولئك الأفذاذ في العراق والشام وفارس وما وراء النهر ومصر والأندلس وغيرها من الأطراف وكلها أم ذات لغات أصيلة غير لغة القرآن مات بعضها وبقي بعضها إلى اليوم حياً ؟ وهل كان علماء الأتراك وقد عاش سلطانهم على الأرض قروناً وامتد ملكهم إلى قلب أوروبا ؟ ، هل كان هؤلاء جميعاً حين لم يقدموا على ترجمة القرآن وإقامة الترجمة فيهم مقام الأصل عبادة وقراءة واستنباط للأحكام أقل علماً وذكاء وفهماً للمصلحة القومية والإسلامية من الدكتور أحمد زكي وأمثاله من الداعين المتحمسين لفكرة الترجمة ، أم أن هذه الدعوة المتحمسة تحمل باطلاً غير ظاهر وغرضاً في نفس قائلها ، ثم لماذا لا تظهر هذه الدعوة في نطاق واسع إلا في لحظات التاريخ المظلمة التي يمر بها المسلمون تحت مطارق الاستعمار وأعناقهم وأيديهم في قيوده واصفاده وليس لهم في مقاومة ذلك كله إلا آيات القرآن ينادون بها القصي ويواصلون بها القريب ، ويربطون بأسلوبه الموحد ولغته الموحدة شتات وحدتهم الضائعة ، ودولتهم المستذلة المهينة الجناح ، ولماذا تقترن الدعوة إلى ترجمة القرآن بالموثرات الاستعمارية والتبشيرية الضخمة حول أمم العالم الإسلامي في بقاع الأرض طراً .

وقد تواصلت المعركة وحاول الدكتور طه حسين أن يدافع عن وجهة

نظره ويبرئ نفسه من تهمة التآمر في هذا المجال ، وهو واحد من مجالات عدة فأجاب الدكتور محمد سعاد جلال بقوله :

قلنا : إن سر الترجمة هي القدرة على الإحاطة بالمعنى الذي أراده صاحب الأصل وعدم الإحاطة بمعنى الأصل مانع من صحة الترجمة وبالتالي هو مانع من الإقدام عليها وإلا لكانت الترجمة حينئذ تزويراً وتزييفاً على الأصل . إن البحث الذي يستهدف صدع هذه المشكلة يجب أن يبتدىء من السؤال عن طبيعة الوحي المحمدي هل هو ( وحي ذاتي ) أو هو ( وحي إلهي )؟ يذهب عامة المستشرقين وأصحاب الدراسات الإسلامية في أوروبا إلى أن الوحي المحمدي وغيره من صنوف الوحي إنما هو ( وحي ذاتي ) أي أنه عبارة عن تضاعف طائفة من الأفكار الدينية الإصلاحية اختمرت في العقل الباطن لدى النبي حتى إذا بلغت نضجها ارتدت إليه في عالم الوحي على أنها منزلة من السماء ، يصرح بذلك ( نولدكه ) في كتابه الضخم عن تاريخ القرآن ، وحاصله بعبارة لا تقبل النفاق : أن القرآن أفكار بشرية وفي إمكاننا أن نحيط علماً بمراد صاحبها وفي إمكاننا بناء على ذلك أن ننقلها بأمانة ميسرة إلى أي لغة أخرى كما ننقل أفكار شكسبير أو جوته أو دانتي ، أو أي فكر عالمي . أما إذا ذهبنا إلى أن الوحي المحمدي إنما هو ( وحي إلهي » نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين « كما هو معتقد المسلمين في كل عصور التاريخ وفي كل مكان في الأرض فهيات هيات ثم هيات أن يثنى منطق هذا الرأي مع إمكان ترجمة القرآن أو نقل معانيه إلى لغة أخرى ، إذ كان لابد في ذلك من الإحاطة على سبيل القطع بمراد الله من كل كلمة ومن كل جملة ومن كل سورة وهذا محال وفوق المحال .

ويقول طه حسين : والإسلام دين فيمتد إلى الناس كافة لا إلى العرب خاصة وليس من الطبيعي ولا من الممكن أن يفرض على الناس أن يقرءوا القرآن في نصه العربي إذا أرادوا أن يعرفوه . لأن هذا تكليف بالمحال كما يقولون فلا أقل من أن يفسر لهم القرآن بنقل معانيه إلى لغاتهم .

ويقول الدكتور محمد سعاد جلال : لاحظت أن هذه الجملة المركزة ربما تطرق الضعف إلى مكان الاستدلال بها من وجهين :

**أحدهما :** يصح أن يسمى (مغالطة) والآخر ما يبدو أن يكون تناقضاً ، أما المغالطة فتظهر أولاً في قوله : ( وليس من الطبيعي ولا من الممكن أن يفرض على الناس أن يقرءوا القرآن في نصه العربي إذا أرادوا أن يعرفوه ) وقيل أن ندخل في الصميم نمر بملاحظة شكلية تتعلق بقول الدكتور الفاضل : ( إذا أرادوا أن يعرفوه ) ذلك أنهم إذا أرادوا أن يعرفوه حقاً تعين عليهم أن يطلبوه في نصه العربي بغير شك ، فن أراد معرفة شيء تعين عليه في شرعه المنطق أن يطلبه بوسائله المؤدية إليه لا أن يكلف الآخرين بتقديمه إليه ، وكما كان الدكتور مريداً للمعرفة الأوروبية والآثار الأوروبية يوماً ، فتعلم من أجل ذلك بعض لغاتها ، فكل من أراد علم شيء فعلياً أن يتخذ إليه سبيله ولعل التعبير الدقيق الذي فات الدكتور هو أن يقول : ( إذا أردنا أن نعرفهم به ) فهذا هو التغيير الصحيح الذي يتسق مع اتجاه تفكير الدكتور في هذا الاستدلال . يجترح الدكتور مغالطة كبيرة حين يزعم أننا نفرض على الناس أن يقرءوا القرآن ، فن الذي فرض هذا من فقهاء المسلمين وعلمائهم أو حتى من عامتهم . إن علماء المسلمين لم يفرضوا قراءة كل القرآن على أحد من المسلمين عرباً وغير عرب فضلاً عن غير المسلمين ولم يفرضوا على المسلمين الناطقين بالعربية بعضاً من القرآن إلا ما تيسر لأداء الصلوات وهو مقدار ضئيل جداً .

**ثانيهما :** من وجه المغالطة ذهابه هو وأصحاب الرأي الأول إلى أن نقل معاني القرآن غير ترجمة القرآن وهذا إبهام وتلبس وهم بهذا الإبهام والتلبس يتحاشون مصادمة الأدلة التي تمنع جواز الترجمة وترد القول بها على أصحابه . والحق أن ترجمة القرآن ونقل معاني القرآن شيء واحد ، لأن البيان في أي لغة ألفاظ ومعان ، تقع تحت الألفاظ ولا يمكن ترجمة الألفاظ — أي نقلها إلى لغة أخرى — إلا بنقل ذواتها وأعيانها ، وإذن فلا ترجمة ولا نقل في الألفاظ . فانحصر وقوع اسم الترجمة والنقل على المعاني خاصة إذا كانت هي وحدها التي يمكن نقلها من اللغة المتقول عنها ، وإلباسها ألفاظ جديدة



من اللغة التي نقلت إليها ، فالقول : بأن ترجمة القرآن غير نقل معاني القرآن تليس وعبث لا يثقل في يد الحق موازينه . أما التناقض ففي قول الدكتور بعد ذلك كنتيجة لمقدماته التي استبان فسادها : ( فلا أقل من أن نفسر لهم — للناس — القرآن بنقل معانيه إلى لغاتهم) وكأنما يخاطب الدكتور بهذه العبارة قوماً لم يقرءوا العلم أصلاً، فانظر أنه يقول : نفسر القرآن ، ثم يقول : بنقل معانيه ، فهذا هو مكان التناقض فامسك به ذلك أن التفسير في الكلام المركب يفرض شيئاً من الزيادة على الأصل وإلا لم يكن تفسيراً ونقل المعنى يقتضى عدم الزيادة على الأصل أبداً وإلا لم يكن نقلاً ، بل كان تحريفاً وتزييداً ، فإذا قال الدكتور طه : إن التفسير يكون بالنقل فكأنه قال صراحة : إن التفسير يكون زائداً على الأصل وغير زائد عليه في وقت واحد وهذا هو التناقض الذي أطبقت العقول على القول به ولعل الذي أوقع الدكتور في هذا التناقض الغريب هو اندفاعه في طريق المغالطة إلى آخر الشوط ، فلما علم أن بعض العلماء يبيع ترجمة تفسير القرآن فأراد أن يوهم عليهم بأن الترجمة التي يعينها أو نقل المعاني الذي يبغيه إنما هو من قبيل ترجمة التفسير تحجباً لمخالفتهم وابتعاداً عن الوقوف أمامهم . إنه يستهدف غرضاً فلماذا لا يحاوله من كل السبل تناقضاً ومغالطة أو أى شئ .

أما بعد : فقد كشف النقاب عن سر المسألة فما رأى الدكتور طه وأصحابه في حقيقة الوحي وفي أى صف يقفون ؟

وكان في مقابل ذلك صمت طويل للدكتور طه ، فقد عرف أنه فشل . ويعاود الدكتور محمد سعاد جلال في بحث آخر في ١٦ أغسطس عام ١٩٥٥ قضية الوحي على النحو الذي أشار إليه ( نولذكه ) وهو غير الوحي الإلهي الذي عرفه النبي صلى الله عليه وسلم ويقول فإذا ذهبت إلى أن الوحي المحمدي إنما هو وحي إلهي : ( نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين ) كما هو معتقد المسلمين في كل عصور التاريخ وفي كل مكان في الأرض فهيات ثم هيات أن يتفق منطق هذا الرأي مع إمكان ترجمة القرآن أو نقل معانيه إلى لغة أخرى .

هذا هو السؤال الذى أوردناه على الدكتور طه حسين لما رفع رأسه  
بفكرة الترجمة من أكتوبر عام ١٩٥٤ إلى اليوم ونقدمه الآن مرة أخرى  
إلى الدكتور أحمد زكى الذى كان قد بدأ حلقات فى هذا الصدد ، وكان الرد  
هو الصمت المطلق وهذه هى عادة الدكتور طه حسين إذا ألجم بالحجة وفى  
كثير من المواقف .

\* \* \*

## الفصل الثاني

### السيرة

إن موقف الدكتور طه حسين من سيرة النبي صلى الله عليه وسلم ، لا يخرج عن نطاقه معتقده الذي كونه وسار على أساسه في عرض الأدب والتاريخ والقرآن والإسلام ، وهو موقف يستمد من كراهية حقيقته للإسلام ، وإذا ذهبنا إلى أول نص كتبه عن الرسول صلى الله عليه وسلم لوجدنا ذلك النص الذي أورده في كتابه الشعر الجاهلي وأعادته في كتابه الأدب الجاهلي ص ١٤٦ : وهو قوله .

( لأمر ما اقتنع الناس بأن النبي يجب أن يكون من صفوة بني هاشم ولأمر ما شعروا بالحاجة إلى إثبات أن القرآن كتاب عربي مطابق في ألفاظه للغة العرب ) .

وليس بعد هذا النص شيء يمكن أن يدل على عقيدة طه حسين ووجهته وغايته من كتابه السيرة التي طلع بها على المسلمين بعد أن انتقل إلى معسكر الوفد ، حيث أصبح في حاية الحزب الشعبي الضخم ، وقد استظل بظلاله وكسب ثقة قاداته فأصبح يستطيع أن يواجه خصومه بعبارة واحدة هي أنهم يهاجمون في المهجوم عليه : الوطنية المصرية .

ولما كان طه حسين من بين العمل المكلف به تدمير التراث الإسلامي بنقده وتزييفه والتشكيك فيه ، فلقد كان عليه أن يخطو خطوة أخرى بعد ذلك أكثر جرأة وهي كتابة التراث الإسلامي من جديد وهو ما فعله عندما كتب هامش السيرة ثم الفتنة الكبرى والشيخان وغيرهما .

فقد جمع كل السموم والشبهات التي أثارها الاستشراق في مختلف كتبه وفي دائرة المعارف الإسلامية وأدخلها في دراساته عن النبي وأبي بكر وعمر وعثمان وغيرهم .

ومن هنا فإن قول الباحثين بأن ( على هامش السيرة ) هو نتيجة تجربة ( الشعر الجاهلي ) وامتداد له قول صحيح ، هو نتيجة التجربة من حيث النأي عن المصادمة والتماس طريق المراوغة والمكر في عرض السموم ، ومن ناحية أخرى في إفساد السيرة نفسها بعد أن نقاها مؤرخو الإسلام من الشبهات والأساطير فقد جاء طه حسين يعيدها إليها بل ويزيد من عنده حيث أعلن أنه وسم على نفسه في القصص ، وما كتبه في مقدمة ( على هامش السيرة ) يحاول به أن يثير في نفوس الناس الشك في سلامة السيرة وأنها أسطورة لا يقبلها عقل ولا منطق وأنها ليست من العلم والتاريخ ، مع أن القرآن الكريم هو مصدر أساسي من مصادر السيرة حتى يمكن القول بأن ( على هامش السيرة ) يمكن أن يسمى ( على هامش الشعر الجاهلي ) .

ولقد عني بالبحث في هذا الموضوع كاتبان جليلان هما : غازي التوبة في كتابه عن الفكر الإسلامي المعاصر ومحمد الناييف في مقالاته المستفيضة عن السيرة التي نشرها في مجلة المجتمع الكويتية سنوات ( ١٣٩٤ و ١٣٩٥ ) .

وقد كسب الدكتور طه حسين من كتاب ( على هامش السيرة ) كثيراً فقد استعاد الثقة في نفوس بعض البسطاء الذين كانوا قد آثموا بعد صدور كتاب ( الشعر الجاهلي ) بالمرور من الدين . ولكنه كان خبيثاً ما كراً فقد استطاع بهذا العرض الموسيقي الجميل خداع الكثيرين حين أدخل عليهم كثيراً من الشبهات مع أن كتبه الإسلامية كلها تحمل السخرية الواسعة العميقة بكل مفاهيم الإسلام .

## ( ٢ )

### على هامش السيرة

إن فكرة عرض كتب طه حسين والكشف عن السموم التي حشدها للنيل من الإسلام — تحت ستار براق من أسلوب زخرفي خادع ، خدع به عميد الأدب الكثيرين من شباب الإسلام الذين لا يعرفون أبعاد حركة التغريب والغزو الثقافي — إن هذه الفكرة يجب تحقيقها بلا إبطاء .

والذين يظنون أن ترديد أسماء ( النبي ) صلى الله عليه وسلم والصحابة ، وعرض هذه الصفحات ، إنما هو عمل على طريق الدعوة الإسلامية مخدوعون ،

ول أن عددًا كبيراً من كبار المثقفين في المشرق والمغرب ، قد خدعهم تراتيل هامش السيرة .

ولما كان قد جاء بعد مرحلة طويلة من كتابات وصفت بأنها خصيصة للإسلام ، كما جاء في (الشعر والأدب الجاهلي) و (حديث الأربعاء) وأحاديث عن الدين والعلم ، نشرت في الصحف فقد صفق كثير من الناس وقالوا : لقد عاد الدكتور طه حسين مرة أخرى إلى حظيرة الدين . ولم تكن هذه هي الحقيقة . وإنما الحقيقة غير ذلك . عكس ذلك تماماً تحت ستار المراوغة .

لقد أحس الذين كانوا من وراء طه حسين ، أنه في اندفاعه نحو إغاطة الجماهير ، قد بلغ مرتبة أصبح منها موضع احتقار الهيئات الأدبية والثقافية ، ولما كانوا يعدونه ليتسّم أعلى المناصب لتحقيق أغراضهم في السيطرة على التربية والتعليم والثقافة كما حدث بعد ، لذلك فقد أوحى إليه بأمرين :  
الأول : ترك أحزاب الأقليات والاندماج في الحزب الشعبي الكبير (الوفد) فإن ذلك يعطيه مكانة وقوة :

الثاني : التأليف في السيرة لإرضاء السذج والبسطاء .

وقد بدأ نشر هذه المقالات في هالة كبرى في الأعداد الأولى لمجلة الرسالة ، التي أصدرها الأستاذ أحمد حسن الزيات عام ١٩٣٣ فكان لذلك ضجة وأثر .

ولكن حقيقة الهدف وخفايا القصد لم تعرف إلا بعد أن صدر الجزء الأول ، وقد تصدى له المراقبون فكشفوا حقيقة الموقف ، وقد تبين ما يأتي :  
أولاً : وضع الكتاب على نمط كتاب غربي كتبه (الفريد أورشيم) الأستاذ بجامعة أكسفورد تحت عنوان : (على هامش سيرة المسيح) ، (ذكر ذلك الأستاذ عبد الله كنون في كتابه : التعاشيب) .  
وأشار الدكتور محمد برادة إلى أن طه حسين كتبه تقليداً لكتاب (على هامش الكتب القديمة) لجيل لوميتير .

يقول الدكتور طه حسين في كتاب (الإسلام والغرب) الصادر عام ١٩٤٦ في باريس : ويتحتم أن نعرف بأن كتابين فرنسيين كانا بمثابة الشرارتين

اللتين أشعلتا موقدين مختلفين ، أحد الكتابين لجبل لومير وعنوانه : ( على هامش الكتب القديمة ) والثاني : ( حياة محمد ) لإميل در منجم .  
أما كتاب جبل لومير فلني بعد أن شغفت به كثيراً . وضعت في نفسى الأسئلة الآتية :

هل يمكن إعادة كتابة ما أثر الفترة البطولية في تاريخ الإسلام في أسلوب جديد ، أم أنه يتعذر ذلك . وهل تصلح اللغة العربية لإحياء هذه المآثر ؟  
لقد حاولت أن أقص ( بعض الأساطير ) المتصلة بالفترة التي سبقت ظهور النبي - صلى الله عليه وسلم - ثم قصص مولده وطفولته ، ونشرت هذه السلسلة تحت عنوان مقتبس من جبل لومير وهو ( على هامش السيرة ) وهذا الكتاب من عمل الخيلة . . اعتمدت فيه على جوهر بعض الأساطير ثم أعطيت نفسى حرية كبيرة في أن أشرح الأحداث واختراع الإطار الذي يتحدث عن قرب إلى العقول الحديثة ، مع الاحتفاظ بالطابع القديم ) .

وقد كان الدكتور يتحدث بهذا إلى المستشرقين في أول مؤتمر للحوار بين المسيحية والإسلام ، ويعد كتابه هذا خطوة في هذا السبيل ، من حيث دمج الأديان كلها في كتاب واحد وفي اختراع أخطر بدعة من إحياء الأساطير في الأدب العربي .

هذا ما كشف عنه طه حسين بعد سنوات طويلة من ظهور ( على هامش السيرة ) فإذا كان موقف الباحثين منه ؟

يقول صديقه ورفيق دربه ، الدكتور محمد حسين هيكل : أستمح الدكتور طه حسين العذر إن خالفته في اتخاذ النبي - صلى الله عليه وسلم - وعصره مادة لأدب الأسطورة .

ثم أشار إلى ما يتصل بسيرة النبي - صلى الله عليه وسلم - ساعة مولده وما روى عما حدث له من إسرثيليات روجت بعد النبي - صلى الله عليه وسلم - ثم قال :

( لهذا وما إليه يجب في رأيي أن لا تتخذ حياة النبي - صلى الله عليه وسلم - مادة الأدب الأسطوري ، وإنما يتخذ من التاريخ وأفاصيحه مادة لهذا الأدب ،

وما اندثر أو ما هو في حكم المندثر . وما لا يترك صدقه أو كذبه في حياة النفوس والعقائد أثراً ما .

والنبي - صلى الله عليه وسلم - وسيرته وعصره تتصل بحياة ملايين المسلمين جميعاً بل هي فلذة من هذه الحياة . ومن أعز فلذاتها عليها وأكبرها أثراً ، واعلم أن هذه الإسرائيليات قد أريد بها إقامة ( ميثولوجية إسلامية ) لإفساد العقول والقلوب من سواد الشعب ، ولتشكيك المستنيرين ودفع الريبة إلى نفوسهم في شأن الإسلام ونبيه ، صلى الله عليه وسلم ، وقد كانت هذه غاية الأساطير التي وضعت عن الأديان الأخرى ، من أجل ذلك ارتفعت صيحة المصلحين الدينين في جميع العصور لتطهير العقائد من هذه الأوهام . ثم قال هيكل : ( من أجل ذلك أود أن يفصل الدكتور طه حسين فيما قد يكتب من بعد من فصول تجرى مجرى ( على هامش السيرة ) بين ما يتصل بالعقائد وما لا يتصل بها ) .

ولا ريب أن كلام الدكتور محمد حسين هيكل هذا هو اتهام صريح للدكتور طه حسين في اتجاهه وتحميل له لمسئولية من أخطر المسئوليات . وهي : إعادة إضافة الأساطير التي حرر المفكرون المسلمون سيرة الرسول - صلى الله عليه وسلم - منها طوال العصور ، إعادتها مرة أخرى لخلق جو معين يؤدي إلى إفساد العقول في سواد الشعب ، وتشكيك المستنيرين ودفع الريبة إلى نفوسهم في شأن الإسلام ونبيه - صلى الله عليه وسلم -

وهذا الذي كشفه هيكل ما زال كثيرون يجهلونه ، وما زال المتابعون لحياة طه حسين وتحولاته ، يرون أن هذا أخطر تحول له ، وأن هذا التحول جاء بعد أن انضم إلى حزب الوفد وأمن الهجوم عليه ، وخذع الناس بأسلوبه ، وطارت الدعوات تقول : إن طه حسين عاد إلى الإسلام وأنه يكتب حياة الرسول عليه الصلاة والسلام .

ولم يكن هذا صحيحاً على الإطلاق ، ولكنه كان تحولاً خطيراً أوفق أسلوب جديد ، لضرب الإسلام في أعز فلذات حياته وهي سيرة الرسول الأمين - صلى الله عليه وسلم - ولقد دمغه هيكل حين قال : لقد تحول طه الرجل الذي لا يخضع لغير محكمة النقد والعقل . إلى رجل كلف بالأساطير يعمل على

إحيائها ، وأن هذا ليثير كثيراً من التساؤل ، إذ أن طه حسين - وقد فشل في تثبيت أغراضه عن طريق العقل والبحث العلمى - لجأ إلى الأساطير ينمقها ويقدمها للشعب لإظهاراً لما فيها من أوهام في الظاهر تفتن الناس .. ) .

ولقد كان هذا مصدراً لما أورده الأستاذ محمد النايك في كتاباته ( دراسات عن السيرة ) حيث قال : ( على هامش السيرة ) هو في حقيقته ( على هامش الشعر الجاهلى ) ومتمم له ، فهو على طريق تطاوله على الإسلام ولكن مع المراوغة والمداهنة .

وقد ساء طه حسين أن يكون لليونان أساطيرهم وللرومان أساطيرهم وأن الناس يقبلون برغبة ملحة على دراسة هذه الأساطير ، ثم لا يجد الراغبون أساطير للعرب يتناقضها الناس ، من أجل هذا ألف هذا الكتاب ليكون أسطورة عربية . وقد كتب ما كتب متأثراً بجيرد . وبلوت . ومولير ، ولما كان يقلدهم في كل شيء ، فقد أقبل على السيرة النبوية يضع منها أساطير كأساطيرهم ولقد شهد على نفسه بالكفر حين شهد بأن السيرة النبوية أسطورة لا يقبلها عقل ولا منطق وليست من العلم والتاريخ .

لقد كفر لأن القرآن الكريم مصدر رئيسى من مصادر السيرة ، والسيرة وصلت إلينا من أوثق المصادر العلمية وأمتها ، والمسلمون يدرسون سيرة فيأخذون منها عقيدتهم وعبادتهم وقوتهم . لا يدرسونها للمتعة ولا للتسلية كما يفعل الملاحدة .

ثانياً : تحدث في هامش السيرة عن قساوسة مصر والشام وحمير ونصارى اليمن ، وهذا شيء خطير يناقض المنهج الصحيح . كما أنه عنى عناية كبيرة بالتاريخ اليونانى والرومانى ، على نحو لا يفهم منه إلا أنه خلط بين المسائل خطأ شديداً ، وأنه كان يرى إلى خلط شديد بين تاريخ الإسلام وتاريخ آخر لا يتصل به ، وإنما هو حديث عن الرهبان والأخبار ، مقصود به إثارة جو من الخلط الشديد بين الإسلام المتميز بذاتياته الخاصة وبين هذه الجاهلية ، وقد اهتم بإنصاف اليهود . وأن يقدم لهم شيئاً في قصة مخيريق ، فهو يروى حديث الرسول - صلى الله عليه وسلم - ( مخيريق خير يهود ) .

ثالثاً : في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم ، يأخذ بالأحاديث



الموضوعة ، وحين يأخذ أحاديث موضوعة يرد أحاديث صحيحة لأنها خالفت هواه ، ويعول كثيراً على الإسرائيليات التي جاءت في تاريخ الطبري وأكثر منها في الواقدي وأحياناً ابن إسحق ( والمعروف أن روايات ابن إسحق عن أهل الكتاب وعما قبل النبوة لا يعتد بها ) .

رابعاً : حشد قدراً كبيراً من الأساطير في قصة حفر زمزم على يد عبد المطلب ، وبالغ جداً في قصة ولادة الرسول صلى الله عليه وسلم مع أنه لم يثبت منها إلا حديث واحد ، وأخذ بالأخبار الموضوعة في قصة ( زينب بنت جحش ) وجسم بعض المعجزات التي حدثت للرسول صلى الله عليه وسلم عند مرضعته حليلة السعدية وأثناء سفر النبي - صلى الله عليه وسلم - في تجارة خديجة رضي الله عنها .

خامساً : خص الشياطين في كتاب هامش السيرة باهتمام بالغ متوسع في الحديث عنهم ، وصور مؤتمراً يتصدره إبليس للشياطين ورسم صورة للشيطان الذي حضر خلاف قريش على الحجر الأسود ، وكان على شكل شيخ نجدي ، وتحدث عن الشيطان الذي صادف عمرو بن هشام على هيئة شيخ أعرابي فأن سمع عمرو صوته حتى توقف .

سادساً : أولع بتجسيم الروايات واختراع الحكايات عن ولادة النبي - صلى الله عليه وسلم - وحتى بعثته . وعمد إلى إحاطة الدعوة بالحواري ونلخص القصص المكنوبة عن مدعى النبوة في قريش .

وعلى ندرة الصفحات التي خصصها لسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم جاءت هذه الصفحات مملوءة بالمغالطات والذي سلم من التحريف كان للمتعة والتسلية .

ومن أخطر مزاعمه زعمه أن النبي صلى الله عليه وسلم . قد أحب زينب وهي زوجة لزيد وهذا بهتان عظيم .

سابعاً : توغل في الحديث عن أهل نجران وتوغل في أمر اليهود وتحدث عن اليهود وصراعها مع أهل نجران . وعن راهب الإسكندرية والأديرة والنجاشي ، والحوار بين الحاكم الروماني وصديقه كاليكراتيس واندروكليس والنصرانية وآله اليونان والرومان القدماء .

ولا ندري لماذا كل هذا البحث عن حاجات اليهود وتاريخهم في السيرة وتركيز الدكتور طه حسين عليه وإبرازه .

وإذا كان طه حسين قد أشار في المقدمة إلى أنه اهتم باختراع الأحاديث فإن الحرية التي أباحها لنفسه لم تكن إلا لهوى معين وهدف واضح ، هو أن يقدم عن طريق القصص من السموم ما عجز عن طريق النقد والكتابة الأدبية .

ثامناً : سوى بين أساطير الجاهلية وسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم : يقول ( فأحاديث العرب الجاهليين وأخبارهم لم تكتب مرة واحدة ، ولم تحفظ في صرورة بعينها ، وإنما قصها الرواة في ألوان من القصص ، وكتبها المؤلفون في صنوف من التأليف ، وقل مثل ذلك في السيرة نفسها ، فقد ألهمت الكتاب والشعراء في أكثر العصور الإسلامية ، وفي أكثر البلاد الإسلامية ، فصوروها صوراً مختلفة تتفاوت حظوظها من القوة والضعف والجمال الفنى ) .

ويدحض هذه الشبهة الأستاذ غازي التوبة فيقول : ( كذب طه حسين في هذا القول على التاريخ ، فلم يقصد رواة سيرة الرسول - صلى الله عليه وسلم - الجمال القصصى في حديثهم عنه ، ولم يبتغوا الزينة اللفظية في تأريخهم لدقائق حياته ، وإنما جاء الجمال القصصى والزينة اللفظية عرضاً في مثالي الكلام ، فعملهم في سيرة نبيهم أسمى من أن يهدفوا منه التقاصص أو التلاعب . وهم أوعى من أن يسفوا إلى هذا الدرك . إن مكان رسول الله عليه الصلاة والسلام من نفوسهم ونظرتهم إليه مانعان بينهم وبين هذا اللغظ ) .

تاسعاً : يعتذر الدكتور طه حسين لتناقض بعض أحداث السيرة مع العقل ، وعدم استقامتها مع التفكير العلمي ، ولكنه يبرر موقفه بأن هذه الأساطير ترضى ميل الناس إلى السذاجة ، وترفه عنهم حين تشق عليهم الحياة فيا لوان السيرة عنده .

ويقول : ( وأنا أعلم أن قوماً سيضيعون بهذا الكتاب لأنهم محدثون يكبرون العقل ولا يثقون إلا به ، ولا يطمئنون إلا إليه وهم لذلك يضيعون بكثير من الأخبار والأحاديث التي لا يسيغها العقل ولا يرضاها ) .

ويقول غازي التوبة : ( إن طه حسين ينصب نفسه إماماً للأساطير اليونانية ويضع السيرة في مصاف الإلياذة وبطل من المؤلفين والكتاب

أن يفتنوا في الحديث عنها افتتان أوروبا بأساطير اليونان ، كى يرضوا ميول الناس إلى السذاجة ، ويمتعوا عواطفهم وأخيلتهم . ولكن هل يتساوى الأثران في المجتمعين ( الالياذة في المجتمع اليونانى ، والسيرة في المجتمع الإسلامى ) وهل كانت السيرة يوماً ما في التاريخ موضوعاً لتسلية قصصية أو مباراة لفظية ؟ .

ليس من شك في أن تناول السيرة بقصد الترفيه عن النفس وإرضاء ميل الإنسان إلى السذاجة وتنمية بعض عواطف الخير ليس من شك أنها سابقة خطيرة لا يحسد عليها طه حسين لأن من كتبوا - دوماً وكثيراً - في سيرة نبيهم صلوات الله وسلامه عليه ، ومحضوا أحاديثها وميزوا دقائقها ورووا تفاصيلها ، كان نظرهم خلال ذلك كله وبعده يرمى في محمد - صلى الله عليه وسلم - مثلاً أعلى للإنسانية ويلتذ في ذلك ويشتم الصفات العيبة .

عاشراً : لم يكن الدكتور محمد حسين هيكمل وحده هو الذى كشف خطة طه حسين المدمرة ، ولكن هناك كثيرون في مقدمتهم الأستاذ مصطفى صادق الرافعى . الذى وصف كتاب على هامش السيرة بأنه تهكم صريح .

وفي الجزائر نشرت مجلة الشباب الجزائرية ( ذى القعدة عام ١٣٥٢ هـ - ١٩٣٤ م ) تحت عنوان ( دسائس طه حسين ) قالت : ألف طه حسين كتاباً أسماه ( على هامش السيرة ) ، يعنى السيرة النبوية الطاهرة ، فله من الأساطير اليونانية الوثنية وكتب ما كتب في السيرة الكريمة على منوالها ، فأظهرها بمظهر الخرافات الباطلة وأساطير الخيال ، حتى يخيل للقارىء أن سيرة النبي - صلى الله عليه وسلم - ما هى إلا أسطورة من الأساطير ، وفي هذا من الدس والبهت ما فيه .

ومن العجب أن قام كاتب في مجلة الرسالة يطرى هذا الكتاب يقول : فالدكتور طه حسين الذى كان يقول في الإسلام ما شاء ولا يبالي بالمسلمين ، أصبح اليوم وبعد ما خرج من الجامعة يحسب للمسلمين حساباً ، فلا يكتب إلا ويقول أنه مسلم وأنه يعظم الإسلام . ولكن ما انطوى عليه صدره يأبى إلا الظهور ، كما بدأ جلياً في كتابه الأخير .

وقال زكى مبارك في البلاغ ( يناير عام ١٩٣٤ ) : ( وأنا أوصى قرأني

أن يقرأوا هذا الكتاب ( على هامش السيرة ) بروية فلأن فيه نواحي مستورة من حرية العقل ، عرف الدكتور كيف يكتبها على الناس ، بعد أن راضته الأيام على إيثار الرمز على التأليف ( يقصد بعد ضربة الشعر الجاهلي ، أثر أسلوب الرمز لتغطية أهدافه ) .

بل إن الدكتور هيكل في جولة أخرى حول كتاب ( على هامش السيرة ) ج ٢ ، في ملحق السياسة الأسبوعية ( ١٩٣٧ / ١٢ / ٢٥ ) أشار إلى حملة من المعاني الخطيرة ، وإن كان قد تناولها بجذر لكي لا يغضب صديقه القديم .  
أولاً : أشار إلى أن طه حسين ( أراد أن يمزج الثقافة العربية بالثقافة الإغريقية ، حين تحدث عن حياة الرهبان والرومان .

ثانياً : أنه لا يريد أن يقص شيئاً من أمر السيرة لذاتها ، ولا بما قد يرى أنه التاريخ الحق فيها . وهو لذلك يريد أن يبقى على هامشها .

ثالثاً : جانب الأساطير غزير واليهود لهم باع طويل في دس الإسرائيليات على الإسلام ، وأن من رجال الأدب من يرون أن هذه الأساطير لها أثر سيء ، لأنه يسيء إلى الفكر الإسلامي الذي لا يعرف من الأساطير ما يعرفها اليهود وما يعرفها الإغريق ) .

ثم لم يلبث الدكتور محمد حسين هيكل أن قال :

( الحق أنني كنت أشعر أثناء قراءتي هذا الجزء الثاني من هامش السيرة ، وكأنما أقرأ في كتاب من كتب الأساطير اليونانية ، أو في بعض ما كتب أناطول فرانس ومثلها في هذه الأساطير ، وليس فصل ( نادى الشياطين ) بأشد إمعاناً في أدب الأسطورة من سائر فصول الكتاب ) .

طه حسين في كتابه ( على هامش السيرة ) يعضي في طريقه المرسوم بعد أن توقف ملياً أمام السهام التي ناشته بعد كتابه ( في الشعر الجاهلي ) . الخطة واحدة وإن اختلف الأسلوب ، الغرض واحد ، وقد أجمع فيه تحت ستار خداع كلمات براقة وقد انكشفت الخطة من الجزائر إلى أقصى المشرق ، ولكن هل

---

(١) قصص أسطوري يحرك المواطنين وإن لم يكن له أصل من الصحة ( المجلة ) .

توقف طه حسين ، لقد أوغل في دراسات تاريخ الإسلام يثير السموم في ( الفتنة الكبرى ) وفي ( الشيخان ) وفي غيرهما .

خلاصة البحث أن التبعية واضحة في كتابات طه حسين الإسلامية ، للمناهج الغربية التي تود إخراجنا من الأصالة ، والاستسلام الواضح للفكر الوثني بصفة عامة . واليهودي بإسرائيلياته بصفة خاصة ، بل يكاد يكون الدكتور طه حسين في مختلف كتبه الإسلامية محيياً لمفهوم الإسرائيليات ، ووجهة نظر اليهود ولذلك الباب تفصيل كبير سنفرد له فصلاً خاصاً .

( ٣ )

#### الشيخان ومرآة الإسلام والوعد الحق

١ - قصص أسطوري يحرك العواطف وإن لم يكن له أصل من الصحة .

يمضي الدكتور طه حسين في كتبه هذه على نفس النمط الذي سار عليه في كتاب الفتنة الكبرى ، وهي مجموعة أحقاد ووصايا تبشيرية واستشراقية موجهة ومدروسة ، يضعها في قلب هذه الدراسات لإثارة الشكوك حول تاريخ الإسلام والخلافة وصحابة النبي صلى الله عليه وسلم .

وقد مهد لكتاب ( الشيخان ) بمقدمة خطيرة أعلن فيها مذهب الشك الفلسفي بوضوح .

فقد أعلن أنه يشك ( أعظم الشك ) فيما روى عن هذه الأحداث التي تناقلتها الكتب عن حياة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، وهما الشيخان حيث يقول :

( وأنا بعد ذلك أشك أعظم الشك فيما روى عن هذه الأحداث ، وأكاد أقطع بأن ما كتب القدماء من تاريخ هذين الإمامين العظيمين ، وعن تاريخ العصر القصير الذي ولما فيه أمور المسلمين ، أشبه بالقصص منه بتسجيل حقائق الأحداث التي كانت في أيامها .

وإن كان من الحق أن النبي صلى الله عليه وسلم نفسه قد كذب الناس عليه ، وكان كثير من هذا الكذب مصدره الإكبار والتقديس ، فلا غرابة

في أن يكون لكبار صاحبيه العظيمين وتقديسهما مصداً من مصادر الكذب عليهما أيضاً) .

ويذهب إلى أبعد من ذلك حين يقول : ( إن الذين رووا التاريخ الإسلامي هم المنتصرون وحدهم بل من طريق الذين لم يشهدوا الانتصار بأنفسهم ، وإنما نقلت إليهم أنباءه نقلاً ، أقل ما يمكن أن يوصف به أنه لم يكن نقلاً دقيقاً ، وهم لم يسمعوا أنباء هذا الانتصار من المهزمنين من قريش وروم وأمم أخرى شاركتهم في الحرب وشاركتهم في الهزيمة ، فهم سمعوا صوتاً واحداً ، هو الصوت العربي ، وأيسر ما يجب على المؤرخ المحقق أن يسمع أو يقرأ ما تحدث به أو كتبه المهزموون والمنتصرون معاً ) .

#### ١ - تطوع للدفاع عن الروم :

وهكذا تطوع الدكتور طه حسين ( كما يقول الأستاذ محمد النابيف في بحثه المستفيض عن السيرة ) للدفاع عن المهزمنين من علوج الرومان ، ليكون لسان حاله مطعوناً بعدالته ، محكوماً عليه بالكذب ، لا يعرف طعم الأمانة ، وبأبي الطريق الذي يوصله إلى الحقيقة .

ومن المقدمة وحدها نعلم أن طه حسين اتخذ من الشيخين رضي الله عنهما تقية وستاراً ، ليعبث في تاريخ أمتنا الإسلامية ويطعن بالرواة الثقة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والتابعين وتابعي التابعين وينكر أحاديث متفقاً على صحتها .

ومضى طه حسين في كتابه على غرار ما ذهب إليه في المقدمة مشككاً بالرواية والراوي ويتكرر هذا الأسلوب في كل حادثة من الحوادث .

#### ٢ - الطعن في حادثة السقيفة :

يقول : ( ولست أطمئن إلى أكثر ما يرويه الرواة من نصوص الحوار الذي كان بين أبي بكر وصاحبيه من جهة ، وبين الأنصار (أوسهم وخزرجهم) من جهة أخرى ) .

٢ - الطعن في الحديث الذي روى عن العباس وعلى رضي الله عنهما ،

من أن العباس عرف الموت في وجه النبي - صلى الله عليه وسلم - والغريب أن الطبري يروي هذا الحديث من طريقين دون أن ينكر منه شيئاً .

هذا الحديث رواه أيضاً البخاري في كتاب المغازي في صحيحه . ونقله ابن كثير في البداية والنهاية ، ورواه الإمام أحمد في مسنده ، ولعل طه حسين يعلم رواة هذا الحديث ولكنه أراد التشكيك .

٣ - تشكيكه في استسقاء عمر بالعباس - رضي الله عنهما - مع أن الحديث رواه البخاري في صحيحه عن أنس : أن عمر خرج يستسقي وخرج بالعباس يستسقي به . ورواه ابن كثير في البداية والنهاية . وشيخ الإسلام ابن تيمية في رسالة الترسل والرسالة .

٤ - تشكيكه في أن يكون عمر قد راجع أبا بكر - رضي الله عنهما - معترضاً على حرب المرتدين ، مع أن مراجعة عمر لأبي بكر صحيحة رواها الجماعة في كتبهم ، سوى ابن ماجه ، أي رواها البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي .

وفي جميع هذه الحوادث التي ينكرها الدكتور طه حسين لا يعتمد على سند علمي صحيح ، وإنما على عقله الذي وصفه في بعض المواضع بالتناقض والضعف والاضطراب .

### ٣ - محاولة لنسف التاريخ :

ولأن طه حسين يعلم أن التشكيك برواة التاريخ الإسلامي الأعلام العدول ، محاولة لنسف التاريخ من أصله ، لأجل هذا فهو يناصبهم العداء ويصدر أي خبر لم يقره ( ويزعم الرواة ) وكلمة يزعم يقال للخبر المشكوك فيه .

وأخيراً يستخدم العصبية الجاهلية ، فإن أكثرهم موالى بكرهون العرب حسب زعمه دون أن يذكر أسماءهم . ومعظم الرواة من غير العرب وفي مقدمتهم ناصر السنة الإمام البخاري .

بل إنه يضم هؤلاء الرواة بأن قلوبهم لم تبرأ من الضغن على العرب لأنهم فتحوا بلادهم .

ونحن نعلم أن الله تبارك وتعالى قد طهر قلوب هؤلاء العلماء الأبرار الذين

صاغهم الإسلام في بوتقته ، وأخرجهم من هذه العصبية وهذه العنصرية التي لم يعرفها المسلمون ، إلا حين أيقظها الشعوبيون بعد ذلك .

#### ٤ - ولوغه في أعراض الصحابة :

وقد شارك طه حسين كثيرًا من المستشرقين المتعصبين في تجريح أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلمز أبا هريرة رضي الله عنه ، وسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه . وتحامل على معاوية رضي الله عنه ، وأوغل في عرض سيف الله خالد بن الوليد ، ووجد في القصص التي اختلقها الرضاؤون من أعداء الله عبر التاريخ الإسلامي ذريعة للطعن بأعظم قائد عرفته المعارك بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ويذكر قتل خالد المالك بن زويرة ، واستدعاء أبي بكر - رضي الله عنه - له . ثم يعقب بأن : هذه الواقعة تبين ما أسماه ( عنف خالد وإسرافه في القتل ) وأنها تظهر عن خلق آخر ، هو حبه للنزوح ، وخلق آخر معروف في عشرينته من بني مخزوم ، وهو العجب والخيلاء .

وما زال يتناول على سيف الله خالد رضي الله عنه حتى جاء بأسطورة لم يشهدنا تاريخ الفتوحات الإسلامية ، وقد ترفع المستشرقون عن نقلها : وهي ادعاءه أن خالدًا قد أجرى ماء النهر بدمائهم ، وقد أثبت الدكتور طه حسين هذه الرواية التي لا سند لها ، بلينا أنكر الروايات الموثقة التي رواها البخاري رضي الله عنه .

وهو يهدف من ذلك إلى تصوير الفتوحات الإسلامية وقواد المسلمين بالهمجية ، ولم يثبت سائر الروايات التي اعتذر فيها عمر رضي الله عنه عن عزل خالد ( راجع محمد النايف ) و ( غازي التوبة ) .

ثانيًا : ولم يتوقف انتقاد طه حسين للشيوخين في كتابه هذا وحده . ولكنه تعداه إلى كتبه الأخرى ، فقد وصف عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - في غير موضع بالبطش . وقال أنه لم يمت حتى ملته قريش .

وانتقد أبا بكر - رضي الله عنه - في أنه حصر الخلافة في قريش وعمر كان يعارضه في ذلك ؟



ثالثاً : افترى الدكتور طه حسين على الصحابة وسبهم واحداً واحداً وصنع لهم مثالب ووصفهم بالنفاق ، وهدفه من ذلك إزالة الكرامة عن الصحابة - رضوان الله عليهم - وجعلهم في صف السياسيين المخترفين في هذا العصر ، ومن ذلك وصفه عمرو بن العاص - رضى الله عنه - بأنه ماكر أهل الشام . ووصف الأشعث بن قيس ، بأنه ماكر أهل العراق ، ولا ريب أن الطعن على الصحابة - رضوان الله عليهم - يرمى إلى زلزلة الثقة بأهل الثقة .

#### هـ - الجرأة على القرآن والسنة :

وهو في كل ذلك جرىء - إن صح التعبير - على القرآن والسنة والحديث ضعيف المصادر متحل من كتب الأدب ، وعندما تقرر كتاب « الشيخان » في المعاهد المصرية ، كتب الغيورون يطلبون إلغاء تقريره ، وفي مقدمتهم الأستاذ عبد الحفيظ القرني الذي قال ، إن هذا الكتاب عرض هذين الخليفتين العظيمين لموجة من الشك الذي حشى به كتابه ، فترك الشباب في قلق وحيرة لا يدري أين يضع قدمه بين تلك الأمواج المتدفقة من عباراته ، مثل : أنا أشك ، زعموا ، يزعمون ، أنا غير واثق ، إلى غير ذلك مما يفتح الطريق واسعاً للتخبط والشك والضياع .

وكان الأستاذ محمد عمر توفيق ، قد ألف كتاباً بعنوانه ( الشيخان ) رداً على كتاب طه حسين - في إبان حياته - وقال :

إن طه حسين نجاف منهج أهل الحديث في اعتماده على أحاديث مشكوك فيها ، لإثارة الشبهات عامداً ، وقال : إن أسلوبه الخلاب خطير ، لأنه يخفي وجه الحق فلا يتنبه قراء كتابه فيضلون ، وإن الناس قد تحق عليهم وجوه الخطأ والصواب في كتاب مثله ، وقد يغريهم اسم المؤلف بتصديق كل ما يقول ، وأن طه حسين خدع قراءه في أول كتابه بإظهار حبه للشيخين ، وشعره بالتقصير في حقهما ، لأنه لم يشارك في الحديث عنهما من قبل .

وقال المؤلف : أن طه حسين قد شكك في القدماء والروايات الإسلامية القديمة ، ولكن لم يتجاوزها إلى المستشرقين - الذين هم عنده موضع الإجلال - دون أن يكون لديه ميزان دقيق في هذه الأحكام الجائرة .

وبعرض الأستاذ عبد العظيم الديب لنص مسموم من كتاب طه حسين :

( الشيخان ) يقول : ( وكان حظ الكوفة من سراد العراق ومما فتح من أرض  
الفرس أعظم من حظ البصرة ، وكان أهل البصرة يطعمون في أن يوسعوا  
وقعتهم ويكثروا من الفتوح ، لتتاح لهم من الغنائم وسعة النعم ، إلى ما كانوا  
يؤمنون به من فضل الجهاد والغزو في سبيل الله .

حتى قال الأحنف بن قيس ذات يوم لعمر رضى الله عنهما :  
إن عيشنا أضيّق من عيش إخواننا بالكوفة ، وأنا لن نأمن الفرس ،  
وما زال الإلحاح حتى أذن عمر . فاندفع أهل البصرة حتى بلغوا من الفتوح  
ما أرادوا .

وهكذا يروى الخبر بصيغة الجزم والقطع ( حتى قال الأحنف بن قيس )  
ولا يكلف نفسه أن يأتي بصيغة تخفف من هذا التأكيد مثل ( روى ) ونحوها  
ثم انظر قوله ( أهل البصرة يطعمون في أن يوسعوا رقتهم ويكثروا من الفتوح  
لتتاح لهم من الغنائم وسعة النعم ) وانظر ( أن عيشنا أضيّق من عيش إخواننا  
بالكوفة ) .

هذا الفهم وهذا التفسير لا يكون إلا من نقص الإدراك ، وبالتالي  
من نقص الاستجابة للأحداث ، ولو كان لدى طه حسين الإدراك الكامل  
السليم ، لأدرك الروح التي كانت تحكم هؤلاء الأبطال ، ولعلم أن هذه  
الحكاية أولى بكل أدوات الشك التي بعثها في كتابه ، ولأدرك أن هؤلاء  
هم الذين تربوا في مدرسة محمد صلى الله عليه وسلم ووعوا قوله : ( من قاتل  
لتكون كلمة الله هي العليا فذلك في سبيل الله ) فما بال القتال في سبيل الغنائم  
والمال الذي يبعد المجاهد عن سبيل الله .

ولو وعى - طه حسين - أبسط الحقائق النفسية ، لأدرك أن من يقاتل  
في سبيل الغنائم لا يدوم له النصر ، ذلك أنه يكون معلق القلب بما خلفه وراءه  
من مال ، وبما يبغيه من أيدي عدوه . ومثل ذلك لا يدوم له نصر وإن كسب  
المعركة أو أكثر .

ولعمري إذا كان المستأذن الأحنف بن قيس أحلم العرب ، وكان الآذن  
عمر بن الخطاب رضى الله عنهما الذي كان يكره الحرب ويتمنى أن لا يلجأ  
إليها ويكره عليها .

إذا كان الأمر كذلك ، فما يبق للمسلمين والإسلام . ولكن الدكتور عبيد الأدب العربى ، المباهى دائماً بأنه ربيب الثقافة الغربية ، والمتبرك دائماً بالثقافة الإغريقية ، فاته أن يدرك وأن يستجيب لأحداث تاريخ الإسلام كما يجب أن يكون الإدراك والاستجابة .

وهكذا نجد أصولاً عامة مشتركة فى كل كتب طه حسين الإسلامية :

أولاً : ظلم عثمان واستنفاص الصحابة - رضوان الله عليهم - والافتراء على السيدة عائشة رضى الله عنها .

ثانياً : محاولة الغض من شأن الخلافة الإسلامية . والقول بأن تجربتها فى أيام أبى بكر وعمر رضى الله عنهما قد انتهت إلى الفشل .

ثالثاً : متابعة المستشرقين فى شبهاتهم . وإثارة جو من الانتقاص للسيرة والتاريخ الإسلامى .

رابعاً : تكذيب الروايات التى وردت فى صحيح البخارى وكتب السنة .

وفى كتاب الوعد الحق :

أولاً : يطيل الحديث فى كتابه ( الوعد الحق ) عن ظلم عثمان رضى الله عنه وطفيلانه . وأنه ما زال يضرب ابن مسعود رضى الله عنه حتى كسر ضلعه . وأشيع عمار بن ياسر رضى الله عنه ضرباً ، حتى أصابه الفتق ، وغشى عليه ، وفاته صلوات الظهر والعصر والمغرب ( ص ١٧٠ ) .

والرواية على هذه الصورة لا صحة لها . وأن خلاف عثمان مع ابن مسعود - رضى الله عنهما - على المصحف كان بدون ضرب والحق فى ذلك مع عثمان رضى الله عنه . وخلاف عمار مع عثمان رضى الله عنهما لم يتجاوز العتاب ، كما يقول ابن عساكر فى تاريخه .

ثانياً : يؤمن بأن بنى أمية فى عهد عثمان حكموا حكماً جاهلياً بعيداً عن الإسلام . وأن عثمان رضى الله عنه نكث عن بيعته لعبد الرحمن بن عوف ، وانحرف عن طريق صاحبيه .

### وفى كتاب مرآة الإسلام :

يمضى طه حسين في كتابه حتى الربيع الأخير فيه ، دون أن يثير شبهة ، ثم تبدأ الشبهات وتتراى . وهذا أسلوب مآكر من أساليب الاستشراق . وفى هذه الصفحات الأخيرة تتوالى عباراته الجارحة للصحابة رضوان الله عليهم وتكذيب الأحاديث الصحاح .

ويركز طه حسين في هذا الكتاب على خصم الإسلام الذين تأمروا عليه من أمثال الزنادقة في عهد المهدي ، والحلاج ، فبدافع عنهم ويهاجم الخليفة المهدي في صنيعه بالزنادقة . ويصف قتل الحلاج بالغلور ، ويحاول أن يعمم هذا فيتحدث عن ابن رشد وابن حزم . ويزكى المعتزلة القائلين بخلق القرآن .

وقد تجاهل طه حسين أن الحلاج اتخذ بيتاً ليطوف الناس به . بدلا من أن يذهبوا إلى البيت الحرام في مكة . وأنه كان من دعاة الحلول - حلول الله . تعالى عن ذلك - في البشر .

بل أنه يدافع عن قتلة عثمان رضى الله عنه . ويرى أن الذين ثاروا عليه لم يكونوا مخطئين ، وبذلك يضع نفسه في صف رجال عبد الله ابن سبأ الذي شكك فيه في كتاب الفتنة الكبرى .

### إعجاب طه حسين بثورات التخريب :

بل أنه يذهب إلى أبعد من ذلك في مغايطة المسلمين وتكيب الطريق الصحيح ، ويعتبر أن مؤامرة القرامطة والزنج ، ثورتان إسلاميتان تطلبان العدل والمساواة .

حاشية :

كتب الدكتور السيد الطويل عن أخطاء طه حسين في كتاب ( الشيخان ) فقال : إنه كتاب يشكك في القرآن وفي صحة آياته :

أولا : في التعليق على الآية الكريمة :

« هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله . . . » .

قال طه حسين : وهذا يفارق الدنيا الرسول - صلى الله عليه وسلم - ويختاره الله إلى جواره فلا غرابة أن يشك الصادقون في أنه قد مات وكان النبي - صلى الله عليه وسلم - قد أظهر دين الحق .

ولا ريب أن طه حسين كما يقول محمد الناييف : لا يستطيع أن يتخلى  
عن عاطفته نحو الملحدين ، كالسبائنة والزنادقة والحلولية والقرمطية وثورة  
الزنج . ويحشر المرء مع من أحب . .

\* \* \*

---

«على الدين كله في جزيرة العرب ولم يظهره في سائر أقطار الأرض، فلا غرابة في أن يرتد الذين  
يبدون أنه على حرف .

ثانياً : يقول طه حسين :

( المصحف الذي جمع في أيام أبي بكر وعمر لم يكن مرجعاً جامعاً لعامة المسلمين ، أما المصحف  
الذي أريد به جمع للناس على قراءة موحدة فهو المصحف الإمام وعبارة طه حسين توضح بأن  
المصحفين متغايران .

ثم يقول في مقدمة حديثه : ( وأشك أعظم الشك فيما روى عن هذه الأحداث ) ، فهل معنى  
ذلك أنه يشك في أحاديث البخاري ومسلم والترمذي وغيرهم من العلماء الأجلاء ؟  
( هذا ما جاء في رسالة الأستاذ حسن بطل محمد عبد الخالق ) .

## الفصل الثالث

### تاريخ الإسلام

بعد أن تعرض طه حسين للسيرة النبوية بكتابه ( على هامش السيرة ) وبها استرد بعض ثقة الناس ، الذين لم ينفذوا إلى ما في كتبه من مخبرية وسموم اقتحم المرحلة الثانية من خطته فأخذ يكتب عن الإسلام ، وانتقى أخطر ما في ذلك التاريخ من قضية وهي قضية الخلاف الذي وقع في آخر عهد الخليفة عثمان رضي الله عنه وأول عهد الخليفة على رضي الله عنه ، وخاص في هذا الأمر الخطير خوفاً واضح الوجهة من خلال الخطوط التي رسمها في ( الشعر الجاهلي ) وفي ( هامش السيرة ) وفي موقفه من الإسلام نفسه وأراد بهذا العمل أن يخدم هدفاً واضحاً كان واضحاً في الشعر الجاهلي عندما أنكر وجود إبراهيم وإسماعيل لحساب الصهيونية العالمية ، وحين ذهب إلى أبعد من ذلك في هامش السيرة وفي كتاباته عن الأدب حين أعلى من شأن اليهود وجعل لهم دوراً في الأدب العربي كما جعل للفلسفة اليونانية أثراً في الفكر الإسلامي .

وقد كانت ضرباته للتاريخ الإسلامي واضحة منذ وقف موقفه المسموم من أهل القرن الثاني الهجري ، حين اتهم العصر بأنه عصر شك ومجون ( حديث الأربعاء ) وتجاهل أعلام الإسلام في هذا العصر الذين فتحوا القلوب إلى الإيمان وأعلى من شأن عصبة المحان الذين كانوا موضع ازدراء المجتمع الإسلامي واحتقاره أمثال أبي نواس والضحاك وبشار بن برد وغيرهم . وقد حرص طه حسين على أمرين هامين في كتاباته عن تاريخ الإسلام :

**أولاً :** إنكار دور عبد الله بن سبأ اليهودي في مؤامرة قتل عثمان وما بعدها والتشكيك فيما ورد عنه في كتب التاريخ الصحيحة

**ثانياً :** الطعن في الحكومة الإسلامية التي أقامها النبي والادعاء بأن الدعوة الإسلامية لم تغير المجتمع العربي الجاهلي ، وأن هذه التجربة ماتت وسقطت على يدى أبي بكر وعمر . وليس أسوأ في ذلك من قوله :

( إن الدولة التي أقامها النبي لم تكن دولة دينية بأضيق معنى الكلمة ولا ديمقراطية ، ولا ملكية ولا دولة تحكمها مكة ، ولكنها نظام من نوع خاص على نسق النظام السياسي القبلي بعد أن أضيف إليه العنصر الديني بما يضمن من عناصر التبذيب والاستقامة ) .

وقد هاجم طه حسين كتابه ( التاريخ الإسلامى ) ونحو منها ومن كتابه الصادقين في دعوة عريضة إلى إنكار مجد القدماء من أعلام العرب والإسلام فهو يرى أن هؤلاء الكلام من أعلام الصحابة ليسوا إلا أناساً أشبه بالساسة المخترفين وهو يصورهم في كتاباته على هذا النحو ، ويتجاهل مكانتهم الكريمة في بناء المجتمع الإسلامى والفتوح ، وفي صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم وما وصفهم به وما لهم من مكانة تجعلهم أصحاب جلال وخطر وكرامة إزاء الدور الذى قاموا به وما زالوا يمثلون لنا أكرم صورة من صور البطولة .

ولكن طه حسين كان يهدف إلى إنكار هذه المكانة وإشاعة روح الاستهانة بكرامة الأعلام والعطاء في تاريخ الإسلام تحت اسم كسر هذه القيمة الأساسية في ديننا وتاريخنا ، وهو منهج صنعه كتاب اليهود ليجعلوه أداة لاحتقار عطاء البشرية ، بينما هم لا يطبقونه على أبطالهم ولا الشخصيات المعروفة في تاريخهم ، ولم نجد في كتاب الغرب من طبقة على عظمتهم الذين لا يضلهم في كفة واحدة من الصحابة والتابعين ، ولكن طه حسين كما يقول تلاميذه لا يعلمنا ألا نخدم أحداً ولا ننظر إلى الراحلين نظرة التقدير بحكم الحرية التي للآباء في أعناق الأبناء ) .

وقد وجه إليه العلامة رفيق العظم نقداً صريحاً لمقاييسه التاريخية ، وكشف له عن فساد الوجهة التي اتجه إليها في نتائج أبحاثه منها :

الحذر من الحكم على أبى نراس ومن في طبقته أو على شاكلته من الشعراء بأنهم كانوا مثلاً صادقاً للعصر الذى عاشوا فيه وأن الرشيد والمأمون ذهباً من الشك والاستمتاع بالذائد في ذلك العصر ، فذهب أبى نواس وأضرابه من شعراء المخبرن .

وقال : إن المقدمات التي استخرجتم منها تلك النتيجة ربما ظهرت صحيحة

لأول مرة لأنها تستند إلى أشعار وأخبار مكتوبة ومنسوبة إلى ناقلها وقائلها وهم معروفون مشهورون في التاريخ ولكن هذا وحده لا يكفي لمثل ذلك الاستنتاج ، ولا تبني عليه أحكام سوداء في تاريخ أبيض ناصع كتاريخ الرشيد والمأمون . ومن عاصرهما .

وكشف خطأ طه حسين في تعجل الحكم لتلقي أخبار أبي نواس وما نقل إلينا من سفره كأخبار صحيحة لا غبار على نسبتها إليه وصدورها عنه وهذا ما لا يصح للمؤرخ المحقق السليم به والسكرت عليه .

وقال : إن الحقائق التاريخية ولا سيما في تاريخ الإسلام تشبه الدر الملقى بين أشواك تحتاج من يريد استخراجها من تلك الأشواك إلى أناة وروية ونظر في وجوه السلامة من أذى الأشواك .

وأشار إلى ما عاناه رواة الحديث ونقله الأخبار النبوية في تمحيص تلك الأخبار وتنظيفها من الشوائب : شوائب الوضع المكذوب ، ولا سيما في أيام الفتنة الكبرى التي انقسم منها المسلمون إلى شيع سياسية كانت تعمل للسياسة باسم الدين وتضع من الأخبار ما يوافق مذاهبها السياسية وإن كان فيه مساس بالدين وتشويه له .

وأشار إلى كتب القصاصين في عصور الحقبة ، وإلى أخبار نسبتها شيع العباسيين إلى خلفاء بني أمية وأخبار نسبتها شيع آل علي إلى خلفاء بني العباس وقال إنه من المحال أن يكونوا من انحطاط الأخلاق والسير إلى المنزلة التي أنزلها إليهم الوضع ، وقال إننا نقرأ أقبح من ذلك في كتب القصاصين منسوبة إلى الخلفاء وأهل العلم والأدب .

وقال إن التنازع السياسي بين الشيع الإسلامية أدخل من روايات بعض الأحباريين من شوائب في التاريخ الإسلامي ليست منه ، وإنما هي من موضع المترلقين لبيوت الإمارة والملك والمتشبعين ببعض المذاهب السياسية والدينية .

وقال : إن كتب القصاصين : وضعها واضعوها لأغراض وبواعث تجارية أو سياسية أو دينية . أما الأغراض التجارية فهي الكسب والانتفاع



أما البراءات السياسية والدينية فهي منع العامة من الخوض في سياسة الخلفاء والحكام والخوض في أخبار الصحابة .

وقال : إن بعض الأذكياء وضعوا قصصاً تتلى في المجتمعات وهي مئيرة للعواطف والأفكار . وقد تناقش الرواة والقصاصون في تدوين الأخبار ، ووضعها مفرقة تارة ومجموعة تارة في كتب الأدب كأخبار العشاق والشعراء والبخلاء والكرام .

وقد غالى بعض الإخباريين في إيراد أخبار المجنون والتهتك والانغماس في الشبهات مغالاة تكاد تشهد على نفسها بالغلو والتلفيق لما فيها من العبث بالأخلاق والتجرد من معنى الأدب الذي أخذ فيه الشعراء والأدباء المنسوبة إليهم ) .

وهكذا كشف العلامة رفيق العظم فساد وجهة الدكتور طه حسين في دعواه العريضة بتسمية عصر الصحابة : عصر شك ومجون ، كما أنه كشف فساد وجهته فيما سماه مذهب تقديس السلف وإسباغ الدين على التاريخ وهو مذهب دعا إليه كثير من خصوم الإسلام والمستشرقين وتوسعوا فيه من بعد أمثال نبيه أمين فارس .

فهم يعرفون مدى قدرة التاريخ الإسلامي على العطاء وبناء الأجيال وأثره في تكوين النفسية الإسلامية والمزاج الإسلامي والوجدان الحر الكريم المؤمن ولذلك يرغبون في طمس هذه الواجهة حتى لا يكون التاريخ عاملاً في بناء الأمة الإسلامية من جديد .

ولقد كشف العلامة رفيق العظم في أدب جم فساد وجهة طه حسين وقال له في أدب كريم إنه اعتمد على كتب القصاصين والرواة المبطلين والمفسدين الذين جمعوا الروايات الباطلة لإفساد وجه التاريخ الإسلامي النضر الكريم تحت عنوان عدم تقديس التاريخ وإبطاله وهي عبارة صهيونية دخيلة وما كان المسلمون يوماً من الأيام يقصدون التاريخ ولكنهم يرونه ضوءاً كاشفاً يتبعون به في بناء حياتهم فيقدرون إيجابياته ويتجنبون سلبياته .

ولقد كان من أخطر خطايا طه حسين اتهام الإسلام بأنه حجب تاريخ الجاهلية وادبها الذي كان يمثل المعارضة ضد الإسلام .

وكان الدكتور طه قد ألقى محاضرة عن تأثير الرثنية اليهودية والنصرانية في الشعر العربي أعلن فيها أن ما وجد من الشعر مشتتاً على مبادئ الوثنية أو اليهودية أو النصرانية إنما هو مدسوس على من نسب إليهم وأنه لم يكن موجوداً في عصرهم وأرجع هذا إلى أن الحكام المسلمين منعوا تداول كل شعر اشتمل على مبادئ هذه الديانات بما يخالف سنن الإسلام ومبادئه ومحوه جميعاً ، وقال إن أهل هذه الملل بعد سكون حركة الفترحات واستتباب السلم وتيقظ الحركة الفكرية في ميدان الأدب والعلم قد دفعهم تعصبهم لشعراء ملتهم السابقين إلى القول عليهم بما لم يقولوه ونسبة أشعار إليهم لم تكن من نسيج بيانهم ولا من منتجات عقولهم . وقد كتب الأستاذ عباس فضلى ( جريدة السياسة ( ١٣ / ١ / ١٩٢٦ ) يناقش الدكتور طه حسين في هذا الادعاء بأن العرب بعد الإسلام محوا جميع الأشعار التي تشتمل على مبادئ هذه الديانات وقال إنها تهمة على جانب كبير من الخطورة ، ولا يصح السكوت عليها على أنها من مقررات العلم المسلم بها لأن الأبحاث العلمية ليست أساسها المشاعر وقيام نزعات وميول خاصة ولا بد أن تقوم على أساس اليقين الذي يطمئن إليه الباحث في بحثه ويقتنع به كل من يدلى إليه . بهذا البحث ، فن من ملوك المسلمين وحكامهم هو الذي أمر بؤاد الشعر الوثني واليهودي والنصراني ومحوه ومن أعوان هؤلاء الحكام الذي تولى ذلك بدأه بقوله : وإذا كان لحاكم أباً كان أن يمحوا ما حوته بطون الكتب فكيف السبيل له أن يذهب بما وعته صدور الحفاظ من أهل هاته الملل وأن يعقل ألسنتهم عن أن ينقلوا إلى أهل ملتهم من بيتهم ومعاشرتهم ومخالطتهم وأصدقائهم . وهناك دليل آخر نسوقه وهو أن ديننا يحث على نشر العلم ويزهو نبيه بقوله « أنا مدينة العلم » يستحيل أن يعمل على دثر آثار شعراء هاته الديانات لمجرد مخالفته لمبادئه .

إنه لا يمكن التسليم بحال من الأحوال بما أراد أن يصل إليه وهو أن جميع الشعر المنسوب إلى شعراء الملل الأخرى في الجاهلية على الأخص هو شعر

مدخول عليهم مدسوس بحكم التعصب ونعرة الانتصار لأهل الملة ، إن هذا الاتهام لا يرتكن إلى شيء من الحقيقة اليقينية وكذلك القول بتلقيق كل الموجود من شعر هؤلاء القوم مما هو منسوب إلى العصر الجاهلي أو الأموي أو العباسي هو الآخر قوم لم يقيم الدليل على صحته فضلاً عن مخالفته لمقتضى المعقول الذى يحرم باستحالة منع تسرب شعر هؤلاء القوم . إن واجب الذمة والأمانة التى علقها العلم فى رقاب من تصدوا للنشر قد دعا إلى أجماعنا كلمته بشأن هذه الشكوك وتبين حجته الباعثة لنا وباقى مستمعيه إلى الاطمئنان إلى أحكامه ، ولم يجب الدكتور طه حسين بل صمت وتصدى تلميذه زكى مبارك فقال كلمات عائمة قوامها « أظن أن رجال الإسلام كانوا من التسامح بحيث يرضون أن تبث أصول هذه الديانات من جديد » أن النبي وأصحابه لم يروا من الخير أن يبقوا على أى نزعة تخالف وجهة الإسلام ففضوا قضاء مبرماً على ما كان من شعر النصارى واليهود والمشركين » .

ولكن الأمر لم يتوقف عن هذا الحد فقد تصدى له أمير البيان الأمير شكيب أرسلان فى مقال مطول نشر فى مجلة « الزهراء » ثم مقدمة لكتاب النقد التحليلي للأدب الجاهلي الذى نشره الأستاذ محمد أحمد الغمراوى .

إن الدعوى بأن السلف فى صدر الإسلام وضعوا ( سانسوراً ) على الشعر الجاهلي المشرب بمبادئ الوثنية أو النصرانية أو اليهودية ، أى وضعوا حجاباً دونها ولما كانت هذه الدعوى مبنية على الافتراض والتخيل . وأنها لا تستند إلى دليل بل الواقع يناقضها من كل الجهات فقد تحدث كثيرون فى دحض دعوى الأستاذ العميد .

قال أحدهم : من من ملوك المسلمين وحكامهم أمر بوأد الشعر الوثني واليهودي والنصراني ومحوه ، ومن هم أعوان هؤلاء الحاكم الذى تولى ذلك ، وكيف كانت طريقة المحر ، وهل كتب لها النجاح فى بلاد الإسلام إلخ .

والحقيقة أنه ليس لهم من جواب على هذا السؤال ، ولا حيلة لهم في التخلف منه إلا بإيراد أدلة واهية لا تدفع شيئاً عن حقيقة حرية الرواية في ذلك ومن كون بابها بقي مفتوحاً على مصراعيه .

ويقول الأمير شكيب أرسلان : إن عصر الصحابة لم يعرف ( السانسون ) ولا مراقبة الرواية ولا كم الأفواه ولا شيئاً من أوضاع ديوان التفتيش . إن مراقبة الكتابات والروايات هي من أوضاع الهيئات الاجتماعية المتعددة التي استبحر منها العمران وتأثّل الملك وأن ( السانسون ) لا يتأتى مع بداوة المجتمع ولا يعقل وجرده في الأيام التي عاش فيها النبي صلى الله عليه وسلم . فمراقبة الكتب والخطب كانت تقع في رومية والقسطنطينية لعهد عظمة القيصرية وفي أيام سلطة البابوات ، وفي عهد ملوك فاتحين كلويس الرابع عشر وقد بالغ فيها نابليون الأول ثم نابليون الثالث ، وقد وقعت في أيام العرب في عهد العباسيين وغيرهم من ملوك الأعاجم أو الملوك العرب الذين اتخذوا أطرار الأعاجم . أما أنها كانت في عهد الخلفاء الراشدين وفي أيام الصحابة فمحض تحكم ومكابرة .

ومن قال إن العرب أعرق الأمم في الحرية فغير مبالغ ، لهذا نجدهم رووا بالسنتهم وكتبوا بأقلامهم جميع مطاعن المشركين في النبي صلى الله عليه وسلم وصحبه ولم يخفوا منها قليلاً ولا كثيراً ونقلوا الشبه والاعتراضات التي كانت تقع على الرسول ورهطه ، وذكروا كثيراً مما كان يسفه به بعض العرب على رسول الله صلى الله عليه وسلم وكيف أن اثنين تخصما إليه فحكم لأحدهما فقال المحكوم عليه هذا حكم لم يرد به وجه الله فقال عليه الصلاة والسلام : أودى موسى من قبلي بأكثر من هذا وغير ذلك مما هو مستفيض في كتب السيرة النبوية وأخبار صدر الإسلام ولم يكن عندهم حرج في نقل تلك الأحاديث وإيرادها كما جاءت ، لأنهم كانوا على بيئة من دينهم الذي دانوا به ، وكانت قلوبهم مطمئنة بالإيمان وكانت سيرة النبي صلى الله عليه وسلم معلومة عندهم بدقائقها فلم يكونوا يحتاجون إلى ( السانسون ) درءاً للشبهات عنها وخوفاً من أن يقضى تداول هذه الروايات إلى زعزعة عقيدة الإسلام التي لم تكن منذ جاء بها صاحبها ( صلى الله عليه وسلم ) إلى اليوم على شفا جرف

هاربل الإسلام مولود رزق الصحة ووثاقه التركيب منذ ولادته نعم: في هاتيك الأيام وما بينها كانوا يرددون أهاجى بعض الشعراء للصحابة والأنصار ولبنى النجار ، وفي تلك الأيام كان يعاتب الرسول ويقال له : ما كان ضرك لى عفوت فرجما من الفقى وهو المغيظ المختق وفي أيام السلف كان ينادى الأخطل :

ولست بصائم رمضان عمري ولست بآكل لحم الأضاحى ولست بقائل ما عشت يوماً قبيل الصبح ( حتى على الفلاح )

كان يقول هذا ويدخل على الخلفاء ويميزونه الجوائز السنية ، وكان هو وغيره من النصارى واليهود يفتخرون بدينهم ويعلمونه في أشعارهم التي كان يروونها المسلمون ويقيمونها في دفاترهم ، ولما جاء الملك النعمان بن المنذر رجل نصراني في اليوم الذي عنده يوم بؤس ، وأقر النعمان بقتله استباحه النصراني مهلة أن يودع أهله فأذن له على أن يقدم كفيلاً يحل محله في القتل إذا هو لم يرجع فرجع وتعجب النعمان من وفاته ، فسأله : ما حملك على هذا الوفاء فأجابه النصراني : حملني ديني . فقال له النعمان وما دينك قال له النصرانية وتنصر النعمان بعد هذه فكانت هذه الرواية مما حرره المسلمون ولم يغمطوا النصرانية حقها ولا غمطوا اليهودية حقها وأجمع العرب المسلمون على نقل مآثر السموءل وكان السموءل يهودياً ، وما زال السموءل مضرباً للأمثال من علو النفس وكرم السجية إلى يومنا هذا حتى قال عنه شوقي شاعر العصر منذ أيام قلاثل :

فكان من السموءل فيه شيئاً فكل جهاته كسرم وخلق فكيف يكون المسلمون الأوائل حاولوا خنق كل صوت غير صوتهم ومحو آثار النصرانية واليهودية والوثنية من شعر العرب .

ثم إن شعر شعراء النصرانية من الجاهلية يملأ الدواوين وما منهم إلا من حرص علماء الإسلام على التنبيه أنه كان نصرانياً وقد نقلوا خطب قس بن ساعدة الذي كان مطراناً ، ونقلوا ثناء النبي ( صلى الله عليه وسلم ) عليه .

أما كون ديوان شعراء النصرانية المطبوع في بيروت موضوعاً وأن الشعراء المروية أشعارهم فيه لم يكونوا نصارى بل جعلهم صاحب الديوان

نصارى وهم جاهليون لا غير فن يقول هذا ومن يصل به المرء إلى إنكار أن أكثر هؤلاء الشعراء كانوا نصارى ، غاية ما يقال : إن بعض هؤلاء الشعراء لم تثبت نصرانيتهم ؛ وهذا لا ينفي أن شعراء كثيرين مثل العبادى والأخطل والقطامى كانوا نصارى مجعاً على نصرانيتهم ، وأن المسلمين نقلوا أشعارهم كما هي ولم يحذفوا منها شيئاً . وكان شعراء المسلمين يناقشونهم ويداعبونهم وكان جرير يقول :

قال الأخطل : إن رأى ربايتهم يا مار جرجس لا تريد قتالا

فالقول : بأن النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه لم يقولوا على نزعة تخالف دين الإسلام وأنهم طووا شعر النصارى واليهود والمشرىين محض تحكم لم يقم عليه أدنى دليل ، بل قام الدليل على حرية الإسلام وتساهله فى الدين . ونقل رواية المسلمين ليس شعر النصارى واليهود والمشرىين فقط ، بل أهاجى كثيرة قالها هؤلاء فى النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه وأنصاره ، ومن من العلماء والمؤرخين المحققين يقدر أن يقول : إن أدباء العرب بعد الإسلام رغبوا عن شعر الجاهلية وأهملوا روايته من أجل أن قائله كانوا مشركين ، أو أن المسلمين طووا كلام قس بن ساعدة ، لأنه كان نصرانياً أو لم يعجبوا بقصيدة : ( إذا المرء لم يندس من اللؤم عرضه ) ، لأن صاحبها كان يهودياً ، من يارب يقول هذا إلا الذين يبنون التاريخ على الأهواء والخيالات .

ورويت أشعار المعرى ومن فى سبيله حتى فيما يخالف الدين الإسلامى ( قوم أنوا من أقاصى البلاد لرمى الجمار ولثم الحجر ) ورسالة الغفران وصلت إلينا ولو أنها تدولت بالنسخ من قرابة ألف سنة لما وصلت إلينا ، ولو كان هناك ( سانسور ) لما أبى على رسالة الغفران وشاعت أقوال التعطيل والإلحاد فى هاتيك الأيام برغم الضغط والمراقبة ، ودونت أقوال الملحدىين والدهرىين ، ولا أننى مع ذلك أن الدول الإسلامية فى القرون التالية كانت تحجز أحياناً على الفلسفة التى يراد بها التعطيل أو الإلحاد ويسمون ذلك ( الزندقة ) . أما إزالة شعر النصارى واليهود والمشرىين ومنع روايته فشىء لم يقع لافى زمن الصحابة ، ولا فى أيام بنى أمية ، ولا فى أيام بنى العباس . ولقد ألف

النصارى في معظم دينهم في زمان بنى العباس كتباً كثيرة وتواريخ أبدوا فيها مذهبهم وما اعترضهم أحد ، ولا منعت الدولة كتبهم ، وإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم أمر بأن لا يجتمع في جزيرة العرب دينان وأجلى عمر النصارى واليهود فلم يكن ذلك لينقص شيئاً من حرية النصارى واليهود في دينهم في سائر بلاد الإسلام ، بل حرية الصابئة والمجوس وما قال مؤرخ غربي ولا شرقي : إن الإسلام أكره أحداً في الدين أو منع كتب الملل الأخرى . يا إخواننا إنه في صدر الإسلام كانوا يتناقلون مثل قوله :

لعبت هاشم بالدين وما نبأ جاء ولا وحى نزل  
ليت أشياخي ببسدر اعلموا قلق الخزرج من وقع الأسل

روى هذا المسلمون وما زالوا يروونه .

وقال السيد محب الدين الخطيب الذي نشر هذا الفصل في مجلة الفتح تحت عنوان : التاريخ لا يكون بالافتراض ولا بالتحكم :

لقد صار للغرب اليوم جنود منا يعملون على تشويه فضائلنا وتشويه تاريخنا وقطع صلتنا بآبائنا ، وفتح قارب أبنائنا لنوع آخر من أنواع الاحتلال الأجنبي ، قد يكون شراً من احتلال البلاد ، والقضاء على استقلالها .

وقال إبراهيم الإبياري في مقال له عن كتب طه حسين في التاريخ الإسلامى أنه يريد أن يطبق المنهج الاجتماعى المادى فى ( تفسير الإسلام ) ، ويريد أن يضع شخصيات المصادر الأول على طاولة النقد كأنهم رجال السياسة يصطرون حول الحكم .

الآن قد فهمنا .

### ( ٣ )

ومن أخطر القواعد التى وضعها طه حسين للنظر فى الأدب والتاريخ تلك القاعدة المسمومة التى تقول : نسيان القومية والدين شرط أساسى من شروط البحث العلمى : وقد رد الأستاذ محمد أحمد الغمراوى داحضاً إياها فقال : إن الإنسان يستطيع أن يراعى الدقة العلمية التامة فى البحث وهو متذكر دينه كل التذكر ومعتقد صحته كل الاعتقاد ، غير مجوز على قرائه

قرأ أنه خطأ أو على توراته . بل إن التدين الصحيح يزيد الباحث المخلص إن أمكن حرصاً على الحق واستمسكاً به إذا وصل إليه ، ولا خوف عليه مطلقاً إن يخفى بعض الحق أو يدلس في البحث بحاباة لدينه ، لأنه ليس الحق يخاف على دينه ولكن الباطل هو يعلم أن دينه حق ، يعلم ذلك علم متيقن . ويعلم أن العلم قائم على قاعدة استحالة التناقض بين أجزاء الحق ، يعلم ذلك علم مستيقن أيضاً ، فهو لا يخشى أبداً أن يكشف البحث الصحيح عن حقيقة تناقض دينه ، ولذلك يمضى في أبحاثه آمناً مطمئناً متبعاً أقوم الطرق في البحث والتفكير . لا لأن هذا هو الطريق الوحيد للوصول إلى نتائج صحيحة . فحسب ، ولكن لأن هذا في اعتقاده هو أيضاً الطريق الوحيد الذي لا يؤدي إلى تخالف بين العلم الذي يبحث فيه والدين الذي يؤمن به . فالتدين الصحيح والتفكير العلمي الصحيح ممكن اجتماعهما إذن ، وكثيراً ما اجتماعهما كما أن العاطفة الدينية القومية ، والعاطفة العلمية القومية لا تتعارضان بل تتضافران على خدمة العلم وتبعثان على الإخلاص في البحث « ١ » هـ .

( ٤ )

#### اتهام العرب بحرق مكتبة الإسكندرية

أفحم الدكتور طه حسين نفسه في هذه القضية ، على أثر تقديم المستشرق ( جريفي ) تقريراً عنها في مؤتمر التاريخ الذي عقد في يناير عام ١٩٢٤ في فلورنسا ، على نحو ما نشر في جريدة السياسة اليومية في ٢٣ / ١ / ١٩٢٤ وقد اتخذ أسلوب الشك والسخرية على نحو يكشف عن تهاون في المسؤولية العلمية فضلاً عن أنه ليس مؤرخاً في الحقيقة ، وإنما دعاة المستشرقون إلى هذا المؤتمر ليفتحوا له الآفاق إلى إثارة الشبهات ، ومع أن بحث المستشرق ( جريفي ) لا يتهم العرب اتهاماً واضحاً بحرق مكتبة الاسكندرية ، ولكنه يقدم وثائق من هنا ومن هناك فإن الدكتور طه اقتحم هذا الموضوع بحفده المعروف على الإسلام والمسلمين ، وبسخريته المقذعة حين قال : «ؤكد لك أيها القارئ أن حركة الفلك لن تقف حين يعلن المؤرخون أن من الجائز أن يكون العرب قد حرقوا خزائن الكتب في الإسكندرية ، كما أن من الجائز ألا يكون قد حرقوا هذه الخزائن . لئلا نذهب تستشير العقل وفروضة



في أمر هذه الكتب التي يقال أنها أحرقت في مصر وفي فارس ، لما جزم العقل بأن تحريق هذه الكتب مستحيل . بل لمال إلى أن تحريق هذه الكتب ممكن . فليس من الغريب في شيء أن أمة بدوية كالأمة العربية قد اعتنقت ديناً جديداً كالدين الإسلامي . ليس من الغريب أن أمة كهذه الأمة تقوم على تحريق كتب لا تعلم ما فيها ، ولكنها تعلم أنها تمثل ديناً غير الدين الذي أذعنت له وكتبت فيه ، وهي أن كانت فعلت ذلك فليست آثمة إلا أمام طائفة معدودة من العلماء والمؤرخين .

وهذا الكلام رخيص وتافه ، ويمكن أن يوصف بأنه ليس كلام علماء . وإلا فكيف يمكن أن يكون الحدث واحداً في تقدير الأمم كلها ، أو الأديان كلها . فإن معنى هذا أن موقف الإسلام من ذلك هو موقف الفراعنة في مصر أو الوثنيين في فارس من مثل هذا الأمر ، فهو يريد أن ينكر فضل الإسلام وتميزه في مواجهة مثل هذه الأمور ، وارتضاع الإسلام عن هدم آثار الأقدمين مهما كانت مخالفة للإسلام نفسه ، والدكتور طه حسين يجري في ذلك مجراه مع قوله المسموم بأن الإسلام قضى على الشعر والأدب الذي كان سابقاً للإسلام وقد جربه في ذلك بانتقاد شديد ، على النحو الذي أوردناه في مكانة هذا الكتاب .

وطه حسين يكتب هذا منافقة للمستشرقين ، وإرضاء لهم . وليس إرضاء لله ولا للحق ولا للعلم نفسه ، ذلك لأن المصادر العلمية جميعاً تؤكد حرق هذه المكتبة قبل أن يصل المساهرون إلى الإسكندرية ، وهناك مؤرخ واحد هو القفطى الذى ادعى هذه الدعوة وعنه أخذ المستشرقون وجرجى زيدان ، ومن العجيب أن الأجانب أنفسهم هم الذين كذبوا ابن القفطى . كما أوردت ذلك دائرة المعارف البريطانية حيث تقول : أن الدعوى ليست في الحقيقة إلا مهاترة وتلفيقاً لأن المكتبة لم تكن وقت الفتح العربى تحوى شيئاً ذا قيمة بعد الخرائق التي انتابها قبل العرب بزمان طويل ، وجاء في دائرة المعارف الفرنسية أنه ليس يصدق أن يكون عمر بن العاص قد أمر بإحراق بقايا مكتبة الإسكندرية التي كان المسيحيون قد سبقوا فأعدموها ، وكذلك هناك ما أوردته جوستاف لوبون في كتابه ( حضارة العرب ) الذى قال أن كتاب القرنين ، الخامس والسادس الميلادى لم يذكروا شيئاً عن وجود مكتبة

في الإسكندرية وكذلك كتاب أوائل القرن السابع ، وأن دعوى الإحراق لم تظهر إلا بعد نيف وخمسة عشر عاماً من وقت الحادثة المزعومة وقوعها ، وقال أنه لو صح أن المكتبة كانت موجودة وأن العرب أحرقوها لما أغفل ذكر ذلك كاتب من أهل العلم قريب العهد من الفتح مثل حنا النيقوسى .

( ٥ )

#### الفتنة الكبرى

كان اقتحام الدكتور طه حسين لمجال دراسات التاريخ الإسلامى ، بمثابة مرحلة جديدة في حياته الفكرية ، وفي وجهته التغريبية .

وكان قد بدأ ذلك بكتابه ( على هامش السيرة ) ثم أحسن - وأحسن ذووه - بنجاح الخطوة الأولى ، ففى في الطريق مقتحماً حياة الصحابة رضوان الله عليهم ، عن طريق الحديث عن الخلاف ، الذى بدأ في عهد أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، فكتب الفتنة الكبرى في جزأين .

وهنا نعرض للجزء الأول « على وبنوه » ، على أن أخصص الحلقة التالية عن الجزء الثانى ( عثمان ) .

ثم تابع خطواته على هذا الطريق فكتب : ( الوعد الحق ، مرآة الإسلام ، الشيخان ) ، وقد عرضنا لكل منها .

غير أننا في هذه الحلقة يجب أن نكشف عن هذه الوجهة وخلفياتها ، وأبرز ما يتصل بها هو تحقيق هدف من أهداف الصهيونية العالمية ، وهو :

إنكار الدور الذى قام به ( عبد الله ابن سبأ ) اليهودى اليمنى المعروف بابن السوداء ، والذى كان القائد الحقيقى للفتنة التى اضطربت ضد سيدنا عثمان رضى الله عنه ، في مختلف الأقطار ( مصر والشام والعراق ) .

وكان اليهود قد مهدوا لذلك في إسرائيل ، بطبع كتاب ( أنساب الأشراف ) وهو كتاب مريب وملفق للبلاذرى ، ضاعت منه أجزاء ، وقد بدؤوا بطبع الجزء الخامس منه بإشراف مستشرق يهودى .

وقد اعتبر هذا مقدمة للدور الذى يقوم به الدكتور طه حسين بالاعتماد عليه . فى إنكار وجود شخصية عبد الله ابن سبأ ، والادعاء بأنها شخصية وهمية اخترعها المؤرخون المسلمون .

قال هذه القولة البلهاء الدكتور طه حسين ، بينما توجد عشرات المراجع الموثقة ، التى تصكك دعوته وتؤكد وجود من يسمى عبد الله بن سبأ .

هذه المراجع التى يعرض عنها طه حسين جميعاً ، ويتكىء على البلاذرى فى كتابه « الملتقى » . فى جميع المراجع — ما عدا البلاذرى — يرد أمر ابن سبأ . فى مقدمة ذلك الطبرى — الذى تجاهله طه حسين فى هذا الموقف تماماً — قال الطبرى :

« كان ( عبد الله بن سبأ ) يهودياً من أهل صنعاء أمه سوداء ، فأسلم زمن عثمان — رضى الله عنه — ثم تنقل فى بلدان المسلمين ، يحاول ضلالتهم ، فبدأ بالحجاز ثم بالبصرة ثم الكوفة ، ثم الشام » .

كما ذكره الشهرستانى فى الملل والنحل ، وابن حزم فى الفصل ، وعبد القادر البغدادى ، فى الفرق بين الفرق ، والاسفرايينى فى ( التبصير فى الدين ) وابن قتيبة فى ( تأويل مختلف الحديث ) وابن عبد ربه فى ( العقد الفريد ) .

وقد كشف هذا عن خطة المؤامرة التى جاءت فى الوقت الذى كانت فيه إسرائيل تستعد للسيطرة على فلسطين وكانت تمهد بذلك لفرض مفاهيم مختلفة ، بدأتها برسالة الدكتوراه ، التى قدمها اليهودى ( إسرائيل ليفنسون ) التى أنفذها الدكتور طه حسين من خلال مدرج الجامعة « جامعة فؤاد » الأول — القاهرة فيما بعد « عن اليهود فى بلاد العرب » ، وفيها محاولة للادعاء بأن اليهود هم الذين مدنوا العرب فى شبه الجزيرة .

## (أ)

### الدعوى ورد الدعوى

بدأ طه حسين حديثه فى إسقاط قصة اليهودى ابن السوداء « عبد الله بن سبأ » فذكر « أن الرواة المتأمرين أكبروا من شأنها وأسرفوا فيها ، وأنها لم ترد

في المصادر المهمة . وأن ( ابن سعد ) لم يذكرها . وأن البلاذري لم يذكرها في ( أنساب الأشراف ) وهو فيما يرى الدكتور من أهم المصادر « وأن الذي ذكرها هو الطبري وأخذها عنه المؤرخون الذين جاؤوا من بعده » .

ولكني ينفي الدكتور طه حسين تهمة ( الفتنة الكبرى ) عن ابن سبأ اليهودي . بدأ كتابه بدعوى عريضة هي : ( أن الفتنة عربية ، نشأت من تراحم الأغنياء على الفقراء والسلطان ، ومن حسد العامة لهؤلاء الأغنياء ) .

وكرر هذه العبارات فتنة عربية . وعامة عربية . لتعلم ماذا يريد بهذا التكرار ، وما الذي يريد أن ينفيه من شركة أحد غير العرب في دم عثمان .

حتى إذا اطمأن إلى ترسيده الأرض ، بدأ يعرض القضية بعرض ما أسماه « قصة » أكبر الرواة المتأخرون من شأنها ، وأسرفوا فيها ، حتى جعلها كثير من القدماء والمحدثين مصدراً لما كان من الاختلاف على عثمان رضي الله عنه ولما أورد هذا الاختلاف من فرقة بين المسلمين « . وهي قصة عبد الله بن سبأ .

ويقول : « إن كثيراً من الناس يضيف إليه ، كل ما ظهر من الفساد والاختلاف في البلاد الإسلامية أيام عثمان رضي الله عنه ، ويذهب بعضهم إلى أنه أحكم كيده إحصاءاً ، فنظم في الأمصار جماعات خفية وتستتر بالكيد وتتداعى فيما بينها إلى الفتنة ، حتى تهيأت له الأمور ، ووثبت على الخليفة ، فكان ما كان من الخروج والحصار وقتل الإمام » .

يقول الأستاذ محمود محمد شاكر معلقاً :

« فأنت ترى من هذا لماذا أصر الدكتور على أن يصف الفتنة بأنها ( عربية ) ، وبأن العامة الذين كانوا أشرار هذه الفتنة ، كانوا ( عامة عربية ) أي أنه ليس لهذا اليهودي الخبيث عبد الله بن سبأ يد فيها ، وأن ليس لليهود عمل في تأريث نازها ، وهذا تحريج بين جدّاً ، لا يخالفنا فيه أحد » .

ويمضي الدكتور طه فيقول :

( ويحيل إلى أن الذين يكبرون من أمر ابن سبأ إلى هذا الحد ، يسرفون على أنفسهم وعلى التاريخ إسرافاً شديداً وأول ما نلاحظه أننا لا نجد لابن سبأ

ذكر آ في ( المصادر المهمة ) التي قصت أمر الخلاف على عثمان ، وانتفاض الناس عليه ) .

فلم يذكره ( البلاذري ) في ( أنساب الأشراف ) وهو فيما أرى ( أهم المصادر ) لهذه القصة وأكثرها تفصيلاً وذكره الطبري عن سيف بن عمر ، وعنه أخذ المؤرخون الذين جاءوا بعده فيما يظهر .

ثم هون من أمر ( عبد الله بن سبأ ) وقال : ( إنه من الهوان بحيث كان يمكن أن يأخذه الرلالة ويعاقبه أو يبطشوا به ) . ثم يقول : ( فلنقف من هذا كله موقف التحفظ والتحرج والاحتياط ولتكبر المسلمين في صدر الإسلام ، عن أن يعيث بدينهم وسياساتهم وعقولهم ودولتهم رجل أقبل من صنعاء ) ، ويقول : ( هذه كلها أمور لا تستقيم للعقل ، ولا تثبت للنقد ، ولا ينبغي أن يقام لها أمر التاريخ ) .

وهكذا يقطع الدكتور الرأي بجملة واحدة .

ثم عاد فأشار إلى قصة الكتاب - كتاب إلى وإلى مصر - الذي يقول الرواة : إن المصريين قد أخذوه أثناء عودهم إلى مصر ، فكروا راجعين ، ويرى أن هذه القصة ملفقة من أصلها .

ويواجه الدكتور طه قضية ( الرواة المتأخرون ) فيروى : ( أن فيها إيهاماً شديداً متعمداً فيما يظهر ) .

وقد كان الرد الذي تقصى خبيثته : أن الطبري ليس من الرواة المتأخرين ، فقد ولد سنة ٢٢٥ هـ ومات سنة ٣١٠ هـ ، فهو معاصر للبلاذري . ومن طبقة تلاميذ ( ابن سعد ) صاحب الطبقات ، وأن سيف بن عمر الذي روى عنه الطبري هذا الخبر من كبار المؤرخين القدماء ، فهو شيخ شيوخ الطبري والبلاذري ، وهو في مرتبة شيوخ ( ابن سعد ) ، ومات قبل سنة ١٩٠ من الهجرة . فلا يقال عنه ولا عن الطبري : إيهاماً من ( الرواة المتأخرين ) كما أراد الدكتور طه أن يوهم قارئه .

ويستطرد الأستاذ محمود محمد شاكر فيقول : ( إن ذكر الدكتور ( المصادر المهمة ) فيه إيهام شديد وإجحاف جارف ، فإن لم يكن كتاب الطبري من المصادر المهمة ، فليت شعري ما هي المصادر المهمة التي بين أيدينا ؟ ) .

(ب)

#### كتابان مريسان

هما كتاب ابن سعد ، وكتاب البلاذرى :  
( وإن كان الدكتور طه يعلم أن : كتاب ابن سعد الذى بين أيدينا  
كتاب ناقص . . وأنه ملحق من نسخ مختلفة بعضها تام وبعضها ناقص ،  
وبعضها مختصر .

والدليل على ذلك مما نحن بسبيله أنه ترجم لعمر رضى الله عنه في  
٨٤ صفحة . ولأبى بكر رضى الله عنه في ٣٣ صفحة ، فلما جاء إلى عثمان  
رضى الله عنه والأحداث في خلافته هي ما يعلم الدكتور ويعلم الناس ، لم  
يكتب سوى ٢٢ صفحة . ولما جاء إلى على بن أبى طالب - كرم الله  
وجهه - والأمر في فترته أفدح . لم يكتب عنه سوى ١٦ صفحة .

هذا على أن الكلام على طريقة ابن سعد في تراجم الرجال شيء آخر ،  
غير كتابة التاريخ ، فإنه لم يذكر في هذا الفصل إلا قليلاً جداً مما ينبغي أن  
يكتب ، لو أنه ألف كتابه في التاريخ العام ، لا في الترجمة للرجال وهذا  
شيء يعلمه الدكتور طه حق العلم ولا ريب .

وكانت حجة الدكتور في نفي خبر عبد الله بن سبأ اليهودى اللعين :  
( أن البلاذرى لم يذكره ) ، وهو فيما يرى ( أهم المصادر لهذه القصة وأكثرها  
تفصيلاً ) .

ثم عاد فننى أيضاً خبر الكتاب الذى فيه الأمر بقتل وفد مصر ، مع  
أن البلاذرى ذكره وأطال فيه وأتى فيه بما لم يأت في كتاب غيره .  
ولا ندرى كيف يستقيم أن يجعل عدم ذكره خبراً ما حجة في قضية ، ثم  
ينفى أيضاً خبر آخر قد ذكره ولج فيه ؟ ) .

أين ابن سبأ . . في البلاذرى ؟

( بقى أمر آخر : هل كان في نص البلاذرى قديماً ذكر عبد الله بن سبأ  
اليهودى ثم سقط ؟ أو أسقط عن الكتاب ؟ وهذا لا يتاح لي إلا إذا وقفت

على نسخة قديمة وثيقة من كتاب (أنساب الأشراف) ، فإن النسخة الى بين أيدينا إنما طبعت في أورشلليم ، كما يسمونها وطبعها رجل من طغاة الصهيونية ، وقدم لها مقدمة لم تكتب لا بالعربية ولا بالإنجليزية وإنما بالعبرية وليأذن لنا الدكتور : أن نشك أكبر الشك في ذمة اليهودى الصهيونى ، الذى طبع الكتاب في مطابع الصهيونية ، في أورشلليم ، فقد رأينا من قبل رجلاً آخر أحاطه الدكتور يوماً برعايته وعنايته واستقدمه إلى الجامعة المصرية وكان يسمى نفسه (أبو ذؤيب) : إسرائيل ولفنسون (وهو الآن في فلسطين يجاهد في سبيل الصهيونية) ، فألف كتاباً في تاريخ اليهود في بلاد العرب . طبع في مصر ، وقدم له الدكتور مقدمة أثنى فيها عليه ثناء بالغاً . (ومع ذلك فقد وجدنا في الذى نقله من الأخبار والأحداث : تحريفاً ، وبرا ، واقتطاعاً من نصوص محفوظة معروفة) .

(أفلا يجوز لنا على الأقل أن نشك في أن اليهودى الآخر طابع كتاب البلاذرى يفعل مثل هذا) .

(هذا إلى أن طريقة التأليف القديمة ، وبخاصة ما كان على غرار تأليف البلاذرى ، قد يترك المؤلف فيه شيئاً في مكان ثم يذكره في مكان آخر ، وكان أولى أن يذكر في المكان الأول . أفلا يجوز أن يكون البلاذرى قد ذكره مثلاً في ترجمة (عمار بن ياسر) أو (محمد بن أبى بكر) أو (محمد ابن أبى حذيفة) أو رجل ممن اشترك في الفتنة ؟ وهو يعلم أن الذى وجد من كتاب البلاذرى قسم ضئيل جداً ، طبع منه في ألمانيا عام ١٨٨٣ ، ثم تولى اليهودى الصهيونى طبع جزء آخر ، هو الذى ترجم فيه عن عثمان في عام ١٩٣٦ ثم طبع جزء آخر في عام ١٩٣٨ .

#### المقدمة العبرية :

قال الناشر في مقدمته المكتوبة بالعبرية :

(إن هناك حوادث جرت في عهد يزيد بن معاوية وهى وقعة كربلاء وموت الحسين - رضى الله عنه - ، ولم تذكر في ترجمة يزيد ، بل ذكرها في تراجم بنى أبى طالب ، وذلك حسب ما اقتضاه نظام الكتاب ، وفقاً لتسلسل الأنساب) كما قال بنص كلامه .

أفلا يجوز إذن أن يكون ( البلاذرى ) قد أدمج أمر ( عبد الله بن سبأ ) في مكان آخر ، كما فعل فيها لاحظته وذكره اليهودي ؟ كل هذا جائز .  
( ولكن الدكتور حين يبنى شيئاً لا يبالي أن يختار كل هذا ، ويغضى عنه ليقول فيه رأى الذى يشتهيه ويؤثره غير متبلجج ولا متوقف ) .

#### الطبرى مؤرخ ثقة :

ثم كيف ينسى الدكتور أن من يرووا خبراً ما ليس حجة على من روى هذا الخبر ، وبخاصة إذا كان الرجلان من طبقة واحدة ، كالبلادى والطبرى . بل لعل الطبرى . أقوى الرجلين وأعلمهما وأكثرهما دراية بالتاريخ وتحصيلاً له . وهو الذى روى عنه أنه قال لأصحابه : أنشطرون لتفسير القرآن ؟ قالوا : كم يكون قدره ؟ قال : ثلاثون ألف ورقة ، فقالوا : هذا مما تنفى فيه الأعمار قبل إتمامه ، فاختصره لهم فى ثلاث آلاف ورقة .

( ومن قرأ كتاب الطبرى فى تاريخه وتفسيره . علم أن ) عزيمة هذا الرجل ( حق ، وأن الرجل كان متفرغاً للعلم لا يلفته عنه شىء قط ، ولا يدع شاردة ولا واردة إلا تقصاها وحققها . ورأى فيها رأى الذى لا يكاد ينقض ، والفرق بينه وبين البلاذرى لا يخطئه بصير بهذا العلم ، فليس من الحجة فى شىء أن يقال ( فى عصرنا هذا ) : إن البلاذرى لم يذكر هذا فيكون ذلك كافياً للرد على ما ذكره الطبرى . وهذا شىء بين لا يحتاج إلى جدال كبير ) .

( إذن : فالدكتور قد اشتط وركب مركباً لا يليق بمثله ، حين نرى خبر عبد الله بن سبأ ، وخبر الكتاب الذى فيه الأمر بقتل المصريين بعد الذى رأيت من تهافت أسلوبه العلمى ) .

( وإذن فالدكتور قد خالف سنة العلم والعلماء فى نفي الأخبار وتكذيبها بلا حجة ، عن طريق أهل التحيص . بل تحكم حكماً بلا دليل يسوقه عن أفضلية البلاذرى وتقديمه على الطبرى . وبلا مراجعة للصورة التى طبعت عليها الكتب ، وبلا دراسة لنفس الكتب التى ينقل عنها ، كما هو القول فى ابن سعد والبلاذرى معاً ) .



( وإذن فقد أراد الدكتور طه أن يقول : إن ( الفتنه الكبرى ) التي أفضت إلى مقتل عثمان إنما كانت ( فتنه عربية نشأت من تراحم الأغنياء على الغنى والسلطان . ومن حسد العامة العربية لهؤلاء الأغنياء ) ص ١٠٩ ، فن أجل تحقيق هذه الكلمة الكبيرة . ركب كل مركب في تصوير الحياة الإسلامية بعد الفتح . بالصورة التي تنتهي به إلى هذا الغرض وحده دون سواه . وهو الغنى والمال والسلطان . وتراحم الأغنياء على الغنى والمال والسلطان وحسد العامة العربية . . . إلخ ) .

ولكن الدكتور كشف عن هدف آخر حين جاء معرض هذه الفتنه فنفى خبر ( عبد الله بن سبأ ) اليهودي وخبر الكتاب الذي كتب فيه الأمر بقتل رؤوس وفد مصر .

وهذا الهدف هو الذي ينفي عن اليهود الشريكة في دم عثمان . والتحريض على قتل الإمام ، فركب مركباً وعراً خالف فيه أسلوب العلماء ، في جرح الأخبار ، وكذب الرواة في شيء بغير برهان ، وصدقهم في شيء آخر بغير برهان أيضاً ، وهو نفسه ينفي في كتابه على ( الذين يكذبون الأخبار التي نقلت إلينا ما كان من الناس من فتنه وخلاف ، فقال في ص ١٧٢ :

( فنحن إن فعلنا ذلك لم نزد على أن نكذب التاريخ الإسلامي ) بيد أن الدكتور طه نفسه قد فعل ذلك ، فكذبهم حين روى الرواة ما لا يعجبه ، وحين رووا ما يؤذيه ، وفعل ذلك أيضاً فصدقهم ، حين رووا ما يروقه وحين رووا ما يرضيه ، فإن الذين رووا أخبار الكتاب بقتل وفد مصر ، فلم أخذ شيئاً بغير برهان ، ونفى أخاه بغير برهان .

( والشيء البين هو أن الدكتور أراد كما قال في ص ١٣٤ : ( إن يكبر المسلمين في صدر الإسلام عن أن يعبث بدنيهم وسياسيتهم وعقولهم ودولتهم رجل أقبل من صنعاء . . . إلخ ) . وهذا قصد حسن ونية جميلة ، ولكن الحق أحسن منهما وأجمل ، وليس يعمل بنا ولا بالدكتور طه أن يقال في الحق لشيء يراه هو ، أو نراه نحن حسناً جميلاً ، والتاريخ لا يكتب بالتحكم وإنما يكتب بالرواية ثم بالاستدلال ) . هـ .

(ج)

هذه النقطة هي أخطر ما في الكتاب . وقد أحصى على الكتاب الاعتماد على أحاديث ضعيفة ، اعتبرها المؤلف أساساً لإقامة منهج البحث ، بالإضافة إلى المصدرين المضطربين : ( طبقات ابن سعد ) لابن سعد ، و ( أنساب الأشراف ) للبلاذري . وكلاهما طبعهما أعداء العرب والإسلام أول ما طبعوا . كما أخذ على المؤلف خلوه من المراجع . بل أن طه حسين - وهو يذكر البلاذري - لم يكن دقيقاً ، فلم يعرف بعضهم هل يقصد كتابه ( الفتوح ) أم كتابه ( الأنساب ) .

كذلك فقد أخذ على المؤلف اعتماده على مراجع ليست أصيلة في البحث بل هي ثانوية القيمة . مع تركه الكتب الهامة في هذا البحث ، ومنها شرح النهج لابن أبي الحديد، وتاريخ ابن واضح البعقوني ، كما ذكر الأستاذ سعد محمد حسن في نقده للكتاب .

مع ملاحظة أن كتاب ابن أبي الحديد لا يوثق به ، لأن مؤلفه على مذهب ابن سبأ .

وقد أخذ على طه حسين اعتماده حديث ( من كنت مولاه فعلى مولاه ) على أنه يعني خلافة علي ، وقد أشار الحافظ ابن عساكر في تاريخه عن الحافظ البيهقي عن فضيل بن مرزوق : أن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي ابن أبي طالب قيل له : ألم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم : من كنت مولاه فعلى مولاه ؟ فقال : بلى ولكن الله لم يعن رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك الإمارة والسلطان ، ولو أراد ذلك لأفصح لهم به . فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان أنصح للمسلمين ، ولو كان الأمر كما قيل لقال : يا أيها الناس هذا ولي أمركم والقائم عليكم من بعدى فاسمعوا له وأطيعوا ، والله لئن كان الله ورسوله اختاراً علياً لهذا الأمر ، وجعله القائم للمسلمين من بعده ، ثم ترك ( علي ) أمر الله ورسوله لكان على أول من ترك أمر الله ورسوله .

ولذلك كان حقاً على الدكتور طه ألا يعتمد على هذا الحديث ، وأن يلتزم الأمانة العلمية فيورد رأى أهل السنة فيه وقد قال في حقه العلامة ابن حزم :

( « أما من كنت مولاه فعلى مولاه » ، فلا يصح من طريق الثقات أصلاً ) الفصل في الملل والنحل ج ٤ ص ١٤٨ .

وقال العلامة ابن خلدون في أحاديث الشيعة : ( لا يعرفها جهاينة السنة ، ولا نفلة الشريعة ، وأكثرها موضوع أو مطعون في طريقه ، أو بعيد عن تأويلاتهم الفاسدة . المقدمة ص ٩٦ طبعة بولاق سنة ١٢٧٤ هـ ) وفي كتاب التمهيد للقاضي أبي بكر الباقلاني ، تنمة شيقة لهذا الموضوع . وهكذا يتضح جلياً أن المؤلف لم يعن مع الأسف الشديد بدراسة موضوعه دراسة جيدة ( ونقول : أو ربما كان على غرض خفي في نفسه يهدف إلى تحقيقه ) .

ويشير طه حسين إلى أبي ذر رضي الله عنه ، فيقول : إنه نفي إلى ( الرملة ) والصحيح ( الريزة ) ، ويقول : ( ولم يطق عثمان نفسه معارضة أبي ذر فأخرجه من المدينة ) .

ويقول السيد محمد الدين الخطيب ، رحمه الله : الصواب في أمر أبي ذر ما رواه ابن خلدون في العبر : أن أبا ذر هو الذي استأذن عثمان في الخروج من المدينة إلى الريزة وقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرني أن أخرج منها إذا بلغ البناء سلماً (مكان) ، فأذن له ، ونزل الريزة وبني بها مسجداً وأقطعه عثمان صرمة ( عدد بين العشرة إلى العشرين ) من الإبل ، وأعطاه مملوكين وأجرى عليه رزقاً ، وكان يتعاهد المدينة ، وبين الريزة والمدينة ثلاثة أميال ، وقال ياقوت : وكانت من أجل منزل في طريق مكة .

وقد حاول الدكتور طه في دعوى عريضة ، أن يقول : بأن المؤرخين أعرضوا عن ذكر عبد الله بن سبأ لأنهم تبينوا أن أمره متكلف منحول قد اخترع باخرة ، والمؤلف يرى أن خصوم الشيعة من أهل السنة وغيرهم ، من الذين وضعوا أمر ابن السوداء وتولوا كبره ، ليدخلوا في أصل الشيعة عناصر يهودية ، إمعاناً في الكيد لهم والنيل منهم على حد تعبيره .

ويرى الباحثون الذين نقضوا كتاب ( الفتنة الكبرى ) وفي مقدمتهم السيد محمد الدين الخطيب : أن الدكتور طه قد جانب الصواب ، فأى كيد للشيعة في وجود عناصر يهودية في بعض فرقها وأهل السنة والشيعة جميعاً بلعنون ابن السوداء ويتبرمون منه ومن جماعته . وأن ابن أبي الحديد شارح التهج قد أعلن ذلك . وهو مؤرخ شيعي .

وبحاول الدكتور طه أن ينكر على المؤرخين . تأليه ابن السوداء لعل  
ابن أبي طالب ، مع أن هذه حقيقة لا يدفعها شك ، رواها رجال أثبات  
من السنيين والشيعة وغيرهما ، منهم الشهرستاني في الملل ، ابن حزم في الفصل  
وعبد القادر البغدادي في الفرق بين الفرق ، الرسعي في مختصر الفرق ،  
الاسفراييني في التبصير في الدين ، ابن قتيبة في تأويل مختلف الحديث ،  
ابن قيم الجوزية في الطرق الحكيمة ، وغيرهم كثيرون . أما دعوى الدكتور  
بأن خصوم الشيعة دسوا عليهم ابن سبأ ، فهي تدل على قلة اطلاعه على كتب  
الشيعة قديمها وحديثها .

## (٢)

### على وبنوه

صدر كتاب ( الفتنة الكبرى ) في جزئين : الأول : عن عثمان  
(رضي الله عنه) ، والثاني : عن (على وبنوه) ، وقد استهدف الكتاب  
إحداث فتنة كبرى حقيقية في مفاهيم الإسلام ، بإثارة التشكيك والدرس  
ومغالطة الحقائق وإذاعة الروايات الباطلة .

ولقد كان هدف صدور كتاب الفتنة الكبرى واضحاً : وهو إثارة  
الشبهات حول صيحة العودة إلى تطبيق الشريعة الإسلامية ، وقيام الحكومة  
الإسلامية ، وقد رأى الاستشراق أن يطرح أمام هذا (الأزهرى) صاحب  
الاسلوب الموسيقي الجميل ، شبهات معينة لإذاعتها ، ونصوصاً معينة لعرضها ،  
وتشكيكات معينة لتقديمها ، في داخل عرض واسع مرن ، يقدم السموم  
في إطار من العبارات البراقة ، والكلمات الرقيقة ، فتخفى على السذج والبسطاء غايتها .

### أهداف سياسية :

ولقد كانت هناك مسائل أساسية أريد طرحها ، وإقناع القارئ المسلم  
بها ، من خلال هذه الكتب المتوالية - بالإضافة إلى الفتنة الكبرى - وهي :  
(مرآة الإسلام ، والشيخان ، والوعد الحق) ، ولكنها برزت بصورة  
واضحة في كتاب الفتنة الكبرى وهي :

**أولاً :** وهو العمل الهام الخطير ، الذى برز فى مختلف هذه الكتابات واستغرق أغلب الكتابات : انتفاص الصحابة الكرام والتشنيع عليهم ، وإثارة الشبهات حولهم ، وتصويرهم ، بصورة السياسيين العصريين المخترفين .

**ثانياً :** انتفاص الشيخين ( أبو بكر وعمر ) بالباطل ، والافتراء على عائشة وظلم عثمان . والافتراء على أصحاب بيعة الرضوان – عليهم رضوان الله أجمعين .

**ثالثاً :** التشكيك فى نظام الحكم الإسلامى فى عهد أبى بكر وعمر رضى الله عنهما .

**رابعاً :** التشكيك فى الدور الذى قام به عبد الله بن سبأ بالادعاء بأنه يهودى ضعيف ، لا يستطيع أن يحدث كل هذا الأثر ، أو التشكيك فى وجوده إطلاقاً ، ( وقد تكلمنا عن هذه النقطة فى الحلقة السابقة . فلا نعود إليها ) .

#### **أولاً : انتفاص الصحابة الكرام :**

كان الهدف واضحاً من انتفاص طه حسين للصحابة الكرام ، وهو هدم هذا الصرح الإسلامى الذى تقرم عليه السنة والتاريخ وسير الغزوات والحياة الإسلامية ، فى عصر الخلفاء الراشدين وما بعدهم ، وقد أطلق لسانه فيهم جميعاً – كما يقول الأستاذ النابىف – يغمز بهم ويجرهم فى أمور ، ويكشف عنهم تلك الكرامة التى أمدهم بها الإسلام والقرآن والرسول صلى الله عليه وسلم .

قال تعالى : « والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه . . . » . ( التوبة – ١٠٠ )

ويقول صلى الله عليه وسلم : « لا تسبوا أصحابى ، لا تسبوا أصحابى . فالذى نفسى بيده لئ أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما أدرك مد أحدكم ولا نصيفه » . ( رواه مسلم )

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم » . هذه الكرامة التى أمدهم بها الإسلام . أراد طه حسين أن يهدمها ، وأن يسخر بها ، وأن يفسدها باللدس والفتنة .

فهو يكتب عنهم مصوراً إياهم وقد عادوا إلى جاهليتهم مرة أخرى ،  
ويحاول أن يصور معركة الجمل ، وكأنها معركة جاهلية بين بنى هاشم ،  
وبنى أمية . ويتحامل على ( بنى أمية ) ، فيدعى أنهم من الطلقاء الذين دخلوا  
الإسلام ، وقد غلبوا على أمرهم ، ثم عادوا إلى جاهليتهم مرة أخرى ،  
ويحكم بأن من الذين عادوا إلى جاهليتهم : مروان بن الحكم ، والوليد بن عقبة ،  
وعبد الله بن أبي السرح ، ومن الذين كانوا يحكون أهواءهم ومصالحهم وهم  
في وضع قريب من الجاهلية : عمرو بن العاص ، ومعاوية بن أبي سفيان  
رضى الله عنهم أجمعين .

وقد اتهم عمر بن العاص ، بأنه بدد خراج مصر ، وأنه كان يكره  
بيعة على كرم الله وجهه ، لأنه لا ينتظر من هذه البيعة ولا ولاية ولا مشاركة  
في الحكم ، ولهذا انضم إلى معاوية .

وكان ابنه ( عبد الله بن عمرو ) ، يرى أن أباه باع دينه بثمن قليل ،  
وقد وصف طه حسين عمرو بن العاص مع معارفة رضى الله عنهما بقوله :  
( وهنا ظهر عمرو بن العاص ، الذي لم يكن أقل دهاء ، ولا أدنى مكرراً ،  
ولا أهدون كيداً من معاوية ) .

وتصل به دعواه وجرائته في الباطل أن يقول : إن مروان بن الحكم ، هو  
الذي قتل طلحة في موقعة الجمل ، مع أنهما كان يحاربان في صف واحد ،  
ويصور معاوية ، وقد عاد إلى جاهليته في موقفه من أبي ذر ، فيقول :  
( وقد ضاق معاوية برجل عظيم الخطر من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم .  
هو أبو ذر ، ولم يستطع أن يبطش به لمكانه من رضى رسول الله صلى الله  
عليه وسلم عنه ، وإيثاره إياه ولسابقته في الإسلام ، ولم يستطع أن يفتنه عن  
دينه بالمال ) .

ثانياً : انتقص الشيخين الكرام :

١ - كذلك فقد حرص طه حسين ، على انتقص الشيخين ( أبو بكر  
وعمر ( رضى الله عنهما ) بالباطل ، ووصف عمر بن الخطاب في غير موضع

بالبطش ، وقال أنه لم يمت حتى ملته قريش ، وانتقد أبا بكر في أنه حصر الخلافة في قريش ، وقال أن عمر كان يعارضة لذلك ، حتى قال ، لو كان سالم مولى أبي حذيفة حياً لولاه عمر عند وفاته ، وهو ليس من قريش .

٢ - سب الصحابة واحداً واحداً - رضوان الله عليهم - ولم يترك أحداً منهم دون أن يصنع له المقابل والاتيامات ، ثم وصفهم جميعاً بالنفاق .

قال : « وكان الذين يعودون منهم إلى المدينة يلقون عمر . فيتكلمون بهم بغيره . ويختالون في ألا يظهر على دقائق أحدهم وحقيقته ، يلقونه مظهرين الشطف وغلظة الحياة وخشونة العيش ، ليرضى بعضهم ويطمئن إليهم ، فإذا خلوا إلى أنفسهم . أو خلا بعضهم إلى بعض . أخذوا بما ألفوا من لين الحياة ، وأشفقوا على عمر من حياته الخشنة تلك ، في كثير من الإكبار له والإعجاب به » . ووصف ( عمرو ) بأنه ماكر أهل الشام وداهيتهم . وأن الأشعث بن قيس . هو ماكر أهل العراق وداهيتهم .

#### ثالثاً : الافتراء :

وافترى على أصحاب بيعة الرضوان . وفي مقدمتهم ( الزبير وطلحة بن عبيد الله ) رضى الله عنهما ، فقد اتهمهما بالتنافس من غير وفاق . وصور طلحة بن عبيد الله بصورة غير لائقة ، ووصفه بأنه كان يبحث عن الثراء من أى طريق ، وأن ذلك دفعه إلى مبايعة عثمان ، ثم كان من المؤلّين عليه والمشاركين في حصاره ، وأنه بايع علياً ونكث البيعة .

هذا والزبير . هو الذى قال عنه النبي صلى الله عليه وسلم : « لكل نبي حوارى وحوارى الزبير » .

وطلحة والزبير من العشرة المبشرين بالجنة .

٤ - افترى على السيدة عائشة رضى الله عنها . افتراء واسعاً ، فقد تحدث طويلاً عن أنها كانت تخطب الناس وهى على جملها ، وتعرضهم على القتال ، في خيال ودعاوى باطلة ، فهى لم تخرج إلى قتال .

وما يتصل بخبر ( الجواب ) ، قال الذهبي وابن حجر في روايتها أنه

مجهول فلم تصل عائشة (الجواب) . ولا اضطر عبد الله بن الزبير أن يأتي بخمسين شاهداً ليشهدوا كذباً بأن المكان ليس (الجواب) .

ومن دسه الرخيص ، قوله أن السيدة عائشة رضى الله عنها ، كانت تنكر على « على كرم الله وجهه » ، أنه تزوج فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورزق منها الحسن والحسين . فكان أباً للذرية الباقية للنبي صلى الله عليه وسلم ، ولم يتح لها هي ، الولد من الرسول صلى الله عليه وسلم مع أنه أتيح لمارية القبطية أم إبراهيم ، أواخر أيام النبي صلى الله عليه وسلم ، وقال : « إن هذا العقم كان يؤذيها في نفسها بعض الشيء » .

وأمر آخر كانت تجده على سيدنا علي رضى الله عنه ، فيما روى الدكتور طه حسين كاذباً . أنه تزوج أسماء الختامية بعد وفاة أبي بكر رحمه الله وأسماء هي أم محمد بن أبي بكر الذي نشأ في حجر علي ، فكانت عائشة تجده على لهذا كله .

أى دس رخيص هذا وأى مقاييس تلك التي وضعها له المستشرقون ، وأما أهل السيرة فهم منه براء .

#### اتهام ابن عباس بالسرقة :

ولقد كان نصيب الصحابي الجليل « عبد الله بن عباس » رضى الله عنه من تحامل الدكتور طه حسين في كتابه ( الفتنة الكبرى ) ، كبيراً ، فقد بدأ هجومه عليه — كما يقول الدكتور إبراهيم شعوط — بعبارات لا يليق توجيهها لأى إنسان له منزلة مثل منزلة ابن عباس رضى الله عنهما ، فقد اتهمه بنهب أموال المسلمين في البصرة كما اتهمه بالغدر لابن عمه علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، وذكر أنه هرب الأموال المسروقة إلى مكة . وفوق ذلك فقد ذكر أن ابن عباس كان يتطلع إلى الانضمام لمعاوية ضد ابن عمه علي رضى الله عنهم أجمعين .

ويقول الدكتور طه حسين ، أن المؤرخين تخرجوا من ذكر هذه الوقائع المدعاة وأن في ذلك ما يكشف نيات المؤلف ويسفه رأيه ، لأنه إذا كان رجال الحديث — وهم المصادر الموثوق في كل ما يرى عنهم — لم يذكروا



شيئاً من ذلك ، وكذلك كتب التراجم للمؤرخين الثقات ، فمن أين جاءت هذه الأخبار للمؤرخين الذين اعتمد عليهم طه حسين ، فضرب بكلام المحدثين عرض الحائط ، وظل في تحيطة هكذا حتى يصل إلى هدفه ، ليحيط من مقام ابن عباس رضى الله عنهما الذى اعترف له - دون أن يشعر - بأن مكانته من النبي صلى الله عليه وسلم ، ومكانته من الفقه والدين ، أعظم من أن يظن به مثل هذا التجاوز للحق والخلاف على الإمام .

قال الدكتور شعوط : « إذا قرأنا ما يكتبه خصوم الإسلام ، من اليهود والمسيحيين والشيوعيين ، نقرأه بحذر ، والحذر أصل من أصول البحث التاريخي . أما إذا كتب المسلمون عن الإسلام فإننا نكتفى بأن الكاتب مسلم ، وقد يكون المسلم هذا أشد خطراً على الإسلام من كل خصومه » .

ومنى نبت الشك في عقيدة المسلم ، وسبقت فيه الجرأة على الأصول المقررة في الإسلام ، فإننا يجب أن نضعه فيما يسمى ( القائمة السوداء ) ، ونقرأ ما يكتب بكل دقة وحذر .

إن قضيتنا هي جرأة الدكتور طه حسين على ما هو أعظم ، على تهجمه على مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حيث جعل من نفسه قاضياً يصدر الأحكام على سيد الخلق صلى الله عليه وسلم المعصوم من كل ذلة ، ونحن هنا نجد الكاتب قد ترك أدلة البراءة كلها ، سواء منها الصريحة وغير الصريحة ، واعتمد اعتماداً كلياً على أدلة الاتهام مع ضعفها وفساد أسانيدھا .

#### ثالثاً : التشكيك في نظام الحكم الإسلامى :

ولعل هذه هي غاية الغايات التي أراد أن يصل إليها الدكتور طه حسين حين قال : إنها تجربة جريئة تو شك أن تكون مغامرة ، وأنها لم تنته إلى غايتها ( ولم يكن من الممكن أن تنتهى إلى غايتها ، لأنها أجريت في غير العصر الذي كان يمكن أن تجرى فيه ، سبق بها هذا العصر سبقاً عظيماً ) .

ومن حيث عبارته قوله ( حاولت الخلافة الإسلامية لعهد أبي بكر وعمر ، أن تنشئ هذا النظام القديم . فمات أبو بكر رحمه الله ، ولم يكد يبدأ التجربة ، وقتل عمر رحمه الله ، وقد خطا بالتجربة ، ولكنه لم يرض عنها ) :

ويقول : « إن الناس كانوا يعارضون حكم عمر ولكنهم يخشون سلطانهم ويخافون منه . والثورة على عثمان دليل على فشل التجربة الإسلامية ، وأن الوقت لم يعد في مصلحة الحكم والخلافة الإسلامية » .

وهو يرد العدل والحرية والمساواة ( في عهد أبي بكر وعمر ) رضى الله عنهما ، إلى مراهب وشخصية الرجلين وليس إلى الإسلام . ويرى أن جهودهما كانت محدودة .

ويزعم أن الحكم ( أيام الرسول ) صلى الله عليه وسلم ليس سماوياً . وأنه ليس بين الإسلام والنصرانية فرق في هذه الناحية .

ويقول : « كان الحكم أمراً من أمور الناس يقع فيه الخطأ والصواب . يتاح للناس أن يعرفوا منه وينكروا وأن يرضوا عنه ويسخطوا عليه » . فهل كان الناس حقاً يسخطون على رسول الله صلى الله عليه وسلم ! !

وهو يزعم أن الخلافة الراشدة كانت تجربة بشرية ، وليست تطبيقاً للإسلام ، ولا يكتفى إلا بتشبيه نظام الحكم الإسلامى بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، بنظام الحكم الرومانى أيام الجمهورية .

ويرى أن العنصر الدينى فى النظام الإسلامى زال بعد عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، ولم يعد له وجود بعد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، اقتتلوا على الدنيا وتنافسوها وتقاتلوا عليها ، وادعى أن هناك ارسقراطية قامت ، قرأها القرب من الرسول صلى الله عليه وسلم ، فأصبح الحكم إلى قريش وحدها دون الأنصار . وأن استئثار قريش بالخلافة جر على المسلمين كثيراً من الفتن .

ويعتقد أن نظام الخلافة قد أخفق ، وأن تجربة الحكم الإسلامى انتهت بالفشل ، وأن ( علماً ) لم يحقق وحدة وإنما أخفق نظام الخلافة كله . وأن هذه الدولة الجديدة التى كان يرجى أن تكون نموذجاً للون جديد من ألوان الحكم والسياسة والنظام ، لم تستطع آخر الأمر إلا أن تسلك طريق الدول من قبلها . فيقوم فيها الحكم على مثل ما كان يقوم من قبل ، من الأثرة والاستعلاء . ونظام الطبقات الذى تستدل فيه الكثرة الضخمة . لا من شعب واحد ، بل من شعوب كثيرة لقلّة قليلة من الناس .

والحقيقة غير ذلك تماماً . فإن الإسلام قد استمر قائماً على مصالح المسلمين بالعدل والرحمة ، وظل حكام المسلمين يحكمون بكتاب الله . إلى أن جاء الاستعمار الغربى .

ويرى أن « الأوباش » الذين قتلوا عثمان لم يكونوا مخطئين ، فسياسة عثمان في العزل والتولية لم تكن ملائمة للعهد الذى أعطاه ، وليس من شك في أن الذين ضاعوا بهؤلاء العمال ، وثاروا عليهم ونقموا من عثمان توليتهم ، لم يكونوا مخطئين .

#### الهدف هو تسفيه نظام الحكم الإسلامى :

وهكذا تجدنا أمام مجموعة ضخمة من السموم والأكاذيب والافتراءات ، التى حشدها الاستشراق على لسان رجل مسلم اسماً ، ليحطموا به تلك الدعوة المنطلقة على السنة وأقلام دعاة البقعة الإسلامية .

وقد تركزت الحملة على نظام « الحكم في الإسلام » ، مما صح معه القول بأن كتاب « الفتن الكبرى » ، إنما هو فتنة كبرى في الفكر الإسلامى ، لما امتلأ به من التشكيك والدس ومغالطة الحقائق ، وقد أراد الدكتور طه حسين من هذا العمل — أو أريد له — إقناع المسلمين بأن الحياة الإسلامية لا وجود لها بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وأن طبقت فلأمد محدود لا يتجاوز حياة عمر ، فقد عمد إلى تلطيح صورة الخلافة الرضائية . لكنى بصرف أبصار الناس عنها ، على حد تعبير الأستاذ « محمد الناييف » .

#### بلا دليل :

ولكن هل استطاع الدكتور طه حسين أن يقدم سنداً علمياً أو تاريخياً لكل هذه الافتراءات ، فما هى مصادره في دعاواه . الحقيقة أن مصدره هو هواه ، وما فطر عليه من غلر وتطرف في الاعتماد على الروايات الضعيفة ، وعلى كتب الأدب لا روايات الحديث والسير .

#### إن طه حسين يريد أن يقول للمسلمين :

إن النظام الإسلامى قد عجز ، وأن الطريق الصحيح الذى تحقق وما زال مفتوحاً هو النظام العلماني . الذى يحل مشكلات الدنيا . وهو يدعو مسلمي

عصره إلى صرف النظر عن التفكير في النظام الإسلامي وفي الخلافة وأن يبطلوا السعى إليها ، وأن يرضوا بحكم الديمقراطية الغربية ( حل مسائل الدنيا بوسائل الدنيا ) .

الله أكبر . . والحق أكبر :

ولكن الحق أكبر من طه حسين . فقد زيفت الدراسات الإسلامية كل دعاواه وكشفت الصحوة الإسلامية عن أن نظام الحكم في الإسلام هو الأعلى . وأنه هو المنطلق الذي لا سبيل غيره لإقامة حياة المسلمين ومجتمعاتهم ولو كره الذين حرضوا طه حسين . وفتحوا له أبواب الشهرة ، المناصب والأوسمة . وقد باء بهذه التبعية الدليلة . « أن يكون خادماً للفكر الوثني الماسدي » . وأن يستغل هذا الأسلوب الجزل الذي أعطاه الله إياه ودرسته القرآن . ليكون حرباً على كلمة الله والقرآن .

وسيطل صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم في مكانهم العظيم الكريم ، وفي ذلك المستوى الذي لن يستطيع الناس أن يبلغوه .

وقد سخر منه كل قارئ مؤمن . فما كان يستطيع الدكتور طه حسين ، أن ينال من هذه الأسماء الكريمة مهما ذهب في الدس والتزييف .

تناول هذه الكتب بالدراسة عدد من الباحثين في مقدمتهم الأساتذة غازي التوبة . محمد الناييف . الدكتور إبراهيم سسقوط . الدكتور محمد البهي ، الأستاذ محمد عمر توفيق .

حاشية :

كتبت الدكتور بنت الشاطي . ( إبريل عام ١٩٤٨ ) مقالا في الأهرام أشارت فيه إلى الدور الذي قام به عبد الله بن سبأ في خروج جموع الأقاليم إلى المدينة ودوره في حادثة الجمل يوم تم الصلح بين المسلمين . ودوره في أحداث صفين ، وقالت : إن طه حسين لم يعرض لشيء من هذين الحادثين الأخيرين ، وقال : إن هذا الإضمات من هذا الشأن وهذا الإغفال ، يخالف الروايات الشائعة ويوافق الروايات القليلة التي لم تشتهر ، وأشارت إلى الفرق بين كتابة الأدب وكتابة المؤرخ هذه الأحداث ، وقالت : إن الدكتور يلقى إيت أحكامه أحيانا في إطلاقه يني الحرس واعتداد بمنع من الحذر .

## الفصل الرابع

### الإسلام

إذا أردنا أن نصرر مرقف طه حسين من الإسلام فى كلمة واحدة لاستطعنأ أن نقول : هى الجرأة على الله تبارك وتعالى .

فإذا تحدث الناس عن فساد وجهته فى الاختلاط بين الجنسين فى الجامعة قال : لا أعلم فى كتاب الله ولا فى سنة رسوله نصاً يحول دون الاختلاط بين الرجل والمرأة، وإذا سأل ( روم لاندو ) عن ظاهرة الإسلام التى تكشف فى شباب الجامعة حين وقفوا ضد موافقة كلية الآداب على تقرير كتيب فيها إساءة للنبي والإسلام ، قال : إنه لا يعتقد أن الدين أصبح عاملاً مهماً فى حياة شباب الجامعة .

وعندما سأله المحقق عند إنكاره وجود إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بالرغم من وجود نص ذلك فى القرآن قال إن العالم يعتقد شيئاً بوجودانه ولكنه لا يقبله بعقله ، ومعنى هذا هو تراوجه بين الإيمان والشك . وقد أثبتت نصوص كثيرة أوردناها فى الفصول السابقة عن قوله ببشرية القرآن دون أن يصرح بذلك خوفاً من غضب الجاهلير ، ونمزه للسيد الرسول صلى الله عليه وسلم فى قوله : ( لأمر ما اقتنع الناس بأن النبي يجب أن يكون من صفوة بنى هاشم ، ولأمر ما شعروا بالحاجة إلى إثبات أن القرآن كتاب عربى مطابق فى ألفاظه للغة العرب ) .

وحين ينكر طه حسين أن القراءات السبع منزلة من عند الله تبارك وتعالى إلى عديد من المواقف كلها تكشف بوضوح عن جرأة شديدة على الله تبارك وتعالى .

وفى فصل كتبه فى سنوات مبكرة عام ١٩٢٣ يتحدث فيه عن المؤمن والملحد وكيف يردد فى النفس ذلك الإيمان مرة وذلك الإلحاد مرة أخرى ، وهو حريص أن يثبت الشك والخيرة فى النفوس حين يقول :

« وهذا الملحد الذى يستشعر الإلحاد ويتخذ مذهباً وعقيدة فيعاند وينازع ويدفع عن إلحاده . كما يدفع المؤمن عن إيمانه وينكر الله . كما يثبت المؤمن . ويعتقد أن العقل كل شيء وأن آثار العقل وحدها خليقة بالإجلال والإكبار وأن نجات الإنسان فى عبادة العلم والإذعان له لا فى إكبار الدين . والخضوع لأوامره ونواهيه » . هذا التصوير مهما يراى به فهو أمر خطير أن يقدم للشباب فى الصحف السيارة على هذا الوجه ، وهو ما كان طه حسين يقول لتلاميذه . وما قاله لهم حين أخرج من الجامعة بعد حادث كتاب ( برنادرشر ) الذى يهاجم الإسلام وحين اقتحم الطلبة مكتبه وكادوا يفتكرون به . يقول للشباب فى إبان الاحتفال الذى أقيم له ( الأهرام ٦ / ٤ / ١٩٣٢ ) :

أرجو أن يكون بيننا عهد ، كما أرجو أن يبلغه الحاضرون إخوانهم هذا العهد هو أن لا نؤمن إلا بالعلم وطه حسين هو الذى يقول : إن الدين ظاهرة اجتماعية وأنه خرج من الأرض كما خرجت الجماعة كلها . وأن الدين لا يستطيع القدرة على إثبات الله . وزعم أن السيرة النبوية أسطورة لا يقبلها عقل ولا منطق ، وقال : إنه فى البحث عن الأدب ننسى قوميتنا وكل مشخصاتنا وننسى ديننا وكل ما يتصل به وإن علينا أن ندرس الأدب العربى غير حافلين بتمجيد العرب أو الغض منهم ولا مكترئين بنصر الإسلام أو النعى عليه .

والدكتور طه حسين هو الذى عارض مادة ( الإسلام دين الدولة ) التى وردت فى الدستور . قال : إن للدولة المصرية ديناً رسمياً هو الإسلام . ولو قد استشارنى أولئك أو هؤلاء لطلبت إليهم أن يتدبروا ويتفكروا قبل أن يضعوا هذا النص فى الدستور ، وقال : إن هذا النص كان مصدر فرقة لا بين المسلمين وغير المسلمين — وإنما كان مصدر فرقة بين المسلمين أنفسهم ، فهم لم يفهموه على وجه واحد ولم يتفقوا فى تحقيق النتائج التى ترتب عليه .

وفى أحاديث أخرى وصف هذا النص : بأنه [ النص المشؤم ] وحين استشرت فتنة التبشير وتحدثت الصحف عن محاولات المبشرين فى تخدير فضحاياهم ونقلهم إلى المسيحية من أمثال نظلة غنيم ، كتب يقول : من

اعتنى أن الإسلام لن يضعف إذا خرجت منه نظرة غنيم ، وأن المسيحية لن تقوى إذا دخلت فيها نظرة غنيم .  
وحتى عباراته العامة في كتاباته توحى بالاستهانة بالإسلام والسخرية ، فهو الذى يقول : من ذا الذى يستطيع أن يكلفنى أن أدرس الأدب لأكون مبشراً للإسلام أو هادماً للإلحاد .  
هذه النصوص كلها تستطيع أن تعطى الانطباع الصحيح لموقف طه حسين من الإسلام .

## ( ٢ )

إذن فما هو موقف طه حسين من الدين ؟

يقول طه حسين : ظهر تناقض كبير بين نصوص الكتب الدينية . وما وصل إليه العلم من النظريات والقوانين ، فالدين حيث يثبت وجود الله ونبوة الأنبياء يثبت أمرين لم يعترف بهما العلم ، فالعالم الحقيقي ينظر إلى الدين كما ينظر اللغة وكما ينظر الفقه وكما ينظر إلى اللباس من حيث إن هذه الأشياء كلها ظواهر اجتماعية يحدثها وجود الجماعة ويتبع الجماعة في تطورها وتتأثر بما تتأثر به الجماعة من المؤثرات المختلفة كالبينة والإقليم والوضع الجغرافى وما إلى ذلك . إذن فالدين ظاهرة كغيره من الظواهر الاجتماعية لم ينزل من السماء ولم يهبط به الوحي ، وإنما خرج من الأرض كما خرجت الجماعة نفسها . ( السياسة الأسبوعية ، وكتابه ( من بعيد ) ١٧ يوليو سنة ١٩٢٦ ) .

هذا هو العلم الذى عاهد طه حسين طلبته بعد إخراجه من الجامعة أن لا يؤمنوا إلا به ، فما هو هذا العلم ؟ هل هو حقيقة ذلك العلم التجريبي الذى خرج نتيجة معادلات الأنابيق في المعامل ؟ الحقيقة أن كلمة العلم هنا هي خدعة خدع الدكتور طه حسين بها الناس سنوات طويلة من دعواه . إن ما يقوله هو البحث العلمى والمنهج العلمى ، وما يقوله العلماء ، وأن هذا العلم هو ما اعتمد عليه في البحث في الأدب والتاريخ والاجتماع . إنها خدعة كبرى . ذلك أن هذا الذى يعنيه طه حسين إنما هي الفلسفة ، والفلسفة المادية خاصة التى شكلها دعاة التنوير في الغرب من اليهود والذين حملوا

لواء الدعوة إلى هدم كل مقدرات الأديان والعقائد ، وفي الأخير أساتذته أصحاب مدرسة العلوم الاجتماعية : دوركايم . وليني بريل . وكازنوف . أتباع نظرية التفسير المادي للتاريخ وتلاميذ ماركس وخدام أهداف بروتوكولات حكماء صهيون ودعاة هرزل والمهيدون لسيطرة الفكر الصهيوني الشيوعي على العالم الإسلامي .

وهذه الأطروحة التي قدمها طه حسين كانت في الحقيقة مقدمة لما كشفت عنه محاضرات الشعر الجاهلي على طلبة كلية الآداب بالجامعة . فهذه الفكرة مأخوذة من ( دوركايم ) اليهودي ، الذي غرض من قدر ابن خلدون وتابعه طه حسين في هذه الوجهة في رسالته إلى جامعة باريس . وفكرة الشعر الجاهلي وانتحاله والتشكيك فيه من عمل ( مرجليوث ) اليهودي أيضاً ، فهذه خطة مرتبة لم تكن أبعادها واضحة في ذلك الوقت للباحثين والمراقبين ولكنها كانت واضحة في نفس طه حسين ، فقد كانت فكرة الكوليج دي فرانس الخفية هي هدم الإسلام ، والأسلوب الظاهر هو الأدب والعلم والشعر الجاهلي والقصة الجنسية المكشوفة وإحياء شعر أبي نواس وبشار ، بدعوى أنه يمثل العصر ، وإن القرن الثاني للهجرة عصر شك ومجون . وهكذا تظهر القطاعات منفصلة عن بعضها ثم تتشكل في صورة كاملة خطيرة .

وكلام طه حسين عن الدين والعلم واضح في إنكار طه حسين لمصدر الدين والوحي والنبوة وإيمانه بالفلسفة المادية التي أطلقها خصوم الإسلام تحت اسم العلم خداعاً وتضليلاً .

وقد وجدت كتابات طه حسين هذه في وقت ظهورها من ردها وكشف زيفها . يقول الأستاذ عبد الباقي سرور نعيم :

( إن منشأ القول بالتنافر بين العلم والدين هو التوسع في إطلاق لفظ العلم على آراء الفلاسفة ومذاهب علماء الطبيعة وفروضهم ، فقد ظن بعض الناس ألا بأس بإطلاق لفظ : العلم على مذهب العالم الفلاني ، وأثبت العلم نظرية الفيلسوف الفلاني . وهكذا تراهم يتوسعون في إطلاق لفظ : العلم حتى جر بعض أصحاب النيات الفاسدة إلى أن يطلقوا على الآراء الإلحادية



بأسرها لفظ : العلم ، ولا شك أن العلم بهذا الإطلاق يتنافر مع الدين لأنه يتقصه ويبطله ، ولأن الدين ينهى عن اتباع مثل هذا النوع من الوهم والضلال ولكن إذا حدد معنى العلم يتبين أن هذا النوع الأخير - أى الفلسفة المادية - يتنافر مع العلم كما يتنافر مع الدين لأنه لم تؤيده تجربة ولم يشهد بصدقه اختبار ، غاية الأمر أنه منسوب لعالم يعرف علم الطبيعة أو لفيلسوف يدرك نظريات الكيمياء ، وهل ضل الناس إلا منذ أن غفلوا عن التفرقة بين ما يقوله العالم تطبيقاً لقواعد العلم ، وبين ما يقوله من تلقاء نفسه جرياً وراء أهوائه واستحساناته ؟ يقرر الدكتور طه : أن العلم لم يرض بأن يقتصر على الخصومة بينه وبين الدين ، بل عمل على إخضاع الدين لمباحثه ، فجعل يقلبه بين يديه وينظر فيه نظرة استقراء واستقصاء وأخذ يطبق عليه مذهب النشوء والارتقاء ، فاعتبره شأناً من شؤون الاجتماع وحالاً من حالاته يتحول و ينتقل من حالة أدنى إلى حالة أعلى وهى فى جميع تطوراتها من صنع الإسلام ، ومن مبتكراته فهو مبدع الدين وموجده .

وهو يريد بلفظ : العلم ( علم الاجتماع ) فهو الذى يتناول هذا المبحث ، وفى الحق أن الباحثين فى علم الاجتماع نقدوا هذا المذهب ، فلم يذهب إليه إلا فريق قليل ( كسينسر ) من هذا حذوه . إن نظرة واحدة فى علم الاجتماع تكفى للحكم بأنه لا يزال فى دور التكوين وأن قواعده لم تثبت ومباحثه لم يبرهن عليها ، وإنما هناك طائفة من المباحث اصطلمحوا على تسميتها ( علم الاجتماع ) وذكروا مع هذا الاصطلاح أن هذا العلم لم يبلغ بعد مبلغ العلوم الرياضية ولا مبلغ العلوم الطبيعية .

يقرر بعض الباحثين فى هذا العلم : أن الدين من مبتكرات البشر وأنه ليس حياً سماوياً وأن الكتب من مختلفات الرسل ، وأن دعوى الرسالة كذب وافتراء ، فيأتى الدكتور طه ويقول لنا : إن العلم أخضع الدين لمباحثه وأنه شرع يحلله وينقده وأنه اعتبره من شؤون الاجتماع يجرى عليه ما يجرى من أحكام وفروض . وهو فى إطلاقه لفظ : العلم ، يوهم القراء أن العلم الذى أوجد المحترعات والمكينات وأنشأ سلك المدنية المادية هو يعنيه العلم الذى يقرر هذا رأى ويثبت أن الدين من صنع البشر . مع الفارق الواضح بين

مرتبة العلوم الطبيعية وعلم الاجتماع . أم هو يدلّس فيستعمل لفظ : العلم فيها لا صلة له بالعلم ليُرهم القراء أن العلم الذى شاد تلك الحضارة المسائلة واكتشف تلك المكتشفات الباهرة وغير وجه البسيطة : هو يعنيه العلم الذى أخضع الدين لمباحثه فشرع ينفقه ويحلّله ويعتبره شأنًا من شئون الاجتماع له من الأحكام والصفات ما لظواهر الاجتماع وحالاته من نشوء وارتقاء وتحول من أدنى إلى أعلى .

إن خطأ تطبيق علم الاجتماع مذهب النشوء والارتقاء على الديانات واضح ، مع أن المذهب نفسه لم يثبت في مجاله العلمى . إن تطبيق مذهب من المذاهب لا يكون إلا بعد التثبت من صحته والجزم بأنه قد جاوز طور الزعم وطور الظن ودخل في حيز العلم الواقعى وتطبيقه — قبل التثبت من هذه الأمور — جناية على العلم وتدليس على الناس . إن إخضاع الدين للعلم يقتضى أن يكون العلم قادراً على استحضار جميع الأدوار التاريخية التى مر بها الدين استحضاراً تاماً والوقوف عليها وقوفاً تفصيلياً . وإذا كان المقرر فى العلوم الطبيعية إنها ليست بمقدرة ولا بمستطاعة أن تعطى رأياً نهائياً فى مقدراتها العلمية ، وإذا كانت الآراء كلها نسبية فى العلوم والمعارف وقابلة للتحويل والتعديل والمراجعة وإعادة النظر فكيف يقرر الدكتور فى تلك المسألة أن العلم يقرر وأن العلم يؤكّد؟

لقد كان الدكتور فى كتاب (الشعر الجاهلى) يعتمد على الشك . كان يشك فى كل شىء وكان يقول : إن العلم يؤيده فى شكّه ، وإن مذهب ديكارت يعتمد الشك فى كل شىء ، وها هو اليوم يقول : إن العلم يؤكّد خضوع الدين للنشوء والارتقاء ، فالعلم يعتمد الشك حينما يريد الدكتور الشك ويعتمد الإثبات حينما يريد الدكتور الإثبات ، فالعلم طوع لإرادة الدكتور يصرفه كيف يشاء ويضعه حيث يشاء . العلم متاع من أمتعة الدكتور يرسله إلى المحطة التى يريدّها ، فإن شرق شرق معه وإن غرب غرب معه ، وعلم هذا شأنه أولى أن يكون فى نعال الناس لا فى رءوسهم وأن يداَس بالأقدام لا أن يحفظ فى الصدور . إن العلم الذى يمتنه صاحبه إلى هذه الدرجة خليق به أن يعلن وأن يطارد من البيئات العلمية فإنه سفاهة وحمق .

ولخص الباحث فكرته في سطور قليلة فقال :

- ١ - العلم إذا أطلق حينها يراد المقارنة بين العلم والدين فالمراد به ما أنتجته التجارب وأيدته الاختبارات وتجاوزت به طور الظن .
- ٢ - أما الفروض والظنون والنظريات المحتملة فلا تسمى علماً ، وكذلك لا يسمى علماً ما يثبته الفلاسفة من الآراء بعد أن تحدت العلوم الطبيعية وامتنازت بنتائجها التي تجاوزت دور الاختبار والتجربة .
- ٣ - المذاهب الفلسفية لا صلة لها بالعلوم الطبيعية ولا علاقة تربطها بسمى العلم حينها يراد بلفظ : العلم : النتائج الصحيحة .

### ( ٣ )

وهناك نظرية أخرى خطيرة يدعو إليها الدكتور طه : هي ازدواجية الإيمان والإنكار . ومعنى هذا إنه إذا نفي العلم السموات السبع وذكر أنها ليست ثمة كواكب تسير في الفضاء آمناً بذلك وإذا أثبت الدين السموات السبع آمناً بذلك وصدقناه ، وإذا قال الدين : إن ما جئت به من السموات ومن عند الله نزل به الروح الأمين آمناً بذلك وصدقناه ، وإذا قال العلم : إن الدين ظاهرة من ظواهر الاجتماع كاللغة والأزياء لم ينزل من السماء وإنما هو من الأرض آمناً بذلك وصدقناه .

وهكذا يرى الدكتور طه ، وبذا استقام له فيما يظن الدفاع عن نفسه ضد من يرمونه بالكفر وأظن أنه بالغ الغاية فيه ، فهو حين يعلن في كتاب ( الشعر الجاهلي ) أن قصة إبراهيم وإسماعيل أسطورة حدثت قبل الإسلام ، إنما يعتقد ذلك بالشخصية العاقلة وهو بعد يؤمن بالله وملائكته وكتبه . ونحن نؤكد للدكتور أن ما ذكره من تهيبته لاحتمال النقيضين في مجالات العقول باطل ، وأنه لا يمكن الإيمان بالنقيض فلا يمكن الإيمان بأن البحر الأبيض شمال إفريقيا وليس شمالها .

ولذا قال علماء الكلام الذين شرطوا في التكليف الإمكان : إن الله لا يكلف بالعلم والجهل معاً ولا بالإيمان بالنقيضين معاً وعلم أن الإيمان بالنقيض مجال من بديهيات العقل ومهما قال علماء النفس على طريق التسميح :

إن في الإنسان شخصين ممتازين فلم يريدوا ( الاثنيتي ) بمعناها الذي يجوز أن أحد الاثنين يؤمن بأحد النقيضين والآخر بالنقيض الآخر فلم يبلغ التفات بأحد أن ينكر بأن لكل إنسان وحدته وشخصيته . وإذا رجع أحد منا إلى نفسه آمن بما يقول ، وكل بديهيات العقل تبين أن الإنسان من المحال عليه أن يؤمن بالنقيضين وأن يجمع في معارفه بين التصديق بالشئ والتصديق بضده .

هذا هو الدكتور طه حسين الذي فتن المصريين فلم يوجد بينهم من يصلح أن يكون مدرساً للأدب فيها سواه ، هذا هو الذي يطعن في الأدب ويكذب الكتب السماوية ويطعن في علم الأوائل المعاصرين ، يجهل ما يعلمه بتميز الإنسان المميز عن الجنون والحيوان الأعجم ، ولطالما نهينا الناس إلى أن الدكتور طبل أجوف صوته عال وفواده هواء ، وأنه ليس عند المنزلة التي يدعيها لنفسه ولكننا في بلد تروج فيه كل دعوى ) .

( مجلة الفتح )

ويقول الأستاذ مصطفى صادق الرافعي :

( في مقاله يريد أن يثبت أنه من الممكن أن يكون مثله كافراً أشد الكفر على اعتبار أنه عالم يبحث بعقله ، ثم لا يمنعه ذلك أن يكون مؤمناً أقوى الإيمان على اعتبار أنه شاعر يحتوى الإيمان في شعوره ، وليس ينبغي أن الشعور محل الغفلة ، كما أن العقل محل الخطأ ، فلم يكون طه كافراً ومؤمناً في عقله وشعوره ، ولا يكون في فلسفته هذه مغفلاً من ناحية ومخطئاً من ناحية أخرى ، وهل يجتمع هذا التناقض إلا في عقل واهن ضعيف كعقل الأستاذ ، وإلا فن ذا الذي يعقل أن نبي النبوة والوحى وتكذيب الكتب السماوية هو على وصف من الأوصاف علم وعقل وعلى وصف آخر دين وإيمان ، وفي أى عقل أن في النبی إثباتاً لما ينفيه وهما نقيضان ولا يجتمع نقيضان معاً في هذا الكون كله ) .

( ٤ )

وعندما اتسع نطاق البحث دخل فيه كثيرون يكشفون زيف طه حسين ومغالطاته .

يقول الشيخ مصطفى عبد الرازق : لم يخض الدين على معارضة العلم .

بل على العكس إن الإسلام يدعوا إلى حرية البحث وصراحة التفكير والتسامح  
الذهنى : العلم والدين اليوم يتكاملان ، والفضل فى ذلك يرجع إلى تفكير  
العلماء على النمط الفلسفى . فأصبح العلم اليوم يسلم بوجود ما ليس قائماً أمام  
الحس ، وذهب عصر البيدييات وتغير واقع القراءات العلمية وأصبح عصرنا  
عصر يقين واعتقاد بالقوى الخفية . وقد أستطيع القول : بأن العلم فى الأيام  
المقبلة سيخطر نحو الدين خطوات جريئة .

وقال الدكتور محمد حسين هيكل : ليس بين العلم والدين خصومة  
بحال من الأحوال لأنه مستقل فى ناحية لا تناقض الدين ولا تقع فى دائرته ،  
وواضح أن العلم بهذا الإطلاق ليس من مباحثه إثبات وجرد الله ولا إثبات  
نبوة الأنبياء لأنهما ليسا ينال بالتجربة أو يقع تحت الاختبار ووظيفة  
العلم الطبيعى لم تخلق لبحث هذه المسائل ، ولا عيب يلحق العلوم الطبيعية  
إذا لم تتناول ما هو خارج عن وظيفتها .

فالحق المؤيد بالدليل أن للمعارف طرائق متعددة منها التجربة ، وقد  
اختصت بها العلوم الطبيعية ، ومنها البرهان والقياس على مدار العقل البشرى ،  
ومن هنا يتضح أنه ليس بين العلم الطبيعى الثابت بالتجربة وبين الدين خصومة ،  
نعم بين بعض المذاهب الفلسفية والمذاهب العلمية التى دخلتها الفلسفة وبين  
الدين خصومة ولكن هنا فرقاً واضحاً بين العلم الثابت بالتجربة وبين ذلك  
المذهب الوهمى الذى لم تؤيده تجربة ولم يقيم عليه استقراء .

وكتب الأستاذ محمد محمود بدير المحامى : إن ظروفنا أحاطت بالدكتور  
طه حسين فى تدبير حياته الأدبية جعلت منه رجلاً خطراً فى بعض آرائه  
وتصرفاته إن مغالطته وعناده يدفعان به غالباً إلى أمرين ظاهرين :

أولاً : مماثلة أساطين العلم لا فى الشرق فقط بل فى الغرب .

ثانياً : مهاجمة العقائد وعدم مراعاة الشعور العام .

ولعل الذين يتبعوا تطورات الدكتور طه وعرفوا شيئاً من آرائه ومواقفه  
لن يجدوا كبير جهد فى الوصول إلى الحقيقة .

ومعلوم أن علماء الإسلام فى الماضى والحاضر قد تحدثوا عن العلم والدين

وكلهم مجمع على أن النظريات العلمية الحديثة لم تثبت تناقضاً بين العلم والدين وقد تناول الدكتور هيكل هذه الناحية في جريدة السياسة الأسبوعية فأثبت فيه تعاون العلم والدين وعدم وجود تناقض بينهما ، وقال : ليس هناك خلاف بين العلم والدين ولكن يوجد أحياناً خلاف بين رجال العلم ورجال الدين .

كان الدكتور طه في أوروبا فلم يستطع السكوت ولم يستطع التأييد لأنه يميل بطبعه إلى الخلاف والشذوذ في مغالطة وعناد مهما كلفه ذلك ، فأسرع يبعث للسياسة بمقال كبير يرد فيه على الدكتور هيكل قال فيه : ( ظهر تناقض كبير بين نصوص الكتب الدينية . . . إلخ ) .

وقال : من زعم غير هذا وحاول التوفيق بين العلم والدين فهو إما خادع أو مخدوع ، وأنه لا سبيل لاجتماعهما إلا يوم أن ينزل أحدهما عن وجوده ، وحرص على أن ينشر هذه الآراء في كل فرصة تسنح له . وقد حصل أن أقام له طلبة الجامعة ذات يوم حفلاً فخاطبهم قائلاً :

— أرجو أن يكون بيننا عهداً ، كما أرجو أن يبلغه الحاضرون لإخراهم ( أن لا نؤمن إلا بالعلم ) .

على أن الدكتور طه ومصلحته الآن تناقض مصلحته منذ سنين ، لو خرج في إعلان رأيه في العلم والدين — الآن قد لا يجد مانعاً من أن يعلن أنه أخطأ في الماضي وإن كان هذا صعباً عليه .

• • •

## الفصل الخامس

### التراجم

١ - الأيام .

٢ - مع المتنبي .

٣ - ابن خلدون .





## مدخل

أراد طه حسين بكتابه عن التراجم الإسلامية قطع الطريق على العمل الذي قام به المخلصون من إعادة التمثيل لبطولات كبار الصحابة وأعلام المسلمين أمثال : أبى بكر وعمر وعثمان وعلى وخالد وسعد بن أبى وقاص ، هؤلاء صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم الذين شيدوا هذا الملك الباذخ ونشروا الإسلام فى آفاق الأرض من أمثال محمد المثل الكامل وما كتبه الشيخ الحضرى ومصطفى صادق الرافعى . فكان هدف طه حسين أن يقطع عليهم هذه الوجهة وأن يفسد هذا الاتجاه وأن يحاول اتهام هؤلاء الصحابة الكرام بأنهم جماعة من السياسيين المحترفين .

فهل كان طه حسين مؤرخاً ؟ اللهم لا . إذن فهذا العمل الذى يدخل فى باب الأدب لم يستوف شرائط المنهج العلمى حتى يكون صالحاً ، فضلاً عن أنه كان بعيداً عن النصفه والنزاهة ، فقد تابع المستشرقين المتعصبين فى أحقادهم على فضل هؤلاء الأعلام وإنكار فضلهم وحاول أن يتصيد لهم الأخطاء .

وهو لم يتوقف عند هذا فحسب بل ذهب إلى أبعد من ذلك بأن قدم لشباب المسلمين هيرمروس وسترات وأرسطو وأفلاطون على أنهم قادة الفكر البشرى ، فى كتاب تقرر فى المدارس ردهاً طويلاً ونشأت عليه أجيال ، من دون أبى بكر وعمر وعثمان وعلى وسعد بن أبى وقاص وخالد ، فلما استدارت الدنيا وأعلا صوت اليقظة الإسلامية جاء طه حسين لينقض هؤلاء الأعلام الكرام ويغمز لهم على النحر الذى تجده فى كتاب الفتنة الكبرى ، والوعد الحق ، والشيخان وغيرهما .

• • •

## الأيام

حاول الدكتور طه حسين في كتاب ( الأيام ) أن يكتب ترجمة لحياته في أسلوب فني على نحو التراجم الذاتية الغربية وقد تردد أنه كتبه في ظروف نفسية قلقة بعد حادث كتاب ( الشعر الجاهلي ) ولقد كان لهذا الحدث آثاره على الصورة التي رسمها لأسرته ومشايخه .

فانك تحس من قراءة الجزء الأول أن الحياة مملوءة بالظلم والكذب ، وأن الإنسان يظلمه حتى أبوه ، وأن الأبوة والأمومة لا تعصم الأب والأم من الكذب والعبث والخداع . وهكذا يصف أباه وأمه بالكذب والعبث والخداع . ثم يعود إلى اتهامه بالكذب مرة أخرى في صورة تظهر فيها نقمته على المجتمع بأسره يقول : ( وأى فرق بين الشيخ - أبوه - يقسم ويحنت وبين سيدنا ( أستاذة ) يرسل الطلاق والإيمان إرسالا وهو يعلم أنه كاذب ويعود مرة ثالثة ليصف أمه بأنها كانت مهملة له غليظة عليه ، وأن أباه كان يهمله وينظر إليه بشيء من الازدراء ، ويريد أن يلفت الناس إليه وأن يتحدثوا عنه ولا سبيل إلى ذلك إلا بإنكار ما يعتقدون وتسفيه ما يؤمنون به .

ويرى الباحثون أن روح القسوة اللاذعة تشيع في كتاب ( الأيام ) بأجزائه الثلاثة وأن المؤلف يصف أباه في الجزء الأول ص ٣٨ بالظلم والكذب والخداع . ويصف جده بثقل الظل وأن يستشعر بغضاً له دون أن يؤذيه في شيء ( ص ٢٦ ) . أما مبالغته في ذم فقيه القرية فيظهر بجلاء إذا قورنت بما كتبه أحمد أمين في ( حياتي ) أو هيكلي في ( أوقات الفراغ ) أو الزيات في ( وحي الرسالة ) .

وقد أشار الدكتور محمد رجب البيومي إلى ظاهرة الظلم الواضحة في كتاب الأيام للشخصيات اللامعة في تاريخ العصر ، أمثال : طنطاوي جوهرى ومحمد المهدي ومحمد الخضرى وحفنى ناصف . ظلماً ربما يدفع إلى إهمال

آثارهم الأدبية على نفاسها المشهورة ، مما جعل ظاهرة روح القسوة  
اللاذعة أبرز مظاهر هذا الكتاب .

فعن الشيخ طنطاوى جوهرى وهو علامة كبير له تفسير علمى للقرآن  
كان غاية فى الأثر لأهل عصره ، وكان من الدعاة إلى السلام العالمى ، وكان  
لآثاره مكانها فى الدوائر العالمية يقول عنه :

( كان يدرس الفلسفة الإسلامية ، وكان يتكلم كثيراً ولا يقول شيئاً .  
وكانت كلمات الجمال والجلال والبهاء والكمال والروعة أكثر الكلمات جرياً  
على لسانه منذ يبدأ الدرس إلى أن يتمه ، وكان لا ينطق بكلمة منها إلا مد  
ألفها وأسرف فى المد وربما أخذته شىء من ذهول وهو يمد هذه الألف  
فيغرق الطلاب فى ضحك يخافت بعضهم ويجهر به ببعضهم الآخر . . . الخ )  
وبمضى الدكتور فى مثل هذا الاستخفاف دون اقتصاد وإذا كان من حقه .  
وقد صور انطباعه الخاص نحو دروس الشيخ أن يقول ما يعتقد ، فإن  
من الواجب العلمى عليه أن يقرن هذا التهكم المتصل ببعض ما يشير إلى فضل  
الأستاذ فى إنتاجه العلمى المبتكر وفى تأليفه الموسوعى الذى ترجمه إلى عدة  
لغات ، أما أن يكن هذا التهكم الخالص كل ما يخص الرجل من تلميذه فذلك  
إجحاف صارخ إن أحس به الدارسون فلن يشعر به من يقرءونه من الطلاب .

وكذلك كان مرفقه من أستاذه الشيخ محمد المهدي أستاذ الأدب فى عصره  
فى دار العلوم ومدرسة القضاء الشرعى خلال أكثر من عشرين عاماً ، قال  
عنه : كان أبعد ما يكون من العمق وكان متكلفاً متفاحصاً لا يتكلم إلا العربية  
مغرباً فيها ، يملأ بها فمه وربما أضحك منها طلابه ، وكان الفنى ( يريد  
الدكتور طه حسين نفسه ) جريئاً عليه ، يجادله فى الدرس فيرهقه من أمره  
عسراً وربما أضحك منه الطلاب لأنه كان لا يحقق ما يروى من الشعر ،  
ولأن الفنى كان يردده إلى الصواب فيظهر عليه الاضطراب .

وبمضى الدكتور فى شبه ذلك عن تأثر بموقف منه فى درجات الامتحان .

أما الأستاذ الشيخ محمد الخضرى فهو أحد أعلام النهضة الفكرية  
المعاصرة ، وصاحب المؤلفات الذالفة ، التى تعددت طبقاتها مثل : نور الدين ،  
وتمام الوفاء وأصول الفقه ، وغيرها . يقول عنه طه حسين :

( وقد سحر ( الخضرى ) الفقى ( طه ) بعدوية صوته وحسن إلقائه ، وصفاء لهجته ، وأحب دروسه فى السيرة وفى تأريخ الخلفاء الراشدين وحقوقهم ، وكان بظن أن ليس فوق علم الأستاذ علم ، ولكنه لم يكن يسمع دروس التاريخ فى أوربا حتى عرف أن الأستاذ رحمه الله كان ينقل دروسه من كتب القدماء فى غير نقد ولا تعمق وفى أيسر ما يكون من فقه التاريخ ) . وهو فى هذا لم ينصف الشيخ الخضرى ، بل أجحف به ، وموضع الإجحاف فى هذه المقارنة الفرق بين منهج الخضرى وبين أساتذة الاستشراق فالأستاذ الخضرى لم ينقل دروسه من كتب القدماء نقلاً آلياً ولكنه انتخب واختار ووازن بين رواية ورواية حتى وفق إلى بناء مطرد ، وما كان طه حسين فى رأيه هذا من المنصفين ولكنه حمل من بعد على أستاذه عندما نقي كتاب ( الأغاني ) مما يحمله من الروايات الإباحية وكان هذا الكتاب هو المرجع الذى يعتمد عليه فى أن يتهم القرن الثانى الهجرى بأنه عصر شك ومجون .

## ( ٢ )

أما موقف الدكتور طه من الأزهر فقد كان شراً كله : فقد أراد أن ينتقم من موقف العلماء من كتابه فى الشعر الجاهلى ، فحمل على الأزهر حملة قاسية وظالمة ، حمل عليه مرتين : مرة لموقفه منه حين أسقطه فى امتحان العالمية ، ومرة أخرى نتيجة موقفه من كتاب ( الشعر الجاهلى ) .

ولقد جابه الدكتور الأزهر بالانتقاص والتشهير على حد تعبير الدكتور محمد رجب البيوى ، وملاً الصحف هجاء منكرراً لأساتذته ، وقد عفوا عنه فلم يهملوا ببعض ما يستحق ، ثم شاء صاحب الأيام أن يواصل هجومه عليهم دون مبرر معقول ، فكيف يكون الأزهر قد ظلمه وضاق به وهو ، المتحرش المهاجم . وفى الجزء الثانى من كتب ( الأيام ) يكشف الدكتور نفسه ويفسر سلوكه الهجومى على مجتمعه تفسيراً سافراً لا يقبل أدنى شك ، فقد أشار إلى أنه عندما رجع إلى قريته للمرة الأولى بعد انتسابه للأزهر فلم يجد من حفاوة الاستقبال وبشاشة الترحيب ما يجده أخوه الأكبر ، فغاضه هذا الإهمال ، فجعل يهاجم الناس فى أفكارهم وهكذا كما يقول : ( انتقم الصبى لنفسه وخرج من عزلته وشغل الناس بالحديث عنه ) .

وهذا ما يفسر سلوكه المهاجم للأزهر في جميع مراحل حياته .  
وقد روى كيف أن أستاذه المستشرق أخذه إلى دروس الأزهر وحرّضه على نقد الأستاذ ، فلما رده الأستاذ ردّاً شديداً ، أمسك به المستشرق حتى لا يجادله وأخذه وخرج به ، وهكذا كانوا يحرضونه على الأزهر ويثيرون في نفسه الأحقاد عليه ، هذه التي ظلت تنلظي في قلبه إلى آخر يوم من أيام حياته ، وكان هجومه على الأزهر بمثابة نجوم جديدة يعلقها المستشرقون على صدره .  
يقول الدكتور البيروني : لقد اتسع له صدر الأزهر ، ولكنه كان يريد أن يلفت الناس له ، فاصطنع الخلاف وأثر الشقاق ، وفزع إلى الصحف ليهاجم من يعلمونه . وقد آذاهم بالباطل دون إنصاف .  
وقد ظل يجادل مدرّس النجاشي حتى ضاق به وقال له :  
( الله يحكم بيني وبينك يوم القيامة ) .

وكان لظه في الأزهر يومها سبعة أشهر وهي مدة لا تتيح له مهما كان عبقرياً أن ينازل شيخاً ، قضى في العلم والتدريس أربعين عاماً حتى يضيق به صدره ولم ينتفضه الشيخ ولم يغضب عليه ، ولكن طه لا يرعوى ، بل يحاول إثارة أساتذته وهم راحون ، فأخذ يصفهم بالغيبة والغيبة والدس ، وهو بعد لجوج عنيد يعارض الأساتذة ويسرف في التهمك والاستنكار .

وقد تعرض لكبار علماء الأزهر وفي مقدمتهم الشيخ نجيب المطيعي ووصفه بالجهل ، وكانوا يتقلون كلام المشايخ ليكون مادة جديدة للتشنيع ، ثم زاد طه في اغتياب الأساتذة وفي التهمك على كبار العلماء تهجماً سافراً أمام الطلاب في ساحة الأزهر .

وتحدث عن سقوطه في امتحان العالمية بالأزهر : هذا الرسوب الذي عده السطحيون ظلماً صريحاً له ، فإذا حللنا أحداثه تحليلًا صريحاً وجدناه نتيجة طبيعية لا محيد عنها ولا متصرف ، إذ أن الظلم قد انصرف — كما قال عن نفسه — عن دروس الأزهر انصرافاً تاماً حين فتحت أبواب الجامعة لئله ، فهو إذن بعد انقضاء أربع سنوات من عمره بالأزهر لم يشأ أن يستفيد من دروسه شيئاً ، وخصص دروس الجامعة بكل اهتمامه ، نائياً عن دروس المنطق والفقه والأصول والتوحيد والوضع والتفسير الحديث ، نائياً تاماً

لا اتصال من بعده ، وكان لا يلم إلا بدروس الموصفي في الأدب والفقه ، واتسعت الصحف لنقد أساتذته لا لشيء سوى الدوى والاشتهار ، ثم تقدم لامتحان العالمية دون أن يستعد ويتسلح بمعرفة كتب الأزهر المعقدة وفهم موادها العلمية ، تقدم وهو لا يجيد غير علوم العربية وحدها ، وهناك علوم كثيرة لم يجلس إلى الأساتذة لكي يستظهرها ، وجاء الطالب إلى لجنة الامتحان بسبقه تاريخه الأليم في سب الأزهر والأزهريين واحتقاره الصريح لكل ما يدرسونه ويتناولون به أساليب الشرح والتقرير وهو بعد لا يلم في غير دروس العربية شيئاً ذي بال ، ولقد كان عليه حين أراد أن يظفر بإجازة الأزهر أن يستوعب علوم الأزهر ، إما أن يتعالى على هذه العلوم ثم يشنع على أصحابها في الصحف والمجلات ثم يرى من حقه أن يظفر بالنجاح فيها دون تعمق فذلك ما لا يرتضيه منصف (١) .

ثم هو يغضب من حملة الأزهر على رجل يقول في دروسه أن القرآن يتحدث عن إبراهيم وإسماعيل، ولكن حديث القرآن لا يكفي لإثبات وجوبه. ماذا ينتظر المسلمون في بقاع الأرض من الأزهر الشريف حين يرى أستاذاً جامعيّاً لا يطمئن إلى حقائق القرآن بل يعلن شكه في هذه الحقائق على منادات من الطلاب المسلمين في الجامعة ، ثم ينتقل ليقوله إلى آلاف القراء حين يصدر باطله الصريح في كتاب يتداوله الناس ، فإذا كان ينتظر من رجال الأزهر غير أن يغفوا في وجه من يشكك في حقائق كتاب الله ويحاول أن يزلزل عقائد الشيعة الإسلامية في الجامعة ، أكان ينتظر أن يسكتوا على هذا الإفك الجريئ ليرضوا أعداء الإسلام ، أم أن ينتظروا أن يهب العلماء في طليعة المستنكرين لما أريد من الطعن في حقائق القرآن .

وقد قاموا برأبهم ولم يحدث أن تراجع منهم أحد لينال منصباً دينياً حقيراً كما شاء مخرج مسلسل ( الأيام ) أن يفترى على الشرفاء بغياً بدون حق ( محمد رجب البيروني ( الأزهر ديسمبر عام ١٩٧٩ - الهلال سبتمبر عام ١٩٨٢ ) .

(١) والمعروف أن المستشرقين حققوا له أعل ما يمكن أن يصل إليه من رد اعتباره ، فأعطوه دكتوراه من باريس ، وعدد من هذه الشهادات من جامعات العالم ولكن ذلك لا يغني شيئاً عن حقيقة جهله بعلوم الإسلام .

ولقد استنكر الناس تلك الإضافات التي وردت في السلسل تحاول  
أن تدين الأزهر عن مواقف لم تكن موجودة في أصل الكتاب على نحو يؤهم  
بأن علماء الأزهر هادنوا في أمر الدين ابتغاء عرض الدنيا .

( ٣ )

#### ( مع المتنبي )

يمكن القول بأن المستشرق ( بلاشير ) الفرنسي قد كتب كتابه عن  
المتنبي بهدف واضح هو تقزيم المتنبي الذي اتخذ الأدب العربي مدخلا  
إلى البطولة العربية في فترة من فترات الحرج واستعلاء النفوذ الأجنبي .  
والمتنبي مكروه في الغرب وفي الاستشراق لأنه شاعر سيف الدولة ، ذلك  
الأمير المجاهد الذي قاوم دولة الروم على الحدود مع الشام وحمل في وجهها  
سيف الجهاد سنوات طويلة فأدال منهم وكان لشعره أثر كبير في بعث الحماسة  
في قلوب أولئك المقاتلين الذين قاوموا نفوذ الدولة الرومانية الشرقية ولذلك  
فكان لا بد أن يهاجم المستشرق ( بلاشير ) هجوماً عاصفاً شنيعاً ويؤلب  
عليه ويدعو كتاب العرب من أوليائهم لكتابة دراسة تكشف عن دخائل  
هذا الشاعر الضخم وكان أول من لبى النداء هو الدكتور طه حسين الذي وجد  
مفتاح الهجوم على المتنبي في تلك الدعوة المبجلة : وهي ما ادعاه عليه من أنه  
كان لقيطاً بحجة أنه لم يذكر أباه في شعره صراحة .

ويرى ( بلاشير ) أن إحياء المتنبي كان بهدف انبعاث عقائد القومية  
والوحدة العربية الشاملة في البلاد العربية في هذه الفترة يقول :

إن شهرة المتنبي في وقتنا هذا صادرة عن ينبوع آخر : هو تلك  
المؤثرات القومية والعربية الشاملة التي تحمل المسلمون على أن ينقبوا في  
( شرق ) القرون الوسطى عن رجال يقاتلون بهم رجال الغرب ، تجعل  
من مادح أمراء سوريا ومصر وفارس ممثلاً للعبقريّة العربية ، منتصباً تجاه  
العبقريّة الأعجمية ، وهكذا يظهر المتنبي بمظهر فيني أو جوته بل بمظهر  
نيتشة شرقي يبرهن بمقدرة باهرة على المساواة الثقافية في بلاد هي اليوم تحت  
وصاية أوروبا الفكرية والسياسية . . إلخ .

وهكذا نجد أن دراسة طه حسين كانت استجابة لهدف استشرافي ضخم . هو هدم شخصية عربية التمس فيها العرب في هذه الفترة وسيلة للدفاع عن وجودهم ومقاومة الاستعمار الأجنبي الذي يفرض عليهم نفوذه ومطامعه ، فإذا اتخذوا من أمثال المتنبي بطولة يتحدثون من حولها عن الحرية والبطولة كان لا بد أن يضرب هذا الهدف وأن يوكل هذا الأمر لرجل يكتب بالعربية فتحمس طه حسين ليستعمل مذهب الشك الفلسفي فيتهم المتنبي بأسوأ تهمة وهو أنه « لقيط » ولما كان الأستاذ محمود محمد شاكر قد أصدر قبل وقت دراسة المتنبي قرأها طه حسين فإنه لذلك دار بينهم في هذا حديث : يقول الأستاذ محمود محمد شاكر : أراد الدكتور طه أن يخلص إلى القول بأن مولد المتنبي كان شاذاً وأن المتنبي أدرك هذا الشذوذ وتأثر به في سيرته كلها ، وسبب الشك هو أنك إذا قرأت ديوان أبي الطيب لا تجد فيه ذكراً لأبيه ، أنك تجده لم يمدحه ولم يفخر به ولم يرثه ولم يظهر الحزن عليه .

يذهب الدكتور طه حسين إلى أن المتنبي ( لقيط لغية ) وكان من حديثه لي أن قال : أنت تذهب إلى أن المتنبي علوى النسب وأنا قرأت هذا الفصل وأوافقتك على الشك في النسب ولكني لا أوافقتك على أنه علوى ، ثم ماذا يا فلان ، لو قلنا إن المتنبي لقيط - وقد والله خيل لي أن الشيطان فاغر فاه يبنى وبين الرجل فرجفت رجفة وعذت بالله .

ثم قلت له : إن هذا رأى متقوض من وجوه ، وهو على كل حال نتيجة للشك في نسب المتنبي مع التوقف عند هذا الشك قبل القول بأنه علوى أو جعفى ، أو هذا وذاك ، أخذ الشك من النسب منى وعجز أن يقول شيئاً في نسب جديد يلصقه به ، وهذا الرأى وحده هو سر اهتمام الدكتور طه حسين بالكتابة عن المتنبي فلو لم يكن وقع عليه ما كتب عنه .

ويقول طه حسين : وليس المتنبي مع هذا من أحب الشعراء إلى وآثرهم عندي ولعله بعيد كل البعد عن أن يبلغ من نفسى منزلة الحب والإيثار ، ولقد أتى على حين من الدهر لم يكن يخطر لي أن سأعنى بالمتنبي ، أو أطيل صحبته أو أديم التفكير فيه « فلو لا أنه شك في نسب أبي الطيب وانتهى إلى أنه ( لقيط ) لما كتب عنه حرفاً واحداً لأنه لا يحب الرجل ولا فنه . وقد شرح المازني



ذلك في كتابه ( قبض الريح ) قال ( ص ٨٣ ) : ولقد لفتني من الدكتور طه حسين في كتابته ( حديث الأربعاء ) و ( قصص تمثيلية ) أن له ولماً بتعقب الزناة والفساق والفجر والزنادقة .

وما ذهب إليه الدكتور طه حسين من أن المتنبي ( لم يكن يعرف أباه ، ولم يكن يستطيع أن يفاخر بأسرته ولا أن يجهر بذكر أمه وأبيه ، وأنه كان يشعر بالضعة والضعف من ناحية أسرته ، لم يستطع الدكتور الجليل أن يأتي ببنت واحد من ديوان أبي الطيب يؤيد به هذا الرأي ، ومع ذلك هو يقول به ويكرره ويعيده .

أين وجد المتنبي يشعر بالضعة أو ينكر أمر نفسه أو أمر أسرته وأين هذا الأثر الذي أتاح له أن يقتنع بأن مولد المتنبي كان شاذاً وبأن المتنبي أدرك هذا الشذوذ وتأثر به في سيرته كلها . لم يشر الدكتور طه في موضع واحد إلى حكاية هذا النسب فهو بذلك عاجز من ناحيتين : ناحية شعر المتنبي وعاجز من ناحية تفسير حياة المتنبي وتحليلها على ضوء هذه الصفة وهذا المولد الشاذ . وكبر مقتا عند الله وعند الناس . ( البلاغ ٢٧ / ٢ / ١٩٣٧ ) .

#### ( ٤ )

وقد أشار الأستاذ ( محمد خالد ( أبو خلدون ) إلى ترجمة الدكتور للمتنبي فقال : إنه يتبع فضائل أبي الطيب وما نحلّه الناس إياه من الفضائل فينسخها واحدة بعد واحدة ويعمد إلى القواعد التي أقام التاريخ عليها مجد المتنبي فينتقصها قاعدة بعد قاعدة ، وما زال به حتى جرده منها جميعاً وأصاره إلى شيء ضئيل تزور عنه العين وتعافه النفس ، إن رجع تلك الصدمة العتيقة التي لاقيتها حين رأيت الدكتور يحاول هدم أبي الطيب المتنبي ويحط منه وهو الشاعر الذي زين الشعر العربي وجمله ونفع منه من روح الفتوة والحماسة . إن الدكتور طه حسين قد أقام كثيراً من قضاياه على أبي الطيب مقام الافتراض والظن ثم ذهب يعرض تلك القضايا كأنها قضايا قائمة على حقائق ثابتة ووقائع ناهضة ، وفي هذا من الظلم لأبي الطيب والتحامل عليه ما لا يخفى وما يزيد هذا الظلم سوء مغبة أن المراضيع التي أقام الدكتور طه حسين قضاياه لتأييدها

وإثباتها هما من المواضيع الخطيرة التي تقترح نتائجها في المترجم له وتؤدي به إلى الحضيض . وحق قضايا مثل هذه أن لا تقوم على الطعن والافتراض بل على اليقين والواقع . من مثل هذا أن الدكتور اجتهد بل ألح إلحاحاً شديداً في الزاوية على نسب أبي الطيب حتى لقد خيل إلى وأنا أقرأ الفصول التي كتبها عن مولده وآبائه الأدنين أن الدكتور ينهض ذهن القارئ نتيجة لموقفه هي أشنع ما يمكن أن يقترح بها في إنسان من عامة الناس ، بل أمثال أبي الطيب من ذوى الأنفة والحمية . فإنه فهم ما عناه من تلك المقدمات الطويلة ولمح على كره النتيجة التي تنتهي إليها هذه المقدمات إن صححت ، وهي أن المتنبي من يوصف بأنه « ابن أبيه » وقد استند الدكتور طه حسين في هذا الحكم الموقر إلى شيء واحد هو أن والد المتنبي لم يرد له ذكر في شعره .

وفي الكتاب كثير من هذه الأمثلة التي تؤيد ما أسلفنا ذكره من أن الدكتور طه حسين قد اعتمد كثيراً على ظنه واستخلص من وراء هذا الظن نتائج خطيرة بعيدة الأثر .

#### ( ٥ )

ويقول الأستاذ خليل شيدوب ( الأهرام ٢٧/٣/١٩٣٧ ) إن طريقة الدكتور طه حسين في نقد المتنبي ليست هي الطريقة العلمية التي راعت الأستاذ ابن خلدون لأنها ذاتية لا موضوعية ، بدليل تقريره أن المتنبي ليس أحب الشعراء إليه فلا عجب في ذلك بل العجب أن يكون غير ذلك . والمتنبي رجل خشن المحس ، صلب العود ، أكثر من ذكر الدم والقتل ، ووصف الحرب ومجانبة الله وطمح إلى الملك والإمارة وجاب آفاق الشرق من مصر إلى العجم قلقاً نافرأ مطارداً ، أمثلة عليها لا يحققها ، والدكتور طه حسين رجل ناعم النفس وادع الخلق لين العريكة دمث الجانب يحب المفاكهة والمداعبة والنكتة الباردة مطمئن القلب ، لا يكون حبيباً إلى نفسه إلا شاعر كالبحتري وأبا نواس ، ولذلك جاء نقد الدكتور طه حسين متمشياً مع عاطفته وذوقه لأمع الجمال الموضوعي في المنقود والفن المستقل الذي يشع عنه ، ودون التفات إلى اللذة النفسية التي يثيرها أو لا يثيرها ، وإذا حاول مرات

أن يتخلص من مؤثرات نفسية ويسير في نقده على ضوء الفن المجرد ، فإنه سرعان ما كان يقتضب البحث ويختصر الطريق ويعود إلى بحبته وطبعه .

قال إناطول فرانس : النقد كما أنهمه ضرب من القصص تتداوله العقول وكل قصص إذا حسن تناوله ترجم حياة كاتبه ، فالناقد المجيد من قص حوادث نفسه في ثنايا الوقائع الأدبية ولكن يبقى الناقد جريئ يجب عليه أن يقول أياها السادة : سأكلكم عن نفسي بمناسبة شكسبير وبمناسبة راسين وبسكال أو غوته فإنها لفرصة جميلة » .

وهذا ما فعله الدكتور طه حسين ، وكان صريحاً جداً لأنه أعلنه من غير مداراة ولا تواء ، فهذه هي الطريقة الذاتية في النقد التي يعنى الناقد على مقتضاها بذاته وبنفسه أكثر مما يعنى بذات المنقود وحينما جابه قراء العربية بما ينطوى عليه من دعاية ومفاكهة راع مثل صديقنا الأستاذ خلدون إذ ظن أنها الطريقة العلمية التي تبني وتهدم ، وفيها أسرار التركيب والتحليل ، أما الذي ثبت لها ثبات الطود ولم تنل منه قليلاً ، فالمتنبي نفسه وإذا كان قد طال عجبى وإعجابى من براعة الدكتور طه حسين إلا أن الروعة الصحيحة لا تزال تملكى كلما جرى ذكر المتنبي وحسب عبقريته أنه لا تزال تؤلف فيه الكتب وتدرس أشعاره على أحدث طرائق النقد .

وردت مزاعم في الدراسة ، وكل ما فيها قائم على استنتاج واستنباط هما أقرب إلى الاستبداد والتحكم ، وكان آخر من توسع في الكلام عليه صاحب الصبح المنبي المتوفى في القرن الحادى عشر للهجرة ما ورد . فأورد في سياق حديثه أموراً كثيرة استقل بتقريرها ولا شك أن الأستاذ بلاشير وغيره من الغربيين إنما رجعوا إلى هذه المصادر العربية وكتبوا ما كتبه على طريقتهم التي يشغف بها الدكتور طه وينتهجها . أما البديقي صاحب الصبح المنبي فأغلب الظن أنه لم يبتدع الوقائع التي سررها ، بل لأن أنه طالعها مبصرة في كتب كانت عنده فجمعها على طريقته في التأليف . أما هذه الكتب فلا شك إما أنها فقدت فأقفل بفقدائها باب البحث في صحة ترجمة البديقي للمتنبي أو أنها تحت أطباق من التراب في إحدى مكاتب الدنيا ) .

يقول الأستاذ محي الدين صبحي :

لقد كتب المستشرق رينجيش بلاشير كتاباً عن حياة المتنبي جاء آية من آيات التحقيق التاريخي ، وهو في الوقت ذاته كتاب مثير للاهتمام في تحقيره للعرب بثقافتهم وشعرهم ، جهادهم وحضارتهم ، أنكر فيه بلاشير على سيف الدولة كل عظمة أو نصر في حروبه مع بيزنطة ، وبالغ في إبراز طابع البداوة غالباً على الحضارة والبلاطات العربية ، لبغزو فصائل المدنية إلى الفرس والفلسفة إلى اليونان بحيث أرجع إلى أرسطو معظم معاني المتنبي ، والعلوم إلى الهند ، فلم يبق للعرب مع هذه البداوة سوى إمارات ممزقة متناصرة انفرد العرب منها بإمارتي الموصل وحلب للمحمدانيين . يأخذ بلاشير على المتنبي إيمانه بعروبه ، بل يتخذ من هذا الإيمان مطعناً عليه بنفذه إلى السخرية بالشاعر وبأميره سيف الدولة وبالأمة التي أنجبتهما في سنة ( ٣٣٤ هـ - ٩٤٥ م ) كان المتنبي في فلسطين عند أمير الرملة التابع للأخشيديين في مصر ، وكان له أن يختار بين سيف الدولة في حلب ، وكافور الإخشيد في القسطنطينية ، فكان خياره التاريخي بطبيعة الحال أن اتجه إلى سيف الدولة فلتنظر بأى ابتذال وحذلة عرقية ساخرة يعمل ويحلل بلاشير خيار المتنبي ذلك . ويشير إلى أن المتنبي العربي القح ، الذي شعر بالهوان من جراء الانحناء أمام زنجي وعبد سابق هو كافور . هذه نقمة بلاشير في كتابه عن المتنبي استهانة بالأمة العربية كلها توصلته إلى الاستهانة بشاعرها الأعظم ومواقفه القومية .

إن بلاشير يسلم بعظمة المتنبي لكنه لا يغفر له اختياره العربي ، فنجد بلاشير بغض من قيمة السيفيات ( قصائد المتنبي في سيف الدولة ) وقيمها تقييماً محجفاً من خلال حقهده على تحديات سيف الدولة لبيزنطة وانتصاره عليها : ( لا بد لنا أخيراً من قبيل النصفة من الاعتراف بأن المتنبي أجاد طوال تسع سنين ، العزف برشاقة دوماً ، وإخلاص أحياناً على الآلة التي ارتضاها لنفسه ، وأنه استعمل بخاصة ، دقائق فنه ومهاراته كلها ، وحيل مهنته كلها . ليوسع بعد هذا موضوعاً وحيداً ، ألا وهو تمجيد عظمة أمير شامى صغير ،

أى باختصار لا يرى بلاشير أن من حق المتنبي أن يمدح سيف الدولة أو يستلهم بطولاته . وقد رده حسين على بلاشير رداً مباشراً لا لبس فيه ولا التواء حين درس سيفيات المتنبي في أفصل فصول كتابه عن المتنبي ، ويصور عجز بلاشير عن تذوق جمال هذا الفن من شعر المتنبي لاختلاف المزاج والطبع . والدين أيضاً وهذه شجاعة محمد لطفه حسين لو قرن إليها شيئاً من الأمانة العلمية والنزاهة الشخصية .

فماذا فعل طه حسين بالمتنبي ؟

أغار على التحقيق التاريخي الذي أنفق بلاشير عشر سنوات لإثباته ( ولولاه لما كان لكتاب بلاشير أية قيمة ) ، فسلخه سلخ الأهاب وادعاه لنفسه في يسر ودعه وهرن وخفض من العيش وراحة الضمير . وانقض على آثار كل من كتب في شعر المتنبي وحياته من القدماء والمعاصرين بحيث لا يحمل إلا جزءاً يسيراً من الحقيقة قول العلامة محمود شاكر : إن كتاب ( مع المتنبي ) للدكتور طه حسين هو في الحقيقة حاشية كبرى على ثلاثة كتب : أولها كتابي ، ثم كتاب الدكتور عبد الوهاب عزام . ثم كتاب المستشرق الفرنسي بلاشير عن المتنبي .

وقد غاب عن محمود شاكر ما هو أعلم منا به . فلم يذكر أن طه حسين إن كان سارق التحقيق التاريخي من بلاشير فقد سرق أحكامه النقدية من كتاب ( الوساطة بين المتنبي وخصومه ) للقاضي علي عبد العزيز الجرحاني سنة ( ١٣٩٢ هـ ) مستفيداً من كل ما في هذا المصدر المتعمق من مناقشات غنية في اللغة والنحو والمعاني والأدب والنقد ، فضلاً عن شروح الواحدى والكبرى وغيره دون أن يشير إلى مصدر واحد من هذه المصادر إلا حين يستدرك عليه خطأ أو زيادة .

عند ذلك يذكر طه حسين الكاتب ويثبه على غلظه أو تقصيره ، ويظهر هو بمظهر المصحح والمفكر الذى يضيف إلى التراث — وإن كانت الإضافات المزعومة ليست أكثر من نثرات جمع طه حسين فتاتها من مصادر أخرى بمهارة لا يتقنها سواه .

هذا من ناحية الأمانة العلمية ، أو بالأحرى انعدام الأمانة العلمية عند طه حسين .

أما النزاهة الشخصية ، فعلاقة طه حسين بها أسوأ بكثير جداً من علاقته بالأمانة العلمية ، فقل إن عرف تاريخ الأدب والنقد باحثاً مثله يسخر دراساته لصقل صورته الشخصية في مخيلة القارئ وسيلة إلى إصدار أخلاقية قاسية على شخصيات الشعراء وسلوكهم .

هذا الخلط بين السيرة والنقد والتقويم الخلق ، يؤدى بطه حسين دائماً إلى انعدام النزاهة لأنه يربط تلك العناصر الثلاثة جميعها لشخصية المتعالي عن الدنيا ، والمسافة بعد ذلك قصيرة بين انعدام النزاهة وانعدام الموضوعية ، فحين يدس الباحث شخصية بين عقله وبين الأديب موضوع الدراسة ، يغدو الميل مع الهوى أقرب مثلاً عند الدارس من التجرد المفترض في الحكم الموضوعي . فقد وضع طه حسين كتابه ( مع المتنبي ) ليحط من شخصية الشاعر وإن كان قد سلم بعظمة شعره ، كان طه حسين يتأذى أن يرى العرب في المتنبي عظيماً من عطاء هذه الأمة ، فلم يترك صغاراً ولا هواناً أو إلحاداً إلا ألصقه به وإمعاناً من طه حسين في الكيد للمتنبي فإنه يجعل كافوراً في موقع السياسي الحقيقي الذي سخر من شاعر طامع ، ولا أدري إذا كان تصغير المتنبي يجعل من طه حسين شيئاً كبيراً بحال من الأحوال ، غير أن إلصاق الدنيا بالأدباء يوقع في روع القارئ أن طه حسين يتبرأ منها ومنهم . وترفع عنها وعنهم ، وقد فعل ذلك بمعظم من تناولهم في ( حديث الأربعة ) .

وتحدث الكاتب عن ما أسماه الدور التفضيلي الذي يقوم به نتاج طه حسين ، أنه ينشر أفكاراً مضللة ، سطحية أو عامة ، أو مبالغاً في مثاليتها أو انحطاطها ، عن حياة الأدباء وأدبهم ، وبالتالي فإن كتبه لا تصلح مراجع تاريخية لأنها ليست بتاريخ ولا تصلح لأن تكون مراجع نقدية لأنها ليست بنقد أدبي ، ولا تصلح أن تكون مراجع علمية لأنها ليست من البحث العلمي في شيء ، ولن نجد موضوعاً طرقة طه حسين يصلح لباحث جاد أن يعتمد على نتائجه لتواصل البحث انطلاقاً منها ، بل لابد لكل باحث من أن يبدأ أولاً بتمحيص ما جاء به طه حسين ونحله ليرى ما تبقى لديه من حصيلة هذا الغناء الأخرى

وإذا كانت كتابات طه حسين لا تصلح للباحث فهي شديدة الخطر على الطلاب في الجامعة وما قبلها لأنها تملأ أذهانهم بأوهام وأباطيل عن الأدب العربي يصعب اقتلاعها منهم بعد ذلك ، فيشار طه حسين وأدبه هما غير بشار الحقيقي وأدبه ، ومتنبي طه حسين وشعره هما غير المتنبي التاريخي .  
مثل ذلك عن الصحابة وفي كل ما دار على قلم طه حسين أو لسانه . فتناجيه يبلبل الأفكار الناشئة مثلما يقف حجر عثرة في طريق البحث العلمي الرصين بحيث لا يستقيم الأمر دون إزالتها . وسرف يحتاج الأمر إلى أجيال من الباحثين قبل أن يتم نهائياً تصفية التأثيرات المحلّة والضارة التي تركها عبث هذا الرجل وممالة الجامعين له باسم الليبرالية على نحو ما نجد اليوم من محالة للجهلة والأدعياء باسم التقدمية .

( الحوادث اللبنانية سنة ١٩٧٧ م )

• • •

## ( ٧ )

### فلسفة ابن خلدون

كان كتاب فلسفة ابن خلدون الاجتماعية بمثابة أطروحة الدكتور طه حسين . التي تقدم بها إلى جامعة السربون ، بإشراف أساتذته المستشرقين دور كايم . وليفي بريل ( اليهوديان ) وكازانوف ، وقد كتبها بالفرنسية وترجمها الأستاذ محمد عبد الله عنان ، وكانت أول صيغة من شرقى ، لانتقاص هذا العملاق الذي أشاد به علماء الشرق والغرب والذين أجمعت الآراء على أنه منشئ علوم التاريخ والاجتماع والاقتصاد بشهادة علماء الغرب أنفسهم ( قدم الرسالة للحصول على الدكتوراه عام ١٩١٧ م ) .

فماذا فعل الدكتور طه حسين ؟

أولاً : أنكر على ابن خلدون نظريته الاجتماعية ومن رأيه أن ابن خلدون لا يستحق لقب ( اجتماعي ) .

ثانياً : شكك في نشأة ابن خلدون ونسبه العربي .

ثالثاً : نقل آراء دور كايم المؤرخ اليهودى من أتباع النظرية الماركسية وجعلها أساساً للبحث .

رابعاً : خلط بين المصادر ، ونسب إلى ابن خلدون اعتياده على كتب لم يقينها .

خامساً : لم يفهم مسائل التاريخ الأساسية وزعم أنه جمع آراءه في علم الاجتماع من قضايا التاريخ . ولم يلاحظ العالم الاجتماعى الواقعى .

سادساً : اتهمه بأن أسلوبه مضمحل جداً : تكثر فيه العبارات المسجعة والاستعارات .

سابعاً : قال : إن طريقة البحث التى لجأ إليها كانت محدودة وناقصة وأنه بقى جاهلاً بطريقة استنتاج التاريخ من الآثار .

ثامناً : ادعى أن هناك تناقضاً منطقياً في طريقته في البحث .

تاسعاً : هاجم أهل المغرب في مقاومتهم للاستعمار الفرنسى .

عاشراً : اعتمد على المستشرقين ، وجهل المنهج الإسلامى في — مراجعة المصادر .

وقد ظهرت أبحاث عديدة تكشف زيف طه حسين ، وفساد اتهاماته لعملاق التاريخ (ابن خلدون) في مقدمتهم : الدكتور على عبد الواحد وائى . والأستاذ ساطع الحصرى ، والسيد محب الدين الخطيب رحمه الله ، والدكتور عمر فروخ .

أما أسلوب ابن خلدون ، فقد وصفه طه حسين بأنه كأسلوب معاصريه مضمحل جداً تكثر فيه العبارات المسجعة والاستعارات والمقامات التى يكثُر فيها التكلف ، وقال وائى : الحقيقة إن هذا الوصف لا يصدق إلا على خطبة الكتاب التى لا تستغرق إلا بضع صفحات ، وهى ليست في الحقيقة جزءاً من المقدمة . بل هى ديباجة لكتاب العبر كله . وقد تعمد ابن خلدون نعوذاً أن يخرج فيها عن طريقته ويصوغها في هذا الأسلوب ، ذلك لأن افتتاحيات الكتب كانت تعد في عصره وسيلة لإظهار البراعة والتمكن من مفردات اللغة ، والقدرة على اللعب بالألفاظ والتراكيب فجارى عصره في ذلك حتى لا يتهم بالضعف .



وبالنسبة لطريقة البحث التي اعتمدها ابن خلدون ، فقد وصفها طه حسين بأنها كانت محدودة وناقصة . وقوله : إنه كان يزعم أن المعلومات التاريخية تأتي من الأخبار المكتوبة أو المروية وحدها ، وأنه بقي جاهلاً لطريقة استنتاج التاريخ من الآثار . قال الدكتور وافي : إن عدم توصل ابن خلدون إلى طريقة معرفة التاريخ من الآثار المادية لا تجرد عمله من صبغته العلمية بوجه من الوجوه . وأن الأمر الذي يترتب علينا في هذا الصدد ليس أن نبحث فيما إذا كان ابن خلدون قد عرف طرائق البحث في التاريخ أم لم يعرفها . بل هو أن نبحث فيما إذا كان قد سار على طريقة علمية في الساحة التي لاحظها والوسائل التي اهتدى إليها .

وفي مواجهة قول طه حسين عن ابن خلدون ( بوجود تناقض منطقي في طريقته ) ، يقول الدكتور وافي : لو صح وجود هذا التناقض ، لني عن عمل ابن خلدون كل صفة علمية بطبيعة الحال ، غير أن ما يزعم الدكتور في هذا الصدد ، لا ينطبق على آراء ابن خلدون بوجه من الوجوه . كما أنه يخالف الحقائق التاريخية والاجتماعية أيضاً من كل الوجوه .

ويقول الدكتور عبد الواحد وافي : يدعى الدكتور طه بأن ابن خلدون يرى أن الوسيلة لدرس المجتمع البشري هي ملاحظة الوقائع التاريخية ، غير أن ابن خلدون لم يقل أبداً : إن وسيلة دراسة علم العمران المذكورة ، هي درس علم العمران ، مع ملاحظة الوقائع التاريخية ، بل أنه قال بصراحة تامة : إن الوسيلة المذكورة هي درس المجتمعات الحالية والوقائع المشهورة .

لهذا السبب نحن نرى أن طه حسين عندما ادعى بأن ابن خلدون يستند في علم العمران إلى التاريخ قد عزا إليه رأياً لم يقل به أبداً ، وخطة لم يسلكها قط ، كما أنه قد تباعد عن الحقيقة تباعداً كلياً عندما توصل من ذلك إلى القول : بأن ابن خلدون دخل في مأزق فكري ، ووقع في شباك دور باطل غير منطقي . . . ونحن نعتقد بأن رأى ابن خلدون في هذه القصة ، يدل بعكس ذلك على عبقرية فذة ، لأن الرأي المذكور يرفعه إلى مصاف علماء التاريخ والاجتماع الحديثين مباشرة .

ذلك لأن علاقة التاريخ بعلم الاجتماع من المسائل التي اهتم بها العلماء والمفكرون اهتماماً شديداً منذ أوائل القرن الحاضر .

أليس من الغريب أن يعتبر الدكتور طه محاولة ابن خلدون للاستفادة من علم العمران بالتاريخ محاولة فاشلة تنطوي على الدور الباطل والضلال المبين . ألا يحق لنا أن نقول : إن رأى ابن خلدون في وجوب الاستفادة من علم العمران في التاريخ كان من العبقرية ، بعكس ما ذهب إليه طه حسين تماماً ؟ إننا نعتقد أن ابن خلدون دل في هذه القضية على بصيرة فائقة وعبقرية خارقة ، إذ ابتدع طريقة جديدة في درس التاريخ وتفسيره ، طريقة لم يقدر أهميتها علماء الغرب ومفكروه إلا بعد مرور مدة تقرب من ستة قرون منذ ابتداء ابن خلدون لها .

#### أطروحة طه حسين :

ويتحدث الدكتور عبد الواحد وافي على أن أطروحة طه حسين عن فلسفة ابن خلدون تتميز بأمرين هما :

**أولاً :** عدم التعمق في درس المقدمة درساً حياً .

**ثانياً :** عدم ملاحظة تطورات علم الاجتماع ملاحظة شاملة وقال : ( يظهر أن الدكتور طه كان يتمسك برأى واحد من الآراء المتضاربة التي قال بها علماء الاجتماع من غير أن يلاحظ أن ذلك الرأي قد يكون مخالفاً لآراء جماعات أخرى من علماء الاجتماع الحديثين ، ومن غير أن يلاحظ أن استحقاق ابن خلدون لقب ( العالم الاجتماعي ) لا يتبع موافقته أو عدم موافقته للمذهب واحد من مذاهب علم الاجتماع الحديث ) . وما لم يقله الدكتور وافي هو أن هذا المذهب المخالف لعلماء الاجتماع هو مذهب دوركايم .

#### مراجع ابن خلدون :

ارتأى طه حسين في رسالته في أن يكون ابن خلدون قد درس في صباه جميع الكتب التي ذكرها . ويذهب إلى أنه ربما كان لا يعرف من بعض هذه الكتب إلا أسماءها وأنه ذكرها بقصد التمدح والتفاخر . ويؤكد شكه هذا بما ذكره ابن خلدون عن كتابين منهما وهما مختصر

ابن الحاجب في فقه الإمام مالك وكتاب الأغاني فيقول في صدد الكتاب الأول : ( يذكر ابن خلدون أن مختصر ابن الحاجب كان من بين الكتب التي درسها في تونس وبعده ضمن كتب الفقه المالكي ، مع أن مختصر ابن الحاجب ليس كتاب فقه ، بل هو كتاب في أصول الفقه وهو مؤلف جم الانتشار ولا يزال يدرس في الأزهر حتى يومنا هذا .

وقال في صدد كتاب ( الأغاني ) الشهير : فإنه في ترجمته يزعم أنه استظهر جزءاً منه ومن ثم فإننا نعتقد أن ابن خلدون لم يعرف منه سوى الاسم .

ويقول الدكتور عبد الواحد وافي : والحقيقة إن جميع الكتب التي ذكرها ابن خلدون قد أتيج له دراستها دراسة عميقة ، بدليل ما ذكره في الباب السادس في مقدمته ، عن مسائل كل كتاب منها ، ومناهجه وخلاصة آراء مؤلفه وتاريخ تأليفه ، ومدى انتشاره على أنها ليست من الكثرة بحيث لا يتسع لها وقت طالب تفرغ للدراسة تفرغاً كاملاً زهاء خمسة عشر عاماً حتى لو كان طالباً عادياً . بله طالباً عبثياً من طراز ابن خلدون .

#### مختصر ابن الحاجب في الفقه وليس في الأصول :

وليس بصحيح ما ذكره طه حسين في صدد مختصر ابن الحاجب ، فالحقيقة أن لابن الحاجب مختصراً مشهوراً في فقه الإمام مالك يسمى المختصر الفقهي أو الفرعي . وقد عني بشرحه كثير من المغاربة ، وهذا الكتاب هو الذي عناه ابن خلدون وظن طه حسين عدم وجوده . أما ما يسمى بالمختصر من مؤلفات ابن الحاجب في أصول الفقه ، وهو الذي تحدث عنه طه حسين فهو عبارة عن مختصرين اثنين لا مختصر واحد لكتاب الأحكام للآمدي ، ويسمى أوسعهما المختصر الكبير ، واشتهر أصغرهما باسم المختصر أو المختصر الصغير .

والعجيب أن يتهم مثل ابن خلدون وقد كان إماماً في الفقه وقاضياً قضاء المالكية في أرق بلد إسلامي في هذا العهد ، وهو مصر . وقد تولى تدريس الفقه المالكي في المغرب وفي مصر وفي الأزهر نفسه ، والعجيب أن يتهم رجل هذا شأنه بأنه يجهل ما ألف في هذا الذهب ، وبأنه يتباهى بأنه درس

في هذا المذهب مختصراً لا وجود له . والحقيقة أن ابن خلدون قد قرأ كتاب ( الأغاني ) وحفظ كثيراً من أشعاره بدليل ما نقل من نصوص هذا الكتاب في مقدمته وفي كتاب العبر . وقد كان الكتاب في مكتبة الناصر الأموي بالأندلس . هذا إلى أن ابن خلدون قد نقل من كتاب ( الأغاني ) في تاريخه العبر عدة نصوص . ولم يرد في كلام ابن خلدون ما نسبته إليه طه حسين من استحالة الحصول على نسخة من كتاب ( الأغاني ) في عصره .

ولعل الدكتور طه قد اعتمد في ذلك على ترجمة فرنسية غير صحيحة للمستشرق روسلان لعبارة وردت في مقدمة ابن خلدون عن كتاب ( الأغاني ) وهي قوله : ( ولا يعدل بكتاب الأغاني في ذلك » في فنون شعر العرب وتاريخهم وأيامهم » كتاب فيها نعلمه وهر » أي كتاب الأغاني » الغاية التي يسمو إليها الأديب ويقف عندها وأنى له بها ) .

فلم يفهم روسلان المترجم الفرنسي معنى عبارة ( فأنى له بها ) فترجمها إلى ( كيف يمكن الحصول على هذا الكتاب ) .

ويقول الدكتور عبد الواحد وافي : إن طه حسين في مسهل حياته العلمية لم يكن علم الاجتماع من فروع تخصصه ، فخفيت عليه عظمة ابن خلدون وأصالة بحوثه ، ولم يوفق في دراسة معظم النواحي التي عرض لها في الرسالة . وقد تصدى للرد على طه حسين بشيء من التفصيل ، ساطع الحصري بمقالات جمعها في كتابه ( دراسات عن مقدمة ابن خلدون ) .

يقول ساطع الحصري : مما يؤسف له كل الأسف أن الدكتور طه حسين كان قد كتب هذه الأطروحة المذكورة ، عندما كان حديث عهد بدراسة علم الاجتماع ، فلم يكن قد أحاط علماً بنظريات علم الاجتماع وتاريخه الإحاطة الكاملة ويظهر أنه كان مدفوعاً في الوقت نفسه ، بروح انتقاد عنيفة حملته على نقد العلماء الغربيين الذين قد بهرتهم ( طرافة ابن خلدون ) حسب تعبيره وجعلتهم يرون فيه فيلسوفاً حديثاً .

وقد اعتقد جماعة منهم أن ابن خلدون كان أول من أراد أن يجعل من التاريخ علماً ، غير أن الدكتور اندفع في الاعتراض عليهم صائحاً :

ابن خلدون لم يفكر في ذلك مطلقاً ، وقال عن تلقيبه بالعالم الاجتماعي :  
إن ذلك يكون مبالغة كبيرة .

وقد اعترض طه حسين على جماعة العلماء الذين قالوا : إن ابن خلدون  
سبق المذاهب الحديثة التي ترمى إلى جعل التاريخ علماً لا فناً أدبياً ، وزعم  
أن طريقة ابن خلدون في التاريخ خاطئة من أساسها .

إن العلماء الذين قالوا : إن ابن خلدون أراد أن يجعل من التاريخ علماً ،  
بنوا قولهم هذا على ما شاهدوه في المقدمة من الملاحظات والمحاولات التي  
استهدفت اكتشاف تلك القوانين . وبيان تلك العلل والأسباب ، لا على  
معنى واحد من معاني كلمة واحدة ، فما لا مجال للشك فيه أن ( المقدمة )  
كانت محاولة صريحة لبحث الوقائع التاريخية بحثاً علمياً ، مهما كان حظ  
المحاولة من النجاح والإصابة ، وهذا يبرر تماماً قول القائلين : بأن ابن خلدون  
كان أول من حاول جعل التاريخ علماً .

#### دور كايم صاحب النظرية الأصلية :

وقد أجمعت الأبحاث التي ردت على مفتربات طه حسين نحو ابن خلدون ،  
بأن عميد الأدب درس ابن خلدون في ضوء نظرية دور كايم المادية التي  
كانت أساس منهج المدرسة الاجتماعية الفرنسية التي ترى أن ( اتحاد الجماعة  
مصدر لعلم الاجتماع ، لا الفرد ) وتقول هذه النظرية بالجبر التاريخي .

والمعروف أن دور كايم كان أستاذه طه حسين في السربون ، والمشرف  
على رسالته وأنه توفي قبل أن تناقش الرسالة وضاع على الدكتور طه ذلك  
الاتجاه التبعية المسف ، الذي مضى إليه في اعتناق آراء الكاتب اليهودي ،  
وأبكر - هو العربي المسلم - فضل رجل يفخر به كل عربي مسلم ، بل ولقد  
وجد من علماء الغرب غاية التقدير والإنصاف ، فأى سبة لطف حسين أكبر  
من أنه يُلطخ وجه عظيم من عظماء أمتنا في محفل غربي حاقد ، وينقصه ثم  
بشاء الله أن لا يبلغ غايته في نفاق الأستاذ المشرف اليهودي .

ولقد كان الحقد على ابن خلدون راجعاً إلى أن منهجه استمده من القرآن  
الكريم وليس من أي مصدر آخر .

ويقرر الدكتور محمد غلاب في مقاله بمجلة النهضة الفكرية (٢٦ أكتوبر عام ١٩٣١) أن طه حسين تحامل على ابن خلدون ونفى عنه صفة الاجتماعي من أجل إرضاء أعضاء لجنة الامتحان . الذين كانوا يرون أن ابن خلدون لا يستحق لقب اجتماعي . فاندفع وراءهم إنقاء شرهم أو قسوتهم . وقد أشار الباحثون إلى أنه نقل آراء دور كايم عن ابن خلدون واعتبرها أساساً للبحث ودور كايم مؤرخ يهودي من أتباع النظرية الماركسية ورأيه في ابن خلدون مشوب بالتعصب .

وقد اعترف الباحثون الغربيون المنصفون بسبق ( ابن خلدون ) للفلاسفة الغربيين في وضع أسس الاجتماع والاقتصاد السياسي . أمثال : آدم سميث وأوغست كونت . وبينهما أربعة قرون كاملة .

وقد درس ابن خلدون الظواهر الاجتماعية على أساس استمده من القرآن الكريم . وقرر أن الظواهر العمرانية في تراثها وتواليها تحكمها قوانين . وكانت وسيلة في الدراسة الاستقراء والقياس . . ومن هذه المقدمة بدأت بدور الفكر الاقتصادي مما عده الباحثون من بعد نقطة بدء للمدرسة العلمية في الاقتصاد . وقد أكد المنصفون من الباحثين أن آراءه لم تكن مجرد جمع لمعارف متنوعة ولكنها جاءت كعمل منظم ومرتب ينطبق عليه لفظ العلم في معناه الدقيق . وقال شميدت في كتابه :

Ibn Kaldour. Historian Sociologist and Philosopher .

إنه مما يطلق عليه لفظ Wissenschaft وليس مجرد لفظ Wissen وأن البحوث الحديثة وإن كانت تستند إلى وسائل بحث أنجع إلا أنها في شكلها وموضوعها مماثلة لبحوثه .

وقال استفانو كزولوزيو الإيطالي : إن هذا المؤرخ العربي العظيم اكتشف مبادئ العدالة الاجتماعية والاقتصاد السياسي قبل كونسيديران ، وماركس ، وباكونين بعدة قرون ، وإن ما يعزوه من شأن كبير إلى دور العمل والأجرة والملكية يجعله إماماً لاقتصاد في هذا العصر .

## فلسفة التاريخ :

ويقول أرنولد توينبي الفيلسوف والمؤرخ البريطاني : إن ابن خلدون في المقدمة التي كتبها لتاريخه العام قد أدرك وأنشأ ( فلسفة التاريخ ) وهي بلا شك أعظم عمل من نوعه أبدعه أى عقل بشري في أى زمان ومكان .

ويقول سارتر في كتابه ( مدخل العلم ) : إنه لمن المدهش أن يكون ابن خلدون قد توصل في تفكيره إلى اصطلاح ما يسمى اليوم بطريقة البحث التاريخي .

وفي القاهرة حيث عاش ابن خلدون ودفن عقد أضخم مؤتمر لابن خلدون عام ١٩٦٢ جمعت أبحاثه في مجلد ضخم بلغ ٨٠٠ صفحة يمكن أن يقدم - لطله حسين وأساتذة التعريب .

إنه من دواعي الأسف أن يعرف الغربيون فضل ابن خلدون قبل أن يعرفه الشرقيون أنفسهم ولكن الذي يؤسف له حقاً أن يقوم بعض الشرقيين يحطون من قدر ابن خلدون بعد أن جهد الغربيون كل جهد في نشر فضائله وإظهارها .

ويشير الدكتور غلاب إلى ملاحظة أخرى : هو أن الدكتور طه في رسالته عن ابن خلدون يرى عرب إفريقيا الشمالية بالهمجية والتوحش ، ويستدل على هذه الدعوة بأن الفرنسيين عانوا مشقة شديدة في سبيل إخضاعهم ويزعم أن ابن خلدون حظي في إسناده هذا العصيان من جانب عرب المغرب إلى العزة والإباء ، ويقول : بل إن الفرنسيين قد عانوا ولا يزالون يعانون مشقات فادحة في مراكش في سبيل بسط حضارتهم .

ويعلق السيد محب الدين الخطيب على أخطاء طه حسين في مصادر ابن خلدون فيقول : إن طه حسين لم يسمع باسم كتاب مختصر ابن الحاجب ومن ثم يجب أن يكون ابن خلدون كاذباً . إنه لو كان صادقاً لعرف ما عرفه طه حسين من أن مختصر ابن الحاجب في الأصول لا في الفروع . أرايت كيف اكتشف طه حسين أن ابن خلدون جاهل كاذب .

ولكن طه حسين كان سيء الحظ في هذا أيضاً كدأبه في كل ضربات معوله ، التي ينحى بها على جدار الإسلام وسور الحضارة العربية التي

لا تموت . وكأني أسمع صغار التلاميذ من أتباع مالك بن أنس سواء كانوا في جامع الزيتونة أو في الجامع الأزهر ، ينادون طه حسين فيقولون له : على رسلك يا أستاذ ، فإن لابن الحاجب مختصرين ، وقد سمعت بأحدهما ، وغاب الآخر في جملة ما غاب عنك وهو كثير . لقد بلغ مختصر ابن الحاجب الفرعي من الشهرة المكان الذي لا يجهل حتى من صغار التلاميذ ، ولو كان هذا الدكتور الجري متمرنًا على طرق التحقيق ومستأنسًا بأساليب البحث المأمونة العواقب ، لتأني كثيراً قبل أن يهجم تلك الهجمة الخائبة المخزية على طود عظيم في الإسلام كابن خلدون ، ولدفعته السليقة العلمية إلى مراجعة ( كشف الظنون ) على الأقل وهو من الكتب التي يجب أن تكون دائماً تحت اليد ، ليرى ما جاء في مختصر ابن الحاجب لأن المجرم بلا سلاح على مثل هذا البطل الكبير ليس من الحيلة في شيء .

ويقول الدكتور شحاتة سحافان : إن عدم اعتراف طه حسين بابن خلدون في مقدمته مؤسساً لعلم الاجتماع مبالغة جسيمة . وإن كان هذا رأى طه حسين في ابن خلدون ، فإن كثيراً من علماء الاجتماع في مصر ودارسيه لا يؤيدونه بل يعتقدون أن ابن خلدون كان أول عالم من علماء الاجتماع .

وقال جورج سارطون : إنني أسمى العصر الذي سبق العصور الحديثة العالم كله : عصر ابن خلدون .

• • •



## الفصل السادس

### الدراسات الصهيونية

هناك عوامل متعددة تكشف عن صلة الدكتور طه بالفكر الصهيوني منذ خطراته الأولى في مجال الدراسة الجامعية في فرنسا تتمثل في اتصاله بجامعة المستشرقين اليهود المسيطرين على جامعة السربون وفي مقدمتهم المستشرق اليهودي دور كايم وتبنى آراءه في العلوم الاجتماعية وفي ابن خلدون وفي بشرية الأديان السماوية المنزلة ، كما ظهر ذلك في أكثر من موضع في كتاباته ودور كايم كان رأس مدرسة العلوم الاجتماعية التي تستمد مصادرها الأساسية من النظرية الماركسية والتفسير المادي للتاريخ . ومن هنا فإن وجهة طه حسين يمكن أن تكون ذات شقين : شق صهيوني ، وشق ماركسي ولقد خطف ألبصار الناس في التعرف على طه حسين في مطالع شهرته إنكاره ( وجود إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، وإنكار ذهابهما إلى مكة وبناء البيت الحرام ) في عبارته الجريئة التي تقول : إنه مهما ذكر ذلك القرآن وذكرته التوراة فهو لا يعترف به .

لم يكن واضحاً في تلك اللحظات أن هذه ( القنبلة ) كانت لخدمة الصهيونية وإنما هي مقولتهم التي اعتمدوا عليها في إعلان الحركة الصهيونية وخداع العالم ولكن اعتماد طه حسين على نظرية دور كايم اليهودي في علم الاجتماع ونظرية مرجليوث اليهودي في الشعر الجاهلي أعطت علامات مميزة ما لبثت أن اتضحت باستقدام طه حسين اليهودي ( إسرائيل ولفنسون ) من فرنسا حيث أعده لتقديم أطروحته المشهورة عن ( اليهود في جزيرة العرب ) ثم جاء بعد ذلك اليهودي الآخر : بول كراوس .

في هذه الفترة تمت عمليات أخرى جريئة في هذا الاتجاه : أبرزها زيارة طه حسين للجامعة العبرية في القدس ، وزيارة إسرائيل . ( وقد أشار إسماعيل

نوفون رئيس إسرائيل إلى هذا الحدث في كلمته التي ألقاها في مصر ونشرتها  
الصحف في ١٧ / ١٠ / ١٩٨٠ م عندما صحب طه حسين في زيارته لبعض  
القرى التعاونية الإسرائيلية ، وقد تبين أن هذه هي الزيارة الثانية . أما الأولى  
فقد أعلن عنها الدكتور حسين فوزي ( مجلة أكتوبر - ٢٨ أكتوبر  
عام ١٩٧٩ م ) عندما قال : إنه زار إسرائيل عام ١٩٤٤ مع طه حسين الذي  
كان مديراً لجامعة القاهرة بالنيابة وطلب محمود فوزي قنصل مصر في  
القدس إلى طه حسين ألا يخبر أحداً من العرب أنه اتصل بأحد من اليهود ،  
وقد زار مع حسين فوزي كلية العلوم بالذات للاستدلال على مصادر الكتب  
الحديثة في أمريكا وآخر مبتكرات العلم .

أما الأمر الثاني : فهو تلك الزيارات المتصلة للمدارس الإسرائيلية في  
مصر ، والمحاضرات التي يريد طه حسين أن يقول فيها : إنه كان لليهود  
حصارة تأثرت بها الجزيرة العربية في فجر الإسلام .

أما الأمر الجليل الخطر فهو توليه دار الكاتب المصري اليهودية عام ١٩٤٥  
وإصدار مجلة الكاتب المصري الشهرية وعدد من المؤلفات المترجمة ذات  
الغرض الواضح ، فإذا أضفنا إلى هذا محاولة طه حسين في تبرئة عبد الله بن سبأ  
اليهودي من تهمة الصريحة الواضحة في إثارة الفتنة بين المسلمين مما أدى إلى  
مقتل الخليفة عثمان عرفنا إلى أى مدى ذهب طه حسين في وجهته نحو خدمة  
الفكر الصهيوني الحديث .

( ٢ )

أطروحة إسرائيل ولفنسون : تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية  
وصلد الإسلام

يقول طه حسين في تقديم هذه الرسالة : الموضوع في نفسه قيم جليل  
الخطر بعيد الأثر جداً في التاريخ الأدبي والسياسي والديني للأمة العربية ،  
فليس من شك أن هذه المستعمرات اليهودية قد أثرت تأثيراً قوياً في الحياة  
العقلية والأدبية للمجاهلين من أهل الحجاز وليس من شك في أن الحصرمة

كانت عنيفة أشد العنف بين الإسلام ويهودية هؤلاء اليهود ، وفي أنها قد استحالت من المحاجة والمجادلة إلى حرب بالسيف انتهت بإجلاء اليهود عن البلاد العربية ، ولم يكن تاريخ هؤلاء اليهود في بلاد العرب قبل الإسلام معروفاً على وجهه وإنما هي طائفة من الأخبار والأحاديث يرويها القصاص .

فإذا كان عالمنا الشاب ( يقصد إسرائيل ولبنان ) قد وفق إلى الخير في هذا الكتاب الذي قدمه إلى الجامعة المصرية ونال به شهادة الدكتوراه الذي أقدمه أنا إلى القراء سعيدياً مقتبلاً فتوفيقه مضاعف ، ذلك لأنه وفق إلى تحقيق أشياء كثيرة لم تكن قد حققت من قبل ، وفق إلى أن يبسط تاريخ اليهود في البلاد العربية قبل الإسلام وإبان ظهوره بسطاً علمياً أدبياً لذيذاً ممتعاً في كتاب كانت اللغة العربية في حاجة إليه فأظفرها بهذه الحاجة ... إلخ .

وقد كان هذا التصريح من طه حسين مرتبطاً بآرائه التي أذاعها في الجامعة المصرية ( ونشرت في صحيفة الجامعة المصرية سنة ١٩٣٥ ) تحدث فيها عن اليهود وما حاول أن يجعل لهم من أثر ، لا في الحياة العربية فقط بل في الحياة الأدبية أيضاً .

وقد كانت محاضراته أولاً في مدارس الطائفة الإسرائيلية بالإسكندرية في ديسمبر عام ١٩٤٣ عن اليهود والأدب العربي .

قالت مجلة الشمس اليهودية الصادرة باللغة العربية :

حفلت دار المدارس الإسرائيلية بالإسكندرية بعدد زاهر من أفاضل أهل الإسكندرية لحضور المحاضرة القيمة التي ألقاها عميد الأدب العربي دكتور طه حسين مساء الخميس ٢٣ ديسمبر وحضرها سيادة الخاخام أبرامو ، والخابام فنثورا وقد قوطعت في كثير من مواضعها بعاصفة من التصفيق وأعلنت المدارس الإسرائيلية عن جائزة خصصت باسم الدكتور طه حسين تعطى سنوياً للفائز الأول . والفائزة الأولى في اللغة العربية .

وقد حرص طه حسين في محاضراته على إثبات أشياء معينة :

— أن الشعر اليهودي امتاز بالحث على الفضائل وإنكار الذات .

— امتاز اليهود بين إخوانهم العرب بالوفاء وطلب المثل العليا ( شعر السموءل بن عادباء وربيعة بن الأشرف ) .

- أخذ العرب عنهم فلسفتهم في أن الحياة وسيلة لا غاية واختلفوا عنهم في أن تكون الحياة للفرد وأنانيته ومتعه ومجونه كما يلاحظ في شعر طرفة ابن العبد .

- كان اليهود الدماغ المدبر للمالية والاقتصاد في عصر الامبراطورية العربية ، وكانت منهم طائفة كبيرة من العلماء في الإسكندرية عند دخول عمرو بن العاص .

- كانوا عنصرأ أساسياً في غزو بلاد الأندلس ومساعدة طارق بن زياد ضد القوط .

- من نوابغ اليهود في الاقتصاد وإدارة أعمال الخزينة يعقوب بن كلس الذي وفد على مصر أيام كافور الأخشيدي وظل يتقلد في مناصب الدولة حتى أصبح وزيراً فرئيساً للوزراء ونظم المالية المصرية .

- كانت جهود اليهود هائلة جبارة أيام الدولة الأموية في أسبانيا وكان اليهود هم الذين نقلوا ثقافة العرب وراث العرب إلى أوروبا .

وبالرغم من أن هذه النصوص محرفة وفيها مغالطات كبيرة فلأنها كانت في هذه الفترة تمهد لقبول الكيان الصهيوني في البلاد العربية . يظهر ذلك من تعليق مجلة الشمس ( ٧ يناير عام ١٩٤٤ ) حيث يقول :

كانت محاضرة الدكتور طه حسين عن اليهود والأدب العربي آية على بقعة الشرق وعنايته بتراته ومظهر عملياً من تعاطف وتساند بين أبناء العروبة وقد جاءت في الوقت المناسب تذكراً بما كان لليهود في العصور الخوالي من أباد بيضاء وفضل عظيم في نشر النور والعرفان وكانوا الواسطة إلى نقل ثقافة اليونان إلى الشرق كما نقلوا ثقافة العرب إلى أوروبا ، ولكن العنصر السامى الكريم الذي علم الإنسانية الإيمان والمثل العليا جوزى من الغرب جزاء سنار وما وقع لليهود في أوروبا في العصور القديمة والحديثة يدل على أن المثل العليا التي بشر بها الشرق لم تأت بالغرض المستور منها ، ولا تزال الجماعات اليهودية لا تجد الراحة في الغرب . واليهود عنصر كريم من الجنس السامى الذي يعرف اليوم بالعربي وصلات اليهود بسكان جزيرة العرب تعود إلى عصور قديمة جداً ، وكان لهم شأن كبير . وقد تركوا فيها تراثاً . . .

وقصارى القول أن اليهود ليسوا غرباء على العروبة أو الأدب العربى وهم يعززون ويفتحرون بانتسابهم إلى الدول العربية ويعملون على تجديد ذلك الماضى المجيد .

وهذا هو الهدف . وهذه هى رسالة الدكتور طه حسين فى هذه الفترة . وقد عمد الدكتور طه حسين إلى تقرير ثلاث نتائج خطيرة من أثر اليهود : أولاً : أن اليهود أثروا فى الأدب العربى أثراً كبيراً حتى على ظهوره ما كان بين العرب واليهود .

ثانياً : أن اليهود قالوا كثيراً من الشعر فى الدين وهجاء العرب وقد أضاعه مؤلفو العرب .

ثالثاً : أن اليهود انتحلوا شعراً لإثبات سابقتهم فى الجاهلية على لسان شعرائهم وشعراء العرب .

وقد حاول ولفنسون بتأييد من طه حسين أن يثبت أن بنى إسرائيل أقدم أمة سامية تركت ميراثاً فى الأدب والفن .

وقد مكن الدكتور طه حسين للصهيونى إسرائيل ولفنسون تقديم أطروحة فى الجامعة المصرية عن اليهود فى بلاد العرب .

يقول الدكتور فرواد حسنين : أن معظم ما أورده إسرائيل ولفنسون وأعاناه عليه الدكتور طه حسين المشرف إنما هو كل ما أرادت الصهيونية إذاعته من آراء فى هذا البحث كان حلقة من حلقات الدعاية الصهيونية وما نقله ولفنسون فى رسالته من آراء كان القصد منها اطلاع اليهود الشرقيين وقراء العربية على ما جاء فى المصادر الأجنبية التى يجهلها القارئ اليوم فى الشرق ، وهذه الرسالة مشحونة بالأخطاء التى لا تصدر من طالب مبتدئ فى البحث وهى صدى للآراء التى كثيراً ما ردها الدكتور طه حسين فى الجامعة . فضلاً عن أن المراجع العربية لا تمت إلى البحث بصلة ، والدكتور طه حسين المشرف على الرسالة لا يعرف العربية ، وقد أخذ بالنتائج التى قدمها الباحث دون التحقق منها ودون الاستئارة ببعض الذين يجيدون هذا النوع من الدراسات والأمانة العلمية تقتضى غير ذلك .

وليس صحيحاً أن لليهود فضل عن العرب بل الفضل الحقيقى للعرب على

اليونان واليهود ، ولم تكن لغة اليهود حين نزّلوا الجزيرة العربية إلا لغة ركيكة هي خليط من العبرانية والكلدانية واليونانية واليهود هم الذين أخذوا من العرب فن الكلام والنطق الصحيح وفصاحة التعبير وقد أحسن الإسلام معاملة اليهود . هذه هي الحقيقة العلمية التي نسوقها إلى الدكتور طه حسين وتلميذه الدكتور إسرائيل ولقنسون .

وهذا يكشف هوى الدكتور طه حسين وزينه فيما حاول هو وتلميذه اليهودي يضيفا إلى اليهود ما ليس لهم وما لم يكن منهم ، بل هو فضل خلعه على اليهود فما كان لليهود على العرب أو غيرهم على مر التاريخ البشرى أى فضل .

لقد حاول ولقنسون أن يروج لمجموعة من الأكاذيب والمفتريات .

١ - حاول أن يدعى أن بنى إسرائيل أقدم أمة سامية تركت ميراثاً من الأدب والفن .

٢ - حاول أن يدعى أن اللغة العبرية من أمهات اللغات السامية وقد كان لها نفوذ وسلطان .

٣ - حاول أن يدعى أن ( إبله ) مدينة العقبة كانت مستعمرة يهودية منذ قديم وأن اليهود أدخلوا بلاد العرب طرقاً للحراثة والزراعة .

### ( ٣ )

جاء يهودى آخر إلى كلية الآداب هو بول كراوس .

احتضنه الدكتور وبشر به قبل قدومه من باريس ، وأشار إلى سعة علمه بالتراث العربى الإسلامى ( وكان الدكتور طه حسين إذا أحب أسرف في حبه ) وقد ظل كراوس في حاية الدكتور طه في ظل نفوذه عميداً للكلية كان أو مجرد أستاذ بها .

يقول الدكتور نصار عبد الله :

« وكان كراوس حاقداً على الإسلام في وقت كان الحقد على الإسلام يتضمن الحقد على العروبة وأن من بين بحورته العلمية يبدو منها حرصه الشديد

على إحياء رسائل كتبها أئمة الملحدون في عصر الإلحاد والزندقة في الإسلام ، وإن كنت أنه مقدماً إلى أن من يهتم بدراسة الإلحاد ويؤرخ له لا يتحتم أن يكون ملحداً . ولكن الدافع عند هذا المستشرق اليهودي قد يبدو على غير هذا الوجه ، فقد غنى أشد العناية بأئمة الملحدون الذين اعتصموا بالعقل واعتزوا بمنطقه ، واستهانوا بالإيمان الديني واستخفوا به . فن أشهر الرسائل التي جد في البحث عنها ونشرها بعد دراستها رسائل ( ابن الراوندى ) وكانت طعناً سافراً في الإسلام وهدماً صريحاً للنسبة ، وإبطالا للرسالات وبغرية بالمعجزات . واستخفافاً بإعجاز القرآن حتى جعل فصاحة ( أكثم بن صيفي ) تفوق فصاحة القرآن ، وهكذا كان ابن الراوندى يبطن الزندقة ويقصد إلى زعزعة الإسلام في نفوس أهله . وكان من أحب المفكرين الإسلاميين إلى قلب ذلك المستشرق اليهودي محمد بن زكريا الرازي . حقيقة أنه كان من أعظم أطباء عصره . ولكن كراوس اهتم به ملحداً شغل نفسه بهدم النبوة استناداً إلى قيمة العقل ومنطقه ، وتصدى لهدم الأديان كلها . ربما لأن ذلك خطوة إلى زعزعة العقيدة الإسلامية في نفوس أهلها ، ونقد الرازي الكتب المقدسة وأبان عن فسادها وهاجم اعجاز القرآن نظماً وتأليفاً ومعنى ، وهكذا سار سيرة سلفه الملحد ( ابن الراوندى ) .

وقد ترجم له عبد الرحمن بدوي إلى العربية كتابه ( شخصيات قلقة ) وترجم له كثيراً من بحوثه ، وكان أخلص أصدقاء كراوس ، وقد نشر كراوس رسائل جابر بن حيان الذي يعده البعض معجزة العرب في العلم الطبيعي فاعتبره كراوس شخصية خرافية وليست شخصية واقعية وهو ما ذهب إليه بعض المستشرقين ، واهتم كراوس أن يثبت الصلة بين كتبه المنحولة وآراء غلاة الشيعة الإسرائيلية ، وأشار الدكتور نصار عبد الله إلى أن حب المستشرق كراوس للعروبة ودفاعه عنها كان موضع شك كبير وتجمع الروايات على أنه كان حاقداً على الإسلام في وقت كان فيه الحقد على الإسلام يعني الحقد على العروبة ، وقد أثبت منذ فترة ضجة في مجلة الدوحة لإبراز كراوس ولكن الحقائق الدافعة كشفت عن أن سبب انتحاره فضيحة مالية شهدتها كلية الآداب ، وكان كراوس هو البطل الوحيد في هذه

المضيضة وموادها أن الدكتور طه حسين عميد الكلية قد أوفده إلى فلسطين لشراء بعض الكتب والمخطوطات ولما عاد كراوس بالكتب لوحظ أنه لم يقدم وثائق تثبت ما دفعه وأبدت الجهات المسؤولة قلداً من الشك في صحة الأثمان المزعومة ، وتبين أن كراوس اختلس معظم المبلغ لنفسه .

وقد أشار الدكتور طه الحاجري إلى أن الدكتور طه حسين بعد عودته من إحدى رحلاته إلى أوروبا جلس إلى تلاميذه وحديثهم عن ذلك الشاب الذي عرف عنه : أنه شاب تشيكي ( ولم يقل يهودي ) اتخذ الاستشراق منهجاً له ولم يكذب يتحدث إليه حتى أعجب بسعة ثقافته ومرونة تفكيره ، وما يملك من أدوات علمية لا بد منها لمن اتخذ هذا المنهج ، يتمثل إلى جانب ما يعرفه من اللغة العربية فيما يحيط به إحاطة جيدة من اللغات الأدبية القديمة وأخصها اللغة اليونانية واللغات السامية القديمة كالعبرية والسريانية والآرامية ، وقد أعانه على أن يعمق في الموضوع الذي استمواه وشغل به فكره وهو التاريخ للفكر العلمي عند العرب ( الدوحة - ديسمبر عام ١٩٨٢ ) .

وقطعاً كان هدفه هو تدمير دور العرب في الفكر العلمي على النحو الذي تقدم في موقفه من ابن الراوندي وجابر بن حيان .

#### ( ٤ )

وفي دراسات قدمتها الباحثة سهام نصار في أطروحة ماجستير عن الصحافة اليهودية كشفت الباحثة عن الدور الخطير الذي لعبه طه حسين في هذا المجال . كذلك فقد نشرت الدكتورة عواطف عبد الجليل بعد ذلك كتاباً تحت عنوان ( الصحافة الصهيونية في مصر عام ١٨٩٧ - ١٩٥٤ م ) وفي كلا البحثين المتتابعين تتكشف حقائق هامة : أخطرها إنشاء اليهود لصحيفة الكاتب المصري ( أكتوبر عام ١٩٤٥ ) .

تقول الباحثة : وعندما أقبلت الأربعينات وأصبح تحقيق الوطن القومي اليهودي قاب قوسين أو أدنى وانكشف تماماً الخطر الصهيوني أمام الرأي العام العربي والمصري ، واصلت الحركة الصهيونية نشاطها الدعائي من خلال الصحف التي كانت قد صدرت في الثلاثينات ولم تصدر صحف جديدة ،



ولكن عرضاً عن ذلك فوجئ الرأي العام المصرى بأسلوب دعائى جديد يتلخص فى إصدار صحيفة مصرية ذات طابع ثقافى ضمت نخبة من كبار المثقفين المصريين بتمويل يهودى صهيونى وبواجهة حضارية لا تحتل إثارة الشكوك حول إنشائها تلك هى صحيفة الكاتب المصرى التى صدرت فى أكتوبر عام ١٩٤٥ . وكانت تتولى تحويلها أسرة هراى : إحدى العائلات اليهودية الثرية برأس تحريرها عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين .

ومنذ البداية ثارت الشكوك حول المجلة التى حملت اسم الكاتب المصرى والتى تخصصت فى نشر الدراسات الأدبية والنقدية وضمت طائفة من الكتاب الأوربيين والأمريكيين إلى جانب الكتاب المصريين أمثال : توفيق الحكيم ، ولويس عوض ، وسهير القلماوى ، وحسين فوزى ، ونجيب الهملاى .

وقد تعرض الكاتب المصرى لحملة عنيفة من جانب بعض الصحف الوطنية مثل صحيفة ( مصر الفتاة ) متهمة إياها بالخضوع لسيطرة الصهيونية وأن الهدف من إصدارها هو العمل على استقطاب المثقفين المصريين لصالح الحركة الصهيونية وشراء صمتهم إزاء الصراع العربى الصهيونى فى فلسطين .

إن متابعة إعداد المجلة تثبت بالفعل نوعاً من التجاهل للقضية الفلسطينية أو معالجتها كمحادث هامشى لا يحتل أكثر من عمود أو اثنين من أعمدة المجلة ، بينما كانت الصحف المصرية كلها مشغولة بمتابعة القضية إن ذلك . لا يمكن إرجاعه إلى الجهل بالمشكلة الفلسطينية لأنها كانت آنذاك فى ذروة تصاعدها .

إن معظم من شاركوا فى هذه المجلة كانوا من التيار المؤمن بالقومية المصرية ، وأن هذا التيار كان يضم المجموعات الفكرية التى تبنت النظرة المتوسطية التى ذهبت إلى أن مصر تمثل جزءاً من حضارة البحر المتوسط ، وقد كان لهذا التيار موقف متحفظ من التيار العربى فى مصر منذ البداية .

ولم يكن الكاتب المصرى هو المحاولة الوحيدة للالتفاف حول المثقفين المصريين ، ولم يكن أيضاً المحاولة الوحيدة لاكتساب تعاطف طه حسين ، فقد تتلمذ على يديه كثير من الطلبة اليهود أمثال : إسرائيل ولفنسون الذى

أعد رسالة دكتوراه عن (تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية والإسلام) أشرف عليها طه حسين ، وقد أحاطت الصحافة اليهودية طه حسين باهتمامها الواضح وخاصة عندما أعيد إلى الجامعة بعد إقصائه منها لفترة طويلة عام ١٩٣٤ . وقد قام أحد المثقفين اليهود بترجمة كتاب طه حسين ( الأيام ) إلى العربية ، كما قام طه حسين بزيارة مدارس الطائفة الإسرائيلية بالإسكندرية عام ١٩٤٤ ، وكان في استقباله كبار الشخصيات اليهودية وعلى رأسهم الحاخام الأكبر فتورا وأعدوا نشيداً خاصاً للترحيب به ، وألقى طه حسين محاضرة عن علاقة اليهود بالأدب العربي استثمرتها الصحف اليهودية في الدعاية ، بينما تعرض طه حسين للهجوم بسبب هذه المحاضرة في الصحف العربية . . . إلخ .

\* \* \*

ولقد كانت أمانة الدكتور طه للفكر الماركسي تابعة لولائه للفكر الصهيوني باعتبار المصدر الجامع بينهما ، وقد كشفت المقالات التي كتبها الماركسيون من أمثال عبد العظيم أنيس وكامل زهري وغيرهم من ولاء خفي للدكتور طه حسين وإعجاب بالرجل الذي اقتحم لهم العقبات وفتح لهم الطريق إلى نقد الفكر الإسلامي ومحاكمته للمذاهب التفسير المادي للتاريخ ومذهب المدرسة الاجتماعية الفرنسية ، فقد اعتبر أن كتاباته على هامش السيرة والفتنة الكبرى هي التي فتحت الطريق أمام عبد الرحمن الشراقوي وغيره ممن أوغلوا في تدمير مقومات التاريخ الإسلامي .

إن هذه المقالات التي كتبها عبد العظيم أنيس (العربي-مارس عام ١٩٨١) وكامل زهري في ( العدد الخاص من الهلال ) تكشف عن حقيقة ظلت خافية وقتاً طويلاً وهي أن طه حسين كان يكن عاطفة خفية للماركسية والفكر الشيوعي ظل يسترها وقتاً طويلاً تحت ستار من التظاهر بالديمقراطية وجب الغرب وهي حجة الشيوعيين ومساعدتهم ومتابعة كتاباتهم وتمنيه أن تمتد دعوتهم وأن ينتشر فكرهم ، فهو يتابعهم ويقرأ ما يكتبونه ويعلق عنه إذا قابلهم ويقضى لهم مصالحهم وهم يوسطونه من مركز النفوذ والقوة - في أمورهم .

وكثير منهم يرونه رائداً للفكر الماركسي بكتابه (المعذبون في الأرض) وقد كان اتصاله بالوفد وعمله به مدخلاً لنزول الجناح الماركسي المعروف الذي كان يقوده الدكتور محمد مندور وهم حين يتحدثون عنه وعن حبه لمصر ولولائه لها — إنما يعجبون بإقليميته الواضحة العميقة ذات الطابع الفرعوني الكارثي للعروبة والإسلام معاً .

وقد دافع طه حسين عن الماركسيين الذين اعتقلوا وسجنوا عام ١٩٥٠ ومنهم عبد العظيم أنيس وعمل على إعادتهم إلى أعمالهم بعد خروجهم من المعتقلات . وقد أشار عبد العظيم أنيس إلى أن طه حسين قال له :

إنكم تبايرون وتظنون أنني على يمينكم ، هل كتب أحدهم شيئاً ( كالمعذبون في الأرض ) . . وفي فترة من الفترات هاجم ( فتحي غانم ) كتاب ( المعذبون في الأرض ) من وجهة نظر ماركسية ، وقال : إنه لغو ولكن هذا لا يمنع بأن يوضع طه حسين في صف اليسار .

وهكذا جمع طه حسين بين الولاء للغرب وللصهيونية والماركسية في آن واحد وهو ولاء قد لا يكون مفهوماً ولكن من يعرف أقل شيء عن الماسونية لا يراه غريباً .

ولا ريب أن اتجاه طه حسين إلى كسب ود المثقفين المصريين ، وتبرئة اليهود من مسألة عبد الله بن سبأ في كتابه ( الفتنة الكبرى ) ، والقول بالعلاقة الوثيقة بين أبناء العم ( ويقصد اليهود ) في مجال الحضارة والتاريخ الطويل ، إنما كانت محاولات واضحة مرسومة بدقة لتخفيف حدة الحسومة التي كانت تثيرها الدوائر الإسلامية إزاء اليهود وعداوتهم التي أشار إليها القرآن الكريم وإلى خطر سيطرتهم على فلسطين وضرورة مقاومتهم بإعلان الجهاد المقدس . وقد وضع هذا الاتجاه تماماً في هذه الفترة إلى الدرجة التي دفعت مجلة الاثنين التي كانت تصدر عن دار الهلال أن توجه للدكتور طه حسين مدواً صريحاً في ( ٨ أكتوبر عام ١٩٤٥ ) :

س — يقولون عنك : إنك تعمل على مساعدة الصهيونية فماذا تقول ؟

ج : إن مجلات دار الهلال آخر من يخول لها إلقاء هذا السؤال ، فهي تعرفني حق المعرفة ، وقد كتبت فيها منذ نشأتني إلى الآن ، ولبت الذين

بذيعون هذا الكلام يستطيعون أن يبلوا في خدمة العروبة كما أبلت ، وليس أدل على أني أساعد الصهيونية من أني أحبي الأدب العربي القديم ، فأنشر ديوان أبي تمام ، وأنشر روائع الأدب العربي للجاحظ ، وأبي هلال العسكري وأنشر أشياء خطيرة تتصل بعلوم القرآن ، فأى مساعدة للصهيونية أقوى من هذه المساعدة .

أما مجلة الكاتب المصري التي أسست فيما يقال لمساعدة الصهيونية فستكون في أيدي الناس حين يظهر هذا العدد من مجلة الاثنين وسيقرءون ما فيها وسيستوثقون أنها مجلة أقل ما توصف أنها لسان صدق للأدب العربي الرفيع .

\* \* \*

وواضح أن إجابات الدكتور طه حسين ليست مقنعة تماماً ، وليست فيها تلك البراعة التي عرفت عن الدكتور ويكفي أن توجه إليه هذه الأسئلة وتسجل في مجلة سيارة ، فهي إنما تعني ذلك الشعور الواضح الذي كان يملأ جبر الصحافة والثقافة في مصر في هذه الفترة .

ولا شك أنها كانت خطيرة واسعة لم يكن يصلح لاقتحامها غير الدكتور طه حسين ، فهو الذي اقتحم الجامعة الأمريكية بعد حوادث التبشير ، وانصرف الناس عنها وعن محاضراتها فإذا به يستفتح موسمها ويقول : إن كل شيء في مصر ينبى بعد حين .

والحقيقة أنه لا شيء ينسى أبداً مهما بدا أنه دخل في دائرة النسيان والصهيونية التي كانت تخطط في هذه المرحلة لامتصاص نقمة المثقفين ، من ناحية ومن ناحية أخرى كانت تعمل لتقليص الإسلام : دين العزة والجهاد من كل مفاهيمه الحقيقية بتمسيحه وتحطيم أجنحته والقضاء على عمده الحقيقية ، من خلال هذه الكتابات الإسلامية التي تصدى لها الدكتور طه حسين من بشرية القرآن إلى إضافة الأساطير إلى السيرة النبوية إلى السخرية بأبي بكر وعمر وخالد وإلى وصف الصحابة بأنهم جماعة من محترفي السياسة ، وخاتمه ذلك كله إعطاء اليهود دوراً في الأدب العربي على النحو الذي يجعلهم أهلاً لقبولهم في فلسطين . كل هذا بصور أبعاد الدور الخطير الذي قام به طه حسين .

## الباب الثالث

### الفكر الإسلامى

- الفصل الأول : التربية والتعليم والثقافة .
- الفصل الثانى : الأزهر والخطوة الثانية .
- الفصل الثالث : الفرعونية وحضارة البحر المتوسط .
- الفصل الرابع : مستقبل الثقافة .
- الفصل الخامس : التراث ورسائل إخوان الصفا .
- الفصل السادس : الطعن فى الحكومة الإسلامية .
- الفصل السابع : قضيتان باطلتان : الأثر اليونانى والجبرية الاجتماعية .

• • •



# الفصل الأول

## التربية والتعليم والثقافة

( من دنلوب إلى طه حسين )

لا ريب أن هذا المجال هو أكبر مجالات التغريب الذى عمل فيها طه حسين خلال خمسين عاماً دون توقف ، ليس من خلال كتاباته وحدها ، بل من خلال المؤسسات سواء كان في وزارة المعارف ( مراقباً للثقافة ومستشاراً ووزيراً ) أو ( كلية الآداب ) أو كان مديراً لجامعة الإسكندرية أو مشرفاً عاماً للثقافة في الجامعة العربية أو رئيساً لمجمع اللغة العربية ، فكلها نوافذ لمبنى واحد استطاع طه حسين أن يذهب فيه إلى آخر المدى لفرض مناهج الغرب ومولفاته ومترجماته على تلاميذنا المسلمين في المدارس الثانوية والجامعية وفي مجال التأليف والثقافة والصحافة . ولقد كان أعرف الناس به في هذا المجال المستشرق هاملتون جب الذى أشار بعبارة واضحة إلى قدرة طه حسين على ( التغيير ) وليس فقط الوقوف عند حد التوجيه والكتابة حين قال :

ذلك أن طه حسين كان قد أعد إعداداً خاصاً ليكون قادراً على تغيير الأعراف الإسلامية السائدة وبث أعراف غربية بدلا منها عن طريق مجموعة من الأساتذة المبتوثين في المعارف والجامعات وقدرة فائقة على تغيير المناهج على نحو عرف به خاصة في مجال اللغة العربية والأدب العربى والتاريخ ، وكلها ترمى إلى غاية واحدة : هي سيادة الفكر الغربى وسيطرته واستيلاء مفاهيم المستشرقين وسمومهم على جميع فروع الفكر الإسلامى .

ومنذ وطأت قدم طه حسين الجامعة بدأ ذلك المخطط الذى رسمه في كلية الآداب ثم اتسع نطاقه في التعليم العام كله ، وكان من ثمرته وعصارة تجاربه خطة التغريب التى رسمها كتاب ( هو مستقبل الثقافة ) . فكانت بمثابة الخطة التى رسمها النفوذ الأجنبى متابعة لمخطط كرومر ودنلوب كمرحلة

جديدة لها بعد الاستقلال والتي جاء وقتها بعد توقيع معاهدة سنة ١٩٣٦  
والغاء الامتيازات التي كانت تحرس معاهد الإرساليات الأجنبية . ولم  
يلبث طه حسين بعد ذلك أن ولي أمر تنفيذ هذا البرنامج في وزارة المعارف  
وفي الجامعة معاً وأتيحت له الفرصة الواسعة وأعطى الإمكانيات المتعددة  
وكانت قاعدته واضحة :

( لا ينبغي أن نفهم أن الكلمة التي قالها إسماعيل وجعل مصر بها جزءاً  
من أوروبا قد كانت فناً من فنون التمدح أو لوناً من ألوان المعاصرة وإنما كانت  
مصر دائماً جزءاً من أوروبا في كل ما يتصل بالحياة الثقافية والعقلية على  
اختلاف فروعها وألوانها ) .

كما أوضح هدفه في قوله :

( أن نسير سيرة الأوروبيين ونسلك طريقهم لنكون لهم أنداداً ولنكون  
لهم شركاء في الحضارة خيرها وشرها ، وحلوها ومرها ، وما يجب منها  
وما يكره وما يحمد منها وما يعاب ، ومن زعم لنا غير ذلك فهو خادع مخادع ) .

وقد كانت خطته في مجال التربية والتعليم والثقافة واضحة محددة لبناء  
أجيال جديدة مغربة أولياء للغرب وللثقافة وهذه الخطوة هي :

**أولاً :** الدعوة إلى فصل الأدب عن دائرة الفكر الإسلامي .

**ثانياً :** الدعوة إلى فصل اللغة عن دائرة الفكر الإسلامي .

**ثالثاً :** الدعوة إلى تطبيق النظام الغربي السياسي ( الليبرالي ) الديمقراطي  
بما يستتر أهداف الصهيونية والفاشية والشيوعية .

**رابعاً :** الدعوة إلى وحدة البحر الأبيض المتوسط .

**خامساً :** الدعوة إلى فتح أبواب مصر والبلاد الإسلامية أمام الثقافات  
الغربية وفرض المناهج الوافدة .

**سادساً :** الدعوة إلى توحيد التعليم تحت لواء العلمانية وإلغاء الأثر .

**سابعاً :** الدعوة إلى تقبل الحضارة الغربية ( خيرها وشرها ... إلخ ) ،

ولكننا قبل أن نعرض لهذه الخطوة الواسعة في تغيير نظام التربية والتعليم  
والثقافة وهي الخطوة التي بدأت عام ١٩٣٨ تقريباً . فإن علينا أن نتعرف



على الآثار التي أحدثتها في التعليم الجامعي منذ تولاه عام ١٩١٩ في الجامعة المصرية القديمة ومنذ أنشئت الجامعة المصرية عام ١٩٢٥ .

(٣)

#### تغريب الجامعة

بدأت الخطوة بدعوة المستشرقين إلى تدريس مادة فقه اللغة العربية في الجامعة ( ١٤ أغسطس عام ١٩٢٣ ) حيث كتب الشيخ محمود أبو العيون في جريدة الأهرام : سمعنا أن الجامعة في حاجة إلى أستاذ لتدريس فقه اللغة فيبحث مجلس إدارتها عن ذلك الأستاذ الكفء القدير ، فلم يجده بين علماء المعاهد الدينية ولا بين علماء القضاء الشرعي ودار العلوم ولا بين التاهين ممن أتموا دراسة اللغة العربية في الجامعة وأصبحوا أساتذة فيها ، لم يجد هذا الأستاذ في مصر مهده اللغة العربية وكعبة قصاها ، بل وجده في معاهد العجم والوطانة في معاهد فرنسا وجد المسيو كازنو فامدرس العلوم الشرقية بباريس وجده أكفأ من الدكتور طه حسين والدكتور أحمد ضيف والأستاذ عبد الوهاب النجار وأكفأ من كل علماء مصر . فعز على مجلس إدارة الجامعة ألا تنتفع بعلمه في معاهد الشرق ، فاستدعته هذا العام لتدريس لغة أهلها لأهلها ، فهل سمع الناس بمثل ذلك الحادث الكبار ، وهل حدث مثل هذا في تاريخ مصر؟ أما والله إن صح الخبر لتكون سبة لمصر والشرق وعارآله وعمى . ورد ( توفيق ) سكرتير الدكتور طه حسين عميد كلية الآداب ، يقول : إن للمستشرقين من أهل أوروبا فضلا كبيرا على اللغة العربية والآداب العربية وعلوم الحضارة الإسلامية ، والذي يلفت النظر إنما هو طريقة أبحاثهم وأساليب تنقيباتهم ، وهي طرق وأحاديث لم تكن معهودة لنا ولا لأسلافنا من أهل العلم ، وفيها لا نجد الجرس الحار الذي نسمعه من أبناء اللغة العربية خصوصاً من أهل بلادنا مصر وفيه أحياناً شيء من الرطانة .

وأشار توفيق إلى أن جلالة الملك فؤاد وقد سعى سعيه حتى أتى بأساتذة من المستشرقين من فرنسا وألمانيا وإيطاليا منهم : ( سانتلاتا ) العلوم والفلسفة ، ( نالينو ) الآداب العربية وتاريخها ، ( ملبورني ) التاريخ الشرق ، ( ماسنبون ) لتدريس الفلسفة وتاريخها . ( فنيث ) لتدريس الأدب واللغة العربية ، ( ليتان ) لتدريس مقارنات اللغات السامية وغيرها .

وقال : ( ولا يضر مصر الآن أن تنتفع بالمستشرقين من أهل أوروبا لما هم عليه من علم وفنون وليس في جلب المستشرقين بالجامعة أى عيب لمصر والشرق ولا أى عار لا يمحى ، ولندكر ما كرره رئيسنا في الوطن سعد باشا في خطبه ورسائله من أن مصر ترحب بالعلماء والأخصائيين من أهل أوروبا لينتفع بهم ) .

وكتب الشيخ محمود أبو العيون يناقض هذه المغالطات في ١٦/٩/١٩٢٣ فقال : الذى نخالف فيه ونستبشع صنيعه ونعتبره ماساً بكرامتنا هو أن نستعين بغربي في تدريس فقه اللغة العربية وهي مادة اتسعت فيها المصنفات عندنا ومعاجم اللغة والقواميس المختلفة ، وإن كان ينقصها الترتيب والإحكام ولكنها على كل حال أصول وافية ومادة واسعة لا يمكن أن يكون للمستشرقين مهما استشرقوا معاجم اللغة العربية مبسطة جامعة كالتى عندنا ، ماذا أبقيت لعلائنا وأدبائنا إذا كانوا أعجز من استظهار ما بين أيديهم من أصول لغة يلهجون بها منذ كانوا أطفالاً ، ثم هم يتدارسونها في كتاب الله تعالى ومن كلام العرب بأعجب . أليس واحد من هؤلاء يستطيع أن يعلم أبناء الجامعة المصرية فقه اللغة العربية ، وأليس سبباً لمصر وعاراً لا يمحى أن تعرف بين الأمم بالفهم وأن يعجز علماءها عن تفهم أصول لغتها لأبنائها ، هاتوا من شتم من المستشرقين ليعلم التاريخ والفلك والفلسفة واللغات وشيدوا بذكرهم ما استطعتم ولكن نناشدكم الله ، ألا تسجلوا علينا العار والفضيحة باستدعاء مستشرقين لتعليم فقه اللغة العربية .

ثم كتب مرة أخرى في ٢٠/٩/١٩٢٣ : لم يكذبوا الخبر بعد ذبوعه ، إن مجلس إدارة الجامعة يتحدى الأمة في كرامتها وينزلها من علم مجدها بإسناد تدريس فقه اللغة العربية إلى أستاذ أعجمي النشأة غريب اللهجة وإثارة على كل لغوى في مصر وكل عالم وأديب في الشرق ، نعم تزدان الجامعة باسم المسيو كازنوف كاستاذ فيها ولكن على شريطة أن لا يدرس لغة نحن أحق بها وأهلها . هل الإنجليز أو الفرنسيين يفخرون بعالم مستغرب أن يدرس لغتهم في جامعتهم ؟ .

وبعد فإن كازنوفاً هذا هو أستاذ طه حسين الذى علمه تفسير القرآن

على النحو الذى اتخذه فى كتاب ( الشعر الجاهلى ) وتدرىس كتاب اللغة بوصفه كتاباً بشرياً من الأدب ، يقال فيه ما يقال عن كتب الأدب ويجرى الطلاب على نقده وكان طه حسين قد كتب فى السياسة ( ١٩٢٢ / ٩ / ١ ) يشيد بذكر أستاذه الذى استدعاه بأنه ليس رجلاً عادياً وإنما هو أستاذ فى اللغة العربية : فقهها وآدابها .

وإن هذا الرجل يخدم مصر فى تاريخها وآدابها خدمة لو قام بجزء منها نفر منا لكان أول من يكبرهم ودليله أن كازنوفاً يضع كتاباً عن تخطيط مدينة القسطنطينية .

قال الشيخ محمود أبو العيون : هذا الدفاع لفت نظرى إلى أن الدكتور يريد تقرير مبدأ غريب ، مبدأ لا يقره منتصف ، يريد بل يكاد يصرح بأننا لا نستطيع أن نستقل فى كل تعاليمنا ولا بد لنا من الأستاذة الأوربيين .

نفهم أننا نفتتح معاهدنا ونقرر أن العلم رحمة بين أهله ، ولكننا لا نفهم ولا نستطيع أن نفهم أن ليست لنا شخصية علمية بإزاء الأستاذة الغربيين فيقرر أننا محتاجون إليهم فى كل ما نتعلم حتى فى تفسير كتاب الله ، كما يقرر الأستاذ ، هذا لعمري غلو كبير وظلم وجهل بحياة الأمة . إن رأياً مثل هذا قد تمكن من نفس صاحبه بحسن كتمانها ، فإن ظهوره على هذا النحو معرة له وجهالة ، إذ كيف يصح الحكم على أمة عربية مثل مصر بأنها مجردة من كل كفاءة ومقدرة على تعليم أبنائها لغتها وعلومها الخاصة بها .

إن هناك فى البلد علماء أكفاء وأقدر على تدرىس فقه اللغة من المسيو كازنوفاً هناك سيد على المرصنى ، حسين والى ، أحمد باشا تيمور ، المهدي زنلو ، أحمد السكندري ، مصطفى العناني ، علام سلامة ، محمد عبد المطلب ، محمد شريف ، محمد الغمراوي ، العوامري ، جاويش ، عبد العزيز البشرى ، أحمد إبراهيم ، أحمد نجاتي ، أفليس عجباً أن يكون فينا مثل أولئك الأمجاد ثم نؤثر عليهم مستشرق يدرس اللغة العربية فى جامعة عربية لغير ضرورة ؟

ما أعجب ما أسمع من كلام طه حسين :

( ولقد أريد أن يعلم الناس أنى سمعت هذا الأستاذ ( كازنوف ) يفسر

القرآن الكريم تفسيراً لغوياً خالصاً فتمنيت لو أتيح لنا هذه أن نتجاوز باب الرواق العباسي ولو خلسة ليستطيع علماء الأزهر الشريف أن يدرسوا على طريقة جديدة نصوص القرآن الكريم من الوجهة اللغوية الخالصة على نحو مفيد حقاً .

شد ما أحسنت إلينا أيها الأستاذ بهذا الاستكشاف الحديث حقاً ، إننا في حاجة إلى مثل هذا العالم اللغوي ( الأعجمي ) الجليل ليدرس لنا كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وفي حاجة ماسة إليه لتدريس الشريعة الفراء وأصولها المستنبطة من الكتاب والسنة وفي حاجة أمس إلى مثله يعلمنا البلاغة العربية لأنه يعرف لغة القرآن وأسرار النزول .

أين نحن يا ترى وفي أي عالم نعيش ؟ لا شك أننا في عالم وهم وخيال وأننا سلطنا العقول وحجبنا عن الإدراك وعمينا عن الحقائق وأصبح الأعجمي بدوياً قحاً يعلم كتاب الله كما أنزل ، وأصبح العربي أعجمياً لا يعرف من لغة العرب شيئاً والأمر يومئذ لله .

لقد كنا في ريب مما يذيع الناس حول الجامعة بإزاء الحادث الجديد ، وكنا لا نكاد نصدق أن مثل الدكتور طه حسين في علمه وأدبه هو الذي يغري الجامعة إلى عمل لا يتفق مع شرف الأمة وكرامتها ، وكنا نتحدث أنه صبح الخبر فهو مبالغ فيه ، حتى أعلمنا الدكتور الخبر اللعين أن الحادث صحيح لا مبالغة فيه ، وهو الذي اقترح استدعاء المسيو كازنوفا ، وأنه ليس رجلاً عادياً ، بل هو فوق مرتبة اللغويين منا وأعلى منزلة من رجال الدين عندنا نحن بلينا بالتقليد الضار حتى أضيعت شخصيتنا ، وانتقلت بوجداننا ، ومشاعرنا وعواطفنا إلى ما نسميه مدينة غريبة .

### ( ٣ )

ويتحدث الأستاذ محمود محمد شاكر عن تجربة الجامعة فيقول : أنا لا أنفي عن نفسي أنني أهملت الدكتور طه حسين ، بتهمة أشنع وأبشع وأكبر ظاهرة تعرضت لذكرها هي قصة السطور على أفكار الناس وأقوالهم وقلت : إنها سنة سنّها الأساتذة الكبار وأن هذا السطر أتى على أيديهم على صورتين :

الأولى : سنة ( تلخيص أفكار عالم آخر ) ويقضي الأستاذ عمره كله في هذا التلخيص دون أن يشعر أنه محفوف بالأفكار ودون أن تستكشف أن ينسبه إلى نفسه نسبة تجعله عن الناس كاتباً ومؤلفاً وصاحب فكر وهذا ضرب من التدليس كبريه .

الثانية : سنة ( السطو ) المجرد من يعمد الساطي إلى ما سطا عليه ، فيأخذه ويمزقه ، ثم يفرقه في ثروة طاعية لتخني معالم ما سطا عليه وليصبح عند الناس صاحب فكر ومذهب يعرف به وينسب إليه كل فضله .

لقد أبلغت اليوم إلى ما أشققت منه قديماً من فعل الأساتذة الكبار . لقد ذهبوا بعد أن تركوا من حيث أرادوا أو لم يريدوا حياة أدبية ثقافية قد فسدت فساداً وببلا ، على مدى نصف قرن ، وتجددت الأساليب وتزوت وصار ( السطو ) على أعمال الناس أمراً مألوفاً غير مستنكر ، يمشى في الناس طليقاً عليه طليسان ، البحث العلمي وعالمية الثقافة ، والثقافة الإنسانية وإن لم يكن محصوره إلا ترديداً لقضايا غربية صاغها غرباء صياغة مطابقة لمناهجهم ومنايهم ونظراتهم إلى كل قضية ، واختلط الحابل بالنابل ، كل ذلك في الأدب والفلسفة والتاريخ والفن ، أو ما شئت فإنه صادق صدقاً لا يتخلف ، فالأديب عندنا مصور بغير قلمه ، والفيلسوف عندنا مفكر بعقل سواه ، والمؤرخ عندنا ناقل للأحداث بنظر غريب عن تاريخه ، والفنان عندنا نابض قلبه بنفص أجنبي عن تراث فنه .

ثم انتهى للدكتور طه بالسطو على عمل من الأعمال ( ما كتبه المستشرق مرجليوث عن قصة الشعر الجاهلي ) واستنكرت أن يكون ذلك في جامعة وأن الجامعة إذا قبلت هذا السطو وسكنت عنه فإنها تفقد هيبتها .

ليس شك الدكتور طه أزهرياً ولا ديكاريتياً ولا أسطورياً ، بل الذي في كتاب ( الشعر الجاهلي ) إنما هو ( سطو ) لا غير ومن ذلك أن الدكتور طه لم يؤلف بعد ذلك كتاباً واحداً يحمل ذرة من هذا الشك الذي زعم أنه منهج ، وهذه غريبة من الغرائب ، وعندما أصدر طه حسين كتابه ( مع المتنبي ) لم أصبر عليه صبري عليه في قصة سطوه على ( مرجليوث ) بل نشرت مقالات في جريدة البلاغ ( ٣ فبراير عام ١٩٣٧ - مايو ١٩٣٧ )

واتهمة بالدليل والبرهان على أن عاداته في السطو لم تزل قائمة في نفسه لا يستطيع أن يفارقها وزدت الأمر وضوحاً في مقدمة كتابي عام ١٩٧٧ قلت ذلك في حياته ، كما ترى مع وجود تهمة السطو بلفظها وبلا كتابة ، وسكت الدكتور طه حسين لأنه لم يستطع أن يبنى عن نفسه التهمة ولا استطاع ذلك يومئذ تلاميذه المنتشرون على طول الساحة العربية لإزاء هذا الهجوم الذي يكال لأستاذهم العميد وقلت في جميع ذلك : إن الدكتور طه وسائر الأساتذة الكبار الذين تعودوا السطو هم الذين نشروا هذه السنة فصارت سنة سيئة متبعة إلى يومنا هذا بلا حياة في جميع حياتنا الثقافية ) .

ومما يضاف إلى هذا أن الدكتور محمد نجيب البيهبي : أكبر تلاميذ الدكتور طه حسين التصاقاً به في هذه الفترة في كتابه الضخم ( مدخل إلى الأدب والتاريخ العربي ) يشير في وضوح إلى ظاهرة السطو وإلى تلاميذ طه حسين الذين مكنهم من السطو على كتابات غيرهم . إذن فهي قضية ضخمة جديرة بأن تبحث في إطار التحديات التي تواجه التعليم الجامعي .

#### (٤)

وقد كشف السيد رشيد رضا ( المنار م ٣٢ / ص ٢٩٩ ) عن مخططات النفوذ الأجنبي من ( دنلوب إلى طه حسين ) فقال :

كان هم الاحتلال من السيطرة على المدارس تخريج نشء جديد لا هم لهم من الحياة إلا التمتع باللذات الجسدية والزينة في اللباس والأثاث والرياش والتنافس في خدمة الحكومة والتوسل إلى ذلك بالشهادات المدرسية والتحق للروساء المسيطرين من الإنجليز . وأهم ما عني به المسيطر على وزارة المعارف ألا وهو القسيس مسٹر دنلوب أن يطمس كل أثر للدين الإسلامي في المدارس الأميرية وألا يدع للتربية الإسلامية ولا التعليم الديني منفذاً يشرف منه على القلوب بنشر الإلحاد والإباحة أن تنفث سمومهما في إفساد الأخلاق وعبادة الشهوات وعدم الخضوع لأى سيطرة أجنبية أن تتمكن من الأذهان وتتغلغل في أعماق الوجدان وإهلاء للمعلمين والمتعلمين عن ذلك بمظاهر التربية الوطنية الإقليمية التي تفصل بين مسلمي مصر ومسلمي سائر الأقطار ، ولا سيما العربية . وقد نجح دنلوب في سياسته أتم النجاح وشغل المدارس

بالألعاب الرياضية الجسدية عن ترويض الأرواح ، وكان أن طبع وزارة المعارف بطابع سياسته ووجهها شطر مقصده ، حتى جاء الاستقلال المقيد ، وصار أمر التعليم في أيدي الوطنيين . كان بعض وزراء المعارف من بعده شراً على التربية والتعليم مما كان في عهده ، بل نهضة وزير منهم لإصلاح التربية الدينية ومقاومة نزعات التفرنج وصد تيار الإباحة والإلحاد الذي يقذف بالآمة في فوضى الأخلاق والفساد وأعجب من هذا أننا لم نر من حزب من أحزاب البلاد السياسية ومن تقاليد الحكومة طريقة متبعة في اختيار وزير المعارف من رجال الإصلاح المسالي والأدنى الذين يهمهم حفظ دين الآمة والدولة ووقايتها من الفساد والفوضى ، وكان مثار العجب أن جعل الأستاذ أحمد لطفي السيد المحامي وزيراً للمعارف حتى إذا ما تبوأ هذا المنصب مراد سيد أحمد القاضي الأهلي زال العجب ، واعتقد كل غيور على الدين أن الحكومة المصرية متعمدة القضاء على هداية الدين في الآمة بتربية بنينا ، وبناتها على الإلحاد والإباحية المطلقة .

لئن كان الدكتور طه من سينات الأول بتغذية مبادئ الإلحاد في نفسه وتجرئته على بنينا معالجة أولاً وفي دروسه في الجامعة أخيراً ، فإن الثاني قد ابتدع في وزارة المعارف من فنون التربية على الإباحة وإلغاء جلايب الحياء والصيانة من رفض التهلك والخلاعة وتصوير الشبان والشواب مجردين ومجردات من الثياب ما يتضاءل أمام ذلك الإفساد القوي .

ليس بكثير على مثل مراد سيد أحمد أن يعترض ارتقاءه إلى منصة وزارة المعارف مبتدعاً منها تعليم الناشئة المصرية من البنين والبنات التمثيل الإباحي والرقص التوقيعي وتربيتهم على التجرد من الثياب بحجة الترقى في صناعة التصوير ، وهو هو الذي كان قاضياً فرغت إليه قصة رجل يطلب فيها عقاب أستاذ في المدارس على التصدي لمغازلة امرأته وإفسادها عليه بمخاطبته ليأها في الطريق بعبارات التصبي والاستمالة فحكم القاضي الذي ارتقى من كرسى القضاء إلى كرسى حب الجمال وهو فضيلة من الفضائل ، وأن القانون هو مظهر من مظاهر حب الجمال وهو فضيلة من الفضائل وأن القانون يعاقب

على الرذائل فحكم ببراءة الفاسق المتصدى لإفساد نظام الزوجية وكفى به  
إفساداً للأمة . الغريب المريب أن يجعل مثل هذا القاضي المجدد الإباحي وزيراً  
للمعارف . ولقد ظننت أن الحكومة المصرية قد أجمعت أمرها على إلقاء  
هذا الشعب المتدين في فوضى الإباحة المطلقة وقذفه في تيهور الإلحاد والزندقة .  
وقد أبطل حلمي عيسى البدعتين الإباحيتين فعلمنا أن ابتداعهما كان بسوء  
رأى الوزير ثم إن هذا الرجل جعل طه حسين عميد كلية الآداب في الجامعة  
مفتشاً للغة العربية في الوزارة فأخرج من الجامعة التي كان يبيت فيها إلحاده  
فكان لإخراجه ضجة شديدة .

( ولقد تبين من مذكرات الدكتور الزيات ) ما بعد الأيام ) أنه كانت  
هناك علاقة وثيقة بين الدكتور طه حسين ومراد سيد أحمد في خططهما .  
هذا في وزارة المعارف وهذا في الجامعة ) .

قدم الدكتور عبد الحميد سعيد استجواباً في مسألة طه حسين استنكاراً  
لبقائه في وزارة المعارف واستقال أستاذه ومربيه أحمد لطفي السيد . إن طه  
حسين خدم دعاة النصرانية بالصد عن الإسلام وبعثه عوجاً وقلد فلاسفة  
الإفرنج في الشك والتشكيك وهو ضرب من السفسطة قديم . ولعل سبب  
تأييد بعض الملاحدة له أنهم رأوه متوغلاً مستهتراً لا يبالي في سبيل الشهرة  
بالإلحاد والإباحة ذماً ولا عاراً وهم حريصون على نشر هذه الدعوة في الجامعة  
المصرية ليهدموا بمعاول المتخربين منها كل ما بقي للإسلام في مصر من هداية  
دينية وحسية عربية فهم أرادوا جعل الجامعة حرباً على الأزهر والمعاهد  
الدينية وعلى دار العلوم ، وصرحوا بأن ثقافة الجامعة المصرية ستحل محل  
ثقافة الأزهر الدينية في مصر ، وكان أظهر الأسباب لعناية أولئك الملاحدة  
يبث دعايتهم في الجامعة هو اعتمادهم أن الشعب ما زال يغلب عليه الدين » .

#### ( ٥ )

هذه صورة وتلك صورة أخرى مكتملة : هي صورة الأسلوب المتبع  
في داخل كلية الآداب فيحدث عنه واحد من أوائل طلبة كلية الآداب  
( محمود محمد شاكر ) . يتحدث عن خطورة العمل الذي قام به الدكتور  
طه حسين في الجامعة وهو :



## تفريغ العقل العربي من الثقافة الإسلامية

يقول : من بين الاتهامات المبالغ فيها والمسئول عنها طه حسين : التهمة البغيلة التالية : « إذا كان هناك تخريب في الثقافة المصرية فإن المسئول عن هذا التخريب هو الدكتور طه حسين ، لأن تشكيكه في الثقافة العربية (الإسلامية المصدر) قد أحدث نوعاً من التفريغ في العقل العربي » .

الذي أطلق هذه التهمة هو الأستاذ شاكر وهي تهمة تعطى لطه حسين من التأثير السلبي والخطورة السلبية أكثر مما تعطيه للاستعمار والصهيونية وقوى التخريب المختلفة .

يقول الأستاذ شاكر : أما التهمة التي ذكرها ووضعها بين الأقواس فهي إشارة إلى ما كتبه في مقدمة كتابي (المتنبي) وتعرضت لما سميت (التفريغ) وهو اللفظ الموجود في التهمة التي بين الأقواس .

إن قضية الشعر الجاهل قد دخلت بي دروباً وعرة شائكة وكلما أوغلت انكشفت غنى غشاوة من العمى ، وأحسست وأنا والجيل الذي أنا منه وهو جيل المدارس المصرية . قد تم تفريغنا تفريغاً يكاد يكون كاملاً من ماضينا كله . من علومه وآدابه وفنونه ، وتم أيضاً هتك العلائق بيننا وبينه ، وصار ما كان في الماضي متكاملًا متأسكاً فرقاً متفرقة ، متبعثرة تكاد تكون خالية عندنا من المعنى والدلالة ، ولأنه غير ممكن أن يظل الفارغ فارغاً أبداً فقد تم ملء الفراغ بجديد من العلوم والآداب والفنون ، لامت إلى الماضي بصلة .

القصة : منذ عهد محمد علي وحفيده إسماعيل حتى جاء الاحتلال الإنجليزي في سنة ١٨٨٢ وبمجيئه سيطر الإنجليزي سيطرة مباشرة على كل شيء . وعلى التعليم خاصة إلى أن جاء دنلوب ( في ١٧ مارس عام ١٨٩٧ ) ليضع للأمة نظام التعليم المدمر الذي لا تزال نسير عليه مع الأسف إلى يومنا هذا ، ثم تبنت وسائل التدمير التي ارتكبتها الاستعمار في حياتنا ، وما أدى إليه من التدهور السريع المتتابع حتى قلت : « وكذلك كان مقدراً لجيلنا نحن جيل المدارس المفرغ أن يتلقى صدمة التدهور الأولى لأنه نشأ في دوامة دائرة من التحول الاجتماعي والثقافي والسياسي . وفي ظل هذا كله انتعشت الحياة الأدبية

انتعاشاً غير واضح المعالم ، وأقول غير واضح المعالم ، لأن الأساتذة الكبار الذى انتعشت على أيديهم هذه الحركة ( ومنهم بالطبع طه حسين وغيره ) كانت علاقتهم بثقافة أممهم غير ممزقة كل التمزق ، أما نحن — جيل المدارس المفرغ — فقد تمزقت علاقتنا بها كل التمزق ، فصار ما يكتبه الأساتذة فيما له علاقة بهذه الثقافة باطلاً أو كالباطل ، فهو لا يقع منا من أنفسنا بالموقع الذى ينبغي له من الفهم ومن الإثارة ، أما ما أخذته جيلنا عنهم ، فهو الاتجاه الغامض إلى المعنى المبهم الذى تضمنته كلمة ( التجديد ) وإلى هذا الرفض الخفى ، للثقافة التى كان ينبغي أن ننتمى إليها وإلى الانحياز الكامل إلى قضايا الفكر والفلسفة والأدب والتاريخ ، التى أولع الأساتذة بتلخيصها لنا ، لكنى نلحق بثقافة العصر الذى نعيش فيه ، ومناهجه فى التفكير كما صبروا لنا ذلك من خلال ما يكتبونه وغاب عن الأساتذة الكبار أن الزمن الدوار هو الذى سيتولى الفصل بينهم وبين أبنائهم الصغار الذين كانوا يتعلمون اليوم على أيديهم .

لقد أردت أن أقيد ما كان مما شهدته بين أعوام ( ١٩٢٨ — ١٩٣٦ ) بل إلى ما بعد ذلك إلى يومنا هذا . وهذه شهادتى أنا على جيل الذى أنا منه ، وهو جيل المدارس الذى فرغ من ثقافة أمته ، وتقطعت علاقته بينه وبين حضارتها على وجه يشع لا تزال آثاره هى الغالبة إلى يومنا هذا .

أما كتاب ( الشعر الجاهلى ) وأثره فى جيلنا نحن ، جيل المرغين وما ألقاه علينا وقاله الدكتور طه وزعم أنه « منهج الشك » فقال فيما قال عن هذا المذهب بلغظه من كتاب الشعر الجاهلى :

« إن هذا المذهب سرف يقلب العلم القديم رأساً على عقب وأخشى — إن لم يمسح أكثره — أن يمحو منه شيئاً كثيراً أو يثبت ما قاله بعد ذلك ، مما يدل على الاستخفاف بكل شئ ، وقيدته بنصه فى كتاب ( الشعر الجاهلى ) . والاستخفاف الذى بنى عليه الدكتور طه حسين كتابه معروف ، أما الذى كان يقوله فى أحاديثه بين طلبته فكان استخفافه عندئذ يتجاوز حدة حتى يبلغ بنا إلى الاستهزاء المحض بأقوال السلف ، وأما الذى كان يدور بين طلبته المرغين من ثقافتهم ، فكان شيئاً لا يكاد يوصف لأنه كان استخفاف جاهل واستهزاء خاو ، وكانت العقابرة وخيمة جداً . حين كبر هؤلاء الصغار

وحاولوا أن يزاحموا الأساتذة الكبار في موقع الأستاذية ولكنهم لم يسيروا سير الأساتذة في معالجة القديم بل كان الغالب على أكثرهم هو رفض القديم والإعراض عنه والانتقاص له والاستخفاف به .

وهناك أحس الدكتور طه حسين بهذا الخطر الذي تولى كبر أحداثه ، ففي يناير سنة ١٩٣٥ بعد تسع سنوات من صدور كتابه في الشعر الجاهلي ، بدأ ينشر في الجهاد مقالات كان محصلها رجوعاً صريحاً من ادعائه الأول في سنة ١٩٢٦ الذي أعلنه في كتابه ، وهو قوله « إن الكثرة المطلقة مما نسميه شعراً جاهلياً ، ليست من الجاهلية في شيء ، وإنما هي متحلة مختلفة بعد ظهور الإسلام فهي إسلامية تمثل حياة المسلمين وميولهم وأصداءهم أكثر مما تمثل حياة الجاهليين وأكاد لا أشك في أن ما بقي من الشعر الجاهلي الصحيح قليل جداً . لا يمثل شيئاً ولا يدل على شيء » .

وقد ثبت أن الدكتور طه حسين قد رجع عن أقواله التي قالها في الشعر الجاهلي ولكنه لم يكتب شيئاً صريحاً يبرأ به مما قال أو كتب ، وكانت هذه عادة الأساتذة الكبار بخطون في العلن ويترعون من خطتهم في السر . .

هذا الجيل المفرغ هو الجيل الذي تلقاه الدكتور طه حسين في الجامعة منذ سنة ١٩٢٥ وأنا واحد منه ، إن الدكتور طه حسين تلقى هذا الجيل المفرغ والأجيال التي تلت من المفرغين أخطأ خطأ شنيعاً حين قال له ما قال في قصة الشعر الجاهلي وبالضرورة التي قالها مثبتة في كتابه ( الشعر الجاهلي ) وفي كتابه المعدل ( الأدب الجاهلي ) ثم تهوره حين طالبهم باتباع ما زعمه مذهباً ، وأنه هو الذي سوف يقلب العلم القديم رأساً على عقب ، وأخشى إن لم يمح أكثره أن يمح منه شيئاً كثيراً .

إن الدكتور طه حسين قد تبين هذا الخطر الذي تولى كبره بعد تسع سنوات لأكثر فكتب أو أملى شهادة على هذا الجيل المفرغ بعد أن فارغ الجامعة وبدأ يسامى الأساتذة الكبار ويحاجبه برفض كل شيء ، فكانت شهادة من أستاذ كبير شهادتها من موقع الأستاذية وكانت فحواها مطابقة لشهادة واحد من هذه الأجيال التي تلقت التفريغ في نظام دنلوب ومدارسه شهادتها من موقعه في هذا الجيل المفرغ » .

وقد أشار الدكتور على سائى النشار عن خطة الدكتور طه حسين فى التعاليم الجامعى فقال : « التجديد » فى جعل مناهج الدراسة فى الجامعة هى المناهج الأوروبية ؛ التجديد هو دعوة إلى مساهمة الأوربيين فى تفكيرهم وفى نظرتهم إلى الحياة ، وفى فصل الدين عن السياسة ، وفى إبعاد الدين واللغة عن مجال الترابط وذلك فى قوله « إن تطور الحياة الإنسانية قد قضى منذ عهد بعيد بأن وحدة الدين ووحدة اللغة لا تصلحان أساساً للوحدة السياسية ولا قواماً لتكوين الدول » والجامعة عند الدكتور طه حسين إنما تمثل العقل العلمى ومناهج البحث الحديثة ويتصل اتصالاً ممتداً بالحياة العلمية والأدبية وتسعى إلى إقرار مناهج التفكير الحديث شيئاً فشيئاً فى هذا البلد على حد تعبير الدكتور محمد الببى . وعمله الخطير فى إقرار تعليم اللغتين اللاتينية واليونانية ، وعمله الخطير الآخر هو تغريب مناهج الثانوى « ليعيد الشباب قبل دخول الجامعة . وذلك قوله :

« إن التعليم العالمى الصحيح لا يستقيم فى بلد من البلاد الراقية إلا إذا اعتمد على اللاتينية واليونانية على أنهما من الوسائل التى لا يمكن إهمالها أو الاستغناء عنها » .

وهو القائل بأن العقلية المصرية أوربية أو قريبة قريباً شديداً من الأوربيين ولها اتصال وثيق بالعقلية اليونانية وبعيدة كل البعد عن العقلية الشرقية : وقوله إن العرب والإسلام طارئ كالفرس والرومان ، وقوله : إن التعامل مع الغرب هو أن نسير سيرتهم ونسلك طريقهم لنكون لهم أنداداً ولنكون لهم شركاء فى الحضارة : خيرها وشرها ، وحلوها ومرها وما يحب منها وما يكره وما يحمد منها وما يعاب ، وقوله : ( مصر الحديثة تقرم على مصر الخالدة الفرعونية ) ، وقوله : ( والعقل المصرى اتصل بالعقل اليونانى منذ عصوره الأولى اتصال تعاون وتوارث وتبادل يستمد معظم المنافع فى الفن والسياسة والاقتصاد . العقل المصرى منذ عصوره الأولى ، عقل إن تأثر بشئ فإتأثر بتأثر بالبحر الأبيض المتوسط . وإن تبادل المنافع على اختلافها قائم بتبادلها مع شعوب البحر الأبيض المتوسط ) ، وقوله : ( إنه أصل من أصول الحياة الحديثة . إن السياسة شئ والدين شئ آخر ) . وقوله :

(إنه ليس بيننا وبين الأوربيين فرق في الجوهر ولا في الطبع ولا في المزاج فأنا لا أخاف على آخرين أن يفتدوا في الأوربيين) ، وقوله : ( والتجديد هو مسامرة للغربيين في كل شيء ، وهو أخذ كل ما عند الغربيين من فكر ومنهج للبحث وحضارة وعادات وتقليد في فصل الدين عن السياسة ) .

هذا هو المنهج الذي فرض على الجامعة أن تعتنقه .

وقد كانت البقطة الإسلامية هي مصدر المقاومة الحقيقي لهذه الفلسفة العلمانية الخطيرة . فقد كشفت عن زيف دعوى الفصل بين الدين والسياسة ، وزيف الاقتباس الخطير على النحو الذي دعا إليه طه حسين ، وزيف ربط العقل المصري بالبحر المتوسط والغرب مع أنه مرتبط منذ أربعة عشر قرناً بالإسلام ومصادره وقرآنه ولغته العربية وأمته الإسلامية التي نشأت حول البيت الحرام ، وخالفه مصطفى عبد الرازق في قضية الفلسفة فكشف عن زيف القول : بأن الفلسفة العربية فلسفة يونانية، وأعلن أن الإمام الشافعي هو المعلم الأول للمسلمين وليس أرسطو ، وكيف أن منطق أرسطو يخالف المنهج الإسلام ولا يصلح له ، وأن للقرآن منهج خاص كشف عنه الإمام ابن تيمية ، ولم يكن منهج طه حسين مرتبطاً بطريق جمال الدين . ومحمد عبده فقد كشف عن نشوذه عن هذا الطريق إلى طريق التفریب الخالص .

ولقد كتب بعض الباحثين كيف حول طه حسين الجامعة من عمل إسلامي أصيل إلى مباءة للإلحاد والإباحة فقال : إن مصطفى كامل والرعييل الأول من الوطنيين الذين دعوا وتبرعوا لإنشاء الجامعة ما كانوا يظنون أن مشروعه لا يلبث أن يتحول إلى عمل تفریبی خطير وأن يعود طه حسين من وراء البحار ليبشر في أنحاء المعهد بآراءه المصادمة لنصوص القرآن والإسلام والدين في كتبه الأدب الجاهلي وحديث الأربعاء الذي يصور المجون والفجور في طائفة من الشعراء ومستقبل الثقافة، ولم تكن هذه الآراء التي نشرها طه حسين إلا آراء بعض المبشرين الداعين إلى هدم مقومات هذه الأمة وفكرها .

وكشف الدكتور زكي مبارك خطة طه حسين في تفریب التعليم العام والتعليم الجامعي : ( الرسالة في ٢٥ / ١٢ / ١٩٣٩ ) وذلك عندما عين

طه حسين مراقباً للثقافة . قال : أتكون جئت وفي يمينك كتابك ( مستقبل الثقافة في مصر ) إذا كان ذلك فاعلم أن هذا الكتاب لا يصلح أساساً لعملك الجديد فقد ناقشه الناقدون من كل جانب ولم يتركوا فيه أديماً صحيحاً .

وكتب عنه عبد السلام الكرداني، ساطع الحصري، وقال زكي مبارك: أنت صرحت مراراً كثيرة بأن العقلية المصرية عقلية يونانية ، وأن تلك العقلية يجب مراعاتها في التعليم والثقيف . أفطن أن هذا الأساس لا يزال صالحاً لأن تقم عليه عملك الجديد ، وأنت دعوت إلى تعليم اليونانية واللاتينية بحجة أنهما أصل للخضارة الأوربية . فهل تظن أن هذه الدعوة لا تزال لها في مصر والشرق مكان ؟

لقد سمعت للسيطرة على السنة الترجيحية . أردت أن تفرض على الطلبة دراسة نقد النثر لقدامه ، فهل تظن أن نصوص هذا الكتاب مما تسبغه عقول الطلبة في السنة الخامسة الثانوية . كان يجب أن تشتغل بالتدريس في القسم الثانوي سنة أو سنتين قبل أن ترسخ نفسك لوضع منهج الأدب بالمدارس الثانوية .

لقد سمعت سعيك أن يكون منهج الأدب في السنة الخامسة خلاصة لتاريخ الآداب اليونانية واللاتينية ، وأتعبت نفسك في تأليف مذكرات يستعين بها المدرسون على فهم ذلك المنهج الطريف ، فهل تستطيع أن تدلني على أمة واحدة كان فيها منهج الأدب القومي خلاصة لآداب أمة أجنبية . هل تذكر خرافة ( تيسير النحو ) التي شغلت بها وزارة المعارف ؟ وهل تذكر أين صارت تلك الخرافة من غيابات التاريخ ؟ وهل تذكر ما قوبلت به من السخرية في الشام والعراق ؟

كيف جاز عندك أن تدرس الخطب القديمة في وطن ديموسين قبل أن تدرس الخطب الحديثة في مصر ؟ وكيف صح في ذهنك أن تدرس مجادلات الأحزاب في أثينا قبل أن تدرس مصاولات الأحزاب في القاهرة وبغداد ؟

(٧)

روايتان في كلية الآداب تطعنان في الرسول صلى الله عليه وسلم

كتب الأستاذ محمد المهياوى ( ١٦ مارس عام ١٩٣٩ ) جريدة المنبر :

قررت كلية الآداب بين كتب الدراسة روايتين إنجليزييتين في موضوعهما- طعن على الإسلام وعلى الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ، وتقرير كتب الدراسة لا يكون إلا عن إحاطة بموضوعاتها ومعرفة لما فيها ، فن هو أو من هم في كلية الآداب ؟ هؤلاء الذين وضعوا بالتعمد والقصد بين يدي أبناء المسلمين في هذه الكلية قذف الإسلام والطعن على رسوله الصادق الأمين ليكونا موضوع دراسة وثقيف . في هذا يقول عميد الكلية ( الدكتور طه حسين ) :

( نحن نعلم آداب اللغة الإنجليزية ، فهل من أجل عبارات الطعن في الإسلام تمنع تدريس هذه الرواية ، وليس الدين الإسلامى من الضعف إلى حد عدم احتماله مثل هذه العبارات ؟ ) .

فهذا العميد إذن هو صاحب التعمد والقصد ، وقد يكون في تعمده وقصده ، تابعاً للمدرس أجنبي يعرف هاتين الروايتين بالذات ويعرف ما فيها على وجه التخصيص من مواطن الضعف في الإسلام ورسوله ، فهو في اختياره لها سوء النية مثلما أنه متعمد سوء نيته . هذا الاستفهام الإنكارى الذى يوجهه الدكتور طه بقوله : فهل من أجل عبارات طعن في الإسلام يمنع تدريس الرواية ؟ هذا الاستفهام ما معناه ؟ معناه : أنه يرى أن تدريس هذه الرواية أعز وأكرم من الإسلام ورسوله ، فلا يصح أن يمنعوا تدريسها ليعصونوا عرض كليتهم من أن يتناوله الطعن في شيء ، ويرون أن تدريس الرواية أعز منه وأكرم ، ولكن المسألة أعمق غوراً من هذا الاستخفاف الحقيقى وذلك أن لها جوانب نعرض منها ما يأتى :

**أولاً :** إن أساتذة اللغة الإنجليزية أجانب مسيحيون ، فن الذل والهوان للدولة الإسلامية ولأبنائها جميعاً أن يقوموا من الطلبة المسلمين مقام الأساتذة يشرحون لهم مرائى الطعن . ويمتنحونهم فيه ويميزوهم على حذقه وحسن فهمه بالفوز والنجاح .

**ثانياً :** إن الطعن في الإسلام ورسوله جريمة كبرى عند المسلمين كافة ، فكيف يصح أن تتكرر صورها في الدراسة في بلد دينه الإسلام ؟

ثالثاً : إن هذا الطعن نفسه معدود في القوانين المصرية جريمة لها عقوبتها ، فكيف تصبح هذه الجريمة أدباً يتلقاه أبناء المسلمين في كلية الآداب باعتبار أن هذه الجريمة دراسة جامعة عالية ، صحيح أن الإسلام ليس من الضعف بحيث تؤثر فيه هذه العبارات ولكن من العزة بحيث لا يحتمل الطعن فيه وفي رسوله صلى الله عليه وسلم .

فهذا التخريب الذي أراد الدكتور طه أن يفر به من فظاعة الجرم يوقعه في المسؤولية أكثر مما يعينه على الفرار ، على أن شدة الخطر ليست في الطعن ذاته . فهذه الرواية ليست أول كتاب بسط فيه السفهاء الستهم بالطعن في الإسلام ورسوله الكريم صلى الله عليه وسلم ، ولكن الخطر الشديد فيما دلت عليه الحوادث من الكيد للإسلام والتبذير له بقصد سوء نية ، فند تذرع الدكتور طه بحرية الفكر لتكذيب القرآن في كتابه ( الشعر الجاهلي ) لم تفتر نفسه عن التذرع بهذه الحرية نفسها إلى غاية يشهد الإلحاح في طلبها إنها مقصودة بالذات ، غير أن حرية الفكر أجل وأصون من أن تصبح جريمة أو تعين على جريمة ، فإذا هي انتهت إلى ذلك انسلخت عن نفسها ، فلم تعد هي الحرية العزيزة على النفوس ولم يبق لها من عدل الجزاء غير العناء ، ولا يتورع عميد كلية الآداب عن أن يدلس حين لا يعرف كيف يستر التدليس فهو يزعم فيها وردت عنه الصحف أن أحد المدرسين اختار من نفسه هذه الرواية ، فلولا أن الطلبة غضبوا لدينهم لبقيت الغاية في طريقها الأخرى : طريق الطعن في الإسلام واستدراج أبنائه باسم الثقافة وحرية الفكر إلى سوء الظن به والاطمئنان إلى قبول الطعن فيه وهذه نفسها هي طريق المبشرين ، وما دام الدكتور طه لا يريد أن يريح نفسه من عناء الأمل الذي ملأ جوانب كثيرة من صدره فستبقى حوادث النيل من الإسلام تابعة له أينما كان ، وسينقى أن تعرف الأمة هل تحرص الحكومة على طه حسين لأنه أغبر عليها من دين الله في شخص رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولا ريب أن هذا القول يكذب ما ذهب إليه الدكتور محمد حسن الزيات في مذكراته حين قال : أراد أن يبرر وجود الكتاب في أيدي الطلاب كذلك فإن الزيات أنكر واقعة اعتداء الطلاب على العميد ومحاصرتهم له في غرفته وهي واقعة ثابتة في محاضر الدوايس ( م ١٢ ) الفتح حيث أشارت



إلى أنه قد غرم ثلاثة هم عبد العزيز الشوربجي . وعبد الوهاب حسني ،  
وحزرة السيوني كل منهم خمسين قرشاً لاعتدائهم على طه حسين مع وقف  
التنفيذ . أما الدكتور الزيات فيصف الحادث على أنه تجهير خفيف وذلك  
حتى يحفظوا شرف الدكتور العميد الذي اعتدى عليه فعلاً واستقال .

( ٨ )

#### داعية إلحاد وشيوعية :

ونشر الأستاذ محمد الهياوي في جريدة المنبر في ( ٢٧ / ٤ / ١٩٣٩ )  
تحت هذا العنوان فصلاً مطولاً جاء فيه : أماي الآن مراجع تلقى على الدكتور  
طه تهمة الإلحاد وتهمة به والدعوة إليه ، ولست أريد أن أظلم الرجل من غير  
حجة ولا دليل . ولا تستقيم الحجة فيما أرى قبل أن تسبقها مقدماتها من الوقائع  
المروية على سبيل التسلسل الزمني . وسأحاول أن أصل مع القارئ إلى الغاية  
التي يؤدي إليها البحث النزيه . أريد أن أرى مع القارئ ما هي حرية الفكر  
وإلى أين ينتهي مداها ، وما هي الحدود أو القيود التي يجب أن نقف عندها  
ونحمل عليها ؟

اتخذت شرائع الاجتماع والقانون فيما انتهى إليه التفكير الحديث للجماعة  
البشرية في حدودها الخاصة اسم ( الهيئة للاجتماعية ) وجعلت لها على الفرد  
حق الخضوع والطاعة والتوقير ، وفرضت للاعتداء عليها عقوبة لا تزال  
السلطة القضائية تمضيها في جناة هذا الاعتداء .

والفكر عارض في الإنسان لا ينتهي إلى حد معين من الخير والشر ،  
فالذي يسرق مالا أو يحرق زرعاً أو يقتل إنساناً مظلوماً لا بد له قبل الإقدام  
على الجريمة أن يفكر فيها ويفكر في الوسيلة التي يتم بها ويفكر في سبيل القرار  
وطريق النجاة .

الدكتور طه وأمثاله يعترضوا طريق الناس في كلية الآداب وفي أندية  
البحث والنظر أو في الصحف والمجلات أو في الكتب الموضوعية والرسائل  
المؤلفة ليقولوا : إن حديث الكعبة في القرآن حديث خرافة ، وإن الدين  
لم ينزل من السماء ولم يهبط به وحى الله على رسله وأنبيائه ، وإن العلم لا يتفق  
مع الدين إلا أن ينزل الناس على دعوى أن هناك إلهاً معبوداً هو الذي شرع

الدين لعباده ، وأن الله أنبياء ورسلا هم الذين جاءوا بتبليغ هذا الدين ، فحرية الفكر حين ترى القلوب والعقول بجريمة هذا الاعتداء ، فأنما يفعل ما تفعله حين ترى حياة الناس المادية ومنافع دنياهم بجريمة الاعتداء نحو السرقة والقتل ، فهي تعتدى على الهيئة الاجتماعية اعتداء يأبى العقل والعدل إلا أن يضرباها به الضرورة التي تلزم حدودها .

ما شأن الدكتور طه حسين فيما نسب إليه اليوم ، وما شأنه فيما صدر عنه : أن حديث بناء الكعبة في القرآن خرافة لأن قصة وجود نبي الله إبراهيم موضوعة وهي قصة موضوعة لأن مصاحح التاريخ لم يثبتها .

القرآن في نفسه كتاب كأي كتاب آخر مؤلفه أي إنسان فهو قابل للنقد والتجريح فانظروا فيه أيها التلاميذ .

لم يكن هذا كل ما يثبت في شأن الدكتور طه أمس ، ولكن بعض ما ثبت في شأنه . أما اليوم فالجديد أدهى وأمر .

ففي كتاب أو تقرير وضعه دعاة الشيوعية والإلحاد أن الدكتور طه ألحق نفسه بجماعة قوية غرضها بث الإلحاد في نفوس الشباب وتحطيم الإيمان في قلوب الناس ، وقيل : إن هذه الجماعة تمهد بهذا الغرض إلى الشيوعية . وقيل : إنها تطلق بالمال ألسنة الدعاة وأقلامهم ، وقيل : إن الدكتور طه كان أحد اثنين أطلقا لسانيهما وراء هذا الغرض وأجريا قلمهما في سبيله .

يقول الدكتور طه في كتاب أرسله إلى الأستاذ هيكل باشا قبل أن يلي الوزارة : الدين حين يثبت وجود الله ونبوة الأنبياء يثبت أمرين لا يعترف بهما العلم ، وإن العالم ينظر إلى الدين كما ينظر إلى اللغة وإلى الفقه وإلى اللباس من حيث إن هذه الأشياء كلها ظواهر اجتماعية يحدتها وجود الجماعة وتتبع الجماعة في تطورها وتتأثر كالجماعة بمختلف المؤثرات كالبيئة والإقليم والوضع الجغرافي ، وأن النتيجة إذن أن الدين في نظر العلم الحديث ظاهرة اجتماعية فهو لم ينزل من السماء ولم يهبط به الوحي ، وهذا كتاب جديد وضعه بالإنجليزية ( روم لاندو ) وأثبت فيه حديثاً جرى له مع الدكتور طه وفيه يعود الدكتور ليؤكد أن الإسلام لا يتفق مع العلم ، وأن شيوخ الأزهر يكذبون إذا ما قالوا غير ذلك ، وأن المسلمين في مصر بين مرء في عقيدة

الإسلام وآخر يتخذ العقيدة مجرد تقليد ، وإن الإسلام قد يمكن أن يكون في المستقبل ديناً روحياً بشرط أن تتناوله يد التجديد . ومما يقوله في هذا الحديث : إن الدين عند الأزهريين لا يزيد على أنه حرفة يخترعونها لاقتناص المال . وكتاب هذا الانجليزى يلتقى في الغاية مع كتاب ( مستقبل الثقافة ) في سوء الظن بالثقافة الإسلامية في أسسها ونوعيتها .

فهذا الداعية : ( طه حسين ) لا يريد أن يكف ولا يتقطع ولكنه يجن وينتقض ويتلوى ويفقد جرأته الخابطة ويمكن كمون الدودة في الشرنقة ، كما أفزعته صبيحة الحق ، وهو بعد هذه النهاية التي صار إليها من الإهمال والمطاول لا يسأل عن ذنوبه قبل أن يسأل عنها الرجال المسؤولون في مختلف العهود .

ولقد كان الأستاذ محمد المهياوى من الأقلام المسلمة الجريئة التي لم تترك لطفه حسين فرصة دون أن تنازله وتكشف زيفه . ولعل خير ما تقدمه في ختام هذا الفصل سؤال وجه إلى طه حسين وأجاب عليه مرتين .

قال السائل كيف ترى أولادك ؟

في الأولى قال : أتركهم لأنفسهم مستقلين بشؤونهم ولا أعتبر نفسي أمراً أو ناهياً لهم . بل أتيح لهم أن يقولوا لي ( لا ) . كما أتيح لنفسى أن أقول لغيرى : ( لا ) ، ( وهذا مفهوم فرويد والماسونية ) .

في الثانية قال : ما أعمله وما أنصح به لغيرى مع الأسف أننى أرسل أولادى إلى اللبسية فرنسية وأعلمهم العربية في البيت وهذا لأن اللبسية هو فيما أعلم أحسن معهد للتعليم الابتدائى والثانوى في مصر ( وهذا مفهوم التبشير ) .

وقد أشار زكى مبارك إلى بعض أساليب طه حسين الماكرة في إدخال المفاهيم المنحرفة إلى شباب الجامعة فقال : إنه كانت تعد أسئلة في كلية الآداب وتعد الإجابة عليها وتلقى بين المحاضرات على أنها أسئلة من بعض الطلبة منها قول أحدهم : لو أراد الله أن ينزل قرآنًا في زمننا هذا ، فبأى لغة يمكن

نزوله ؟ ويرد أحدهم : أنه كان ينزل بالفرنسية لأنها هي اللغة العامة لحسن لفظها وقرب مأخذه ودقة تركيبه .

ويقول آخر : إنه كان ينزل بلغة أحسن من التي نزل بها وهي العربية التي تستعمل الآن في الكتابة .

ويقول ثالث : إن القرآن نزل في بيئة جاهلية فنزل بلفظه هذا الذي يروى عليه اليوم ولو أنه نزل في أيامنا فلا شك في نزوله بصورة مغايرة للتي نزل بها ومعنى هذا أن القرآن لا يوافق كل العصور ، بل يوافق العصر الذي نزل فيه .

ويقول زكي مبارك : سمعت من بعض الطلبة أن هذه الأسئلة توضع قبل الدخول إلى الدرس ، ويلقبها تابع من أتباعهم أثناء الدرس حتى ترينغ العقائد ، فالطلبة ليسوا من التمكن في الدين بحيث يدفعون مثل هذه الشبهات لأول نظرة .

## (٩)

### المدارس الأجنبية

عقد الأستاذ محمد صبرى عابدين فصلا في مجلة الأزهر ( نوفمبر عام ١٩٥٣ ) عن المدارس الأجنبية رد فيها على مقال مجلة روز اليوسف في ( ٢٦ / ١٠ / ١٩٥٣ ) بعنوان الدفاع عن الكنيسة القبطية قالت المجلة - فيه ما نصه :

( أثار الدكتور طه حسين عند مناقشة نظم التعليم في لجنة الحريات والحقوق العامة بلجنة الدستور : مسألة المدارس الأجنبية ونظمها وذكر أن هدفها الأول هو التبشير الديني حتى خلفت من الأقباط المصريين ثلاث طوائف هي : الكاثوليكية ، والبروتستانتية ، والأرثوذكسية ، وقال : إنه في الوقت الذي ينتجه في التربية القومية إلى نحو كل ما يتصل بالتعصب الديني يرى أن هذه المدارس الأجنبية تثير التفرقة بين أبناء الدين الواحد ، وقال الدكتور طه في كلامه : ( إن الهدف المقصود من التبشير الأمريكي والإنجليزى

والفرنسي هو هدم الكنيسة القبطية مع أن هذه الكنيسة جزء هام من تراث الدولة يجب المحافظة عليه . وإنا لشكر الدكتور طه دفاعه عن مواطنينا الأقباط ومطالبته بحمايتهم وحماية كنيسهم من خطر التفرقة التي تثيرها المدارس الأجنبية . حرصاً على الوحدة القومية بين المصريين على اختلاف مذاهبهم وأديانهم . وكما يسرنا لو أن الدكتور طه حسين وهو وزير سابق للمعارف المصرية عرف حقيقة مقاصد المدارس الأجنبية وأغراضها التبشيرية ، والاستعمارية الخطيرة . وقد عني إلى جانب دفاعه عن الكنيسة القبطية بالدفاع عن قومه المسلمين الذين هم أكثرية شعب مصر . ولبت الدكتور طه ذكر لنا كم طائفة المدارس الأجنبية بين مسلمي مصر وغيرها من بلاد الشرق ، وكما خلقت فيهم من ملحدين وإنجليز وفرنسيين وأمريكيين وصهيونيين ، طبعهم المعلمون الأجانب بالطابع الغربي وأبعدوهم عن كل ما هو شرقي ، وجردوهم من أخلاقهم وفصائلهم وتقاليدهم الإسلامية ، العربية الحميدة وأوجدوا بينهم فريقاً عاقاً مذنباً كان ما زال حرباً على أمته ووطنه ، عوناً للعدو المحتل ، منفذاً لسياسته وخططه وفات الدكتور طه أن يذكر للجنة الدستور أن الهدف الأول للمدارس الأجنبية في مصر العمل على هدم الإسلام وتقويض دعائمه وجعل أوطانه وأقطاره فريسة للاستعمار الأجنبي وما ذكره من خطر المدارس الأجنبية على نصارى مصر وتفرقهم قد سبق أن شعر بمثله نفر من أحرار نصارى لبنان وأديانهم .

وجدير بالذكر هنا أن المبشرين لم يخفوا مقاصدهم وأغراضهم فهم يعلنون على رءوس الأشهاد أنهم إنما يريدون في مدارسهم وكتلياتهم وجامعاتهم في بلاد المسلمين محاربة الإسلام والسعي لإخراج المسلمين من دينهم ، فهذا المستر بروز الرئيس الحالي للجامعة الأمريكية في بيروت يقول في كلمة له ما نصه : ( إن المبشرين يمكن أن يكونوا قد خابوا في هدفهم المباشر وهو تنصير المسلمين جماعات إلا أنهم قد أحدثوا بينهم آثار نهضة ) ، ولقد برهن التعليم على أنه أتمن الوسائل التي استطاع المبشرون أن يلجئوا إليها إلى سعيهم لتنصير سوريا ولبنان . ولم يكتفوا ببيروت بل أرادوا أن تكون ثمة كلية في القاهرة نفسها إلى جانب الجامع الأزهر . فأصبح للمبشرين الكلية الأمريكية في القاهرة بعد كلية روبرت في استانبول .

وإننا نلرجو أن نفسر أبحاث لجنة الحريات والحقوق العامة بلجنة الدستور على إعداد قانون بتوحيد نظم التعليم المصرى فى جميع البلاد المصرية ينص على منع فتح مدارس أجنبية جديدة ووجوب تعلم الدين فى جميع مراحل التعليم وإلزام المدارس الأجنبية بذلك وإنشاء مساجد فى كل المدارس المصرية والأجنبية ليؤدى فيها الطلبة والطالبات من المسلمين صلواتهم ، وشعائرهم الدينية وأوقاتها .

وإنى على ثقة بأن المسئولين يعلمون الكثير عن ضرر المدارس الأجنبية وخطرها وما تقوم به من التبشير والتضليل وخدمة المطامع الاستعمارية تحت ستار الدين .

(١٠)

#### الجامعة تقف أمام مؤامرة طه حسين

ولكن عمل طه حسين فى الجامعة لم يمر دون موقف حاسم من الشباب وقد بدا هذا الموقف بعد أن انكشف ذلك القبح الموجه للإسلام فى رواية ( سان جوان ) التى تدرس لطلبة كلية الآداب وهى محاورة بين شخصين تعرض فيها للنبي صلى الله عليه وسلم بعبارات غير لائقة . وقد طير الجامعيون برقيات إلى الصحف يشكون فيها من وضع هذا الكتاب بين أيديهم ، وقال طه حسين فى الرد على ذلك : نحن نعلم آداب اللغة الإنجليزية فهل من أجل عبارات طعن فى الإسلام تمنع تدريس هذه الرواية ، وليس الإسلام من الضعف إلى حد عدم احتماله مثل هذه العبارات ، وقد طالب طلبة كلية الآداب عدم الخلط بين ( حرية الفكر ) و ( حرية الفحش ) والإجرام فى حق أقدم شخصية فى العالم ، وقالوا : لسنا نريد أن يحيا العلم الزائف على حساب الكرامة ولكننا نريد أن نحيا الكرامة فى ظلال العلم ، (راجع القضية فى كتابنا تاريخ الصحافة الإسلامية : مجلة الفتح) .

وقد اتجه الشباب المسلم فى الجامعة حيث رفع طلبة ( كليات الحقوق والآداب ) مذكرة إلى مدير الجامعة يطلبون فيها عدة طلبات أهمها :

أولا : إدخال الدراسة الدينية فى جميع الكليات .

ثانياً : توحيد زى الطلبة في الجامعة مع تمييز طلبة كل كلية عن الأخرى بإشارة خاصة .

ثالثاً : توحيد زى الطالبات .

رابعاً : تحديد دراسة خاصة للطالبات في كلية الآداب .

وقد أفاضت مذكرة الطلبة في هذا المعنى فقالت :

طالما تأقت نفوس النشء إلى التعليم الذى حرم منه في مراحل التعليم الابتدائى والثانوى فقد نص الدستور في المادة ١٤٩ على أن الإسلام هو الدين الرسمى للدولة والمشرع أبعد أن يحشوا الدستور بمواد لا يريد معناها ونتائجها . ومن المسلم به أن مصر للشرق كله نبراس يضيء بعلمها ودينها والجامعة المصرية تنتهى بها مراحل التعليم في بلادنا ويتخرج منها أكبر عدد ، وكان من الواجب أن يلم في هذا الميدان الآخر بشيء من دينه القويم ، حتى لا يقضى حياته جاهلاً بأصوله مخالفاً لقواعده وقوانينه ، بعد أن استوعب فلسفة أرسطو وأحاط بنظريات ديكارت ولا تأتى معرفة الدين وأصوله إلا عن طريق إدخال الدراسة الدينية في منهاج الدراسة في جميع الكليات ، ففي الدين نجد الوازع الأكبر للشباب في مرحلته الأخيرة التى تتصادف وساعات الطيش وتتقابل وفترات الزق والرعونة ، ويرجع طبعاً كل ذلك إلى عامل السن في هذه المرحلة ، ومن شديد الأسف أن تنتهى مراحل العلم في بلد إسلامي اشتهر بين بلاد العالم بالدين وما يعلم الطالب فيها من أمر دينه شيئاً ، وإننا لا نجد عوضاً لنا عن هذا الإهمال بين جدران منازلنا ، إذ أن من مر الحقائق أن سراد الشعب أعرض عن الدين وانغمس فيما نهى الله .

## ٢ - تحديد دراسة خاصة للبنات في كلية الآداب :

وقد يمكنكم أن تجدوا للفتاة في كلية الآداب دراسة خاصة بها لأنه مهما يكن من الأمر فليس كل المواد التى تدرس في كلية الآداب تتفق وكونهن أمهات المستقبل . إن الاختلاط بصورته الحالية في جميع الكليات يتنافى مع الشرع الإسلامى . إن في الدراسة الخاصة بالفتاة لخير تحديد لمصيرها وخير معين على حياتها المستقبلية التى خلقت من أجلها . وما كاد

الدكتور طه حسين يعرف بشأن هذه المذكرة حتى كبر عليه أن يجرؤ  
أولئك على تقديمها إلى مدير الجامعة ، ثم هاله تأييد رجال الأزهر وعلى  
رأسهم الأستاذ الأكبر لإخوانهم الجامعيين . قال الدكتور طه :

( أنا لا أعلم في كتاب الله ولا في سنة رسوله صلى الله عليه وسلم نصاً  
يحرم اجتماع الفتيان والفتيات حول أستاذ يعلمهم العلم والأدب والفن ) .  
وقد ووجه طه حسين بعشرات من الرسائل التي تدحض مفهومه الخاطيء  
وكتب كثيرون يدحضون مناورة الدكتور طه حسين . قال محرر الفتحة :  
إذا كان الدكتور لا يعرف هذا النص فهل معناه أنه غير موجود ، وهل  
يلزم من عدم معرفة الدليل على شيء عدم وجوده :

وإذا لم تر الهلال فسلم لأناس رأوه بالأبصار

ومن قال : إن الدكتور طه عالم من علماء الدين أو فقيه من فقهاء المسلمين  
حتى يقام لرأيه وزن في الشؤون الدينية ، وبعد فنحن نتولى تعريف الدكتور  
ما جهله حتى يعلم أنه تطفل وتدخل فيما لا يحسن الكلام فيه .

إن الأدلة الشرعية ليست محصورة في الكتاب والسنة ولا مقصورة  
عليها فحسب ، بل الأدلة الشرعية المتفق عليها هي الكتاب والسنة الصحيحة  
والإجماع والقياس الصحيح ، ومن لا يعرف ذلك فهو داخل تحت قول  
الله تعالى : « ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب  
منير . ثانی عطفه ليضل عن سبيل الله له في الدنيا خزي ونذيقه يوم القيامة  
عذاب الحريق » . ( سورة الحج الآية ٩ ) ، وأنه مما امتاز به الإسلام في  
قواعده العامة إن جعل درء المفساد أساساً للأمر الأدبية والشرعية ، فاختلاط  
الجنسين وهو ينزوع المفساد ومصدر الشرور محرم بهذه القاعدة الشرعية ،  
وإن القرآن أورد آيات كثيرة حول هذا المعنى واضحة المعنى دالة على تحريم  
الاختلاط : اختلاط الرجال بالنساء الأجنبية مطلقاً إذ الأمر بالشيء  
نهي عن ضده ، ولا ندسى أن العبرة بعدم اللفظ ، أما حكمة التشريع في  
تحريم الاختلاط فهي الشريعة الإسلامية تريد للمرأة المسلمة أن تحيا حياة  
الطهر والعفاف والصيانة والفضيلة والدكتور طه بهذا يصادم شعور المسلمين  
وحرية آرائهم .



وإن كل خطاب موجه إلى زوجات النبي صلى الله عليه وسلم هو موجه  
لنساء المؤمنين ما لم يَقم دليل خاص على التخصيص ، استمع لما جاء في  
القرآن الكريم متعلقاً بموضوع الاختلاط المحرم :

« وقرن في بيوتكن . . . » . ( الأحزاب - ٣٣ )

« . . . وإذا سألتوهن متاعاً فاسألهن من وراء حجاب . . . » .

( الأحزاب - ٥٣ )

« يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من  
جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين . . . » . ( الأحزاب - ٥٩ )

هذه الآيات واضحة المعنى دالة على تحريم الاختلاط : اختلاط الرجال  
بالنساء والأجنبيات مطلقاً .

كما أمر الله الرجال بغض أبصارهم عن النساء الأجنيبات وعما لا يحل  
النظر إليه ، كما أمر النساء بغض أبصارهم عن الرجال الأجانب مع بيان  
الحكمة في ذلك :

« قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم  
إن الله خبير بما يصنعون . وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن  
فروجهن ولا يبدن زينتهن إلا ماظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن  
ولا يبدن زينتهن إلا لبعولتهن . . . » . ( النور - ٢٩ - ٣١ )

أما حكمة التشريع في تحريم الاختلاط فهي أن الشريعة الإسلامية تريد  
للمرأة المسلمة أن تحيا حياة الطهر والعفاف والصيانة والفضيلة ، والدكتور  
طه بهذا يصادم شعور المسلمين وحرية آرائهم .

( محمد إسماعيل عبد النبي )

( ١١ )

#### مع روم لاندو والشباب

وعندما اشتدت حركة اليقظة الإسلامية في الجامعة وكشفت عن وجودها  
بموقف الشباب المسلم من الاختلاط ومطالبته بمنهج إسلامي في التعليم ،  
قدم إلى مصر الكاتب روم لاندو ببحث هذا الأمر وقد طاف بعدد من

القادة ليسأل عن مستقبل الإسلام بين الشباب ، ولقد سأل الشيخ المراعى شيخ الأزهر ، كما سأل لطفى السيد مدير الجامعة ، ولعلك تدهش أن تسمع إجابة لطفى السيد : وهو كلام رجل ماكر خبيث لا يريد أن يكشف وجهته وإنما يجارى الموقف : قانوننا الدينى لا يتناول العقيدة بالبحث المحض ، بل هو يخرج عن هذه الدائرة الضيقة فيتناول كل تفصيلات الحياة فيضع أنظمة لشئون العمل والزواج والميراث ومئات المسائل الأخرى .

— ألا زالت الديانة فعالة .

— إنها أقوى مفعولية وتأثيراً فى الحياة المصرية منها فى الحياة المسيحية لأن جميع قوانيننا أساسها القرآن ، وفى الأقطار الإسلامية من الصعب أن نفصل الديانة عن الحياة الاجتماعية .

— ومع ذلك يقال لى : إن شباب مصر يهجرون ديانة آبائهم تحت تأثير غزوة التجديد الغربى .

— ربما لا يتجهون إلى المساجد ويؤدون الصلاة يوم الجمعة ولكنهم مع هذا لا يمنع أنهم متمسكون بالدين فى مجموعه . . . إلخ .

ولكن الدكتور طه حسين يذهب بعيداً فى مجافاة حقائق اليقظة الإسلامية التى أحاطته فى كرسية بكلية الآداب وفرضت عليه أن يترك الجامعة ، فيقول للكاتب الفرنسى :

فهو يرى أن الدين كقوة روحية لا أثر له فى نفوس أولئك الذين تلقوا علومهم فى مدارس دنيوية وهم كثرة المتعلمين ، فهم كافرون بالدين والتقاليد ، يؤمنون بالمادة ، ذلك بأنهم بعد أن خضعوا قروناً لسيطرة الدين اهتموا فى الثلاثين سنة الأخيرة إلى ما وصلت إليه أوربا منذ قرون .

س — هل تعنى أن الدين لم يعد يداخل حياة الشباب ؟

ج — شبابنا متناقضون فى موقفهم من الدين ، فهم يتخذون عقائد آبائهم التقليدية أساساً لمعتقداتهم فى مقاومة المؤثرات الخارجية وفى اتجاههم الوطنى ، لماذا ؟ لأن القرآن فى الشرق الأدنى هو الأساس الوحيد لكل محاولة يراد بها تكوين أمة ، وطلابنا فى حياتهم الخاصة أصبحوا قسماً متميزاً من مجموع السكان ولكن لا يلبثون أن يجمعهم القرآن بكل فلاح وكل

بدوى . إنهم يقبلون القرآن لبيئتها من العامة كتلا تناصرهم في كفاحهم السياسي ، فهم يجعلون من القرآن أداة سياسية لا أداة روحية ، وهم من الناحية الروحية متبحرون في القضاء وتفكيرهم الجديد غير قابل للهضم ، والدين بالنسبة لطلبة الأزهر لا يعدو أن يكون حرفة يحترفونها وتدر عليهم رزقاً . ولا شيء أكثر من ذلك .

— إذن تريد أن تقول : إن الأزهر صار مجرداً من الروح .

— بل اذهب في اعتقادي إلى أبعد من هذا الحد فأقول : إن الأزهر يدين بالمادة جهراً . فالشيخ المراغي مع احترام لشخصه رجل داهية ، تراءى له أن يدور مع الزمن حيث يدور ليستبقى نفوذته في جامعته ، وهو يحاول أن يثبت أن لا تناقض قط بين القرآن والفكر ، ولا بين القرآن والقوى المادية التي تزايدت في مصر ، ولعلك سمعت بقراره الأخير الذي قبل رسالة موضوعها ( عدم فناء المادة ) ولو أنك عرفت الإسلام معرفة صحيحة لحكمت بأن عمل المراغي وشيوخه هو افتراق عن سائر النظريات الروحية الموجودة في تعاليم محمد وطبيعى أن الشيوخ المتعلمين لن يجدوا مشقة في أفهامك إلا تعارض بين علمهم الحديث والتعاليم المحمدية .

— وماذا ترجو لمستقبل الإسلام في مصر ؟

— إننا نشهد أول تغيرات ثورية في الحياة المصرية . فن ناحية نحن نعبد المادة وندين للفكر ، ومن ناحية أخرى ليست لنا طابع وتقاليد الغرب الاجتماعية ، وإلى أن يستعيد الإسلام قوته مرة أخرى وعندئذ سيكون الإسلام روحياً تناولته يد التجديد وإن الديانات المبينة على المنطق فقط لا تعد ديانات ، بل يجب ألا يخار الدين من عنصر روحى وقوة خفية ومن معجزات .

إن هذا الحديث يعطى فكرة حقيقية إن الدكتور طه يتحدث كشيء أكبر من عميد كلية الآداب وأنه مسئول عن عمل أكبر . وهكذا يلقي طه حسين أمام هذا الأجنبي آماله كزعيم للدعوة الهدامة للإسلام على النحر الذى يتطلع إليه بعمله المتصل منذ عام ١٩٢٦ . وقد جاء هذا الحديث عام ١٩٣٧ ليوحى بأن روم لاندو يسأل طه حسين بوصفه قائد عمادة التفرغ في مصر ، وطه حسين يرد بوصفه المدافع عن فكرته المادية وكيف أنه بطمع في أن يهدم الإسلام بعد سنرات ليصبح ديناً روحياً لا صلة له بمنهج

حياة المجتمع ولا نظامه السياسى والاقتصادى وهو الهدف الكبير الذى كان يسعى إليه .

ولما تعالت الصيحات تنوش طه حسين من كل جانب على هذه الآراء المسمومة تراجع الكاتب الجريء وقال : إن ما نقله المؤلف لم يكن دقيقاً ، وإن الحديث محرف . وأنه حين تحدث إليه لم بصارحه بأنه يزعم أعداد هذا الحديث للنشر على العالم فى كتاب وقد كتبت بمجلة الصباح ( ٥ مايو عام ١٩٣٩ ) تحت عنوان : ( اتهام جديد للدكتور طه حسين ) .

وعلفت على قوله هذا بما بأتى :

ومعنى هذا أن الدكتور يجد كلاماً يقال . وكلاماً آخر يكتب . وإن هذا غير ذلك وبينهما جسر من المسئولية الأدبية والخلقية والجناحية والوظيفية ، لا يجد الأستاذ العميد فى نفسه الشجاعة الكافية لعبوره .

وقد صادرت الحكومة كتاب ( روم لاندو ) لهذا السبب وقال طه حسين : ( من المحقق أنى أستطيع التعبير عن آرائى فى كل ما يتصل بالأشخاص والمطالعة العلمية دون أن يكون فى تعبيرى ما يؤذى أحداً ) .

وقالت الصباح : أرأيت كيف يلعب العميد باللفظ ، فلا ينكر التهمة ويخاف أن يثبته . إن حرية الفكر تتطلب إليه أن يقول ما يريد بيننا لا بين الأجانب فى الأراضى البعيدة . وإذا كان الأستاذ العميد يخشى الجوع إذا ما تنحى عن وظيفته ، فالجوع وسيلة لأن تقول عبر الأجيال فى كتاب خلوده : إن رجلاً فى القرن العشرين مات جوعاً فى سبيل حرية الفكر .

( ١٢ )

يقول العلامة محمد فريد وجدى ( مجلة الأزهر ٨ ) : ( استأنس المستر روم فى حكمه بما أقضى به إليه الدكتور طه حسين من أنه لم يعد للإسلام نفوذ إنشائى فى شباب اليوم وكان من آثار ذلك أنهم عجزوا عن تكوين معتقدات روحية لأنفسهم . يروى المستر روم لاندو عن الدكتور طه : أنه يرتاب أشد الارتباب فى تأثير الإسلام فى نفوس الشباب تأثيراً علمياً ولسنا نرى محلاً لهذا الارتباب بعد ما تبين للخاص والعام أن الإسلام مجموعة أصول ومبادئ خالدة هى المثل العليا للاتصال بين الجنسين مادة ومعنى . لا أنه

فلسفة معينة أو مذهب مقرر ، يفرض على الناس فرضاً ، ولا يجوز لأحد أن يتخطاه إلى غيره ، فإذا كانت هذه الشبهة لا تستطيع تكوين عائد لها في رعاية المثل العليا وتحت ظلال هذه الحرية ، في رعاية أية فلسفة قابلة للتجسس على ذلك . وإذا كانت تعجز عن تكوين معتقدات لها تحت ضوء المثل العليا فتحت أى ضوء ينتظر أن لا تعجز إذن ؟ ) .

وكتب الأستاذ محمد إسماعيل عبد النبي في الفتح يقول :

إن الدين الإسلامى هو دين العلم والفلسفة الحقّة التي تعتمد المشاهدة والتجارب والمنطق السليم . إن ديناً يفرض النظر في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء ، كما يفرض النظر في ذات الإنسان والحيوان والنبات والجماد وما يحيط بالإنسان ويقع تحت حواسه ليستخرج منه العبر والعظات . إن ديناً هذا شأنه هو دين الفلسفة الحقّة والعلم الصحيح : هو دين الإسلام .

ويقول روم لاندو : ولقد أعرب لى الدكتور طه ( وهو على الأرجح يعرف روح مصر الحديثة أكثر من أى رجل آخر ) عن ارتياحه الشديد في هل للإسلام نفوذ إنشائي ما في شباب اليوم مما يدل على أنهم يجدون أنفسهم في الهواء تماماً حتى إنه يمكن القول : بأن عجزهم عن تكوين معتقداتهم الروحية أو مطامعهم كانت نتيجة مباشرة لذلك .

أما إن الدكتور طه حسين يعرف أكثر من عزة روح مصر الحديثة على الأرجح فهو في نظرنا أمر مرجوح ، فإن الدكتور له هوى خاص في هذه الأمور وقد عرفه المسلمون في جميع أنحاء الأرض بأنه في جميع الحقائق الإسلامية لا يصدر عن حكمة واتزان وإنما يفاخر بالتعصب لرأيه ويعاند الناس جميعاً ويعتقد أن تلك الخطئة هي طريق شهرته وسبيل ظهوره ولا يبالي ما يكون بعد ذلك ، فهذا هو يقرر للمستمر لاندو أنه شديد الارتياح في أن للإسلام نفوذاً إنسانياً ما في نفوس شباب اليوم هو ثم يعلن في الوقت نفسه على صفحات الصحف وفي جريدة المصرى بدون تحفظ ولا حيلة ، أنه حسن الظن بأخلاق الشبان المسلمين والرجل العاقل المنتصف يعلم أن الدين والخوف من الله هو أساس الأخلاق الفاضلة والدين الإسلامى دين الخلق فكيف يكون للشباب خلق كريم وهو لا يعلم لتعاليم دينه وزناً وليس للإسلام

فى نفسه نفوذ ثم يكون مع ذلك رشيداً ، فانظر عقيدة الدكتور فى شباب اليوم : يشك ويرتاب فى مسلكهم وفى نفوذ الإسلام الإنشائى فيهم . ويحسن الظن جداً بأخلاقهم ولا يشك فيها وفى رشدهم ، فإذا قام الشباب يطلب بالتعليم الدينى حتى يكون للإسلام نفوذ إنشائى فى نفسه غضب عليهم الدكتور ورماهم بالسخف .

إننا حين نرد على الدكتور لا نطمع فى إقناعه أو تغير من طبعه . فهو ما لا يحيط لنا على بال لأن الرجل ولوع بالعناد . يراه طريقاً لشهرته وإنما وددنا عليه من الناحية الدينية التى اعتدى عليها مخافة أن يضل الشباب ويفتنه فى أمر دينه . وقد أتبع الرد عليه من ناحية حماية النجباء من طلبة الجامعة ، إما أن نسكت عليه من الناحية الدينية يتحدى ويضل بحجة أن الرد عليه يكلفه صعباً كما يقول البعض فهو ما لا نوافق عليه .

° ° °

وحديث طه حسين مع روم لاندو يكشف عن أهداف خفية للنفوذ الأجنبى فى مصر قد فضحها اندفاع طه حسين الذى كشف عن موقف أحدث زوبعة شديدة حتى قالت الجهات المسئولة : إذا كان طه حسين يرى هذا رأى فى الأزهر والإسلام . فإن الجهات العليا لا ترى فى الأزهر والإسلام رأيه . ولذا كان بقاء طه حسين فى عمادة كلية الآداب غير ممكن ( الصباح ١٩ مايو عام ١٩٣٩ ) . وقالت المكسوف اللبانية : إنه حل على ترك منصبه ويقال : إنه قرر السفر إلى فرنسا للاعتكاف سنة كاملة . وقد نشر الحديث بكامله ترجمه مصطفى الحفناوى فى مجلة منبر الشرق المصرية ( ١٨ إبريل عام ١٩٣٩ ) .

( ١٣ )

#### الدعوة إلى الفرعونية

حدد طه حسين ألوان الغذاء الروحى والعقلى للشباب ( فى محاضرة ألقاها عام ١٩٤٠ ) بعناصر ثلاث :  
١ - العنصر المنحدر من تاريخ مصر القديمة الفرعونى وهو الفن .

٢ - العنصر المتغلغل في مصر الإسلامية وهو الدين والأدب والفن العربي الإسلامي .

٣ - العنصر المتلبس بحياتنا الحضارية منذ اتصلنا بغيرنا وهو العنصر الأوربي .

وأولى الدكتور طه ضرورة الاهتمام بأمرين : بالفن الفرعوني ، وبالعنصر الأوربي في سبيل تغليبهما على العنصر الإسلامي واحتوائه ، هذا ما يفهم من نصوص محاضراته التي علق عليها الأستاذ محمود شاكر حين قال (م ١٤ مجلة الفتح) :

ليس في القراء من يجهل أن أول ما يتكلم به الدكتور إن هو يجعل مرد كل شيء إلى يونان ومدن يونان ، فلا شك إذن أن أول نظام عرف للغذاء العقلي والروحي للشباب إنما كان في المدينة اليونانية وهذا شيء مفروغ منه ، فقد جعله الدكتور طه مذهباً لا يحيد عنه وأسلوباً لا يسلك غيره ونحن إذا أردنا أن نجعل النظام الاجتماعي في العمل والتشريع والسياسة هو النظام ، فننحط للذهاب في الفساد أن نخضعه لتطور مدنية أخرى قد بنى اجتماعها على المسيحية في التشريع والسياسة والأخلاق ، فصر والشرق الإسلامي إذا أراد أن ينهض فلا بد له أن يستمد نهضته من أصول الاجتماع الذي يربطه به التاريخ والدم والوطن واللسان والوراثه ، وإذا سار فلنمسا يسار في فكرة مطلقة هي النهضة والحضارة والمدنية الإسلامية ، على الطريق الذي يوافق طبيعة هذا الاجتماع ، أما المدنية الحديثة فقد بنيت على غير ذلك ، وقد تطورت على أصوله . ولقد قال جورج الخامس ملك بريطانيا في (ديسمبر عام ١٩٣٩) : إنني أؤمن من أعماق قلبي بأن القضية التي تربط شعوبى معاً وتربطنا بجلفائنا المخلصين الأجداد فهي قضية المدنية المسيحية وليس ثمة قاعدة أخرى يمكن أن تبني عليها مدنية صحيحة وكلام الملك جورج هو أدق التصوير لحقيقة الحضارة الأوربية في نظر كل باحث نصراني أو يهودي أو مسلم ، فإذا أردنا أن نتابع تطور هذا الغرب من المدنية بتبديل اجتماعنا - الذي دعا إليه الدكتور طه في حديثه ليطاقه ، فكأنما يدعو إلى تنصير الإسلام ، والعجب أن يذكر الدكتور الحضارة الأوربية الحديثة فلا يدعو إلى الأخذ بشيء مما فيها دعوة صريحة إلا فيما يتصل بالخلق ، إلا أن أخلاق

المدنية الأوروبية قد استعملت جميعها في هذا البني المتفجر في الحرب . وإذا أردنا أن تأخذ - أى أن نأخذ - فلنأخذ من تاريخنا . من ديننا ، من أخلاق رجالنا .

وقد جعل الدكتور طه الفن الفرعونى أحد العناصر في الغذاء الروحي والعقل للشباب في عصرنا هذا ، وذلك قوله : من حق مصر أن تعنى بالفن الفرعونى كالتصوير والنمائل وغيرها فتحبيه وتنشره وتلقنه لأبنائها وشبابها يريد الدكتور طه أن تأخذ مصر من حضارة الفراعنة شيئاً وأن تدع أشياء وأن تأخذ من حضارة العرب والإسلام شيئاً وأن تدع أشياء . أما حضارة أوروبا فهي عنده كل لا يتجزأ ويجب أن تبدأ منها بالخلق ، والغذاء الروحي فزرى ناشتنا عليه وإذا ذكره أهل الذكر بأن فيها ورثته مصر من تراث الإسلام ما يكفيها من ناحية الخلق وغذاء الروح وأنها إنما تحتاج من أوروبا إلى العلوم التي تتقدم بها الصناعات وتضطلع بأسباب القوة . قال لهم : إنكم منافقون . الخلاف القديم بين الدكتور طه وبين جميع الذين عارضوه منذ بضعة عشرين عاماً إلى الآن يدور حول هذه النقطة هي يريد أن يكون النشء الإسلامى كالنشء الأوربى في كل شيء . ثم يتحلى بمظاهر من حضارة الفراعنة وحضارة الإسلام والذين عارضوه يريدون أن يكون نشئنا نشئاً إسلامياً وأن يتحلى بعلوم أوروبا التي يتوقف عليها أسباب القوة والتقدم العلمى والاقتصادى والعمرانى .

وهو يرى أن الحضارة الأوروبية كل لا يجوز أن يتجزأ ويجب أن تبدأ منه بالغذاء الروحي ومعارضوه يرون أن المعارف تراث إنسانى ليس خاصاً بالغرب دون الشرق ، ولا بأوروبا دون آسيا وإفريقيا ، وكما أخذت الحضارة الإسلامية من معارف اليونان وغيرها من الأمم القديمة وبقيت إسلامية ، وكما أخذت أوروبا من معارف المسلمين وبقيت غربية مسيحية ، كذلك نحن في هذا العصر ، يجب أن تأخذ هذا العلم العالمى المشاع الذى هو تراث الإنسانية فنستفيد منه ونقوى ونبقى مع ذلك عرباً شرقيين مسلمين . والغذاء الروحي في الإسلام أبقى وأمتع من الغذاء الروحي في الغرب . إن في غذاء أوروبا الروحي ما يتمنى الأستاذ هكسلى أن يكتسبه مذهب عظيم يريح الإنسانية من شروره .



أما بالنسبة للفن الفرعونى الذى يدعو طه حسين إلى إحيائه فيقول الأستاذ شاكر : نحن لا نشك أن أعظم الفنون والآثار عامة كانت نتيجة لازمة للعقيدة الدينية ( وثنية كانت أو إلهية ) والطبيعة الجغرافية التى تمد عليها من ظلالها . إن الدين والعقيدة هى عماد الاجتماع وأصله وأعظم موثر فى توجيه أغراضه وحياطتها وتدبيرها وتوليدها فهى إذن أصل قائم فى الحضارة التى تدين بهما مهما تطورت بعد ذلك وخرجت عليهما أو أهملتهما .

وإن أعظم الآثار الفنية التى يعتبرها الجيل الأوروبى مثلاً فى طبيعة العبقرية الفنية هى تلك الآثار العظيمة الخالدة التى نشأت وربت وترعرعت وامتدت تحت ظلال الكنيسة والعقائد المسيحية التى عاش فى مدنها الفنانون الذين أبدعوا هذه الآثار تختلف باختلاف الطبيعة الجغرافية .

كذلك الفنون الصينية والهندية تتميز بالاجتماع الوثنى الذى يعيش عليه الفنان الصينى والهندي وبطبيعة البلاد الهندية والصينية ، فالفن الفرعونى بغير شك ليس إلا نتاجاً مركباً من الوثنية المصرية والطبيعة المصرية الرائعة القوية . وأثرها بين فى هذه الأبنية الضخمة بتأثيلها المختلفة الدلالات على المعانى الدينية المصرية القديمة . وعلى الأصول الاجتماعية للوثنية الفرعونية التى كان يعيش عليها الشعب المصرى القديم . فهذه الديانة القديمة الجاهلية التى عبدت أوثانها وتقدس بعقائدها الباطلة وخضعت لأساطيرها الرهيبة المحققة . واستمدت تأويلها من الإيمان بجدة هذه الأوثان والقوى الطبيعية المختلفة كالشمس والنيل والتساح وكذا وكذا من الأوهام الغالبة هى التى أنتجت هذا الفن المصرى القديم بمعابده وتماثيله وكتابه الهيرغليفية المعبرة أصدق تعبير عن حقيقة المدد الفنى للآثار المصرية والفرعونية . والفنان الفرعونى لم يستطع أن ينسب هذه الآثار الهائلة التى بقيت القرون يتحدى الزمن المتطاوّل لم يمنحها هذا الجبروت الهائل والاستبداد الطاغى إلا بالقوة التى نشأتها ودبرتها عقائده الوثنية الرهيبة ، وعلى ذلك فيجب أن نقرر أن الفن المصرى الفرعونى إن هو إلا فن وثنى جاهلى ، قائم على التهاويل والأساطير والخرافات التى تمحق العقل الإنسانى ، فهو إذن لا يمكن أن يكون مرة أخرى فى أرض تدين بدين غير الوثنية الفرعونية الطاغية سواء أكان هذا الدين يهودياً أم نصرانياً أم إسلامياً ، وتمثال نهضة مصر لا أرى

فيه إلا تقليداً فاسداً لآثار حضارة قد دثرت ولا يمكن أن تعود في أرض مصر مرة أخرى يؤثنتها وأباطيلها وأساطيرها وخرافاتها . نعم ، هل يستطيع الفنان الذى نحته وأقامه أن يعيد في مصر تاريخ الوثنية الجاهلية واجتماع الحضارة الفرعونية وما يحيط بذلك من الأبنية الضخمة التى كانت وحياً للفنان الفرعونى ، الذى عبد الشمس وخضع لفرعون وأقر له بكل معانى الربوبية وآمن بالأباطيل والأساطير والتهاويل الدينية الوثنية الضخمة الماثلة الممتعة التى قذفها في قلبه أبالسة عصره من الجبارين والطغاة ، لقد ذهب كل هذا لقد اندثر . لقد باد .

إن روح الفن هى دين المجتمع وعقائده وطبيعة أرضه وسائر أسباب حضارته وهى التى تمنح الفنان القوة والقدرة على الإبداع . إذن فدعوة الدكتور طه إلى الاستمداد من الفن الفرعونى كما استمد مختار . ثم دعوته إلى جعل اجتماعنا اجتماعاً إسلامياً . ثم استمدادنا أيضاً من الفن الإسلامى تناقض عجيب في أصل الرأى لا يمكن أن يكون ولا أن يعمل به . إلا إذا شئنا أن توجه لمصر حضارة مقلدة ضعيفة ملفقة من أشياء ليست بنتيجة ولا شبه نتيجة للاجتماع المصرى الإسلامى الحديث .

( ١٤ )

#### الدفاع عن الإرساليات التبشيرية

في أكثر من نص واضح يكشف الدكتور طه مهمته الأساسية في مصر وهى الدفاع عن التبشير . وقد كان أخطر موقف له هو الدفاع عن المدارس التبشيرية بعد توقيع معاهدة عام ١٩٣٦ وإعداد العدة لاتفاقية مونترال التى تلغى الامتيازات الأجنبية ، فهو الحريص على أن يعلن في كل مناسبة تعهد الحكومة المصرية بأن التشريع المصرى لن يكون مخالفاً للمبادئ العامة في التشريع الحديث وأن الاتفاقية أعطت مهلة اثني عشر عاماً لهذا التطبيق من عام (١٩٣٧-١٩٤٩) — أى أنه كان يعلن أن مصر مرتزمة على أن تحكم بالقانون الرسمى خلال هذه الفترة وأنها لا تستطيع أن تعود إلى الشريعة الإسلامية . وقد تعالت الصيحات للعودة عليها منذ عام ١٩٣٣ على يد دعاة حركة اليقظة الإسلامية ؛ فهو يقول في بعض كتاباته : إنه يدعو المصريين أن يختصروا الطريق

إلى ( الرقي ) بأن يأخذوا النظام الغربى ويخوفهم من أنهم لو لم يفعلوا ذلك فلن تطمئن إنجلترا إلى طلب الاستقلال فترفض الخروج من مصر . وكذلك أصحاب الامتيازات فإن علينا أن نطمئنهم بأننا نعيش فى بلادنا كما يعيشون فى بلادهم ( نحن مضطرون ) إلى أن نعيش ولن نستطيع أن نعيش إلا إذا اتخذنا أسباب الحياة الحديثة ) وهو يغيرنا بين اختيار الحياة الحديثة أو الجمود الذى معناه الموت . ( نحن متصلون برضيتنا أو كرهنا بالأمم الغربية ، ونحن حريصون على أن نظفر باحترامها بأن نساير هذه الأمم ونعيش كما نعيش ، ونحن لا نستطيع أن نعيش فى القرن العشرين كما كانت الأمم تعيش فى العصور الوسطى . . . إلخ ) .

إن طه حسين يدعونا أن نساير الأمم التى تنهب بلادنا وأن نخالف الله تبارك وتعالى الذى يدعونا إلى منهجه الحق !

#### ( ١٥ )

أما دعوته إلى حماية الإرساليات التبشيرية فى مصر فقد رد عليه السيد محب الدين الخطيب ( الفتح ) فقال : فى الواقع إن معاهد الهيئات الأجنبية فى مصر كاثوليكية وبروتستانتية لم تكن فى يوم ما فى حاجة إلى أن يحميها من مصر حكومة وشعباً ولكن مصر هى التى كانت ولا تزال محتاجة إلى الحماية من هذه المعاهد ، فالمسيحي واليهودى فى المدارس المصرية - حكومية وأهلية - لا يتعرض له أحد بما يخالف دينه ولا يجبره على أداء عبادة أو القيام بطقوس ليست من دينه ولا يجبر على دراسة كتب شريعة أخرى غير شريعته ، وعلى العكس من ذلك مدارس هذه الهيئات الأجنبية التى تتسابق الدول فى مونترو إلى طلب حمايتها فإنها هى التى تدرس كتباً فيها وقاحة وقلة أدب ومخالفة للحق ، والواقع فيما يتعلق بالإسلام ورسوله الأعظم صلى الله عليه وسلم كما رأينا فى كتاب التاريخ المقدس الذى يدرس فى مدارس القرير والجزويت ، فضلاً أن هذه المعاهد تجبر من هو على غير دينها من تلاميذها على أداء صلاة وتلاوة أدعيته لا يعتمد بصحتها وعلى درس كتب دينية تفسد عليه دينه وتجعله فى نظر نفسه وذويه وبني وطنه كافراً فضلاً عن أن هذه الهيئات التبشيرية صدرت عنها أساليب كثيرة لإجبار المسلمين على التنصر ، منها التزويم المغناطيسى والإغراء والخطب والتهديب إلى خارج أرض الوطن .

بل إن طه حسين يذهب إلى أبعد من ذلك ، إلى الدفاع عن المبشرين والملاحدة في نشر آرائهم ، فهو يسخر من نص الدستور بأن الإسلام دين الدولة ، لأنه يتحد حريتهم . فهو يخشى أن يكون هذا النص سيمسهم بالطرد والعقوبة لأنه يعتبر نفسه واحداً منهم وهو يهاجم هذا النص لأنه يعلم أن الملحد في بلاد الإسلام حر إلا إذا نشر إلحاده وأغرى الآخرين بالخروج عن الإسلام فإنه عندئذ يعاقب ، وهو يعلم أنه يفعل ذلك ، ويحاول أن يتخفى وراء الكليات والأساليب ووراء التبعية لحزب كبير كالوفد له نفوذ يحميه .

وتقول سوزان في كتابها ( معك ) : إن أسوأ ما واجه طه حسين هو الخوف من هذا النص حين نشر كتابه ( الشعر الجاهلي ) ولقد كانت كل كتاباته عن ( حرية الفكر ) ترى إلى مقاومة هذا النص الذي كان يمكن أن يطبق عليه في أى لحظة . لولا تلك الحماية الخارجية والداخلية له . إن حرية الفكر عنده تعنى حرية نشر الكلمة الملاحدة دون رقيب أو مقاومة ولا تعنى غير هذا مهما حورها وأخفاها .

بل لقد كان طه حسين أكثر إلحاحاً على نشر مناهج الإرساليات والتبشير في مصر من المبشرين أنفسهم .

يقول محمد زكى عبد القادر ( نحو النور ) في ٨ / ٥ / ١٩٧٤ ما يلي :  
( في سنة ١٩٥٠ كان الدكتور جون بادو رئيساً للجامعة الأمريكية في القاهرة وكان طه حسين وزيراً للمعارف . وروى الدكتور بادو أنه زار الوزير للتباحث معه في دور برنامج الجامعة الأمريكية في القاهرة .

وكانت مفاجأة لي أن أجد أن انفعال الوزير الرئيسى كان نقداً رقيقاً لهذا المعهد لأنه على حد قوله ليس ( أجنبياً ) بدرجة كافية . فقد قال يومذاك : على الرغم من أن هذه الجامعة مؤسسة أمريكية فإنكم لا تدرسون فيها منهجاً واحداً عن الأدب الأمريكى أو التاريخ الأمريكى أو الأنظمة الأمريكية . وعندما أوضحت له أنا لسنا في مصر لنشر قيم الثقافة الأمريكية . بل للعمل على

نطير الثقافة المصرية . كان رده : ولكنكم تستطيعون أن تحقروا هذا الغرض على نحو أفضل إذ يسرتم لنا معرفة قيمكم . فنحن نستطيع تدريس ثقافتنا ، أما الشيء الذي نريده منكم فهو أن نفهم ثقافتكم فهما أفضل ) . وهكذا طه حسين يريد أن ينتقل من الولاء الفرنسي إلى الولاء الأمريكي بعد أن انتهت فرنسا وبزغ نجم أمريكا في الشرق وهو ما قام به فعلا في ذلك الوقت حيث أخذ يقدم كتباً أمريكية ويدعو للثقافة الأمريكية بالرواج والأزدهار .

وهذا ما فعله عندما عين وزيراً للمعارف وهو يعلم التبعة لبريطانيا وهو من أتباع الثقافة الفرنسية فإنه ذهب إليهم في بريطانيا وأقنعهم بأنه خادم للثقافة السكسونية وكان عمله في وزارة المعارف محققاً لهذا الغرض . إنه من دعاة فتح جميع الأبواب والنوافذ لكل الثقافات . يهودية أو شيوعية أو غربية . لأنه يعرف الهدف وهو تدمير الثقافة الإسلامية العربية . وهذا الهدف هو أحد الأهداف التغريبية الكبرى التي تريد أن تدمر ذاتيتنا وقيمنا الأساسية وشخصيتنا الحقيقية بصورها في بوقنة الثقافات الغربية .

• • •

## الفصل الثاني

### الخطوة الثانية : القضاء على الأزهر

كانت حملة الدكتور طه حسين على الأزهر من الخطوط العامة الأولى التي ظل يراوحها ويقادها عمره كله . لم يتركها إلا ليعود عليها . والمعروف أن الحملة على الإسلام عند طه حسين تأخذ قناعتين : القناع الأول هو الأزهر والقناع الثاني : هو كلمه القديم .

والحقيقة أنه كانت هناك موضوعات رئيسية ظلت أساساً لعمله كله طول حياته هي :

- الدعوة إلى بشرية القرآن .
- الدعوة إلى الإغريقية .
- ضرب اللغة العربية .
- السخرية بالتاريخ الإسلامي ومهابة الرسول والقرن الثاني الهجري .
- تحسين الفرعونية .
- الأقلية المصرية وارتباطها بأوروبا .
- الأزهر والحملة على الإسلام من خلاله .

وفي عشرات من الموضوعات في مقالاته وكتبه نجد هذه الحملة على الإسلام من خلال الأزهر واضحة ، ونجد السخرية برجال الأزهر ظاهرة .

ولقد شاء الدكتور طه حسين يوماً أن يسخر من نفسه فقال هذه العبارة :

« كنت طالباً للقشور عند الأزهريين ، وأنا متعلق من الثقافات الأجنبية بقشورها عند المتأصلين في هذه البطاقات ، فأنا صاحب القشور شاباً وصاحب القشور شيخاً ، قد كتب على ألا أعرف من كل شيء إلا قشوره . أنا إذن أزهرى عند بعض الناس وغير أزهرى عن الأزهريين أنفسهم فأنا ساقط بين كرسيين ، كما يقول الفرنسيون يرفضون الأزهريون لأنهم لم يمنحوني

إجازتهم ويرفضون ثقافة أجنبية لأنى أزهرى لا أعرف من ثقافتهم الأجنبية إلا هذه القشور » .

ولقد ظل الدكتور طه حسين يحمل على الأزهر . وزاد حنقه عندما أنشئت كليات الطب والهندسة والمعاملات فيما بعد فيه فأخذ يهاجمه بقسوة ويهاجم كلية البنات الإسلامية .

ولقد كانت معركته الحقيقة عندما ألغى المختصون المحاكم الشرعية ودجوها في المحاكم الأهلية . هنالك أحس طه حسين أن أهدافه تتحقق فطالب في إصرار وفي مقالات متعددة متوالية في جريدة الجمهورية بما أسماه الخطوة الثانية بدأها في ٢١ / ١٠ / ١٩٥٥ واستمرت وقتاً طويلاً واشتبك معه علماء الأزهر على نحو شديد حتى أن مجلة الأزهر أصدرت في شهر نوفمبر عدداً خاصاً عن الدكتور طه حسين هاجمه أكثر من ثلاثين عالماً من علمائه وواصلوا الحملة في العدد التالى من المجلة وكان ذلك بإشراف السيد محب الدين الخطيب .

قال الدكتور طه حسين : كانت خطوة رائعة تلك التي خطتها الحكومة حين قررت توحيد القضاء . وما دام توحيد القضاء قد أصبح حقاً واقعاً فلندع الحكومة إلى أن تخطو خطوة ثانية ليست أقل منها خطراً أو عسى أن تكون أبعد منها أثراً وهو توحيد الأمة وتقريب ما بين أبنائها من الآماد . لا أقول في حياتهم الاجتماعية والسياسية وحدها بل في حياتهم العقلية . لأن هذه الحياة هي أساس التفكير وقوام العمل . وأنا أعلم أن هذه الدعوة ستثير سخط فريق من المحافظين . لقد آن لمصر من جهة أن تلتئم بين حياتها الجديدة المتطورة وبين تنشئة هذه الأجيال التي تفرغ لدراسة الدين من أبنائها بحيث لا تقتطع هؤلاء الأبناء من الحياة العامة ومن الظروف التي تحيط بهم ويكونون فريقاً لا هو بالقديم ولا هو بالجديد . وإنما هو شئء مختلط . لست أدري ما الذى يمنع شبابنا الأزهريين من أن يسلكوا سبيل غيرهم من أتباعهم فيتخرجوا من المدارس الابتدائية أولاً ثم يتخصصوا في علوم الدين .

وسبيل ذلك واحدة لا ثانية لها . وهو أن يوحد التعليم العام ، بحيث لا يكون هنالك فرق بين من يريد أن يفرغ للدين وبين من يريد أن يفرغ للدنيا . وأن يكون التخصص بعد انقضاء الطور الأول من أطوار الشباب .

لقد خططت الحكومة خططها الأولى فوحدت القضاء وعلماها أن تخطو خطواتها الثانية فتوحد التعليم .

هذا الذى دعا إليه الدكتور طه حسين بهذا الأسلوب اليسير خطير وخبيث ويرى إلى غايات بعيدة مكنونة في ضماثر رجال التغريب والتبشير والاستشراق والغزو الثقافى منذ أجيال بعيدة ، فهم يعلمون قدرة رجال الأزهر على مواجهة شهابهم . ويعلمون ما قام به الأزهر في مواجهة الغزو الاستعماري والتغريبى معاً وكيف وقف من طه حسين وعلى عبد الرازق وغيرهم ، فهذا أمل كبير في نفوس دعاة التغريب أن ينتهى هذا الخطر بتوحيد التعليم العام كله فبدخل الأزهر في نطاق التعليم العلماني وتنتهى مهمته مع أن الأمل الحقيقي للمسلمين أن يعود الأزهر وهو منبع التعليم الأول إلى مهمته فيكون التعليم الذى قام عليه الأزهر هو التعليم العام ومنه يتفرع التعليم المدني بعد ذلك ، لقد كان هذا الفصل بين الأزهر وبين التعليم العام الذى أنشأته وزارة المعارف في عهد محمد على هو أخطر الخطوات التى اتخذت لتجميد الأزهر وعزله عن مهمته الحقيقية ، وكان من أثر ذلك أن أنشأ التغريبون الجامعة الأمريكية ثم الجامعة المصرية التى قادها الدكتور طه حسين إلى ما رأينا في هذا الفصل من خطط تدميرية ، ولكن أمل التغريب لم ينقطع فهو يتطلع إلى هذه الخطوة ويتصدر الدكتور طه حسين لها بهذه القوة فيكتب مرتين أو ثلاثاً ولا يبالي بمواجهة الأزهريين والأمة كلها ، وإن كان الأمل لم يتحقق تماماً كما أراد الدكتور طه حسين ، فإن ما حققه قانون تطوير الأزهر كان خطوة واسعة لهذا الهدف فقد فرغ الأزهر من رسالته عن طريق ملخصات الكتب وعن طريق دخول الشباب دون شرط حفظ القرآن كله وعن طريق تحول كلية الشريعة إلى كلية تدرس القانون الرضعى بأكثر مما تدرس الشريعة وتخرج منها أزهريون يحكمون بالقانون الرضعى إلى غير ذلك من محاذير كان الدكتور طه حسين موقفاً نازها ومثيراً فتنها .

( ٢ )

واجه الأزهريون مقالة الدكتور طه حسين بالرد الكاشف لأهداف طه حسين ومؤامراته .



١ - كتب الشيخ محمد عرفه تحت عنوان ( لا كانت الخطوة الثانية ) قال : أبغض الكلام ما يلقي على عواهنه لا يحصه صاحبه ولا يلقي له بالا ومن هذا ما نشره الدكتور طه حسين في جريدة الجمهورية تحت عنوان ( الخطوة الثانية ) التي طالب فيها بتوحيد التعليم بعد توحيد القضاء . ففي مصر في المراحل الابتدائية والثانوية تعليم ديني وتعليم مدني ، وهو يريد توحيد التعليم . بإلغاء التعليم الديني وجعله كله مدنياً . إن الدكتور طه حسين يصور الأزهرى بصورة من لا يشارك في شيء من العلوم التي يشارك فيها الناس فلا يعرف الفلسفة القديمة ولا علوم الاجتماع ولا التربية ولعله إذا رجع بذاكرته رأى أن من رجال الأزهر من نازله في مسائل الفلسفة فهدها فيها إلى الحق والصواب . ولكنه يمثل هذا القول الذي تنقضه نضاعة الحق وجلال الحجة يريد أن يقضى في أخطر أمر وهو إلغاء التعليم الديني وإلغاء تلك الجامعة الإسلامية التي يعتز بها المسلمون في أقطار الأرض جميعاً .

إن الأزهر ليس من الهوان بحيث يقضى فيه برأى فطير وبجرة قلم كما يظن الدكتور . إن الأزهر بجميه تاريخ طويل في حذق الإسلام والمسلمين وفي حفظ اللغة والدين وفي جهاد الكافرين والمضللين وفي حماية العقيدة من زيغ الزائغين وبجميه ثلاثمائة مليون مسلم يحلون به ويحترمون به ويرونه ثمانية الكعبتين وثالث المسجدين فتلك كعبة الحجاج ، وهذا كعبة الهداية والنور والإرشاد . إن الأزهر له في نفوس المسلمين مكانة يعرفها من نزع إلى أقطار الإسلام كالهند والصين وغيرهما . إن الأزهر شرف لمصر لا يدانيه شرف به صارت مصر للأمة الإسلامية إماماً يحبها ويحلمها وتأخذ لقولها فضعوا هذا الشرف كيف شئتم وأجلوه حيث أردتم ولكن لا تذكروا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً .

٢ - وكتب الشيخ عبد المنعم النمر تحت عنوان « ماذا تريد وإلى أين يا دكتور » ، قال لعل أغرب ، أعجب ما جاء في مقال الدكتور طه حسين أنه وهو يصور الأزهريين بالنقص في معلوماتهم الاجتماعية يظهر وهو أديب كبير ووزير سابق للمعارف بعدما تنقل في مناصب الجامعة وكراسيها بأنه يجهل تماماً كيف يسير الأزهر الحديث براحه مواد دراسته ومعلوماته

الاجتماعية . إنها أوزار قديمة عاشرها الدكتور وعب منها وهو طالب ، بمد  
بوزه في الشوال ليأكل من فتات العيش المستغرقة من قديم . ذاك زمان انقضى  
بأساليب حياته وأساليب دراسته وجاء . قت آخر بأساليب أخرى ومناهج  
جديدة . كم كنا نحب للدكتور العلامة أن يعرفها حتى لا يظهر بأنه تنقصه  
هذه المعلومات ، لقد درسنا يا دكتور من المواد في الأزهر : الهندسة والجبر  
والحساب والكيمياء والطبيعة ، كما كانت تدرسها المدارس الثانوية تماماً  
وكنا أكثر تفوقاً من طلاب هذه المدارس ، حتى لا نجد أزهرياً يقول لك  
كما قال أحد متخرجي الجامعة في امتحان المذيعين . إن يافا عاصمة لبنان .

درسنا علم الحيوان والنبات وقمنا بعمليات التشريح والمعامل ، ودرسنا  
في السكليات علم النفس بفروعه المتعددة : التبري والجمالي والجنائي والفلسفة  
القديمة والحديثة ولغة من اللغات الحية . هذا فوق التوسع في دراسة العلوم  
العربية والشرعية . فتعال معي يا دكتور أنت ومن يظن ظنك وقل لي :  
ما الذي تعرفه من مناهج المدارس الابتدائية والثانوية أحسن مما في الأزهر .  
وما الذي يجعل الطالب في المدارس متفوقاً في نظرك عن الطالب في الأزهر .  
فما الذي يدعو الدكتور طه وأمثاله أن يحملوا على هذا النوع من التعليم  
ويطالبوا بإلغائه وإدماجه في وزارة المعارف ؟

من المعلوم للدكتور طه وغيره أن دراسة العلوم العربية والشرعية كلها  
إنما قامت حول القرآن الكريم وفي خدمته فلكي نفهم أسرار القرآن ونحتفظ  
علماً بما فيه وبما في الحديث من فقه وأخلاق لا بد لنا من دراسة واسعة  
في اللغة العربية بكل فروعها ، لا بد لنا بعد ذلك من دراسات المذاهب الفقهية  
وكيفية استنباطها ودراسة مذاهب المتكلمين ووجهات نظرهم ، ولا بد من  
الإحاطة بدرجات الحديث من القوة والضعف . هذه العلوم تحتاج كل منها  
إلى دراسة عميقة وتخصص واسع حتى يمكن الإحاطة بها وليس في الدين  
المسيحي مثل ذلك .

فأنتم عندما تتحدثوا عن رجل الدين تتحدثون عن رجل الدين المسيحي  
وقد غاب عنكم الفرق الشاسع بين طبيعة الدين المسيحي وطبيعة الدين الإسلامي ؛  
هل هذه هي الناحية شغلتنك عن مصالح الأمة ومصالح أبنائها ؟ ولماذا لم  
يشغلك ما يشغل الصحف والناس من هذا التيار الوجودي الإلخادي المستهتر

في الجامعة ؟ ولماذا لم تشفق على جامعاتك وشبابنا من هذا الانحلال الذي يندثر بالخطر في بناء هذه الأمة ؟ كان يجب أن تبادر إلى إنكار هذا التحلل لاسيما وقد طالبك الكتاب بذلك .

٣ - عبد المنعم النمر : لقد أحس الجميع وأنت تدعو الحكومة إلى اتخاذ الخطوة الثانية أنك تدعو إلى القضاء على الأزهر وعلى أمجاد مصر والعالم الإسلامي وإذا أراد واحد أن يعرف ذلك عن يقين فليبحث عن مصادر العلم في العالم الإسلامي قبل أن تنشأ في دور العلم الحديثة ، لقد كان كل خيط في أي رقعة في العالم الإسلامي يمتد حتى يتصل بمصر وبالأزهر الخالد حتى كسبت به مصر الزعامة الإسلامية من قديم ، فهي إذن أمجاد ألف سنة قضاهم الأزهر في المحافظة على الإسلام ولغة القرآن وتعليمها للناس شرقاً وغرباً تمتد الآن محاولة عابثة للقضاء عليها إذا كنا نريد القضاء على التعليم الابتدائي والثانوي في الأزهر وجعل التعليم كله في الدولة على نسق التعليم في وزارة التربية ، فهل نحد حينئذ من يحفظ القرآن ويقبل على دراسة تشريعه الخالد ، وإذا كان العلماء قد أنفقوا حياتهم في تعليم اللغة وفهم أسرار القرآن ولم يصابوا بعد إلى بغيتهم في خدمة القرآن وشريعته الخالدة ، فهل يمكن أن أربع سنوات يقضيها الإنسان في الكلية كافية لأن يصل إلى ذلك ؟ إنها إذن الحملة المدبرة تحت اسم توحيد التعليم للقضاء على الدراسات الإسلامية الأصلية التي امتاز بها الأزهر وأمدت بها مصر العالم الإسلامي ، ومن عجب أن الدكتور طه أقيم الدنيا وأقعدتها حين علم بأن هناك في وزارة التربية والتعليم نية لإلغاء قسم اللغة العربية في كلية الآداب وهو قسم حديث لم يصل عمره إلى ربع قرن ودافع عنه دفاع المستميت وأخذ يتلمس الأعذار لعدم إنتاجه فكيف يستساغ منه إذن أن يحمل هو نفسه معول الهدم لأقدم جامعة علمية في العالم ، وأكثر من ذلك فإن الآلاف من الأزهريين يقومون بالتعليم الآن في وزارة التربية والتعليم بجدارة لا يقلون في ذلك عن غيرهم إن لم يكونوا متفوقين لمصلحة من إذن يحمل الدكتور طه هذا المعول الهدام ؟

٤ - عبد المنعم النمر : على أي أساس تريد توحيد التعليم ؟

توحيد التعليم على الأساس الجاري يترتب عليه إضعاف التعليم الديني العام ، القضاء على حفظ القرآن الذي تمتاز به مصر . هل تحدث الدكتور

عن توحيد التعليم بالمعنى الحقيقي في مصر؟ هلا نتحدث عن القضاء على المدارس الأجنبية التبشيرية العسكرية في مصر لهدم قوميتنا وديننا ونخرج لنا شباباً غرباء عن أوطانهم .

لعل ولاء الدكتور للغرب هو الذى حمله على هذا فهو حين يتحدث عن غزو الحضارة الغربية للأزهر كان موالياً ومغتبطاً بها وهو حين يخطط خطوة أخرى مطالباً بإلغاء الثقافة الإسلامية والعربية في الأزهر مستنداً إلى المغالطات موال للحضارة الغربية تمام المبالاة ، يريد أن يفسح لها الطريق إلى مصر والشرق تأخذ منا ( حلوها ومرها ، وخيرها وشرها ، وما بحمد منها وما يعاب ، وما يجب منها وما يكره ) ومتابعة الولاء للغرب لالمصر ولا للعروبة ولا للإسلام ، ذلك هو ولاء الدكتور .

إن بقاء هذه الثقافة العربية الإسلامية قد يحول بين الدكتور وبين ما يريده من الإسراع إلى الفناء في أوروبا ومحاكاتها في كل شيء ، وقول الدكتور : إنه لا يدعو إلى إغلاق المدارس والمعاهد الأجنبية فهو نافر من ذلك كل النفور ، يدعونا إلى الاحتفاظ بها وكلنا يعلم مقدار خطرهما على الدين والقومية ، أما معاهد الأزهر الإسلامية العربية صاحبة الثقافة الأصيلة في الدين فيجب أن تلغى لأن الحاجة الوطنية عند الدكتور تدعو إلى إلغائها .

٥ - عبد الرحيم فوده : إن دول الغرب الاستعمارية وحدها هي التي تريد أن يزول الأزهر فلنأخذها تعرف جيداً أنه هو الذى حل لواء التحرير والحرية في أقدم عهودها ، هل ينكر الدكتور أن عروبة مصر وإسلامها مدينتان ببقائهما وارتقاها للأزهر؟ وهل يمكن أن تقوم لمصر قومية متميزة الملامح والأوضاع إلا إذا هي استمسكت بعروبيتها وإسلامها؟ القرآن كتاب كل مسلم وقاموس كل عربي؟ فهل يستريح غير المسلم لإلغائه وإلغاء هذه العلوم معه تحت ستار توحيد التعليم؟ هل يذكر الدكتور أنه صرح تلاميذه وزملاءه أيام كان عميداً بكلية الآداب بأن قسم اللغة العربية في هذه الكلية لن ينهض إلا على عقول أزهريّة؟ هل ينكر أن أعلام نهضتنا الفكرية إنما قام إنتاجهم الفكرى على أساس ما ورثوه من ثقافة أزهريّة : ( أحمد أمين ، الزيات ، مصطفى عبد الرازق ، عبد الوهاب عزام ، البشري ، الرافعي ، عبد الوهاب خلاف ، أحمد إبراهيم . . . إلخ ) وهل من الخير أن نعدل

عن هذا الاتجاه الذى أثمر هذه الثمرات الفكرية الضخمة إلى اتجاه آخر لا تؤمن مغيبته ولا تحمد عقياه ؟ هذا عمل خطير للعصف بآراث الإسلام وعلوم القرآن ومؤثرات ضخمة اعتبرت فى أعماق التاريخ تراثاً إنسانياً . إن توحيد التعليم لا يكون إلا يجعل التعليم كلة أزهرياً وليذكر الدكتور طه : « يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم . . . » .

٦ - كاهل محمد حسين : مطالبتك بإلغاء التعليم الدينى الطريق الذى يقف عقبة فى سبيل حفظ القرآن يحقق رغبة طالما تطلع إليها المستعمرون .

أرادوا القضاء على الأزهر وعلى العقيدة الدينية وعلى كل ما يتصل بالتعليم الدينى فلم يلجأوا إلى ذلك عن طريق المبشرين لئلا يقهروا سريعاً بالحجة ولكمهم سلكوا سبيل الخديعة مرة يحمل بعض المسئولين إلى وضع التشريعات التى تقضى على التعاليم الدينية فى مدارس الوزارة ، ومرة بكسب أصحاب الأقلام القوية لتقوم بالدعاية إلى ما يحقق أهدافهم ومن ذلك موضوع توحيد التعليم توسلاً منهم إلى إخضاع التعليم فى الأزهر إلى تشريعات وزارة لا يعنىها حفظ القرآن أو دراسة ما يتعلق بعلوم القرآن وبذلك يقضى عليه ويضعف العقيدة الدينية فى نفس المسلمين .

٧ - عبد الفتاح الهوارى : يريد طه حسين القضاء على القومية الشرقية ، وليس هناك طريق إلى ذلك أقرب من توحيد الثقافة وإزالة النفوذ الدينى من طريق التقدم ، توحيد التعليم إنما يريد أن يقلل من نفوذ الدين فى البيئات الشرقية والمصرية بوجه أخص ، ويعرف الدكتور أن الأزهر يمتاز بصفة إسلامية فى خارج البلاد المصرية وفى نفوس الأرباء .

إنما يريد الدكتور أن يكشف مدى ما عليه النفوذ الدينى المتمثل فى الأزهر من الهيمنة على نفوس الناس . ثم يضرب ضربه الإيجابية فى اقتلاع الدين من النفوس المصرية ليعود بهم إلى الحياة المصرية القديمة . الأزهر فكرة إسلامية لا يمكن الحياة بدونها . معقل القومية الشريفة .

٨ - وكتب السيد محب الدين الخطيب رئيس تحرير مجلة الأزهر فى مقدمة العدد الخاص ( ديسمبر عام ١٩٥٥ ) هذه الكلمة :

( إن الضجة التى أثارها مؤلف مستقبل الثقافة فى مصر لم يثرها ليقضى

فى مناهج الأزهر من ناحية العلوم . بل هو يريد من مصر ومن الأزهر ومن كل من ينتسب إلى العلم من الناطقين بالضاد أن يؤمنوا بثقافة الغرب كما آمن هو بها . إن السبيل إلى ذلك واحدة فذة ليس لها تعدد، وهى ( أن نسير سيرة الأوروبيين . ونسلك طريقهم لنكون لكم أنداداً أو لنكون لهم شركاء فى الحضارة : خيرها وشرها ، حلوها ومرها . ما يحب منها وما يكره وما يحمد منها وما يعاب ومن زعم لنا غير ذلك فهو خادع أو مخدوع ) . وأنا أنادى بملء فى معترفاً بأنى أزعم لأمنى غير ذلك وأنصح لها بأن تأخذ العلم كله لأنه تراث إنسانى شاركت فى تقدمه وتنميته أكثر أمم الأرض فى العصور القديمة ومنها مصر القديمة . وإن كره ذلك المتعصبون الذين يريد مؤلف مستقبل الثقافة أن نضحى بكياننا المعنوى لنذوب فى كياناتهم .

ولولا أن الإسلام استعجم بغلبة غير العرب لبقى زمام الحضارة الإنسانية فى أيدىنا .

وبعد : فإن مصر لو فقدت عقلها وسارت وراء مؤلف مستقبل الثقافة فى مصر لخسرت جميع أبنائها المثقفين كما خسرت ويا للأسف المسير كلود طه حسين ناظم ديوان أجراس الكنائس ( Ele nalin clair ) .

الذى يتغنى فيه لابنته بموسيقى الكنائس وأظن أن مؤلف كتاب مستقبل الثقافة يتمنى لجميع أبناء مصر أن يكون كل واحد منهم ( كلود طه حسين ) أما القائمون بالولاية على مصر فإن أبناء مصر أكرم عليهم من ذلك وأعز وهم يعلمون أن حياة مصر بالإسلام وقوتها بالتعاون مع العرب . إن هذه البذور التى زرعت فى تربتنا الجامعية منذ نحو ثلاثين سنة بمشهد من صاحب الخطوة الثانية كما يشهد له بذلك كتابه ( فى الشعر الجاهلى ) وأعمدة الصحف ومحاضر مجلس النواب وبعض قرارات النيابة إلى أن أنبتت تلك البذور رجالات صار منهم الآن مدرسون وأساتذة كالذى ( كان يمزج مع طلابه على حساب إيمانهم فيقول لهم : إنه ( سيعطى ) درجات إضافية فى الامتحان للذين يفتطرون فى رمضان ) ، وكالذى يعتبر الآن حجة الفلسفة الوجودية فى مصر ، ويقول فى رسالة له صدرت فى القاهرة عام ١٩٥٣ : ( إما أن تقول : بالأخلاق فنفقذ ذاتك . وإما أن يقول : بالأخلاق فتخاطر بوجودك . إتنا معاشر الوجوديين لا نريد أن ننساق وراء أحلام البراءة والبكارة والطهارة )

هذا هو خطر الوجودية الذى وصفته جريدة الجمهورية بأنه أصبح حرفة لبعض أساتذة الجامعات ، وقد خرج هؤلاء الأساتذة على معانى الأستاذية الجامعية إلى أفعال الدعاة والمبشرين ، فكل شاب تغويه هذه الفئة من الأساتذة وتغرر به وتدفعه فى طريق الانحلال هو خسارة محققة لمصر .

إن صاحب الخطوة الثانية يعمى عن رؤية هذا الخطر على مصر لأن هواه بصرفه عن اعتبار أن الخطوة الثانية يجب أن تنتج نحو تطهير الجامعة من هذا التيار العدواني للقانون والأخلاق والواجب والطهارة والبراءة وحماية الجامعيين من هذا الوباء الجارف الذى يدعو إلى الإثم ويهدد مستقبل مصر وكيانها ، فرأيناه يسكت عن ذلك ، لأنه كان من شهود زرع وغرسه ويرفع عقيدته منادياً بالقضاء على ما يختلف به فى مفاهيم تعليمه عن مناهج من يسميهم الناس فى مدارسهم . وليس بين مناهج الأزهر والمناهج الأخرى فرق إلا بتعليم القرآن وتفسيره والحديث ومصطلحه والسيرة النبوية والفقه الإسلامى ، فالقرآن وهذه العلوم المفسرة له والمستظلة بهديته هى الخطر كل الخطر على مصر ويجب أن تكون الخطوة الثانية متجهة نحو تحطيمها وإبادتها بتوحيد التعليم فى طور الصبا والشباب .

وكتب الأستاذ محمد محمد أبو شهبة فى مجلة الأزهر يقول :

( أريد أن نتخلى عن كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم الموحى إليه بهما من ربهما ونشتغل بفلسفة اليونان وسقطاتهم وثقافة الفرنسيين الذين يحبهم ويحيونه حتى تنفى عن أنفسنا أننا محافظون ، أم تريد أن تقطع صلتنا بالسلف الصالح من هذه الأمة الإسلامية وما خلفوا لنا من كنوز وذخائر وتصل جبالنا بأبناء الصين والتاييز حتى يرضى عنا ويضعنا فى قائمة المجددين ، ألا فليعلم الدكتور ومن على شاكلته أنه لن يكون شئ من ذلك ، ودون ما يريد خرط القشاد وصعود السماء : « . . فليمدد بسبب إلى السماء ثم ليقطع فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ » .

( ٣ )

وعندما صدر قانون تطوير الأزهر قال طه حسين : إن إنشاء كليات الطب والهندسة والمعاملات هو اتجاه سليم أدى إلى تطور التعليم الأزهرى إلى أسوأ وليس إلى أحسن . وقال فى الرد عليه أحد الباحثين : إن الدكتور

طه بعلم قطعاً أن بعثات التبشير قد نجحت في أنحاء كثيرة في آسيا وإفريقيا بسبب ثقافة المبشرين ، فالمبشر لم يعد لاهوتياً فقط بمعنى أنه لم يعد رجلاً متفرغاً لشئون الدين وحدها وإنما إلى جانب درايته الدينية ، فهو متخصص في الطب أو الهندسة أو الزراعة .

ويسخر طه حسين من إنشاء كلية البنات الإسلامية ويتصور أن هذا عمل رجعى حيث تقام أسوار شاهقة إلى السماء تحمى الطالبات أو أن هؤلاء الفتيات اللاتي تختلفن إلى الجامعة الجديدة . يتحجبن ومعنى هذا في نظره أننا قد تقدمنا إلى الوراء واتبعنا تطوراً خطيراً أخضعت له مصر أكثر من نصف قرن ويقول ساخراً : ( إنها تريد أن تحمى الفتيات من هذا الوباء الجديد الذى ابتدعته الحضارة الحديثة الذى هو لقاء الفتيات للرجال شباباً وكهولاً وشيباً ) . نعم إنه الوباء وقد جرت الريح تغير ما تشبه سفن التغريبيين التي ساقها طه حسين .

\* \* \*



## الفصل الثالث

### الفرعونية وحضارة البحر المتوسط

دعا الدكتور طه حسين إلى الإقليبية المصرية مع إعلانها الدعوة إلى الفرعونية وإنكار رابطتها العربية والإسلامية ، والادعاء بأن لها رابطة بالغرب ودول البحر المتوسط وأن العقل العربي هو عقل يوناني استمد ثقافته من الفلسفة اليونانية في القديم وهو عقل غربي في الحديث استمد ثقافته من أوروبا .

وقد كان هدف طه حسين من هذه الدعوى عزل مصر عن العرب والعالم الإسلامي وإدخالها في الحلف اللاتيني الذي أنشأته إيطاليا وفرنسا وأسبانيا بوصفها دول البحر الأبيض المتوسط وكانت فرنسا هي التي تقود هذه الدعوة - والنظرية تقوم على أساس أن مصر قطعة من أوروبا ، كما أعلن ذلك الخديو إسماعيل وأنها جزء من حوض البحر المتوسط .

يقول طه حسين في كتاب مستقبل الثقافة : ( إن العقل المصري منذ عصوره الأولى عقل إن تأثر بشيء فإتما يتأثر بالبحر الأبيض المتوسط ، وإن تبادل المنافع على أخلاقها فإتما بتبادلها مع شعوب البحر المتوسط ، فإذا لم يكن بد من أن نلتمس أسرة للعقل المصري نقره فيها فهي أسرة الشعوب التي عاشت حول بحر الروم . وإن كلمة إسماعيل لم تكن فناً من فنون التمدح أو لوناً من ألوان المفاخرة وإتما كانت مصر دائماً جزءاً من أوروبا في كل ما يتصل بالحياة الثقافية العقلية ) .

وهذه دعوى عريضة باطلة . وقد وجه طه حسين بعشرات الردود التي تكسف شمه وتزيف رأيه ولكنه كان يمشي في هذا الطريق على نحو من الصلف والكبرياء الكاذب الذي لا يبلغه .

ولقد أخطأ خطأ بالغا حين كتب في جريدة كوكب الشرق عام ١٩٣٣ هذه العبارة : وإن المصريين قد خضعوا لضروب من البغي وألوان من

العدوان جاءهم من الفرس واليونان وجاءهم من العرب والترك والفرنسيين وجاءهم الآن من الإنجليز ، وهم قد صبروا لهذا كله وانتصروا على هذا كله فردوا من ردوا من المعتدين وأفضوا في أنفسهم من أفضوا من هؤلاء المعتدين .

يقول الأستاذ أكرم زعير : إن ورود كلمة العرب في عداد الذين بغوا على المصريين أثارت نقمة البلاد العربية ولا سيما بلاد الشام من الدكتور طه ومع أن كباراً من كتاب مصر بادروا إلى الرد عليه ، فإن فقد كان لها تأثيرها في دمشق وقد لمست هذا بنفسى حيث كنت أزورها المهمة فقد عقد شباب متحمسون لعروبتهم اجتماعات وأصدروا بيانات ساخطة على الدكتور طه ثم أقبل بعضهم في مركب على ساحة الشهداء يحملون بعض كتب طه حسين حيث أحرقوها ودعروا إلى مقاطعة مؤلفاته .

وانهالت الردود على طه حسين أهمها ما كتبه أعلام خمسة :

عبد الرحمن عزام ، محمد على علوية ، أحمد حسن الزيات ، عبد القادر حزة ، على الجندي ( العربى - إبريل عام ١٩٨٠ ) .

كان هدف طه حسين ودعاة التغريب صهر مصر في بوتقة الحضارة الغربية تحت أسماء كثيرة ومحاولات مأكرة في مقدمتها تلك الدعوى العريضة بأن مصر غريبة العقل والثقافة ولم يترك الدكتور طه فرصة تمر دون أن يدعو إلى مصر الفرعونية وإلى كراهية مصر للعرب والعروبة ، بل لقد أعلنت مجلة المكشوف المارونية عن كتاب لم يصدر للدكتور طه حسين هو :

( مستقبل حضارة حوض البحر المتوسط في الشرق والغرب ) .

وهو كتاب لم يصدر حتى الآن ، فقد كان طه حسين من دعاة هذا الحلف اللاتينى الذى عقدته دول الغرب بعد الحرب الكبرى الأولى لاحتواء الإسلام ومحاصرته وإشاعة التبشير الغربى والتغريب والشعوبية في مؤامرة ضخمة ، والعمل عن طريق الغزو الثقافى على تغريب المسلمين في أقطار مصر والمغرب والشام في وقت كانت فرنسا لا تزال تدعى في تبجح شديد بأن الجزائر هى فرنسا الجزائرية .

وكعادة طه حسين في اندفاعه وحمقه فقد أعلن تصريحات خطيرة تحدى

بها مشاعر العرب والمسلمين عن ما أسماه الفرعونية المصرية وعن ما أسماه الاستعمار العربي وهو يصل في الغلو إلى حد أن يقول: إن الفرعونية متأصلة في نفوس المصريين وستبقى كذلك . بل يجب أن تبقى وتقوى والمصري فرعونى قبل أن يكون عربياً ولا يطلب من مصر أن تتخلى عن فرعونيتها وإلا كان معنى ذلك : اهدى يا مصر أبا الهرل والأهرام وانسى نفسك واتبعنا ، ولا تطلبوا من مصر أكثر مما تستطيع أن تعطى ، مصر لن تدخل في وحدة عربية سواء كانت العاصمة القاهرة أم دمشق أم بغداد وأؤكد قول أحد الطلبة القائل : ( لو وقف الدين الإسلامى حاجزاً بيننا وبين فرعونيتنا لنهذهناه ) . . إن المصرى مصرى قبل كل شئ فتهر لم يتنازل عن مصريته مهما تقلبت الظروف ) .

( مجلة المكسوف البيروتية عام ١٩٣٨ )

وفى تصريح آخر عام ١٩٣٩ قال : ( مصر لن تدخل في وحدة عربية ولا اتحاد عربى سواء أكانت مساوية فيه للأمم الأخرى أم مسيطرة عليها ) .

أما بالنسبة لتصنيف العرب في صفوف المستعمرين فقد كانت تلك مبالغة شديدة الخطأ فليس ارتباط مصر بالإسلام والعرب كان احتلالاً شديداً باحتلال الروم والفرس والإنجليز ، أما الشك في عروبة مصر والقول : بأن الإسلام دخيل طارئ عليها فذلك قول يبلغ مبلغ الحقد والإعنات وقد رد عليه كثيرون نختار منهم هذين الترددين :

قال الأستاذ لطفي جمعة : ليس للدكتور طه مكانة ممتازة في السياسة العالمية العربية أو الشرقية اللهم إلا فيما يتعلق بتمجيد فرنسا وتعظيمها والتمكين لها ولثقافتها في بلاد الشرق مراعاة لجميلها معه وهو يذكر الآثار المصرية والأعاجاد الفرعونية ويريد أن ينتزع منها مثلاً أعلى ، ولكننا لم نر العراقيين يذكرون آثار بابل وآشور ولا السوريين يذكرون آثار كنعان وبعبلبك ، ولا الإنسانيين يتحدثون عن قصر نمرود وأعمال سيف بن ذي يزن لاعتبارهم أن الحضارة العربية ( الإسلامية ) قد جبت هذه الأشياء وتركها أثراً بعد عين فكيف يترنم الدكتور بمثل أعلى من الحجارة .

ويقول الدكتور محمد غلاب : ( عندما رأى الدكتور طه أن فكرة القومية العربية تزدهر كتب مقالا في جريدة كوكب الشرق طعن فيه على

العرب ورماتهم بالظلم والاستبداد في حكمهم وأدرجهم في سلك واحد مع الرومان الذين دمروا البلاد من أقصاها إلى أقصاها وهووا بالحياة العلمية . والأدبية والأخلاقية والسياسية والاقتصادية إلى أعمق دركات الخضيض ، فخالف الدكتور بذلك المقال حكم التاريخ وعدا على الحقائق الواقعة وأنكر جيل العرب الذين أغاثوا أرض الكنانة من ذئاب الرومان الذين يتلاشى الدكتور طه تحت أقدامهم . كما يتلاشى تحت أقدام اليونان إلى حد أن زعم أن في عروقه دمًا يونانيًا ، والدكتور طه لا يسترشد في كتابته إلا بمصلحته الخاصة بين الكاتب التزيه الذي لا يستضيء إلا بالحق بون بعيد ، والذي حدا بالدكتور طه إلى هذا العدوان على التاريخ أمرا :

الأول : هو جد للرومان الذين هم ورثة مجد اليونان .

الثاني : هو حقه على دين العرب وهو الإسلام وقد جازى بعض الشعوب العربية هذا الدكتور المارق على مقاله مجازاة عادلة في رأيهم بمقاطعة كتبه وإحراقها .

إننا نأخذ على المسلمين أنهم لم يسلكوا هذه الخطة بلزاء كتب الدكتور طه التي حوت من الإلحاد واللاتينية والشك والمروق والإباحية الشيء الكثير فأين كانوا يوم قامت قيامة الشعر الجاهلي .

ومع ذلك فإن الدكتور طه حسين رأى محمود عزمي من بعد يروج لهذه الدعوة بضر منه وقال له : ما هذه الثقافة البيضاء المتوسطة ؟ وقال ولكن عزمي يشذ عن المألوف دون أن يشذ عن هذا الشذوذ فهو يفكر بالفرنسية فإذا كتب في العربية فهو إنما يترجم إليها ، وقال : إنه فقد طبيعته القديمة في التفكير والتغيير واستبدل بها هذه الطبيعة الفرنسية الجديدة ) .

( حديث الأربعاء ج ٣ )

وبكاد هذا القول ينطبق على طه حسين نفسه وقد صدق من قال : ( إن كل الذين يتحدثون عن رابطة البحر الأبيض وثقافة البحر الأبيض وحضارة البحر الأبيض من طه حسين فنازلا كانوا يروجون لمشاريع فرنسا التي تعتبر شمال إفريقيا جزءاً لا يتجزأ من سلطانها ) .

ولكن طه حسين عندما رأى تيار الوحدة العربية يزداد وتحتضنه الفوى

الرجمية سرعان ما غير رأيه فهو يقول : بأن القومية العربية تكونت بظهور الإسلام ، فالمكون الحقيقي للوحدة العربية تجميع أنواعها وفروعها اقتصادياً وسياسياً واجتماعياً ولغوياً هو الرسول عليه الصلاة والسلام وهذه القومية تكونت في الجزيرة العربية ثم تجاوزتها إلى الأقطار العربية .

ولكن رجال القومية لم يثقوا فيما يقول طه حسين ولم يصدقوه فهم يعرفون أنه لا يقول شيئاً ثابتاً وإنه إنما قال ذلك عندما أحس بأن الحكومات قد أخذت بهذا الأمر ووجد فيه منفذاً لدعوة تعريبية أخرى يستطيع أن ينفذ إليها من خلاله .

ولعله يستطيع أن ينفذ منها إلى القول : بأن مصر هي رأس العرب وفخرهم وبذلك يفسد الدعوة مرة أخرى بهذا الاستعلاء العنصرى الإقليمي . وآية ذلك أنه حين أعلنت مصر موقفها من العروبة كتب في ٢ ديسمبر عام ١٩٦١ مغيراً رأيه محاولاً الاعتذار عن ماضيه ، فكتب ( بين العروبة والفرعونية ) من منطلق أفراد مصر بدور خاص والمغالاة في التعصب لها وترديد المصرية كدور قامت به في زعامة العرب ، فنعرة المصرية ما زالت عنده في عصر العروبة كما هي قبلاً ، يقول :

مصر لا تستطيع أن تترك علماء الغرب يستكشفون ما كان في أرضها من الآثار ويستخرجون من هذه الآثار تاريخ الوطن المصرى في عصوره المختلفة قبل الإسلام دون أن تشارك في البحث عن هذه الآثار وفي استخراج التاريخ منها . فهل كان الذين يهتمون المصريين بهذه التهمة السخيفة ( تهمة الفرعونية ) والإغراق منها والإعراض عن العروبة لا شيء إلا لأن مصر تجد في حيازة ما يستكشف في أرضها من الآثار وفي استخراج ما تدل عليه هذه الآثار من فزون المعرفة كأنهم يريدون أن تعتمد مصر الجاهل بما في أرضها من الكنوز وتختفي من علماء الأمم المختلفة بين هذه الكنوز يستكشفونها وينقلونها إلى بلادهم ويستنبطون منها العلم ويدرسونه في جامعاتهم ومعاهدهم ويملأون بها متاحفهم وتظل هي غافلة لا تسمع ولا ترى جاهلية الناس من حولها ويملأون صدورهم بالعلم وينشرونه من حرمهم في بلادهم وغير بلادهم . أم هل كانوا يريدون أن تمنع مصر من البحث عن هذه الآثار وتحظر استنباط العلم منها وتفرض على الإنسانية وعلى نفسها الجهل بتاريخ أرضها وبالخصائص

التي قامت منها . ولعل هؤلاء السفهاء كانوا يريدون من مصر أن تدمر كل ما يستكشف في أرضها من الآثار الفرعونية واليونانية والرومانية لتثبت عروبتها وتثبت حرصها على هذه العروبة ومشاركتها في إحياء التراث العربى .  
أرأيت الدكتور طه حسين وكيف يذهب إلى التزوير البالغ والمكر الشديد في هذه الدعوى العريضة الكاذبة الضالة التي حاول أن يبرر بها انتقاله إلى العروبة مرغماً وقد ظل حياته من بعد ينكرها ويحفرها .

ثم ما هي هذه الثقافة والعلوم والكنوز التي أفاد منها العالم من هذه الأصنام التي خرجت من الأرض أو أخرجها هؤلاء التغريبون ليخدعوا هذه الأمة عن الانقطاع الحضارى بين عصر الوثنية وعصر الإسلام .

إن طه حسين يكشف بذلك انغماسه حتى الأذنين في وثنية عميقة يتنقل بها من اليونان إلى الرومان إلى الفراعنة ، وفي نفس ذلك الحقد المتقد على الإسلام فضلاً عن أن هناك فارقاً واسعاً وعميقاً بين دراسة الآثار وبين الدعوة إلى الفرعونية .

وما استطاعت كتابات طه حسين هذه أن تزيج سمومه الفرعونية التي بثها على طول حياته ، تلك التي شكلت مدرسة الأقلية المصرية البغيضة . وقوامها حسين مؤنس ، وتوفيق الحكيم ، وحسين فوزى ، ولويس عوض ، وهم الخلفاء الطبيعيون للثقافة الوثنية التي أنشأها طه حسين وهيكلا ، ومحمود عزى . وسلامة موسى ، هؤلاء جميعاً كانوا يعتقدون كما يقول الأستاذ عبد الحميد الكاتب بأن انتهاء مصر يجب أن يكون انتهاء غربياً أوروبياً في التعليم والثقافة في الحكم والسياسة وفي الاقتصاد وفي الاجتماع وفي التشريع .

قال : كان الدكتور طه حسين يعتقد أن مصر تنتمي تاريخياً وواقعياً إلى الغرب الثقافى . وكان يدعو إلى تنمية هذا الانتماء وتعميقه إذا ما أردنا تقدماً وصلاًحاً . وفي كتاب حسين مؤنس : مصر ورسالتها : أن تاريخ مصر هو تاريخ البحر المتوسط على وجه التقريب وأن تاريخ مصر متأثر بالبحر الأبيض بصورة دائمة .

وكذلك كان موقف الدكتور طه حسين من الحضارة : فهو يذهب  
مذهب المغالطة والحققد .

يقول : إن الحضارة الإسلامية لم تبعد الذهنية المصرية عن الذهنية  
الأوروبية من حيث إن العقل الإسلامى كالعقل الأوربى يرد إلى عناصر ثلاثة :  
حضارة اليونان ، حضارة الرومان ، الدين .

ولولا أن يكون الأمر هكذا لما سلخنا من الأوربيين في هذا الزمان .  
ألوان حياتهم المعنوية وما تأثرنا بنظمهم السياسية وما أخذنا بطرائقهم العلمية »

ونحن نقول للدكتور طه حسين : متى تأثرنا وأخذنا من التعليم أو النظم  
السياسية ، وقد فرض ذلك علينا فرضاً وأزيجت نظمنا ومناهجنا بعنف ، وقد  
كانت قائمة قبل الاستعمار على أحسن صورة ، إن الدكتور طه حسين يخذعنا  
خداعاً شديداً حين يصور لنا هذا الاحتراء التغريبي على أنه كان عن رضا منا  
أو قبول واقتناع نحن وآبائنا وليس أدل على ذلك من أنه فرض على شبابنا  
في تعلم اللاتينية واليونانية فرضاً وما كان لهم إلى ذلك حاجة .

إن صلتنا بالعرب ، بالشرق ، بالجزيرة ، بالكعبة لم تكن صلة عارضة  
ولم تكن صلة مفروضة ولكنها كانت صلة البقاء العطرة بالدعوة الصحيحة  
إلى الله وقبولها فلم يكن جانبا دين العرب والإسلام مصالح ولا مسائل  
مفروضة ولا تعارف عارض ولكنه كان أمراً طبيعياً أصيلاً عميقاً لا يمكن  
أن بوصف بأنه استعمار أو نفوذ أو غير ذلك من الأسماء الباطلة التي يجيد  
الدكتور طه حسين وتلاميذه طرحها وخذاع بعض الناس بها ، ومن ذلك  
الذي يصدق أن الذهنية المصرية بعد الإسلام هي التي كانت من قبل ، أين  
دعوة التوحيد وعطاء القرآن والسنة والتحول عن الوثنية وعن التعدد . لقد  
كانت الحضارة الإسلامية ممثلة في القرآن والسنة دعوة جديدة لها طابعها  
الخاص وذاتيتها المفردة التي جئت ما كان قبلها وأوجدت انقطاعاً حضارياً  
بينها وبين الفاشية من وثنية اليونان والرومان ، ولقد حاول دعاة الفرعونية  
حين دعوا إليها أن يوجدوا خيطاً واحداً من ثقافة أو عادات أو تراث مكتوب  
يتعللون بهم في إذاعة دعوتهم الوثنية الباطلة فما وجدوا .

أما موقف الدكتور طه حسين من الحضارة الغربية ودعوته المسلمين  
إلى أخذ ما يحمد منها وما يعاب وما يجب وما يكره فتلك دعوة باطلة مضللة

كشفت عن حقه وحقه وما صدق أحد زعمه ، حين كان يقول :

« إن هذه البلدان القائمة على شرائط البحر الأبيض المتوسط والممتدة من العراق إلى سريريا ولبنان إلى فلسطين ومصر ، هذه البلدان لا يختلف في حضارتها عن حضارة أوروبا لأن الحضارتين هما خلاصة أو نتيجة للحضارات القديمة التي انتقلت بطريق البرنان إلى أوروبا . فستقبل الحضارة في الشرق والغرب ومستقبلها في أوروبا واحد ولا يمكن إلا أن يكون واحداً ، وبعد كيف نستطيع في الشرق القريب أن نؤلف شعوباً مستقلة ودولاً ذات سيادة وتجاري أوروبا في مدنيها إن لم تأخذ بمبادئ حضارتها المادية » .

وهو في هذا يغالط في حقيقتين :

أولاً : إنه لا يوجد شيء اسمه الحضارة العالمية ، حضارة الغرب هي حضارة مستقلة عن الحضارة الإسلامية لاختلاف العقيدة والمنهج .

ثانياً : إنه لا يمكن لأمة ما ولم يحدث في التاريخ مطلقاً أن أخذت مناهج حضارة أخرى كاملة . وإنما هو الاقتباس للأصول العامة الصالحة واستبقاء الأصول الأساسية الذاتية لكل أمة وكل حضارة . ومن هنا فقد كانت دعوة الدكتور طه حسين باطلة وساقطة ، لأنه كان يتحرك ضد مجرى التاريخ وتياره الذي يكشف عن فساد حضارة الغرب وعن فساد تلك الدعوة المتوسطة التي سرعان ما تلاشت وكشفت زيف دعائها .

ومن العجب أن الدكتور طه حسين يدافع عن الحضارة الغربية بما لم يدافع به أصحاب الحضارة نفسه عنها ، فهم حين يقولون أنها أصيبت بالفتور والانحطاط يقول لنا الدكتور طه حسين : من دعا « لا تصدقوا الأوروبيين إذا أظهروا الضيق بمادياتهم وثقافتهم فهم في ذلك بين ساخط لا يرضى بما وصلت إليه أوروبا طامع إلى المثل الأعلى مستزبد من الرقي ورجل قد أخذه السأم فهو لا يرضى عن شيء » . ويقول : الخير أيضاً ألا تطمنن إلى ما تقرله بعض الشرقيين ويذكره من أن الثقافة الأوروبية والحضارة الأوروبية والحياة الأوروبية قد فسدت فساداً لاصلاح بعده فهذا كلام مصدره الضعف والعجز . وما زالت في أوروبا قوة خصبة غزيرة تؤهلها للبقاء والبقاء الطويل وتؤهلها للسلطان وللسلطان الواسع » .

هذا كلام له خبيء معناه بث اليأس في قلوب الوطنيين من المطالبة بحرياتهم فهو يقول لهم إن الأوروبيين سيقون طويلاً في بلاد المسلمين .

وهكذا نجد الدكتور طه حسين رجل يكذب على قومه ويفضلهم ويهديهم



إلى طريق مظلم مليء بالأشراك والرزايا وهو لا يستطيع مهما غير من أسلوبه ومن طرائقه أن يكسب الثقة به أبداً .

والدكتور طه حسين في جملة ما يقول على اختلاف وتناقض كبير يرى أن هناك عناصر ثلاث يتكون منها الروح المصرى وهى الفرعونية والإسلام والغرب ، وهو من حيث لا يكشف هدفه يدعو إلى التوسع في الفرعونية والعنصر الغربى . ويود لو أن العنصر الإسلامى تضاملاً إلى أقصى حد هو يريد أن يتصل الفن بالفرعونية فنجد منها الوثنية . ويريد أن يتصل الخلق بالحضارة الغربية ، فنجد منها مذهب المنفعة ، ويبقى العنصر الإسلامى أشبه بشئ تقليدى في الدين واللغة ، أما الدين فهو مفهوم لاهوتى وعلاقة بين المرء وربه ( وهو بذلك يتنكر تماماً لمفهوم الإسلام الصحيح منبج حياة ونظام مجتمع ) واللغة يرى هو أنها ملك للناس يتصرفون فيها كما يشاءون ، فهو يدعوهم إلى تطويرها حتى تنفصل عن لغة القرآن وعن بيانه . وهذه هى المؤامرة في صبره مختصرة . إنه يطمع في أن ننضوى تحت لواء الحضارة الغربية وأن ننصهر فيها لنكون أنداداً للأوربيين ، وأن نفقد كل ما يربطنا بالعرب أو الإسلام لأنه من عناصر الضعف والتخلف .

ولكن دعوة الدكتور طه حسين جاءت في الوقت الذى علا فيه صوت الدعوة الإسلامية واستحصدت فيه مفاهيم اليقظة الإسلامية الحقيقية فأهزم في كل معاركه . الإقليمية ، الذعرونية ، العامية ، التوسطية . بشرية القرآن ، سيطرة الفلسفة المادية تحت اسم العلم . الخ إلخ . ولقد ظل الدكتور طه حسين يتلقى الضربات عاماً بعد عام ومامن دعوة دعا إليها إلا كشفت الأبحاث الرصينة عن فسادها ومامن معركة دخلها إلا هزم فيها ؛ ( ٣ )

ولكن أخطر ما دعا إليه الدكتور طه حسين هو إنكار فضل الحضارة الإسلامية على الحضارة الحديثة . وإذا كان الدكتور طه حسين بعد أن عاد من أوروبا هاجم :

- ١ - أسانذته في الأدب ورماهم بالجهل أمثال المهدي والخضري .
- ٢ - هاجم الشيخ محمد عبده وقال أنه ليس على طريقته .
- ٣ - هاجم أحمد زكي باشا شيخ العروبة في دفاعه عن دور الإسلام في بناء الحضارة المعاصرة .

## إنكار فضل الإسلام على الحضارة

خطاب من أحمد زكى إلى طه حسين

دهشت حيناً رأيتك تقول عنى :

« أحمد زكى هو الذى أذاع فى الناس منذ سنين فكرة أن العرب سبقوا إلى كل شئ ، ولا يكاد يوجد بين الشعوب شعب تبعهم الناس » .

هذا كلامك ومعاذ الله يا ولدى ، أن يكون صدر منى هذا القول ، بل هى حياقة بعض كتاب الجرائد الهزليين ، وهى تهدف بما لا نعرف وتخلق القول اختلاقاً لذلك قاتلتهم بصمت الاحتقار .

إنك حضرت أكثر دروسى فى الحضارة الإسلامية بالجامعة المصرية ، فهل سمعت منى هذا القول أو ما يدانيه ، وها هم تلاميذى الكثيرون الذين كانوا معك بهذا المعهد ، وها هم تلاميذى بالمدرسة الخديوية ، والذين استمعوا إلى محاضراتى الكثيرة فى نادى المدارس العليا بالقاهرة . فهل سمع أحد منى مثل هذا القول الهراء أو ما يدانيه .

أنا أعلم أنك تعلم أن العلم أمانة وعهدى بك أنك حريص عليها . فهل من الأمانة أن تنسب لأستاذك مثل هذا القول الهراء وهو حى يرزق .

إن الذى قلته أنا وكررتة وأيدته بالوقائع النبابة ودعمته بالنصوص الصحيحة والأسانيد التاريخية المعهدة هو :

١ - إن العرب سبقوا الإفرنج إلى اختراع كتابه العميان .

٢ - إن العرب سبقوا الإفرنج إلى التفكير فى حل مسألة الطيران وإلى محاولة ذلك بالفعل وإلى نقله من حيز العلم إلى حيز العمل .

٣ - إن العرب سبقوا الإفرنج إلى التفكير فى كشف أمريكا وأنهم حاولوا الوصول إليها مرتين بالفعل : أولاً : من لشبونة عاصمة البرتغال ، وثانيهما : من مدينة غانة بالسردان الغربى على ساحل المحيط الأطلنطى .

٤ - إن العرب سبقوا الإفرنج إلى معرفة مرض النوم وأنهم سمروه (النوام) وشرحوا أغراضه قبل أن تستفيق أوربا من نومها .

٥ - إن العرب سبقوا الإفرنج إلى اكتشاف منابع النيل ووصفوها لنا وصف شاهد العيان .

٦ - إن العرب سبقوا الإفرنج ( في القاهرة التي نعيش نحن فيها ) إلى تخيل أمريكا وافتراض وجودها .

وكان ذلك بطريقة منطقية عقلية ، هي أفضل من التي اتبعها - كريستوف كولمب ( فإنه لم يكتشفها إلا بطريق الصدفة والاتفاق إذ أن نظريته التي شرحها للملكة إيزابلا الكاثوليكية بعد طرد العرب من غرناطة إنما كانت الإمعان في السير غرباً حتى يصل إلى بلاد الهند فلما وصل إلى أمريكا أسماها بلاد الهند الغربية وكان معه رجل من المسلمين الأندلسيين هو الرياشي وقد وصفها لنا وسمّاها أيضاً ( الهند الغربية ) .

هذا هو الذي قلته وقد ارتضاه جهابذة الفرنج وأهل الحصافة من العرب فهل يقدر أحد على إنكاره ؟ أم أن يستنتج منه أني زرعت في الناس الفكرة التي تريد أنت أيضاً أن تنسبها لي بغير الحق ، بل مجازاة لأطفال الكتاب الذين لا يؤبه بهم وهم لا يسألون عما يقولون .

كل أمة في الوجود لها فضل في الحضارة والعمران فهل يراد بنا أن نسكت عن مفاخر أجدادنا ، ونترك الميدان لغيرنا ، مثل العلامة سيديو الفرنسي الذي أثبت اكتشاف أبو الوفا البوزجالي فيما يتعلق باختلاف القمر . وأثبت أن العلامة نبيخو براهي الدنمراكي إنما نقل أرقامه وحساباته بالنص والحرف ، واعترف علماء الإفرنج لذلك الفلكي الإسلامي بالسبق إلى هذا الاكتشاف البديع ، فضلاً عن اكتشافاته الأخرى التي بينها العلامة دلامير الفلكي الفرنسي وقل مثله عن جابر بن حيان وعن ابن الهيثم وغيرهم من علماء العرب .

أم تريدون أن نترك لغيرنا إظهار مفاخر أجدادنا .

ثم ماذا أعمل بما أرشدني إليه بجئي حديثاً وهو أن الكندي الإسلامي قد اكتشف ورصد نجماً من ذوات الأذنان ، هل نترك تحقيق هذه المسألة للإفرنج ونبقى عائلة عليهم في بيان مفاخرنا ؟

أفئذا فقشنا عن آثار أجدادنا واهتدينا إلى الأقل القليل منها أفيكرن جزاؤنا مثل تلك المهمة الشنعاء ومن رجل مثلك ؟

الحق أبلغ والعلم أمانة وأنت خير من يتولاها وينزل على حكمها .  
والدك أحمد زكي

## الفصل الرابع

### مستقبل الثقافة في مصر

أثار كتاب مستقبل الثقافة في مصر الذي أصدره الدكتور طه حسين عام ١٩٣٨ ضجة كبرى ومعارك متعددة فقد كان بمثابة المنافستو الاستعماري الذي يجب أن يطبق على مصر بعد أن انتهت الامتيازات .

فالدكتور طه ينذر فيه المصريين بأنهم التزموا أمام أوروبا أن يذهبوا مذهبها في الحكم وأن يسيروا سيرتها في الإدارة وأن يسلكوا طريقها في التشريع ويهددهم بأنهم لا يستطيعون التراجع عن ذلك بعد أن وقعوا معاهدة الاستقلال ومعاهدة إلغاء الامتيازات ومنها مواد صريحة قاطعة تعرض على المصريين هذه التبعة التي يسميها ( السير سيرة الأوروبيين في الحكم والإدارة والتشريع ) . ويقول :

فلو هممنا الآن أن نعود ادراجنا وأن نحبي النظم العتيقة ( ويقصد بالنظم العتيقة الشريعة الإسلامية ) لما وجدنا إلى ذلك سبيلا ، ولوجدنا أمامنا عقبات لا تتجاز ولا تذلل .

#### معالم الطريق :

وإذا سألنا عن الطريق الذي يرسمه لنا مستقبل الثقافة لوجدناه واضحا في عبارته التي تقول :

( إن سبيل النهضة واضحة بيئة مستقيمة ليس فيها عرج ولا التواء وهي أن نسير سيرة الأوروبيين ونسلك طريقهم لنكون لهم أندادا ولنكون لهم شركاء في الحضارة خيرها وشرها ، وحلوها ومرها ، وما يحب منها وما يكره ، وما يحمد منها وما يعاب ومن زعم لنا غير ذلك فهو خادع أو مخدوع ) . هذا هو الأسلوب الذي يريد فرضه النفوذ الاستعماري عن طريق ( مانفيسو طه حسين ) الذي قدمه أول الأمر إلى كبار المسئولين بعد توقيع المعاهدة بعد عودته من رحلة الصيف إلى فرنسا في ذلك العام ، والمعروف أنه كان لفرنسا عدد كبير من مدارس الإرساليات في مصر ، وأنها كانت حريصة على أن تستمر عملية التبشير التي تتم عن طريقها في حماية النفوذ الإنجابي الذي وافق على ذلك بعد إلغاء الامتيازات ) .

وترجع خطورة الكتاب إلى أن صاحبه كتبه بناء على خطة واضحة في الغرب وأنه مالمثل أن يمكن من المنصب ، فولى منصب المستشار الفني لوزارة المعارف على أثر ذلك مباشرة ، ثم منصب مدير الثقافة بها ، ثم عيذاً لكلية الآداب من قبل ومن بعد ، ثم مديراً لجامعة الإسكندرية ، ثم وزيراً للمعارف على التوالي .

وقد مكنته هذه المناصب من عام ١٩٣٨ إلى ١٩٥٢ من تنفيذ برامجه وإرساء أسس هذه الخطة التي وضعها في كتابه خلال أربعة عشر عاماً ، وبذلك تركز منهج التغريب في جميع برامج التعليم في الثانوى والجامعة على أساس الغزو الثقافي الذي أراد النفوذ الأجنبي به تعويض ما فقده من الأرض بلغاء الامتيازات الأجنبية وسيطرتها على الإرساليات التعليمية ، فقد انقلبت هذه المناهج من المدارس الأجنبية إلى المدارس المصرية بهدف القضاء على معالم الشخصية الإسلامية في :

١ - أنظمة التعليم في الأزهر .

٢ - اعتبارات مصر الإسلامية .

٣ - مقومات الكيان الإسلامى .

٤ - أثر الإسلام في ثقافة مصر وتفكيرها ، فقد وقفت فرنسا ضد توقيع اتفاق مونترو عام ١٩٣٧ لإلغاء الامتيازات ما لم تتأكد من أن خططها في التغريب في مصر ستظل محررة .

وفي هذه المحطات الحاسمة أهدى طه حسين وشاحاً كبيراً من جامعة ليون التي تعلم فيها وعاد وهو يحمل معه أصول هذا الكتاب ، وبعد أن كانت المعركة تدار عن طريق آراء المستشرقين أمثال : جب وماسينيون والمبشرين وغيرهم أمثال : ولكوكس وزويمر أصبح هناك من الكتاب العرب من يحمل لواء هذه الأفكار ويدعو إليها كحجولة لتثبيت دعائم التجزئة وخلق ملامح مصطنعة لما يسمى بالفكر المصرى المعاصر المنعزل عن الفكر الإسلامى .

الخطوط الأساسية للكتاب :

أولاً : الدعوة إلى حل مصر على الحضارة الغربية وطبعها بها ، وقطع كل ما يربطها بقديمها وإسلامها .

ثانياً : الدعوة إلى إقامة الوطنية وشئون الحكم على أساس مدنى  
لا دخل فيه للدين أو بعبارة أصرح : دفع مصر إلى طريق ينتهى بها إلى أن  
تصبح حكومتها لا دينية .

ثالثاً : الدعوة إلى إخضاع اللغة العربية لسنة التطور ودفعها إلى طريق  
ينتهى باللغة الفصحى التى نزل بها القرآن إلى أن تصبح لغة دينية فحسب  
كالسريانية والقبطية واللاتينية واليونانية .

#### القصة الأولى : العقل المصرى عقل غرق :

وتلك أكبر مغالطاته الفاضحة . حين يريد أن يصور أن العقل المصرى  
نشأ فى أحضان الشعوب التى عاشت حول بحر الروم ، وأن علاقات مصر  
بالغرب أوثق من صلاتها بالشرق ، وتصويره للعرب بأنهم غزاة دخلاء  
لا يطمئن إليهم المصريون فى الوقت الذى يصورهم فيه مطمئنين إلى الفتح  
اليونانى لا ينكرونه ولا يتمردون عليه ويحاول أن يقول : بأن الإسلام لم  
يخرج بالمصرى عن مصريته . وأن مصر كانت دائماً جزءاً من أوروبا فى كل  
ما يتصل بالحياة العقلية والثقافية على اختلاف ألوانها وفروعها ، ويحاول  
القول : بأنه ليس بين المصريين والأوربيين فرق فى الجوهر ولا فى الطبع  
ولا فى المزاج وأنه لا يخاف على المصريين أن يفنوا فى الأوربيين .

#### دعوى غريبة :

ويدعو الدكتور طه أن وحدة الدين ووحدة اللغة لا تصلحان أساساً  
للوحدة السياسية ولا قواماً لتكوين الدول ، ويدعو إلى أن تكون الحكومة  
لا دينية وأن يقام التعليم على أساس مدنى خالص وأن يترك تعليم الدين للأسر ،  
ويتحدث عن الأزهر فيصوره أثراً من : لغات العهود المتأخرة المنحطة وجل  
ما يضايقه فى الأزهر هو فهمه الإسلامى للوطنية . ويريد الدكتور أن يدخل  
فى أدمة أبنائه فهم الوطنية فهماً إقليماً بمعناه الغربى الحديث ، وأن هذه  
الصورة العلمانية الغربية يجب أن تدخل الأزهر .

وقد ناقش هذه الأفكار كثيرون فى مقدمتهم ساطع الحصرى ، وزكى  
مبارك ، والشيخ حسن البنا ، ومحمد محمد حسين وكشفوا عن الأخطاء الآتية :

أولاً : الفروق فى الطبع والمزاج من الأمور المشاهدة بين جميع  
الأمم ، حتى بين الأمم الأوربية نفسها ، التى تبدو للعيان وكأنها واحدة بين

الإنجليزى والفرنسى والألمانى والإيطالى ، فهل يعقل مع هذا ألا يختلف طبع المصريين ومزاجهم عن طبع الأوربيين ومزاجهم بوجه من الوجوه ؟ ومن هنا فإن هناك فارقاً واسعاً وعميقاً بين العقلية المصرية والعقلية الأوربية على أساس اختلاف الدين والعقيدة واللغة والأخلاق والعادات والتقاليد .

ثانياً : إنه لا علاقة مطلقاً بين مصر وبين الثقافات والحضارات التى نشأت حول بحر الروم . فصر منذ وقت بعيد مرتبطة بالإسلام والعرب وكل قضاياها عربية إسلامية .

ثالثاً : إن تأثير وحدة الدين ووحدة اللغة فى تكوين الدول قائم ، وقد تحققت فى الماضى وفى العصر الحديث قيام الدول على أساس وحدة اللغة ووحدة الدين وليس معنى هذا أنها من خصائص القرون الوسطى ، بل أن وحدة اللغة هى من القوى الفعالة فى تكوين الدول وتوجيه السياسات وكذلك وحدة الدين .

رابعاً : إن الكتاب لم يتلفت إلى أهم الفروق الموجودة بين الشرق والغرب وهى التى نشاهدها من وجهة نظم الأسرة وأوضاع المرأة والأوصاف النفسية - الخلقية والعقلية - التى تتبع تلك النظم والأوضاع .

وقال الدكتور زكى مبارك : قلت : يا دكتور إن عقلية مصر عقلية يونانية وفرحت بأن الإسلام لم يغير تلك العقلية فى حين أن مصر ظلت ثلاثة عشر قرناً وهى مؤمنة بالعقيدة الإسلامية ، والأمة التى تقضى ثلاثة عشر قرناً فى ظل دين واحد لا تستطيع أن تفر من سيطرة ذلك الدين . إن الإسلام دمج الشرق رجة أقوى وأعنف من الرجة التى أثارها الفلسفة اليونانية .

فى الحق أن المصريين فى حياتهم الإسلامية شغلوا أنفسهم بعلوم اليونان ولكنك وقد جلست فى صحن الأزهر كما جلست أنا ، تعرف أن المصريين لم يتذوقوا تلك العلوم والأزهر لا يزال باقياً .

أنت تعرف فيما تعرف أن قضايا الفقه الإسلامى نفسه كان يتغير بالانتقال من أرض إلى أرض . فكان للشافعى مذهب فى مصر ومذهب فى العراق ، ويعنى ذلك أن العقلية تتغير من وقت إلى وقت باختلاف ظروف الزمان وظروف المكان . والموجة الإسلامية التى طغت على مصر فنقلتها من لغة إلى لغة ومن دين إلى دين . والتى قضت أن تنفرد مصر بحراسة العروبة والإسلام

بعد سقوط بغداد . هذه الموجة الصائبة لا يمكن أن يقال : إنها لم تنقل مصر من العقلية اليونانية إلى العقلية الإسلامية ولكن ما هي تلك العقلية الإسلامية ؟ هي لون آخر غير العقلية اليونانية بلا جدال .

وقال الأستاذ حسن البنا المرشد العام للإخوان المسلمين : إن الثقافة الواجبة الرعاية في كل بلد متحضرة هي الثقافة الشعبية العامة والثقافة المدرسية ذات السياسة المحددة والغرض الواضح . ولذلك يجب إعطاء الثقافة المصرية طابعها الإسلامي المميز لها .

وإن مصر منذ دخولها الإسلام طائفة مختارة ، فقد كسبت مزاجاً خاصاً لا فكاك لها منه ، وقد ظلت مصر مدة أربعة عشر قرناً إسلامية التاريخ والمجتمع والثقافة ، إلى أن جاءت نظم التربية الحديثة فأرادت أن تنزع عنها هذا اللون المميز لتقبل بزمجها إلى الشيوع في جميع الثقافات الأخرى ، ولما كانت التربية الإسلامية على ضوء المنطق وضوء العلم الحديث تشتمل في جميع أحكامها ومنابعها الثقافية والاجتماعية على جميع عناصر التربية الكاملة أصبح لزاماً أن تتخذ سياسة جديدة أساسها هذا المزاج الإسلامي ودعائها هذه الروح الإسلامية .

والمزاج الإسلامي الفريد قابل لكل تطور ، يحتفل بالعلم ويقدسه . فالصلاة الإسلامية فريضة واجبة وركن من أركان العبادات ، وهي لم تخرج عن النسق الكامل الذي جاء به الإسلام جملة وتفصيلاً في تربية الجسد وتربية العقل وتربية الروح وهذه العناصر الثلاثة في التربية — هي نفسها — ما يصفه العلماء بأنه التربية الكاملة .

والعقلية الإسلامية ذات طابع إسلامي من حيث المزاج والتصور لا فرق في ذلك بين المتدينين من المصريين وغير المتدينين منهم . إن مصر بتاريخها الإسلامي الباهر تدحض كل زعم بتأثرها بغير هذه العقلية ولعل تاريخها الحديث ونهضتها الحاضرة بين الأمم التي قامت على دعامة من فكرها الإسلامي وثقافتها الإسلامية خير دليل لمن يريدون الميل بها عن الذي استمدت منه مئات السنين مادة قوتها وتماسكها وإشراقها الخاص بين دول الشرق والغرب .

#### **دعوة تعلم اللغات الأجنبية والآداب الأجنبية :**

ويدعو طه حسين إلى أن لا تقتصر الدراسات الأدبية في مدارسنا على



الأدب العربي . بل يجب أن تدرس الآداب الأجنبية وأنها يجب أن تقدم في لغتهم الوطنية .

ويقول الدكتور محمد محمد حسين : إن كلام المؤلف يلبس ثوب الوطنية والتعصب للغة القرمية ولكن مقصده الحقيقي الذي يتفق مع مذهبه وهو نشر آداب الغرب وثقافته على أوسع نطاق فإن الدول الاستعمارية في سبيل نشر ثقافتها تترجم وترّلف باللغة العربية ( .

وفي حملة الرد على شبهات مستقبل الثقافة نقول :

أما الدعوة إلى إخضاع اللغة العربية لسنة التطور فإنه يهدف إلى إيجاد مسافات واسعة بين بيان القرآن الكريم وبيان اللغة العربية بما يؤدي بعد أجيال إلى أن يتفصل القرآن عن الثقافة العامة ، ويقرأ بواسطة قاموس وتلك هي المؤامرة الخادعة التي يختصها دعاة الأسلوب العصري في الكتابة وفي مقدمتهم طه حسين .

كذلك فإن الدكتور طه كان يدعو في هذا الوقت الباكر إلى العلانية وإلى القضاء على الشريعة الإسلامية بالقانون الوضعي وإلى القضاء على الوحدة الإسلامية بالدعوة إلى الإقليمية والقومية الغربية .

أما تقبل الحضارة الغربية خبرها وشرها ، وحلها ومرها فإن ذلك يعنى أن ينصهر المسلمون في الحضارة المعاصرة وبذلك يفقدون الذاتية الخاصة بهم ويصبحون شيئاً لا طابع له ، وبذلك يفقدون رسالتهم ومسئولياتهم وأمانتهم في حمل رسالة الإسلام وإقامة المجتمع الإسلامي وتبليغ الإسلام للعالمين .

أما دعواه بأن العقل المصري هو عقل يوناني فإنها من مكر المستشرقين الذين يريدون أن يقولوا : بأن المسلمين أخذوا منطق أرسطو في النهضة الأولى ، ومن هنا فلا مانع أن يأخذ المسلمون المعاصرون منطق الغرب الحديث ، علمانيته وإباحيته وماديته .

والحقيقة أن المسلمين لم يقبلوا الفلسفة اليونانية عندما ترجمت ، ورفضوها تماماً وزيفوها ووقفوا لها بالمرصاد جيلاً بعد جيل ، حتى جاء الإمام الغزالي فكشف زيفها ثم كانت طعنة ابن تيمية لها في كتابه عن الرد على منطق أرسطو ، وكانت مواقف الشافعي وابن حنبل كلها مواقف معروفة تؤكد رفض المسلمين للفلسفة اليونانية وكشف زيفها .

وتلك أكذوبة كبيرة من الاستشراق في دعواه العريضة ، بأن المسلمين قبلوا منطق أرسطو ، أو أن المعتزلة كانوا تلاميذ اليرنان ، أو ما كان من زيف الفكر الباطني ، الذي قدمه دعاة الحلول والاتحاد ووحدة الوجود ، أمثال الحلّاج فإن ذلك فكر مرفوض حاول طه حسين وأستاذه مانسيون دعوة إحيائه بإعادة طبع رسائل إخوان الصفا أو إحياء كتبهم .

ونحن الآن نقف على نفس الثغرة التي وقف عليها هؤلاء الأبرار ، وقد أعلنت حركة اليقظة الإسلامية رفضها للتبعية للفكر الغربي بشقيه وزيفت مناهجه وكشفت عن ستمومه وأخطائه وعن تفرد المنهج الإسلامي بالترجيح الخالص .

وقد كشفت الأبحاث زيف دعاوى طه حسين ، الذي كان عميلاً للتبشير ومدافعاً عن تبعية مصر للغرب . في التشريع والحكم ، بالإشارة إلى بند من معاهدة مونترو .

ولقد تحطم هذا الاتجاه كله وظه حسين حتى وعاد طه حسين من جديد في سنواته الأخيرة يحاول أن يتلاءم مع حركة اليقظة ولكن هيهات :

١ - الامتيازات معاملة خاصة كان الأجانب ( الأوروبيون ) ومن في حكمهم يلقونها من الحكومة أثناء الاحتلال . فلما أمضيت المعاهدة التي تنص على الاستقلال ألغيت الامتيازات ظاهر الأمر ولكن بقيت بصورة أو أخرى في ظل حكومات العهد الملكي خاصة وأن المعاهدة نظمت قواعد وجود جند الاحتلال في مناطق معينة من أرض مصر يومئذ .

٢ - لم يمض طويل زمن على هذه الدعوة الإقليمية حتى قام الاتحاد الأوروبي - رغم اختلاف الأرومات واللغات - وقطع أشواطاً طويلة وأدرك الدكتور قبل وفاته بعض ذلك .

• • •

## الفصل الخامس

### التراث ورسائل إخوان الصفا

كان أكبر أهداف طه حسين تزييف التراث وكان موقفه من التراث الإسلامي واضحاً :

**أولاً :** موقوف الاسمئانة والامتهان له بإطلاق اسم القديم عليه والدعوة إلى فصله عن الفكر الإسلامى حتى يمكن ضربه على أنه أدب .

**ثانياً :** محاولة إعادة كتابته بمفهوم التفسير المادى للتاريخ ومنهج الجبرية التاريخية وإزالة طابع الإيمان والبطولة والتضحية الواضح في تضاعيفه وتحليله تحليلًا ماديًا بحيث يجعل اندفاعه الإسلام إلى التوسع والفتح إنما كانت في سبيل المطامع المادية وهر نفس مفهوم المستشرقين .

**ثالثاً :** عدم التفرقة بين الرحى المنزل ( القرآن ) والحديث النبوى ( السنة ) ومختلف أنواع التراث الأخرى من منطلق فهمه المادى الاستشراقى ببشرية القرآن وأنه من كلام محمد صلى الله عليه وسلم .

**رابعاً :** تركيزه على القول : بأنه لم يجد في الأدب العربى القديم ما يستحق أن يبعث ويبشر إلا أخبار المجرنين الذين ابتلى بهم الأدب العربى ويعنى بهم أبانواس ووالبة والخليع ومن إليهم . وقد عرض تلك الأخبار الآجنة والأشعار المأجنة في ثوب البحث العلمى باسم التجديد ، كأنما التجديد في الأدب شعار تحارب الفضيلة من ورائه ووسيلة للدخول إلى النفوس بما لم يكن لولا تلك الوسيلة تداخل عليها .

ولقد أخطأ طه حسين خطأً بيناً في وصف التراث الإسلامى بكلمة ( القديم ) تحقيراً له وامتهاناً ودعوة إلى نبذه . ثم أخطأ مرة أخرى في إعادة كتابة بعض صفحات من التاريخ الإسلامى بمفهوم مضلل .

**خامساً :** إحياء التراث الزائف الذى صنعته الشعوبية والباطنية . فقد حرص على إعادة إحياء بعض الكتب القديمة واعتبرها مراجع لدراسة المجتمع الإسلامى ، وقد ركز على كتاب ( الأغاني ) تركيزاً شديداً مع أن هذا

الكتاب بإجماع المؤرخين لا يصلح للغرض الذى قصد إليه لأنه إنما أُلِفَ للتسلية والتهور . ولكتابة فصول عن أهل الأغاني وهم شطيرة قليلة من المجتمع لا تمثل ولا تؤثر فيه تأثيراً صحيحاً ، وإنما كانت القوة الحقيقية المؤثرة في المجتمع الإسلامى في هذه الفترة هى طائفة العلماء والفقهاء بينما كانت طائفة الشعراء الماجئين وأهل الأغاني منبوذة ولا يعتد بها .

سادساً : قصد إلى إحياء بعض الكتب القديمة ذات الأثر الخطير في طرح مفاهيم الباطنية والمحوسية وغيرهم من الفرق الضالة وذلك باهتمامه بكتاب (رسائل إخوان الصفا) .

( ٢ )

إن مراجعة الأعمال التى تصدى طه حسين لإحيائها من التراث تكشف هويته وغايته ، فهو يطمع في إحياء كتب المعتزلة والفلاسفة والباطنية . والتصوف الفلسفى ، وهو تيار بدأه المستشرقون وسار فيه أستاذه ماسنيون الذى أحيا الفكر الباطنى للحلاج ، وهو يتحدث عن التقصير في إحياء التراث لمجرد لما سماه الكشف الخطير على طريقته في المبالغة ، حيث يقول : ( إنه استكشف كتاباً عظيم الخطر في تاريخ الفلسفة الإسلامية هو كتاب ( المغنى ) للقاضى عبد الجبار وهو كتاب يصور مذاهب المعتزلة في علم الكلام ، تعرض فيه هذه المذاهب عرضاً مفصلاً وتناقش مناقشة مفصلة أيضاً ) . إذن فهذا هو المهم ، المهم نشر كتاب في فكر المعتزلة يضلل الناس عن مفهومهم في التوحيد الخالص ويردهم مرة أخرى إلى الشبهات التى أثرت منذ عشرة قرون ثم قضى عليها الغيورون من رجال التوحيد شأنه في هذا شأن دعوته إلى طبع رسائل إخوان الصفا وشعر أى نواس .

وهكذا تجده في المجمع اللغوى ولجنة الثقافة بالجامعة العربية يهدف إلى نشر مثل هذه الكتب ويسمىها ( الخطيرة القيمة ) وهو في لجنة الثقافة مهم بكتاب ( أنساب الأشراف ) للبلاذرى وهو كتاب مضطرب طبعه اليهود في إسرائيل لأنه يبرئ عبد الله بن سبأ ، ولكن الدكتور طه لا يكشف وجهته فيجعله بين مجموعة الكتب الأخرى .

وكذلك كان عمله في طبع كتاب ( البرهان ) في وجه البيان لأبى الحسن إسماعيل بن إبراهيم بن سليمان بن وهب الكاتب ، فقد طبع جزءاً منه قدر ثلثه

باسم (نقد النثر) حرره وأخرجه مع عبد الحميد العبادي منسوباً إلى أبي الفرج قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي المتوفى عام ٣٣٧ هـ . وقد تبين أنه ليس كتاب قدامة وليس نقد النثر ولكنه كتاب البرهان في وجوه البيان وعند المقابلة بينه وبين كتاب (نقد النثر) وجدا متفقان في القدر المطبوع وتزيد المخطوطة مقدار ثلث الكتاب . كشف ذلك أحد الباحثين في مجلة الرسالة عام ١٩٤٨ ص ١٢٥٧ .

وإذا أردنا أن نعرف لماذا أولى الدكتور طه اهتمامه لهذا الكتاب لوجدنا أن قدامة هو تلميذ اليونان ونشر كتابه من شأنه أن يقدم للقراء صورة ما يريد طه حسين أن يبلغه من كذب وبهتان من أن اليونان كان لهم أثرهم في البيان العربي .

### (٣)

#### كتاب رسائل إخوان الصفا

وقد كشف كثير من الباحثين أخطاء طه حسين في رسائل إخوان الصفا . فقد ألف الأستاذ محمود الملاح رسالة خاصة تحت عنوان (حقيقة إخوان الصفا) ولخص أخطاء طه حسين منها الأستاذ عبد الأمر غلوش في عدة قضايا على النحو التالي :

#### ١ - القضية الأولى :

قال طه حسين عن إخوان الصفا : إنهم مفكرون مستقلون يحاولون أن يصبغوا ما انتهى إليه المسلمون من آثار الأمم بصبغة إسلامية وكان من زعمائهم جماعة كالفارابي وابن سينا .

وقد أجاب الأستاذ الملاح عن ذلك الافتراء بقوله : إن هذه النحلة الهدامة تحاول صبغ الملة الإسلامية صبغة الأساليب الوثنية المتضمنة للشرك والعبودية والرجوع بالمسلمين إلى الوراء بعد أن ذاقوا نعمة التوحيد الحر الخالص .

#### ٢ - القضية الثانية :

قال طه حسين : إن رسائل إخوان الصفا أشبه شيء بدائرة معارف فلسفية جمعت كل ما لم يكن يد من تحصيله للرجل المثقف في هذا العصر . هذه الرسائل ليست إلا مدخلا إلى رسالة جامعة هي خلاصة العلم وغاية

الغايات . هل يبعد أن يكون رجل كالغزالي قد تأثر إلى حد قريب أو بعيد بفلسفة هذه الجماعة ولا سيما حيناً نلاحظ أنه نشأ فيلسوفاً وانتهى صوفياً ؟

ويقول الأستاذ الملاح : إن هذا الرصف صحيح لو خلا الموصوف مما أفسده الواصف بالتخاذل وسيلة رخيصة إلى خدمة جهة مادية مزيفة فيكون ضررها أكثر من نفعها . كما وأن الدكتور لم يقرأ الكتاب ( الرسالة الجامعة ) بالشروط التي ذكرها ( وهي العناية والتحقيق والتحصيل ) ، بل قرأها قراءة عابرة وترك الجذوع والجذور وترك القارئ واقفاً على أصابع قدميه حائراً .

أما الإمام أبو حامد الغزالي فقد كان معروفاً بمحاربة الباطنية فيبعد أن يتأثر بفلسفة الجماعة المذكورة . نعم يجوز أن يكون تأثر بفلسفتهم الظاهرية العامة التي كانت مشاعراً بين الفلاسفة أو كانت نقطة التقاء مشتركة وهناك فرق بين الفلسفة الظاهرية العامة وبين الفلسفة الباطنية الخاصة المستترة بالفلسفة الظاهرية العامة .

ويلاحظ أن الدكتور طه حسين قد اغتر بالآفاق ولم يتوغل إلى الانفاق : تلك الانفاق الخلزونية وعدم توغله فيها سبب له صدور حكمه على الرسائل : حكماً سطحيّاً ، وسرعان ما استأنف الدكتور البصير هذا الحكم بنفسه عن نفسه فنقضه بسهولة حيث قال : ( إن هذه الرسائل لم يقصد بها الفلسفة من حيث هي ولا العلم من حيث هو وإنما أريد بها تكوين ثقافة معينة لنحو من السياسة معين ففيها من التأويل والدوران وفيها من الحيل والخيال ما يحسن الالتفات إليه والاحتياط منه .

إن الحكم الأخير الذي أصدره الدكتور لا يحتاج إلى تمييز . ولكن هل كان حكماً مقترناً بالجزم أم كان على سبيل الاحتياط والتحفظ ؟ لنقف قليلاً عند أقوال الدكتور طه وإطنابه وتهربه حيث يرى أن هذه الرسائل كثر لم يقدر ثمنها إلا بعد معرفتها .

ولم يعلم صاحب المعاني البصير أنه كثر ملوء بالأفاعي والعقارب ، وإن قيمة الرسائل ، بخسة ، وهي بخسة الغاية والهدف ، ولذلك تبين أن الدكتور طه كان متموجاً في مقدمته وبحته ، ومع تطاول الأعناق المخدوعة إلى أحكامه الحاسمة في ميادين النثر والنظم وهو ممن يحسن ضبط ( الفذالك ) وصقلها فهو صيقل لا يفصل .

ويتصل بهذا موقف طه حسين من إحياء كتب الأدب العربي وتنقيتها من العبارات الجارحة والعبارات المكشوفة وذلك حتى لا تجرح حياة الشباب والفتيات ، ولكن طه حسين يعارض هذه الوجهة معارضة شديدة ، فكيف يمكن تنقية هذه الكتب وهو يقصد قصداً إلى تقديم شعر الإباحة والعلمة واستخراجه من بطون الكتب وترجمة القصص الداعر الفرنسي . إن هذا العمل يتعارض مع هدفه وغايته ومدرسته الإباحية وبذلك كان موقفه خطيراً من الشيخ محمد الحضرى حين نقح كتاب ( الأغاني ) .

يقول الأستاذ الحضرى : أما ما نقصته منه فلم يعد إحدى الثنتين : إما فحش صد عن الأغاني وجوه كثير من أهل الأدب فكانوا يشكون ذلك منه من أكثر كتب الأدب العربي وإني معهم في ذلك وكثيراً ما رأيت ابن هشام راوى سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ابن إسحاق إذا روى شعراً يقول :

تركنا هنا بيتاً أو بيتين أو أكثر أفلح فيها

فليس الامتناع في الفحش والإفذاء مقصوداً على أهل جيلنا ، بل كان لنا فيه سلف صالح نريد أن نستن بسنتهم .

وإما اشعار قلت فيها : لا تنفيذ أدبياً ولا ترقى فكراً . أنا رجل خيرت الناس وعرفت ما يفيد وما لا يفيد فاستصأنت بهذه الخبرة في حذف ما حذف .

ولكن الدكتور طه الذى هو حارس لكل الإباحيات التى فى الكتب القديمة والكاشف عنها والمجدد لها والمجرى لها على ألسنة تلاميذه فى كلية الآداب وقراءه فى السياسة بغضب لذلك أشد الغضب . إن من الطغيان على أبى الفرج أن يحذف فى كتابه شيئاً وضعه هو فى كتابه . وإن من الطغيان على قراء الأغاني أن تحرمهم شيئاً من الأغاني كان من حقهم أن يقرءوه .

نعم إن طه حسين اعتمد كتاب ( الأغاني ) مرجعاً لطلبته لاستخراج صورة رديئة منه يدعون أنها صورة المجتمع الإسلامى ، فكيف يفسد عليه الشيخ الحضرى هذه الغاية وهى إحدى الغايات الأساسية فى خطة التغريب الموكلة بها ؟

• • •

## الفصل السادس الطعن في الحكومة الإسلامية

إن كل المقدمات تؤكد مفهوم طه حسين للدين بأنه [ظاهرة اجتماعية] وأنه خرج من الأرض كما خرجت الجماعة نفسها ، وأن الدين لا يستطيع أن يتقدم بالأدلة القاطعة على وجود الإله وهو أساس التدين . ولا ريب أن هذه النفس التي حاولت أن تصور القرآن بأنه كتاب بشري وتسخر من الرسول صلى الله عليه وسلم بترديد القول : بأنه لا بد أن يكون صفوة قريش وما إلى ذلك من إشارات على مدى طوبيل في كتاباته ، وكان أشد من ذلك خطراً قوله : بأن الإسلام لم يغير حياة العرب وأنه بقي على هامش حياة المسلمين . وأنه لم يستطع أن يفرض حياة المسلمين بين أصحاب الحضارات المختلفة . ومن ذلك قوله أن الإسلام أراد أن يطمس كل ما تقدم وأن يمحو كل أثر للأديان السابقة وقوله أن عقلية مصر عقلية يونانية وأن الإسلام لم يعد تلك العقلية ، وقوله إن وحدة الدين ووحدة اللغة لا يصلحان أساساً للوحدة السياسية وأنه ظل طوال حياته يذم القديم بسخرية ويشكك فيه ، وما القديم في نظره إلا الدين ، وقد أقام مفاهيم على التهمك والاستهزاء لكل جاد ، والشك والظن لكل صحيح . أما قوله وقت الشدة أنه يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله فإن مفاهيمها يظل ناقصاً ، ولا يكفي لإثبات رجوعه عما قاله وتعليله منافياً للإسلام ، فإن أهل الكتاب يؤمنون بالله وملائكته ورسله إجمالاً وهو لم يأخذ طعنه في القرآن إلا منهم وإنما كان يجب أن يقر بأنه يؤمن بأن القرآن كلام الله تعالى المنزل على محمد رسول الله وخاتم النبيين وأن كل منه حق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وإن كل ما قاله منافياً أو معارضاً لذلك فهو خطأ وينزع عنه .

فإذا مضينا نستعرض رأى الدكتور طه حسين في الشريعة الإسلامية وجدناه هو رأى متعصبى المستشرقين أمثال جولد زيهر ، وشاخت وغيرهم فهو يقول : ولكننا لا نشك في أن الفقه الإسلامى قد تأثر بالفقه الرومانى قليلاً أو كثيراً سواء علم بذلك الفقهاء أم لم يعلموا ، ذلك لأن البلاد الإسلامية قد خضعت لحكم الرومان وقواتهم دهرأ . ولأن هذه القوانين قد درست درساً



مزدهراً في الشام والجزيرة ومصر ، فيجب أن يترك حكم الرومان وقوانينهم ودرس هذه القوانين آثاراً قوية في حياة الشعوب التي خضعت لها وأن يتكون من هذه الآثار والحياة الاجتماعية لهذه الشعوب ، والعرب لم يهدموا كل شيء وإنما صيغوا أكثر الأشياء التي وجدوها بالصيغة الإسلامية فليس غريباً بل ليس من شك في أن كثيراً من أحكام الفقه الروماني ، وقد اضطبقت بالصيغة الإسلامية دون أن يشعر بذلك الفقهاء .

وهذا الكلام فيه مغالطة واضحة ، وفيه رغبة في تنقيص عظمة الفقه الإسلامي والتكبر عليه وهو من تعتميات الدكتور طه حسين التي يسوقها بغير دليل ، وهي من النظريات الاستشراقية المطروحة والتي ثبت فسادها ودحضها كثير من أعلام الإسلام ، فإذا ذهبت نحو رأيه في أن الإسلام دين الدولة وأن الإسلام هو منهج حياة ونظام مجتمع وجدنا جنوحاً واعراضاً . فطه حسين إذا كان مسلماً فهو مسلم بمفهوم اللاهوتيين الذين يرون الدين علاقة بين الله والإنسان ، على نحو مفهوم المسيحية ، وإذا كان مؤمناً فهو مؤمن بمفهوم التراتيل وموسيقى الكنائس ، وهو يرى أن نص الدستور المصري على أن الإسلام دين الدولة هو مصدر فرقة بين المسلمين ، ولا يرى في الإسلام إلا إقامة الصلوات ، وصيام رمضان وأداء الحج ، فسواء في ذلك أنص الدستور أم لم ينص على أن الإسلام دين الدولة (على حد تعبيره في مجلة الحديث الحلبية) شباط سنة ١٩٢٧ . وهو يرى (أن هذا النص لا يزيد عن تقرير الواقع من أن ملك مصر يجب أن يكون مسلماً وأن شعائر الإسلام يجب أن تقام فلا تغلق المساجد ولا يعطل الحج ولا ينقطع إطلاق المدافع في رمضان ولا يلغى الحفل بالمحمل ، ولا بالمولد النبوي) أرأيت إلى هذه السخرية البالغة التي تحاول أن يقصر بها الإسلام على هذه المظاهر .

وهو يرى أن في الدين من التسامح ما اضطرت معه حكومة مصر التي تتعامل مع المصارف وتنظم الربا وتبيح ألواناً من المعصية ، ويود طه حسين أن يجعل من النص في الدستور بكفالة حرية الرأي أن يتيح للناس أن يلحدوا « وهو يركز كثيراً على هذه النقطة لأنه يريد أن يحمي دعوته إلى الإلحاد

والإباحة من أن يناله الاتهام ويسخر من أن الإسلام يعنى أن يكون دين الدولة وأن تكون الدولة « إسلامية بالمعنى القديم حقاً » .

ومحاول أن يبنى أن هذا النص يكلف الدولة بأن تضرب على أبدى الملحدين لأنها إن فعلت ذلك فإنها تمحو حرية الرأى محواً .

ثم يذهب إلى القول بأن رجال الدين في مصر كرجال الدين في أوروبا وأن من الضروري اتخاذ أسلوب الغرب الذي اتخذه مع المسلمين ومع الإسلام أى أن يكون العليا أشبه بالقساوسة لا تدخل لهم في الحياة المدنية ، وأن لا يكون للإسلام رأى في التشريع أو الاقتصاد أو الاجتماع أو السياسة ، وعلى هذه المعاني المتركة يكون موقف الدكتور طه حسين من الحكومة الإسلامية حين أراد هدمها بكتابه ( الفتنة الكبرى ) فهو يحاول أن يقرر في هذا الكتاب فساد الحطة الداعية إلى الحكم بكتاب الله التي كانت قد تمت واستحصدت في هذه الفترة من الحياة الاجتماعية المصرية .

محاول أن يقرر في كتاب ( الفتنة الكبرى ) :

أولاً : أن الخلافة الإسلامية كما فهمها أبو بكر وعمر إنما كانت تجربة جريئة توشك أن تكون مغامرة ، ولكنها لم تنته إلى غايتها ولم يكن من الممكن أن تنتهى إلى غايتها لأنها أجريت في غير العصر الذي كان يمكن أن تجرى فيه ، سبق بها هذا العصر سبقاً عظيماً » ا . هـ .

إذن فالخلافة الإسلامية ( تجربة توشك أن تكون مغامرة ) والصحابة مغامرون أمثال هتلر وموسلى ، فأبو بكر وعمر من جملة هؤلاء المغامرين .

أما أن وحى السماء قد رسم الطريق لأبى بكر وعمر فنفى عن حكمهما صفة التجربة وأن الرسول قد رباهما وأعداهما في مدرسته فأبعد عنهما سمة المغامرة ، فذلك ما لم يفقهه الدكتور طه حسين .

ثانياً : يناقش الدكتور طه حسين طبيعة الحكومة الإسلامية على ضوء التقسيمات الحديثة فيبنى عنها صفة الديمقراطية . ويبقى عنها صفة النظام الفردى العادل ويقارن بينها وبين حكومة قناصل الرومان .

ويشكك في قدرة هذا النظام على البقاء ويتساءل هل تتغير إذا تعثرت الظروف التي أحاطت بنشأته تم بتطوره .

ثالثاً : يدعى أن المجتمع الإسلامى كان ينقصه النظام المكتوب الذى يبين الحدود والحقوق والواجبات . ويرى من هذا إلى القول بأن القرآن ناقص فهو لم يعرض لسياسة الحكم وكذلك السنة ويحاول أن يثبت الإمام على بأنه حين قال عند مبايعته بالخلافة ( اجتهد فى رأى ما استطعت ) أن ذلك مصدره نقص فى القرآن وغياب عن السنة وحاشا لله أن يذهب على إلى ما ذهب إليه الدكتور طه حسين فى تفسيره . فالقرآن عنده حقيقة كاملة لم يغادر صغيرة ولا كبيرة فى شئون الحياة .

ورأيه فيما أسماه افتقاد النظام المكتوب أو الدستور فى الحكومة الإسلامية قريب مما قاله على عبد الرازق فى كتاب ( الإسلام وأصول الحكم ) .

رابعاً : يروى من عزائم المسلمين الساعية إلى إعادة الخلافة وينبههم إلى أن المسلمين الأوائل تنكبوا عن طريقها منذ أمد بعيد واتبعوا طريق الملك الذى يحل مشكلات الدنيا بالدنيا ، فالخلافة تحتاج إلى أولى عزم من الناس وأين أولو العزم الآن وكأن لسان حاله يخاطب مسلمى عصره ويقول لهم : عليكم أيها المسلمون أن تدعوا التفكير فى الخلافة وأن تطلبوا السعى إليها وأن ترضوا بحكم الديمقراطية ، هذه هى النتيجة التى يصل إليها فى ختام الجزء الأول من ( الفتنة الكبرى ) .

هذه النصوص الثلاثة ( عن غازى التوبة : الفكر الإسلامى المعاصر ) ويظهر عداء الدكتور طه حسين واضحاً للحكومة الإسلامية ولتشريع الإسلام فى قوله :

( لقد اعتزمتنا أمام أوروبا أن نذهب مذهبها فى الحكم ونسير سيرتها فى الإدارة ونسلك طريقها فى التشريع ، التزمنا هذا كله أمام أوروبا ، وهل كان إمضاء معاهدة الاستقلال ومعاهدة إلغاء الامتيازات إلا التزاماً صريحاً قاطعاً أمام العالم المنتهض بأننا سنسير سيرة الأوربيين فى الحكم والإدارة والتشريع فلو هممنا الآن أن نعود أدراجنا وأن نحى النظم العتيقة لما وجدنا إلى ذلك سبيلاً » .

هذا الكلام معناه العداء والتهديد الخطير الذى يريد أن يلزمنا به الدكتور

طه حسين أن نظل في هذه التبعية العمياء المنهج أعلن أصحابه فسادهم وعنى عليه الزمن .

( ٢ )

ويلخص (الأستاذ محمد الناييف) موقف الدكتور طه حسين من الحكومة الإسلامية فيما يلي :

أولاً : تشبيه نظام الحكم الإسلامى بالنصرانية التى تعرف الحكم كدين فيزعم أن هناك شبهة بين نظام الحكم الإسلامى بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ونظام الحكم الرومانى أيام الجمهورية .

الهدف أن يقول إن النظام الإسلامى لم يكن نظاماً سماوياً وإنما كان نظاماً إنسانياً متأثر بالدين ، ومن ذلك قوله :

إن الخلافة الراشدة كانت تجربة بشرية وليست تطبيقاً للإسلام وأن السبئية (حزب عبد الله بن سبأ) كانت أسطورة .

وإن أصحاب رسول الله اقتتلوا على الدنيا فنافسوها وتقاتلوا عليها . ويعتقد الدكتور طه حسين أن نظام الخلافة قد أخفق وتجرىة الحكم الإسلامى انتهت بالفشل .

يقول : ( الفتنة الكبرى ١٥٥ / ٢ ) .

ليس من شك أن علياً قد أخفق في بسط خلافته على أقطار الأرض الإسلامية ثم هو لم يحقق وحده وإنما أخفق مع نظام الخلافة كله وظهر أن الدولة الجديدة التى كان يرجى أن تكون نموذجاً للون جديد من ألوان الحكم والسياسة والنظام لم تستطع آخر الأمر إلا أن تسلك طريق الدول من قبلها ، فيقوم الحكم فيها على مثل ما كان يقوم عليه من قبل من الأثرة والاستعلاء ونظام الطبقات الذى تستندل فيه الكثرة الضخمة ، لا من شعب واحد بل من شعوب كثيرة ، لقلّة قليلة من الناس ) أى ظلم أن يقول الدكتور طه حسين إن نظام الخلافة كله أخفق ، فما أخفقت الخلافة ، وما كان لها أن تحقّق ، وقد استمرت طيلة عهد بنى أمية ( حجة الإسلام وقادة الفتوح ) وعهد بنى العباس ولم يزعزعها غزو التتار ، ولا كيد الباطنية والحروب الصليبية ، وبقيت مصدر عزّة للمسلمين وقوتهم ، أكثر من ثلاثة عشر قرناً

حتى الحرب العالمية الأولى حين تأمر عليها يهود الدونمة والغرب ونصارى العرب والملاحدة من أبناء المسلمين . وفي غيبة الخلافة عاد الصليبيون إلى ديارنا فاتحين ومستعمرين واغتصب اليهود فلسطين ، والخلافة اليوم مطلب إسلامي ينفذه المسلمون في مختلف بقاع الأرض وهي آتية إن شاء الله ويومئذ يفرح المؤمنون .

ثانياً : يرى طه حسين أن نجاح الحكم الإسلامي في عهد أبي بكر وعمر تجربة جريئة يوشك أن تكون مغامرة . ولو حكم عمر مكان عثمان لتعرض لمثل ما تعرض له عثمان .

يقول في كتاب (الفتنة الكبرى) :

( لقد كانت الخلافة الإسلامية تجربة جريئة يوشك أن تكون مغامرة ولكنها لم تنته إلى غايتها ولم يكن من الممكن أن تنتهي إلى غايتها لأنها أجريت في غير العصر الذي كان يمكن أن تجري فيه سبق بها هذا العصر ) .

وهو يرد العدل والحرية والمساواة في عهدي أبي بكر وعمر إليهما ، ولم يكن في نظره آتياً من الإسلام نفسه بل من مواهب وشخصية الرجلين ، ويرى أن جهود الشيخين في تحقيق العدل كانت محدودة .

( راجع دراسات محمد الناييف عن السيرة - مجلة المجتمع )

• • •

## خاتمة البحث قضيتان باطلتان : الأثر اليونانى والجبرية الإجتماعية

أعزم الدكتور طه حسين بقضيتين كبيرتين باطلتين :

### القضية الأولى :

القضية الأولى : أن العقل العربى القديم تكون بأثر الفلسفات اليونانية ، ومن أجل ذلك فإن العقل العربى الحديث يجب أن يتكون بأثر الفلسفات الغربية وقد ادعى فى هذا الأمر دعاوى كثيرة باطلة :

الأول : أن العقل العربى الإسلامى إنما أثمر وأنتج حين اتصل بالعقل اليونانى بل امتزج به .

الثانى : أن المسلمين كونوا عقلهم من عنصرين أحدهما التراث القديم والآخر ما أخذوه عن غيرهم من الأمم .

الثالث : دعواه بأن العقل الإنسانى عقل واحد وأن العقل العربى جزء منه .

لم يكن طه حسين مبالغاً فى دعوى من دعاواه ، كبالغته فى دعوى الأثر المترتب على اتصال الفكر الإسلامى بالفكر اليونانى بعد عصر الترجمة ذلك أن الفكر الإسلامى كان قد تكون واكتمل ونضج فى جميع مناحيه من لغة وفقه وعقيدة وأخلاق بنتيجة ذلك الفيض القوى الذى ألقاه إليه القرآن الكريم والسنة النبوية والى لم تظفر أمة من الأمم بمثلها فى القديم والحديث ولم تكن أى أمة فى هذا العصر من يونان أو هنود أو فرس تملك مثقال ذرة منه ، هذا العطاء الربانى الكبير الذى جاء به القرآن والسنة ، والذى صنع الفكر الإسلامى الذى كان قد اكتمل قبل أن يختار النبى صلى الله عليه وسلم الرفيق الأعلى ، نجد هذا الجزء على الحق يدعى دعواه تلك العريضة الباطلة حين يقول : إن الفكر الإسلامى ما نما ولم يصبح قادراً على العطاء إلا بعد اتصاله بالفكر الوافد ، ذلك أن هناك حقيقتين لا لبس فيهما :

الأولى : أن الفكر الإسلامى والعقل الإسلامى قد تشكل قبل عصر الترجمة أما الحقيقة الأخرى : فإن الفكر الإسلامى لم يستقبل هذا الفكر الوثنى المترجم إلا بخدر شديد ولم يأخذ منه إلا فى مجال العلوم السائدة حين راجعها

وصحح منها الكثير ونقل البشرية نقلتها الكبرى حين أنشأ الإسلام المنهج التجريبي ، ولم تكن تعرفه اليونان من قبل .

أما بالنسبة للفلسفات فقد وقف منها موقفاً حذراً ووردها جميعاً وكشف عن اختلاف منهج اليونان عن منهج الإسلام في مفهوم المجتمع والدولة والحرية والتعامل بين الناس ، فقد كان هناك خلاف عميق بين مذهب العبودية اليوناني الروماني وبين مذهب المساواة الذي قدمه الإسلام ، إذن فأين هذا العطاء وأين هذا التعليل الذي يدعيه الدكتور طه حسين حين يصير في افتراء وكذب وضلال على أن العقل الإسلامي لم يشكل إلا بعد اتصاله بالعقل اليوناني، بل إن هناك من الآثار المكتوبة فعلاً ما يثبت رفض المسلمين لمنهج اليونان الفلسفي والكشف عن تعارضه مع منهج الإسلام وخاصة وهناك ذلك الفارق العميق، فارق المادية والإباحية والوثنية الواضح في كتابات أرسطو وأفلاطون وغيرهم وهو ما يرفضه الإسلام ويعارضه .

ولكن الدكتور طه حسين يدعو هذه الدعوة بمكر شديد ليحاول القول : بضرورة متابعة المسلمين في العصر الحديث للفكر الغربي الذي هو وليد فكر اليونان الذي تابعوه في الماضي .

والقضية على هذا النحو متقوضة تماماً ، وهو بناء باطل على باطل فما كان المسلمون قد قبلوا الفكر اليوناني حين ترجم إليهم ولكنهم رفضوه وما قبلوه من معطيات العلوم فقد أصلحوه وكشفوا أخطاءه قبل أن يقبلوه . أما الفلسفات وهي عند اليونان علم الأصنام فقد رفضوها كلية ووقف الأئمة : ابن حنبل والشافعي وابن تيمية والغزالي في مواجهتها في كتابات صريحة واضحة ، بل إن الإمام ابن تيمية كتب كتابه منطق القرآن في الرد على منطق أرسطو .

كذلك فقد رفض علماء المسلمين مفاهيم أرسطو وأفلاطون في العبودية وإقرارها على الطبقات المعاملة وإقرار الرق واعتباره حجر الزاوية في بناء الحضارة اليونانية ثم الرومانية بعد .

ولذلك فإن دعوى طه حسين بأن ما أخذته المسلمون من غيرهم من الأمم هو أحد عنصرين من عناصر عقلهم الذي كونوه حتى القرن الرابع من الهجرة زيف ودجل .

أما إشارته إلى القرآن والسنة بأنهما التراث القديم فهو تعبير مضلل فإن

البشرية ما كانت تملك قبل الإسلام هذا التراث الكريم ، أما إذا كان يريد أن يصوره على أنه تراث اليهودية والمسيحية والوثنية على حد تعبيره في مواضع أخرى فهو ادعاء باطل .

كذلك فهو ليس محققاً في الدعوى بأن العقل العربي في تعبيره أو أن الفكر الإسلامي في تعبيرنا هو جزء من الفكر الإنساني بمعنى أنه مختلط به . فنحن نعرف أنه قبل نزول الإسلام كان الفكر الإنساني قد أصبح فكراً بشرياً بمعنى الكلمة ، وأن معطيات الأديان السماوية قد حرفت واضطربت ودخلتها شكوك وإضافات كثيرة حرقها عن أصلها الرباني ، ومن هنا فإن القرآن حين نزل والسنة حين جاءت والفكر الإسلامي حين تكون ، فقد كان ذلك فكراً متميزاً قائماً على التوحيد الخالص وأنه ظل منذ ذلك الوقت إلى اليوم له ذاتيته الخاصة التي تفصله عن الفكر البشري وأنه على هذا النحو قد أعطى البشرية مفاهيم جديدة في الحرية والعدل والرحمة والإخاء الإنساني لم تكن تعرفها حضارات اليونان والرومان والفرس والفراعنة من قبل وإنه كسر قيد الوثنية وعبادة الأصنام وكسر قيد العبودية البشرية .

ولذلك فإن طه جسين يخطيء كل الخطأ حين يتصور أن العقل العربي هو جزء من الفكر البشري القائم على أساس الوثنية والمادية والإباحية مما عرفه اليونان والرومان والفرس والفراعنة .

لقد نشأ الفكر الإسلامي نشأة مستقلة منفصلة قائمة على القرآن الكريم نفسه وأنه لم يتصل بالفكر البشري أو بالأديان السابقة إلا بعد أن أتم الله تبارك وتعالى له النعمة : « اليوم أكملت لكم دينكم » وهو بعد ذلك لم يزد شيئاً مما عرف من الثقافات أو الفلسفات ، بل لقد كان المسلمون غايبة في البقعة والحرص على تحريره من التبعية وعلى كشف فساد الفكر البشري السابق للإسلام ، والحيطة والتحرر من احتوائهم لمفهومهم الناصع الأصيل .

**القضية الثانية :** وهي نظرية أن الأدب والآراء على اختلافها ظواهر اجتماعية أكثر منها ظواهر فردية ، أي أنها أثر من آثار الجماعة والبيئة وأكبر من أن تكون أثراً من آثار الفرد التي أنشأها . فالجماعة هي المؤثر الأول في ظهور الآداب والآراء مختلفة ، ومن هنا فإنه يرى أن الفرد ظاهرة اجتماعية ، هذا هو المنهج الاجتماعي الغربي الذي دعا إليه اليهودي دوركايم والذي عرفت به المدرسة الاجتماعية الفرنسية والذي تتلمذ منه على ماركس ، والذي حاول



طه حسين أن يطبقه ليس في مجال الأدب فحسب ، بل في مجال التاريخ والاجتماع ، وأخذ به في كتاب الفتنة الكبرى .

لقد جاءت هذه النظرية الاجتماعية في الغرب مواجهة للنظرية الفردية واستمدت مفهوميها من الدارونية والمفاهيم التي تصور الإنسان بأنه حيوان خاضع لشهوتي الطعام والجنس على النحو الذي قالت به الماركسية في الأول والفردية في الأخير .

ولقد كان ذلك تديباً للصراع الذي دار في الغرب عن هل الإنسان أثر من آثار البيئة ( أى إخضاع الفرد لآثار بيئته ) أم إن الإنسان هو المؤثر في المجتمع ( أى الاعتداد بالفرد المتفوق الممتاز ) ؟

ولقد كان موقف الإسلام واضحاً من كلا النظريتين ، فالإسلام لا يقر خضوع الفرد للبيئة ولا خضوع البيئة للفرد ، وإنما يرى أن بينهما تكاملاً وأن ذاتية الإنسان لا يمكن أن تتمم ، كما أن الإنسان قادر على الخروج من الذاتية الأثانية إلى الغيرية الجماعية ، فالإسلام لا يقر الجبرية ولكنه يرى أن الإنسان يمتلك إرادة حرة هي موضع المسؤولية وهو يوجه فيها إلى العمل الصالح ويقرر الالتزام الأخلاقي لهذه الإرادة الحرة .

إن هدف طه حسين هو إلغاء المسؤولية الفردية وإثارة مشاعر الناس للاندفاع وراء الشهوات والموبقات بأن هذه مسؤولية المجتمع وأن الفرد خاضع ذليل وتابع لا رأى له ، وهي وجهة الصبيانية العالمية التي أذاعها فرويد وسارتر من أجل تدمير الأجيال وهدم معنويات الأمم . أما نحن في الإسلام فلا نفر هذه الوجهة أبداً ونرى المسؤولية هي مسؤولية الفرد على عمله ، وأنه قادر أن يغير إلى الأحسن ، وقادر على أن يتحاشى في أخطاء المجتمع وفساده ، وأنه مسئول عن عمله مسؤولية كلية : « وكلهم آتية يوم القيامة فرداً » .

## ماذا تعطى هذه الدراسة ؟

إنها يمكن أن تعطى مجموعة من الحقائق الهامة :

**أولاً :** إن طه حسين لم يتوقف يوماً واحداً عن هدفه وغايته منذ أن عاد من أوروبا عام ١٩١٩ إلى أن توفى عام ١٩٧٢ وكانت القوى التي صنعتها توالى دفعه إلى شتى الميادين . وقد أشارت السيدة سوزان إلى ذلك حين قالت : إن ( ماسينون ) كبير المستشرقين الفرنسيين كان لا يمر بالقاهرة مشرقاً أو مغرباً إلا وينزل لديهم ليتابع العمل المؤكول إلى هذا الرجل ، سواء أكان في الجامعة ، أم في الوزارة ، أم في اللجنة الثقافية بالجامعة العربية ، أم في المجمع اللغوى . وأن المستشرق جبّ كان يقول أن طه حسين يعرف كيف ينفذ ما يرى إليه .

وإن طه حسين كان خلال ذلك لا يكف عن الدعوة إلى أشياء متعددة : هدم الأزهر ، الترجمة لكل سموم الغرب ، الفكر اليونانى ، إحياء التراث الباطنى والشعرى العربى ، العمر للإسلام كنظام حكم ، السخرية بالصحابة واتهامهم بأنهم مجموعة من السياسيين المخترفين . وأنه كان أشبه بالفأر الخبيث الخائف ، يبرز رأسه فإذا وجد الجور خالياً اندفع . وإذا وجد الرقابة قائمة عاد فاختبئ حتى تبدأ الأمور فيعاود نفث سمومه .

وعندما رأى أنه لا يخطر بالقوة اللازمة انضم إلى حزب الأغلبية ليكون أكثر قدرة على العمل ، ولما وصل إلى الوزارة حقق جميع أهدافه ، ولما جاءت حركة الجيش اتصل بها وناقضها ، وقال لهم عن الانقلاب : إنه ثورة حتى يفسحون له في الحديث عما يطمع وقد بلغ في ذلك الغاية فيما يطمع ، وقد بلغ إلى تلك الغاية إذ جعلوه رئيساً لتحرير الجمهورية ، فضرب ضربته الكبرى التى أسماها الخطوة الثانية وهى العبارة الظاهرة لكلمة إلغاء الأزهر وحقق لسادته وأوليائه في هذه المرحلة الكثير .

وقد ظلت تلك الإيماءات بين طه حسين وتلاميذه وقتاً طويلاً فالعلم بمعنى الفلسفة المادية عهد بينهم ، والقرآن أدب ينقد وهو عمل بشرى ، الدين لا يستطيع أن يثبت وجود الله .

**ثانياً :** إن طه حسين وجد صلابة وقوة وثباتاً في مواجهة سمومه وشبهاته ليس من مؤسسة الأزهر وحدها ، بل ومن حركة اليقظة الإسلامية أيضاً

التي كانت قد نمت وازدهرت ، ولقد انتاشته أقلام المؤمنين بالإسلام ، والغيورين على دعوة الله من كل مكان بقوة ، فكشفت زيفه وما خذى عندما كشفت له الحقائق التي ربما كان يعرفها أو غافلاً عنها ولكنه كان يسعده أن يجلد على هذا النحو الذي رآه القارئ في هذه المحاكمات ، وكان يستحب تلك الصرخات العالية توجه نحوه فلقد كان يستفيد من ذلك عند أصحابه الذين كلفوه ، ولعله كان يحصل من ذلك على أجر ، ولعله كان يكشف لهم مدى قدرة الجبهة الإسلامية على مواجهة سمومه ، ولكنه كان يخرج من المعركة مجلوداً وقد تركت الشياطين في حسمه قروحاً دامية ، ولكنه كان يصمت إزاء ذلك صمتاً طويلاً .

ولم يغفل عنه المثقفون المسلمون يوماً وما كانت الجماهير تثق بشيء مما يقول ، بل كان مرفوضاً كرفض سلامة موسى وعلى عبد الرازقي ، وتوفيق الحكيم ، وساطع الحصري ، وحسين فوزي ، ولويس عوض وهو شيخهم جميعاً . ولقد كانت هزيمة طه حسين والكشف عن سمومه هي أخطر طعنة وجهت لهذا التيار .

**ثالثاً :** إن تاريخ مصر الفكرى والسياسى وتاريخ الدعوة الإسلامية في هذه الفترة منذ سقوط الخلافة حتى سقوط القدس بكل تياراتها وآثارها وأخطارها لا يمكن فهمها إلا بدراسة طه حسين ، فهو عمود التغريب الأساسى في مصر والبلاد العربية وهو المحرك الحقيقى لكل التيارات الشعبية والماركسية في هذه الفترة .

**رابعاً :** قام مذهب طه حسين على عدة عوامل أساسية :

- ١ - المذهب مستعار . ٢ - التناقض مستمر . ٣ - الهوى أساس البحث . ٤ - الشك والتشكيك في كل شيء . ٥ - المبالغة . ٦ - القموية .

ومع العجب أن رجح كل كتاب التغريب عن آرائهم ما عدا طه حسين الذى ظل مندفعاً ، فقد فتح الطريق أمام التفسير المادى للتاريخ الاقليمية ، الفرعونية ، وأمام الشيوعية ؛ ومع الأسف أن كل النظريات التي حمل لواءها سقطت قبل مماته .

هذا وبالله التوفيق .

غرة محرم سنة ١٤٠٤ هـ .

أنور الجندي



# فهرس الكتاب

الصفحة

الموضوع

## الباب الأول

٧	مدخل إلى البحث
١٧	الأدب العربي واللغة العربية
١٩	الفصل الأول : منهج الدراسة الأدبية عند طه حسين
٢٩	الفصل الثاني : الأدب العربي - تاريخه ونقده
٤٧	الفصل الثالث : أدب أجب المجان والجنس والإباحة - حديث الأربعاء
٦٨	الفصل الرابع : أخلاقية الأدب
٧٥	الفصل الخامس : الترجمة
٧٩	الفصل السادس : نقد الشعر
٨٥	الفصل السابع : القصة
٩٣	الفصل الثامن : اللغة العربية
١٠٧	الفصل التاسع : النحو
١٢١	الفصل العاشر : الأثر الإغريقي واليوناني في الأدب العربي
١٣٣	الفصل الحادي عشر : كتابا ( الشعر الجاهلي ) و ( الأدب الجاهلي )
	الباب الثاني
١٦٣	تاريخ الإسلام والسيرة
١٦٥	الفصل الأول : القرآن الكريم
١٨١	الفصل الثاني : السيرة
١٨٢	١ - على هامش السيرة
١٩١	٢ - الشيخان
٢٠٠	الفصل الثالث : تاريخ الإسلام
٢١٢	١ - الفتنة الكبرى
٢٢٢	٢ - على وبنوه

الموضوع	الصفحة
الفصل الرابع : الإسلام	٢٣١
الفصل الخامس : التراجم	٢٤١
١- الأيام	٢٤٤
٢- مع المتنبي	٢٤٩
٣- فلسفة ابن خلدون	٢٥٧
الفصل السادس : الدراسات الصهيونية (اليهود والأدب العربي)	٢٦٧

#### الباب الثالث

الفكر الإسلامي	٢٧٩
الفصل الأول : التربية والتعليم والثقافة	٢٨١
الفصل الثاني : الخطوة الثانية والقضاء على الأزهر	٣٢٠
الفصل الثالث : الفرعونية وحضارة البحر المتوسط	٣٣١
الفصل الرابع : مستقبل الثقافة	٣٤٣
الفصل الخامس : التراث ورسائل إخوان الصفا	٣٥١
الفصل السادس : الطعن في الحكومة الإسلامية	٣٥٧
الفصل السابع : خاتمة البحث - قضيتان باطلتان : الأثر اليوناني والجبرية الاجتماعية	٣٦٣

\* \* \*

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٨٤/٧٣٥٨  
الترقيم الدولي ١٠٤-٢-١٤٢-٩٧٧

دارالنصر للطباعة الإسلامية  
١٢ شاطئ - شبراخيت